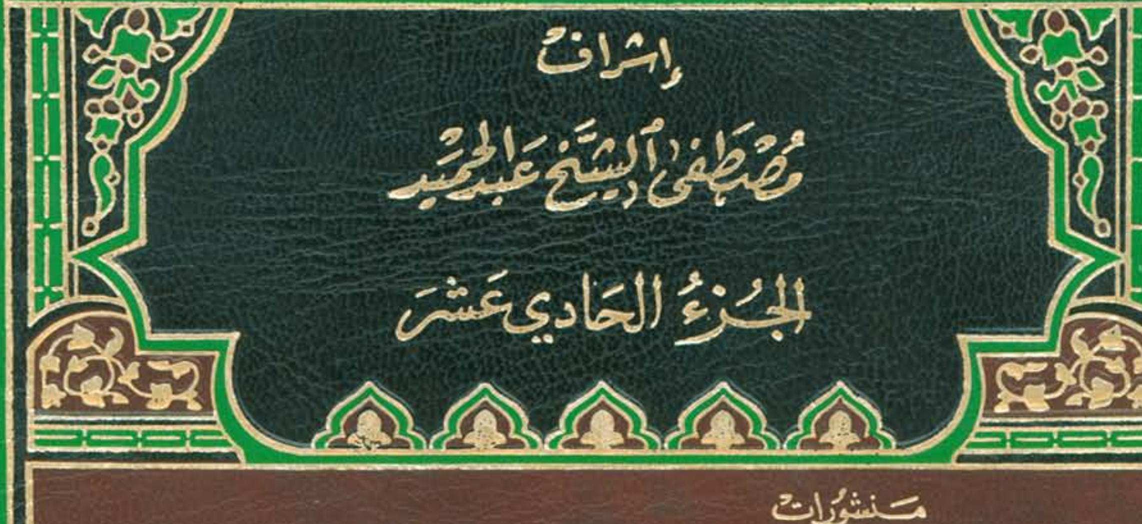
محاضرات الوائلي



إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء الحادي عشر

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر


محاضرات الوائلي
رحمه الله



هوية الكتاب

اسم الكتاب: ..... محاضرات الوائلي ج ١١

المؤلف: .... الشيخ احمد الوائلي رحمه الله

الناشر: .... ناجي الجزائري

الكمية: .... ١٠٠٠ نسخة

الطبعة: .... الاولى ١٣٨٦ هـ.ش

المطبعة: .... شريعت

الشابك: ٤ـ١٦ـ٢٦٨٢ـ٩٦٤ـ٩٧٨

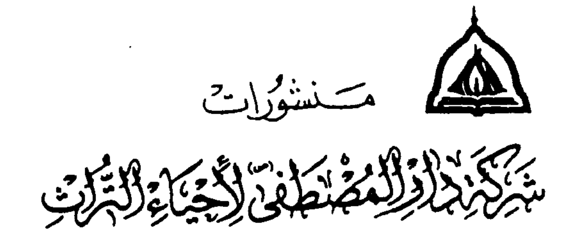
محاضرات الوائلي

رحمه الله

إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء الحادي عشر



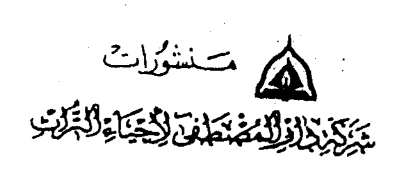
منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

يطلب من:
لبنان ـ بيروت ـ جادة السيد هادي ـ مفرق الرويس ـ بناية اللؤلؤة ط
ص.ب: برج البراجنة ـ بعبدا ـ ٢٠٢٠ ١٠١٧ ـ هاتف: ٩٦١١١٥٤٠٦٧٢
سوريا ـ دمشق ـ ص.ب: ٧٣٣ ـ السيدة زينب ـ محمول: ١٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤
مؤسسة المصطفى: إيران ـ قم ـ خ سمية ـ ١٦ متری عباس آباد بلاك
تلفاكس: ٧٧٣٨٨٥٥ ـ ٠٠٩٨٢٥١
البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com



﴿١٩٠﴾

السياسة العباسيّة في محاربة فكر الإمام الكاظم عليه السلام

مانال منهم بنو حرب وإن عظمت

تلك الجرائر إلّا دون نيلكُمُ

كم غدرة لكُمُ بالدين واضحة

وكم دم لرسول الله عندكُمُ (١)

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأول: العوامل التي أزّمت الموقف بين العلويين والعباسيين

إن هذا المضمون الذي تكلمَ عنه أبو فراس الحمداني رحمه الله يعتبر مضموناً لا مبالغة فيه؛ لأننا لو رجعنا إلى الفترة التي عاشها العباسيون والهاشميون بما حفلت به من أحداث وبما شهدته من متغيرات بين طرفي البيت الهاشمي (العلويين والعباسيين) لوجدنا أن الموقف كان يتميز بكونه متسماً بالتوتر الشديد في العلاقة بينهما مع أنهما شريكان في المصيبة التي كانا قد عانياها معاً من جراء الحكم الأُموي. إن هذا التشنج في العلاقة والتوتر فيها يرجع إلى عدة عوامل أو أسباب جعلت منه موقفاً متشنّجاً بهذه الصورة.

ونحن هنا سوف نحاول أن نتلمّس بعض هذه الجوانب أو العوامل وأن نبحث

---

(١) الأبيات لأبي فراس الحمداني. الغدير ٣: ٤٠٠، أعيان الشيعة ٤: ٣٤٢.

عن عمقها التاريخي وبداياتها الزمنية، وكيف وصل بها الأمر إلى أن تتضخّم بعد ذلك، إن المتتبعين لهذه العلاقات المتوترة لم يكونوا يظنون أنّ الأمر سيصل بالعباسيين إلى أن يقفوا هذا الموقف العدائي وهذا الموقف المليء بالبغض والحقد على أهل البيت النبوي مطلقاً.

مبدأ العقدة

وهؤلاء الباحثون يُرجِعون السبب إلى أيام عبد المطلب، فيروون قصّة في هذا الصدد هي أن عبد المطلب كان عند إحدى زوجاته الحرائر ـ وهي أم أبي طالب ـ جارية اسمها نثيلة، وطئها، فأولدها العباس. وهو إنما وطئها لأنّ زوجته أم أبي طالب قد وهبته إياها، فأصبحت ملكا له.

ومن هنا جاء مورد العقدة التي كانت عند العباسيين من العلويين؛ لأن أم العباسيين كانت جارية مملوكة لآل أبي طالب حيث إنها كانت ملكاً لأُمهم أم أبي طالب، وهذا الأمر هو الذي ولّد عقدةً عند هؤلاء ضدّ البيت العلوي، وهذا المعنى يشير إليه أبو فراس الحمداني بقوله:

أتفخرون عليهم لا أبا لكُمُ[1] بنو علي مواليهم وإن رغموا

ذلك أن المولى من الألفاظ المتضادة ـ أي التي تطلق على الضدين ـ فهي تطلق على السيد وتطلق على العبد، أي أنكم سواء عليكم ارتقيتم عروش الملك أم لم ترتقوها، فأنتم عبيد له. وهو معنىً لم يُرِد أن يشير إليه الإمام موسى الكاظم في إحدى مناظراته مع الرشيد. وقد ذكرت هذا الأمر فيما مضى في إحدى محاضراتي السابقة.

---

(١) الغدير ٣: ٤٠٠، أعيان الشيعة ٤: ٣٤٢.

إذن فالعقدة تبدأ من هنا، والسبب الأول لهذا العداء المستحكم وهذا الحقد والبغض يبدأ من هذه النقطة. وينبغي التنويه هنا إلى أنه صحيح أن الولد يتبع أشرف الأبوين، والأب هنا حرّ فهو حرّ، لكنه يبقى ابن أمة مملوكة في نظر الناس. وهذا الأمر كان يثير حفيظة العباسيين، وكان يشعرهم بعقدة النقص هذه، وهذا الأمر أو هذه العقدة قد استغلها بعض الأشخاص، فكانوا إذا أرادوا أن يخرجوا إلى الاستسقاء لا يخرجون معهم علي بن أبي طالب عليه السلام بل إنهم يخرجون العباس بن عبد المطلب، فكانوا يعرضون عن علي بن أبي طالب عليه السلام مع علمهم ومعرفتهم بأنه لا نسبة هناك بين العباس وعلي بن أبي طالب عليه السلام.

وهذا المعنى قد انعكس في حادثة وقعت في الكعبة، وهي أن أمير المؤمنين عليه السلام دخل على العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وطلحة بن شيبة، بعد أن افتخرا عليه، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، بيدي مفتاحه، ولو أشاء بتّ في المسجد؛ فأنا أفضل من علي. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بتّ في المسجد؛ فأنا أفضل من علي. فقال عليه السلام: **«ما أدري ما تقولان، لقد صلّيت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد»**. وفي رواية أنه عليه السلام قال: **«لكنني أسلمت وآمنت بالله ورسوله وجاهدت في سبيل الله قبلكما، فلي في ذلك من الحظّ ما ليس لكما. ولقد ضربتكما بالسيف على خياشيمكما حتى دخلتما في دين الله»**. فأنزل الله تعالى قوله: أجعلتم **﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**[١]... [٢].

---

(١) التوبة: ١٩.

(٢) انظر المحاورة في شرح الأخبار ١: ٣٢٤ – ٣٢٥، العمدة: ١٩٣، فتح الباري ٣: ٣٩٣.

وفعلاً فلولا سيف علي بن أبي طالب عليه السلام لما دخلا في هذا الدين الجديد؛ ذلك أن العباس أُسر في يوم بدر وقد أسره أمير المؤمنين عليه السلام نفسه فقد أسر أخاه عقيلاً الذي أجبرته قريش على الخروج معهم للقتال بعد أن قالوا له: لا يمكن أن يكون منكم نبي يظهر ثم يعمد إلى آلهتنا فيسبها ويسفه أحلامنا وأنتم جالسون بين أظهرنا، إن هذا لا يمكن أن يكون[1]. وعليه فلابدّ لكم من أن تخرجوا إلى قتاله ومناجزته معنا.

فأخرجوا عقيل بن أبي طالب وأخرجوا العباس بن عبد المطلب فكان أن أسرهما الإمام عليه السلام وجاء بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد حاول بعض المؤرخين المأجورين أن يسيء إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذه القضية متصوراً أنه بهذا يسيء إليه فعلاً، وذلك حينما يذكر أُسارى بدر فإنه يقول: ومن الأسرى يوم بدر عقيل أخو علي بن أبي طالب. فكأنه يريد أن يقول: إن أخا علي بن أبي طالب كان مشركاً يقاتل مع المشركين ضدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وضد المسلمين.

وفي نظره أن هذا مما يمكن أن يعيب علي بن أبي طالب عليه السلام مع أن هذا ليس بشيء جديد، فكل المسلمين ما عدا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب عليه السلام كانوا مشركين، وكل مسلم أدرك الجاهلية كان مشركاً، ولم يستثنَ من ذلك أحد سوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام كما قلنا. وهذا أمر طبيعي لأنهم كانوا على ديانة ثم جاءت ديانة جديدة فدخلوا فيها، بمعنى أنهم انتقلوا من الشرك إلى الإسلام. وهذا أمر قد وقع للمسلمين كافة كما مرّ، ولم تكن هنالك جبهة لم تسجد

---

(١) الكافي ٨: ٢٠٢ / ٢٤٤، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٨٢ ـ ١٨٣.

للآلهة سوى جبهة علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا هو الواقع الذي عليه أكثر المؤرخين.. الجبهة المشرقة المتلعة التي شمخت أمام جميع فرسان العرب ولم تخشَ من فارس منهم ولم تسجد وتخضع إلّا لله جل وعلا.

على أية حال، فقد جاء بهما أمير المؤمنين عليه السلام أسرى وكان العباس ليلتها يئنُّ فلم يستطع النبي صلى الله عليه وآله أن ينام، فأمرهم بإطلاقه، ولم يكن عنده ما يلبسه، ولم يجدوا له شيئاً من ذلك لأنه كان طويل القامة بعد أن تخرَّق قميصه في المعركة فلم يجدوا له قميصاً يلبسه سوى قميص قيس بن سعد رضي الله عنه؛ لأنه كان طويل القامة مثله فاستعاروا له منه قميصاً وأعطوه إياه ليلبسه.

إذن فمن هنا بدأت العقدة والمشكلة، كما أنها بدأت تأخذ أبعاداً كثيرة في هذا المجال، مع أن أمير المؤمنين عليه السلام قد حاول مرّات عدة أن يمتصّ هذا المعنى من نفوسهم بأن وَلّىٰ أولاد العباس الأربعة كلّهم ولايات في خلافته، أي أنه عليه السلام أعطاهم إمرة على الناس ليمحو هذا الأثر من نفوسهم ويمتصّه من تفكيرهم، ولكي لا يشعروا بأنهم أقل منهم، كونهم أبناء أمة. وأولاده الأربعة هم قثم والفضل وعبدالله وعبيد الله، ولهذا فإننا نجد أبا فراس الحمداني رحمه الله يذكّرهم بهذا بقوله:

أمّا علي فقد أدنى قرابتكم ... عند الولاية إن لم تُكفرِ النعمُ

أينكِر الحبر عبد الله نعمته ... أبوكُمُ أم عبيد الله أم قثمُ

بئس الجزاء جزيتم في بني حسن ... أباهُمُ العلم الهادي وأمّهُمُ

لا بيعة ردعتكم عن دمائهُمُ ... ولا يمين ولا قربى ولا ذممُ[1]

أي أنه يريد أن يقول لهم: لقد منَّ أمير المؤمنين عليه السلام عليكم بهذه المنّة وجعلكم

(١) الغدير ٣: ٤٠٠، أعيان الشيعة ٤: ٣٤٢.

ولاة، فلماذا تكافئونه بهذا الجزاء؟

على أية حال فواقع الأمر أن أمير المؤمنين عليه السلام حاول أن يمتصّ هذا اللون من التفكير من نفوس بني العباس بأن ولّاهم ولايات في أيام خلافته حتى وصل الأمر إلى أن يدخل عليه جماعة فقالوا له: علام قتلنا الشيخ بالأمس؟ بمعنى أننا إنما قتلناه لأنه أدنى قرابته، وإنك الآن إنما تدني قرابتك وتفعل عين فعل عثمان، فلماذا إذن قتلناه إذا كنت تفعل مثل فعله، وتأتي بأقربائك وتوليهم الولايات؟ فأجابهم الإمام بما محصّله على رسلكم فأنا لم أولِّ عليكم ولاةً غير صالحين، ثم إنني أملك زمام من أُولّي ولا أتركه يفعل ما يشاء وفق هواه.

وفعلاً كان هذا الأمر موجوداً، فقد كان عليه السلام يتابع شؤون ولاته وأعمالهم وأخبارهم، ومن ذلك أن أضخم ولاة أمير المؤمنين عليه السلام عثمان بن حنيف، كان واليه على البصرة، وقد دعي إلى وليمة فحضرها، وهنا تتجلّى عظمة أمير المؤمنين عليه السلام؛ ذلك أنه حينما علم بها كتب إليه كتاباً شديد اللهجة قال له فيه: **«أما بعد يابن حنيف، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدُبة، فأسرعت إليها؛ تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان. وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلُهم مجفوّ، وغنيّهم مدعو. فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم؛ فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه.**

ألا وإن لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه.

ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه.

ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادّخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت

لبالي ثوبي طمراً»[(١)].

إذن فالإمام عليعليه السلام حاول أن يوليهم بحكم كونهم رحمه وذوي قربى وقرابة، كما أنهم كانوا كفوئين لهذا الأمر ومخلصين فيه. لكن هذه الثقة التي وضعها أمير المؤمنينعليه السلام فيهم لم يحفظها بعضهم، ومن ذلك أن واليه على اليمن عبيد الله حينما جاء إليه بسر بن أرطاة غازياً ترك اليمن ومسؤوليّاته السياسية والإداريّة فيها، وترك أولاده حتى قتلوهما. فلم يكن بالذي يستطيع أن يحفظ هذه الثقة ويحفظ أهل اليمن من غزوِ بسر بن أرطاة، فقد أخذهما بسر وذبحهما أمام أُمّهما التي جُنّت وقتها وأنشدت أبياتها المشهورة.

وهذا ليس بغريب؛ فالقوم أبناء القوم، والتاريخ عينه يعيد نفسه، فكانت تجول حول مصرعهما وتنشد هذه الأبيات:

يامن أَحَسّ بابنيّ اللّذين هما	كالدرّتين تشظّى عنهما الصَّدفُ
يامن أحسّ بابني اللذين هما	مُخّ العِظام فمخّي اليوم مزدهفُ
يامن أحسّ بابني اللذين هما	قلبي وسمعي فقلبي اليومَ مُختَطفُ
من دل والهة حيرىٰ مدلَّهة	علىٰ صبيَّين ذلّا إذ غدا السلفُ
نبّئتُ بسراً وما صدَّقتُ مازعموا	من قولهم ومن الإفك الذي اقترفوا
أنحىٰ علىٰ وَدَجَي ابنيَّ مُرهفة	من الشفار كذاك الإثم يُقترفُ[(٢)]

وحينما جاء الإمام الحسنعليه السلام للخلافة حاول كذلك أن يجهز على بقايا هذه المخلّفات الموجودة في نفوسهم، ولذابعث عبيد الله بن عباس قائداً على أحد الجيوش لقتال معاوية، لكن معاوية أرسل له أموالاً، ومنّاه بالأمان، فترك الجيش والتحق بمعاوية.

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.
(٢) الكامل في التأريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

العقدة الثانية: شعورهم بأن العلويين هم الذين أوصلوهم إلى الحكم.

فالعباسيون لم يكن يدور في خَلَدهم أنهم في يوم من الأيام سوف يمسكون زمام الأُمور، وأنهم سوف يجلسون على كرسي الحكم؛ لأنهم لم يكن لهم أي رصيد شعبي، ولأن هناك في الساحة من يزاحمهم ولايتركهم يصلون إلى هذا المنصب، وهم أولاد علي بن أبي طالب عليه السلام.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن أكثر من ضحّى وأعطى قرابين وأكثر من كان له مواقف مضادّة للحكم الأموي هم العلويّون على امتداد خط حكمهم ـ أي حكم الأُمويّين ـ فكانت المواقف كلها في كفة آل علي بن أبي طالب عليه السلام، ولذا فإن الأنظار كانت تتوجه إليهم في هذه المسألة. وبتعبير آخر فإن الساحة كانت مليئة بدم أبناء علي بن أبي طالب عليه السلام ذلك أن العباسيّين استغلّوا كل الإنجازات العلوية وكل التضحيات التي قدمها البيت العلوي وارتقوا على تلك الجماجم والدماء ليصلوا إلى مبتغاهم. ولهذا فإنهم قد رفعوا شعار «يالثارات الحسين»، ومعنى هذا أنهم قد ركبوا التيار العلوي حتى أوصلهم إلى الحكم، وحين ذاك تنكروا له وحاربوه، وحاولوا أن يقضوا عليه؛ كيلا يظلّوا يشعرون بهذا النقص يشوب استيلاءهم على السلطة.

إنهم بعد أن وصلوا إلى السلطة حاولوا أن يتخلّصوا من شعارات آل أبي طالب التي وصلوا بها إليه ـ أي إلى الحكم ـ فعمدوا إلى محاربة آل أبي طالب؛ ولذا فإنهم راحوا يضعون الخطط للخلاص من هذه العقدة، فخططوا ونفذوا تحت جنح الليل للقضاء على أهل هذا البيت النبوي الطاهر. وهذه العقدة كان لها الأثر الكبير في هذا العداء المستحكم؛ لأنهم كانوا يتساءلون: هل يجب أن نترك هؤلاء الذين وصلنا بهم إلى الحكم ـ وقد أخذنا الحكم منهم ـ ليعرف الناس أننا قد استولينا

على حقهم؟ وهل يجب أن نبقي على هذا الفضل الذي لهم علينا في إيصالنا إلى الحكم بالإبقاء عليهم؟ وكان الجواب: لا، بل يجب أن نتخلّص من كل هذا، وأن نقضي عليه، فلابدّ أن يتم القضاء على هذا بالقضاء على أهل البيت العلوي أو البيت النبوي المطهر عليهم السلام.

المبحث الثاني: سبل الحرب العباسية على العلويين

لقد اتّبع العباسيون في حربهم القذرة هذه للقضاء على أهل البيت النبوي الطاهر عدّةَ سبل منها:

السبيل الأول: سبيل المنهج الفكري

إننا بالرجوع إلى التاريخ سنجد أن الجهود التي بذلها الأُمويّون في الطعن بأهل البيت النبوي ومحاولات القضاء على البيت العلوي لا تبلغ معشار الجهود التي بذلها بنو العباس وعملاؤهم للقضاء عليهم [1]؛ وقد بدأ هذا الأمر يتحرّك ضمن إطارين:

الإطار الأول: أن العلويين أبناء بنت

فالجهود العباسية في هذا المضمار قد انصبّت على أن هؤلاء الذي ينتسبون إلى علي بن أبي طالب عليه السلام لا يمثلون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً سوى أنهم أبناء عمه، ونحن كذلك أبناء عمه، فنحن وهم على حد سواء في هذه المسألة. فكما أنهم يدّعون بأن لهم الحق في خلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فإننا ـ بني العباس ـ لنا الحق أيضاً في ذلك؛ لأننا بنو عمه كما أنهم كذلك.

---

(١) قال الشاعر:

والله ما فـعلت أُمـيّة فـيهمُ   معشار ما فعلت بنو العباسِ

مختصر البصائر: ١٦، أعيان الشيعة ١: ٢٨.

إنهم أبناء عمه أبي طالب، ونحن كذلك أبناء عمه العباس، فالعباس وأبو طالب وعبد الله إخوة يرجعون إلى أصل واحد هو عبد المطلب. وقد راحوا يضربون على هذا الوتر ضرباً قوياً؛ كي يؤكدوا أحقيّتهم بالخلافة، وأنهم على قدم المساواة مع أبناء علي فيها. وقد أخذوا يلقنون هذا الأمر لأُدبائهم ومفكريهم، وهذا ما انعكس بالتالي حتى على الصراع الفقهي حيث إنهم راحوا يثيرون مسألة هل إن ابن البنت يعتبر ابناً على الحقيقة حتى يرث، أو إنه ليس ابناً على الحقيقة فلا يرث؟ وإن هؤلاء إذا كانوا يدعون أحقيتهم بالخلافة كونهم أبناء بنت رسول الله فإنهم على خطأ، لأن ابن البنت لا حقَّ له بالوراثة ولا في غيرها، فهم في هذا على خطأ(١).

بمعنى أن هؤلاء راحوا يدعمون نظرية العَصَبة في التوريث، وهي نظرية غير موجودة عند أهل البيت النبوي. ونظرية العصبة لا يقول بها فضلاً عن علماء أهل البيت وفقهائهم جملة من الصحابة ممن عاصروهم كذلك، فإنهم لا يقولون بها بمعنى أنه إذا توفي أحدٌ وعنده ولد صلبي؛ والولد سواء كان ذكراً أو أنثى فإنه يأخذ الميراث كله ولا دخل للعصبة حينئذٍ؛ لأنهم لا يرثون مع وجود الطبقة الأُولى الذين هم الأبناء والآباء. أما على نظرية التعصيب فإن البنت تأخذ النصف بالفرض والنصف الثاني تأخذه عصبة الميت.

فمذهب أهل البيت وبعض الصحابة أنها تأخذ الميراث كله: نصفه بالفرض، ونصفه الثاني بالرد.

فالعباسيون أكدوا هذه النظرية، وهي نظرية تفيد أن أبناء البنت لا يرثون شيئاً

---

(١) وهو خلاف ما أثبته المأمون في مناظرته مع كبار علماء السنّة. العقد الفريد ٤: ٣٦١٦ - ٣٦٣٧.

من جدّهم لأُمّهم؛ فالميراث يكون للعصبة، وقد تصدى لهم جملة من شعراء الشيعة في هذا الأمر، وبينوا لهم أنّهم ليسوا إلّا أولاد الطلقاء[1]، والطليق لا يرث.

وهنا نقطة هامة يجب التنويه إليها وهي أنهم إذا كانوا أبناء عمومة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما يدّعون وأنهم على قدم المساواة مع العلويين؛ لأن العلويين أيضاً أبناء عم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وليس لهم قرابة بالنسب عن طريق أمهم، فهم بهذا إنما يغالطون أنفسهم؛ لأنهم يعرفون أن العباس بن عبد المطلب لم يهاجر كما هاجر أمير المؤمنين عليه السلام. وقد قاتل العباس ـ ولو كرهاً ـ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام لم يقاتله، بل قاتل دونه في كل معاركه.

والعباس بن عبد المطّلب إذ لم يهاجر ـ كما قلنا ـ فإنه يستحق الميراث؛ لأن الميراث ولاية، وهي ولاية لا يستحقها إلّا المهاجر، قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**[2]، والعباس أسلم ولم يهاجر فقطع الله ولايته، والميراث نوع من أنواع الولاية.

وهذه النقطة أيضاً ولّدت عقدة في نفوس العباسيين إلى درجة أن الرشيد يسأل الإمام موسى الكاظم عليه السلام فيقول له: هل وصلت منك هذه الفتوى إلى أحد من

---

(١) قال أبو فراس الحمداني:

هلّا صفحتم عن الأسرى بلا سبب ... كصفحهم يوم بدر عن أسيركُمُ

ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥.

(٢) الأنفال: ٧٢.

أعدائنا؟ فو الله إن خرجت من فمك فليفارقن رأسك بدنك. فهو يرى أنها مسألة ضخمة وكبيرة عليهم أنهم لا يرثون كما يرث بنو علي. ولذا فإن البلاط العباسي قد بذل جهوداً جبارة ليبيّن للناس أن بني علي لا يرثون عن طريق أمهم وإنما هم على حدٍ سواء مع بني العباس في الوراثة، وأنهم لا حق لهم في الخلافة والحكم، وإذا لم يكن لهم حق في الخلافة فيجب ألّا يقول حينها قائل: إن بني العباس قد وصلوا إلى الخلافة عن طريق تيار آل البيت أو بشعار «يا لثارات الحسين».

والعباسيّون بهذا يريدون أن يوجدوا حاجزاً شرعياً يحول بين العلويين وبين وصولهم إلى الخلافة، فكل هذه الأكاذيب وكل هذا التزييف للحقائق هو للحؤول دون وصول آل البيت النبوي إلى سدة الحكم.

الإطار الثاني: شرك أبي طالب

إن أول من أكد على شرك أبي طالب هم العباسيون، فهؤلاء يقولون: إن جدّ العلويين قد مات مشركاً، وإن جدّنا قد مات مسلماً. وقد بذلوا جهوداً جبارة ضخمة في هذا الإطار، فاخترعوا روايات ونظريات كلها تدور حول أن أبا طالب قد مات وهو مشرك، وضربوا بكل الأدلة التاريخية والعقلية عرض الجدار لأجل تحقيق هدف في نفوسهم هو تمويه حقيقة معينة، وبيان شيء مزيّف للناس ينصّ على أن أبا طالب قد مات وهو مشرك:

وأنتم بنو بنته دوننا ... ونحن بنو عمّه المسلمِ[1]

وبهذا نجد أنهم قد سلّحوا ابن المعتز ومروان بن أبي حفصة وغيرهما من شعراء

---

(١) أعيان الشيعة ٨: ١٢٣، الإصابة ٧: ٢٠٢.

البلاط بهذه الفكرة وجنّدوهم بها، فتبنّوها ونافحوا عنها وأعلنوها بين الناس. وبالتالي فإنهم سوف يسقطون حق العلويين في هذه المسألة ويجلعون الناس ينفضّون من حولهم ويلتجئون إلى بني العباس. فأشبعوا الساحة بهذا المفهوم الذي أخذ يتضخّم ويكبر حتى وصل إلى حالة من الصراع الفكري بين المدافعين عن الحق والمدافعين عن بني العباس.

السبيل الثاني: السبيل الفقهي

وقد حورب في هذا المجال على جميع الأصعدة، فكان كل من له علاقة بنظرية تمتّ إلى علي بن أبي طالبعليه السلام بصلة يحارب ويطارد. وهو الحال في الأغلب في الأُمور الفقهية، فقد كان فقهاء المدينة حينما يتناولون بعض الأحكام الفقهية فإنهم يذكرون فيها رأياً لعلي بن أبي طالبعليه السلام؛ فكان إذا أفتى أحدهم برأي علي بن أبي طالبعليه السلام يبعث خلفه الرشيد وينهاه عن ذلك، فقد أرسل خلف أحد الفقهاء، لا لشيء إلّا لأنه أفتى وفق رأي أمير المؤمنينعليه السلام في مسألة التكبيرات في الصلاة على الجنازة، وقال له: ألم تعلم أنّا قد نهينا أن يذكر لهذا الرجل رأي؟ إياك أن أسمع مثل ذلك منك مرّة أُخرى!

ومن هذا كذلك نظرية الوضوء التي وقعت مع علي بن يقطين، فنحن نعرف أن هناك خلافاً بين الإماميّة وباقي المذاهب الإسلاميّة الأُخرى حوله، فالله تعالى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾[1]، فوقع الخلاف ـ من ضمن ما وقع ـ في مسح الأرجل أو غسلها، بناءً على الاختلاف في تحديد

---

(١) المائدة: ٦.

المعطوف عليه؛ فالكعبان الواردان في الآية الشريفة هل هما العظمان الناتئان من جانبي القدم، أو غيرهما؟

كتب علي بن يقطين للإمام الكاظم عليه السلام: جعلت فداك، إن أصحابنا قد اختلفوا في مسح الرجلين، فإن رأيت أن تكتب إلي بخطّك ما يكون بحسبه، فعلت إن شاء الله تعالى. فكتب إليه الإمام عليه السلام: «**فهمت ما ذكرت من الاختلاف في الوضوء، والذي آمرك به في ذلك أن تتمضمض ثلاثاً، وتستنشق ثلاثاً، وتغسل وجهك ثلاثاً، وتخلّل شعر لحيتك، وتغسل يدك إلى المرفقين ثلاثاً، وتمسح رأسك كلّه، وتمسح ظاهر أُذنيك وباطنهما، وتغسل رجليك إلى الكعبين ثلاثاً، ولا تخالف ذلك إلى غيره**».

فلما وصل الكتاب إلى علي بن يقطين، تعجّب مما كتب له الإمام عليه السلام، واستغرب من حضر عنده، ثم قال: مولاي أعلم بما قال، وأنا ممتثل أمره.

وكان لابن يقطين مكانة عند الرشيد، وكان يستغلّها لخدمة أبناء المذهب وقضاء حوائجهم. وفعلاً راح يعمل في وضوئه على هذا الشكل الذي رسمه له الإمام عليه السلام ويخالف ما عليه جميع الشيعة امتثالاً لأمره.

فسُعي به إلى الرشيد وقيل له: كيف تأتمن مثل هذا على بيتك ونفسك ودولتك؟ قال: ما الخبر؟ قيل: إن علي بن يقطين رافضي مخالف لك، وهو من أتباع علي بن أبي طالب. فقال: إني لا أرى أنه قد قصّر في خدمتي، ولا أظن أن عنده هذا الذي ترمونه به.

أي أن هذا الأمر ـ ولاء علي بن أبي طالب عليه السلام ـ يُعدُّ جريمةً في نظر السلطات، ولذا فالقائمون عليها ينفون هذه التهمة التي يعتبرونها عاراً عن كل من يرون أنه موالياً لهم، مع أن هذا الأمر كان في القرن الأول بسبب الخلافة لكن الآن بأي

سبب؟ والغريب أن البعض ليس له من هم سوى شتمنا بهذا!

وعلى العموم بعد أن كثرت الوشاية به عند الرشيد قال لبعض خاصّته: قد كثر عندي القول في علي بن يقطين والاتهام له بخلافنا، وميله إلى الرفض، ولست أرى في خدمته لي تقصيراً، وقد امتحنته مراراً، فما ظهر منه ما يقرف به، وأُحبّ أن أستبري أمره من حيث لا يشعر بذلك فيتحرّز مني. فقيل له: إن مذهب الرافضة يخالف مذاهب الجماعة في الوضوء فيخففه، ولا يرى غسل الرجلين، فامتحنه من حيث لا يعلم بالوقوف على وضوئه. فقال: أجل، إن هذا الوجه يظهر به أمره.

ثم تركه مدّةً وناطه بشيء من الشغل في الدار، وقال له: إنه ليس كل أحد يصلح لهذه المهمة، ولست آمن على داري أحداً غيرك. فقام بها ابن يقطين، حتى إذا دخل وقت الصلاة ـ وكان علي بن يقطين يخلو في حجرة في الدار لوضوئه وصلاته ـ وقف الرشيد من وراء حائط الحجرة بحيث يرى علي بن يقطين ولا يراه هو، فدعا بالماء للوضوء، فتمضمض ثلاثاً واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه، وخلل شعر لحيته وغسل يديه إلى المرفقين ثلاثا، ومسح رأسه وأذنيه، وغسل رجليه كما أمره الإمام عليه السلام، والرشيد ينظر إليه، فلما رآه الرشيد فعل ذلك لم يملك نفسه حتى أشرف عليه بحيث يراه، ثم ناداه: كذب يا علي بن يقطين من زعم أنك من الرافضة، وصلحت حاله عنده.

وبعد ذلك ورد عليه كتاب من الإمام عليه السلام: **«ابتدئ من الآن يا علي بن يقطين، توضّأ كما أمر الله تعالى؛ اغسل وجهك مرة فريضة وأُخرى إسباغاً، واغسل يديك من المرفقين كذلك، وامسح بمقدّم رأسك وظاهر قدميك من فضل نداوة وضوئك؛ فقد زال ما كان يُخاف عليك، والسلام»** [1].

---

(١) الإرشاد ٢: ٢٢٧، مناقب آل أبي طالب ٤: ٢٨٨، الخرائج والجرائح ١: ٣٣٥ / ٢٦.

فالإمام عليه السلام يأمره بأن يتوضّأ على الطريقة التي عليها أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرى، ويأمره بأن يبقى على هذه الشاكلة حتى يأتيه كتاب آخر منه عليه السلام في هذا الخصوص؛ لأنه علم ـ بتعليم الله له ـ بما يدبّر له.

التشيّع جريمة في نظر السلطات

والواقع كما هو معروف أن علي بن يقطين كان ذا مكانة مرموقة في البلاط العباسي كما هو مذكور في كتب التواريخ والسير، وكان رحمه الله يستغل هذا المركز في دفع البلاء عن أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام كما ذكرنا، بمعنى أنه كان يخدم المذهب من خلال مكانته ووجوده في السلطة. وعليه فإن هؤلاء الذين وشوا به إلى الرشيد لم يكونوا ليشوا بمثل هذه الشكاية والتهمة إلّا إذا كانت تعدّ جريمة عند أصحاب السلطة، أي أن السلطة في ذلك الوقت كانت ترى أن موالاة علي بن أبي طالب عليه السلام واتّباعه جريمة تخالف قانونهم وتهدم عروشهم، كما ذكرنا قبل قليل.

ولذا فإننا نجد أنهم قد حاربوها بشتى أنواع المحاربة، غير أن الله جل وعلا أراد خلاف ما أرادوا؛ ولهذا فإننا وجدنا أن الرشيد قد دافع عنه رادّاً عليهم بأنه شخص مخلص ولم يقصّر في أداء واجبه أو خدمته للخلافة.

وهذا الأمر ليس وقفاً على زمان معين دون آخر، بل إنه لازال يعيش حتى هذه اللحظة، فهناك من لا شأو له في الحياة إلّا أن يشتم هذا المذهب وأتباعه، والأنكى والأدهى أنه لا يشتم إلّا بما فيه هو: رمتني بدائها وانسلّت. وهذه المسألة مما يجب التنويه بها ولفت النظر إليها؛ لأنها مما يجب أن يعرف به الناس وأن يطلع عليه أبناء هذا الدين الحنيف؛ ليعرفوا مَن هو المحق مِن المبطل. وقد جاءني هذا اليوم منشور يذكر فيه أصحابه أنّ مَن أراد أن يتزوج زواج «المسيار» فعليه أن يتصل بهذا الرقم؛ فإنهم سيقومون بتوفير هذه الزوجة وبإجراء اللازم له.

وهذا الزواج ليس في حقيقته وواقعه إلّا زواج المتعة، وإذا كان الأمر كذلك وكان يروَّج له وتفتح له المكاتب فلماذا إذن تفتعل هذه الضجة الكبيرة على الشيعة، ويسبون بسبب هذا الأمر وهو أمر مشروع يعملون به هم أنفسهم؟ مع أننا لا نفعل حول زواج المتعة هذا الفعل ولا نقرّ به ولا نقرره بهذا الإقرار أو التقرير، بل إننا نضعه في حالات معينة لعلاج بعض ما يعتري الأشخاص الذين يعيشون في غربة مثلاً ولم يكونوا يصبرون عن ممارسة هذا الحق المشروع، فيأتي الرجل إلى المرأة ليعقد عليها عقداً مؤقتاً، فليس في الأمر مكاتب ولا أرقام هواتف ولا ما إلى ذلك مما يروّج به هؤلاء لتجارتهم هذه.

ولست أدري لماذا لا نتحلّى بصدور واسعة وبمستوى من العقل والذكاء يمكناننا من فهم الآخرين بشكل أفضل أو بشكل صحيح، دون أن نلجأ إلى المهاترة والسباب والتكفير وما إلى ذلك؟ إن العلماء يقولون: إن حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد، وهذان مثلان فلماذا يجوز هناك ولا يجوز عند أصحاب هذاالمذهب؟ إذن فالواجب أن نتحلّى بصدور رحبة واسعة وأن نكون على مستوى المسؤولية التي وضعنا الله بها كي نفهم الآخرين فهماً صحيحاً، ولا نسيء إليهم، فكل منّا رافد يصبّ في نهر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وبناءً على هذا فيجب على كل مسلم أن يناقش أحكامه وأحكام الآخرين مناقشة موضوعية خاضعة للفهم والعقلية الناضجة؛ لأن المسلمين هم عائلة واحدة ينتمون إلى دين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم. لكن ما الذي يمكن أن نفعله إزاء هذا الأُفق الضيّق المحدود وصاحبه الذي يحاول أن يحبس نفسه بين طيات مجموعة من الآراء التي تمنعه من أن ينطلق، وأن يفكّر، وأن يستوعب الآخرين بعقله وحكمته؟

إذن فالمسألة في واقع الأمر قد بدأت تأخذ أبعاداً كبيرة جداً إلى درجة أن الفقيه الذي يذكر رأياً لعلي بن أبي طالب عليه السلام فإنه يتعرّض للمساءلة القانونية بناءً على أوامر السلطات القائمة. كما أن هناك حالة أخرى تروى في هذا المجال وهي أن بعض أئمة الصلاة كبّر التكبيرات في صلاة العيد على رأي علي بن أبي طالب عليه السلام، ذلك أن رأي علي عليه السلام في التكبيرات المختصة بصلاة العيد يختلف عن رأي غيره من الصحابة، فلما بلغ السلطات الحاكمة آنذاك أرسلت خلفه وعنفته ونهته أن يكرر مثل هذا الفعل نهياً قاطعاً لا رجعة فيه.

يذكر الكاتب محمد أبو زهرة في كتابه (الإمام الصادق عليه السلام) قائلاً: إن من غير المعقول أن يقتل هؤلاء أبناءَ علي بالسيف، ثم يعمدون إلى القول بآرائهم الفقهية أو الأخذ بها.

وهذا واقع؛ لأنهم حتماً سوف يحاولون القضاء على الفكر كما يحاولون القضاء على صاحبه، فإذا كان هذا الفكر أو هذا الرأي أو هذه النظرية تعلي شأن صاحبها فهم حتماً سوف لن يوافقوا على الإبقاء عليها؛ لأنها حينئذٍ ستشكّل عنصر خطر لهم؛ لذا فإنهم عمدوا إلى محاربة كلّ رأي، أو كلّ نظرية تنسب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أو أحد من أبنائه عليهم السلام، فشوّهوها ونسبوها إلى النقائص.

وهكذا فإننا نجد أن هؤلاء قد حاولوا جاهدين، وعملوا مصرّين على إبعاد آل أبي طالب عليهم السلام عن هذه الساحة في جميع أصعدتها ونشاطاتها؛ سواء الفقهية منها أو الكلامية أو السياسية وما إلى ذلك.

السبيل الثالث: السبيل السياسي

وقد عمد هؤلاء إلى محاربة أهل البيت عليهم السلام، مع أنهم الامتداد السماوي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الناحية السياسية كذلك والقضاء عليهم وإبعادهم عن الساحة

السياسية تماماً.

ولعل البعض سيستغرب حينما يعرف أن النكبة الكبرى التي حلّت بالبرامكة كانت بسبب إطلاق يحيى بن الحسن الذي قاد حركةً عسكريةً مسلحة ضد الرشيد وخرج عليه، ففشلت حركته وأمسكت به قوات النظام وجاؤوا به إلى الرشيد الذي أمر بحبسه، حيث إنه سلّمه إلى جعفر بن يحيى البرمكي وقال له: تحفظ عليه في السجن عندك.

فأخذه جعفر وقد عرف يحيى بن الحسن أنه سوف يقتل، وفي يوم من الأيام مر جعفر بن يحيى البرمكي في السجن فناداه يحيى وقال له: الله الله في دمي واتّقِ الله فيَّ، فإني أظن أن الرشيد سوف لن يعفو عني! فرقّ له جعفر وقال له: أنا أُطلق سراحك لكن بشرط. قال: ما هو؟ قال: أن تقسم لي وتؤمنني ألّا تخرج مرة أخرى على الرشيد. فقال له: إني أُقسم لك على ذلك. فلما استحلفه وحلف له أطلق سراحه بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق بألّا يخرج ثانية.

وبعد أن أطلق جعفر سراحه جاء بعض الوشاة إلى الرشيد وأخبروه بما فعل جعفر، فازبأرّ الرشيد وتأثر، وأرسل خلف جعفر بن يحيى وقال له: أين يحيى؟ فقال له: هو في سجنه يا أمير المؤمنين. فقال له أتحلف بحياتي؟ فأمسك جعفر وعرف أن في المسألة وشاية، وأن هناك من رفع تقريراً إلى الرشيد بخصوص إطلاق سراح يحيى (رضوان الله تعالى عليه)، وقال له: لا وحياتك، لقد أطلقت سراحه بعد أن استحلفته بعدم الخروج عليك ثانية، وبعد أن استوثقت منهُ بالعهود والمواثيق، وتأكدت أنّه سوف لن يخرج عليك مرّة أُخرى. فقال له الرشيد: نعم ما صنعت.

فلما خرج جعفر من مجلس الرشيد أتبعه هذا بنظرة وقال: قتلني الله إن لم أقتلك.

وهكذا نرى أن إطلاق شخص واحد من عائلة آل أبي طالب يؤدي إلى كارثة وإحلال نكبة بعائلة كبيرة، وأي نكبة هي! إنها نكبة مروعة ومهولة؛ لأن يحيى بن خالد أبا جعفر هو الذي ربى الرشيد في حجره، وحمله على صدره.

وهكذا نجد أن الملاحقة العباسية للعلويين أو الطالبيّين قد بلغت حدّاً امتدّت معه إلى جميع أصعدتها؛ فكانت ملاحقةً على الصعيد النظري، وملاحقةً على الصعيد الفقهي، وملاحقةً على الصعيد العملي، مضافاً إلى ذلك الملاحقة على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي؛ فأجاعوهم إلى درجة يصعب معها تصوير تلك الفاجعة أوالمحنة، بل هي كارثة بكلّ المقاييس قد حلّت بالإسلام جرّاء هذه الأفعال البعيدة عن كلّ قيمه وأخلاقياته.

ومن هذا أن هناك نخلاتٍ غرسهنّ رسول الله ﷺ بيده الشريفة في المدينة المنورة؛ فكان الحجاج أو الزوار حينما يأتون إلى المدينةِ المنورة ويعرفون أن هذه النخلات من غرسِ يدِ رسول الله ﷺ يعمدون إلى أن يأخذوا حفنة من تمرها لكي يتبركوا به، ويعطوا للعلويين مقابل ذلك بعض الهدايا، فكانوا يستعينون بها في أُمور دنياهم. فحتى هذه النخلات التي بقيت إلى زمن أمر بها هذا الرجل فقطعت من أصلها.

إذن قطع عنهم العطاء إلى درجة أن أحد المؤرخين كان يقول: إن العلويات في ذلك الزمان لم يكنَّ يملكن إزاراً يصلّين به فكنَّ، يشتركن بإزارٍ واحد، فكل عشرة منهنَّ أو أكثر أو أقل يشتركن بإزارٍ واحد، وكنَّ ينتظرن بعضهنَّ للصلاة كي يصلّين بهذا الإزار، فكلّما فرغت واحدةٌ منهنَّ من صلاتها وانفتلت

منها أعطت الإزار إلى الأُخرى كي تصلي به، وهكذا تفعل هذه حتى يؤدين الصلاة كلهن. فكنَّ لا يخرجنَ من بيوتهن لهذا السبب، وهو أنهنَّ لا يملكن ملابسَ يرتدينها أو ليخرجن بها.

وهكذا نرى أن اللؤم قد وصل بهؤلاء إلى مداه الأبعد، وإلى شأوه الأقصى، وإلى غايته التي لا مجال بعدها ليكون هناك لؤم أشدّ منه.

السبيل الرابع: سبيل السيف

وبعد كل هذه المحاولات التي رصدناها لمحاربة البيت جاء دور السيف حيث إنه أعمل السيف فيهم، خرج أبو جعفر المنصور قاصداً البيت الحرام فقيل للإمام الكاظم عليه السلام: لقد قصد أبو جعفر المنصور بيت الله الحرام. فقال عليه السلام: **«والله لن يصل»**. فلما وصل إلى بئر ميمون قيل له: يابن رسول الله، لقد وصل إلى بئر ميمون. فقال عليه السلام: **«والله لن يصل»**. وفعلاً مات أبو جعفر المنصور عند بئر ميمون، وهناك كتب وصيته إلى ابنه المهدي.

وموضع الشاهد في هذه القصة أنه لمّا عزم على السفر إلى الحجّ كتب وصيته إلى المهدي ابنه الذي كان بالري، ثم دعا زوجته ريطة بنت أبي العباس فأوصاها بما أراد، ودفع إليها مفاتيح الخزائن، وكان من ضمن ما جاء في هذه الوصية أنه كان عنده خزانة أحلفها ألّا تفتحها، ولا تطلع عليها أحداً إلّا المهدي، فإذا بلغهما موته اجتمعت هي والمهدي وليس معهما أحد حتى يفتحا الخزانة بأنفسهما دون أن يأمرا أحداً بفتحها. فلما قدم المهدي من الري إلى مدينة السلام دفعت إليه المفاتيح وأخبرته بما طلب المنصور منها.

فلما استيقنا موته وولي المهدي الخلافة جاءا وهما يحملان الوصيةَ ومفتاح الخزانة، حتى إذا فتحا الباب وجدا فيها ثلاثة وستّين رأساً لأطفال ورجال

وشباب ومشايخ للطالبيّين، وكلّها محنّطة، وكلّ رأس منها كان مخروم الأُذن، وفيه ورقة مكتوب عليها اسم هذا المقتول وكنيته ونسبه وما إلى ذلك ويوم قتله وجنايته. وهنا رعب المهدي وزوجته رعباً شديداً لما رأوا من هذه الرؤوس المقطعة وما فعل بها من فعل شنيع، وأصابهما الفزع والهلع، ثم بعد ذلك أمر بالرؤوس فغسّلت وكفّنت ودفنت، ثم بُني على موضع دفنها دكّان[1]:

مانال منهم بنو حرب وإن عظمت تلك الجرائر إلّا دون نيلكمُ

الإمام عليه السلام والرشيد العبّاسي

والذي زاد الطين بلّة أن جعفر بن محمد بن الأشعث كان شيعياً، ولكنه كان من المقرّبين إلى الرشيد، وقد كان رجلاً حربياً حازماً وقائداً من قواد الجيش كبيراً، وكانت له أيدٍ بيضاء على الدولة وكان الرشيد قد وضع ولديه الأمين والمأمون في حجره يربيهما ويعلّمهما الفروسيّة وفنون القتال، وهنا تهيّأت بعض النفوس الضعيفة للتحرك في محاولة لاحتواء هذه المسألة، لا سيّما يحيى بن خالد بن برمك الذي حسده لأجل هذا؛ لأنه ومن معه تداولوا هذا الأمر فيما بينهم، فاتّفقوا على نتيجة هي أنه إذا ولي الأمر بعد الرشيد ولداه فإن الأمر سيخرج من بني العباس إلى بني علي؛ لأن هذا الشيعي سوف يربي الأمين والمأمون على حب أهل البيت، وعلى ضرورة تقريبهم منهما، وبالتالي إعطائهم بعض حقوقهم؛ واتفقوا على القضاء على جعفر بن محمد بن الأشعث والإمام الكاظم عليه السلام.

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٩: ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

وبناءً على هذا فقد تآمروا ووضعوا خطة لإبعاد هذا الرجل عن الأمين والمأمون، فكان أن كتبوا إلى الرشيد كتباً وتقاريرَ رفعوها إليه يذكرون له فيها أنَّ هذا الشخص من الشيعة الموالين لهذا البيت (البيت العلوي)، ومن محبي موسى بن جعفر وأنه يجمع الأموال ويبعثها إليه ليشتري بها سلاحاً أو لينفقها على شيعته ليجمعهم حوله.

وكان هذا هو السبب في سجن الإمام الكاظمعليه السلام، فقد كان جعفر بن محمد بن الأشعث يقول بالإمامة، وكان يحيى بن خالد بن برمك يكثر غشيانه في منزله فيقف على أمره ويرفعه إلى الرشيد، ويزيد عليه في ذلك بما يقدح في قلبه على أمره. ثم قال يوماً لبعض ثقاته: تعرفون رجلاً من آل أبي طالب ليس بواسع الحال يعرف ما أحتاج إليه؟ فدُلّ على علي بن إسماعيل بن جعفر بن محمدعليهما السلام، فحمل إليه يحيى بن خالد بن برمك مالاً.

وكان الإمام الكاظمعليه السلام يأنس بعلي بن إسماعيل، ويصله ويبرّه، فلمّا أنفذ إليه يحيى بن خالد يرغّبه في قصد الرشيد، ووعده بالإحسان إليه، فعمل على ذلك، وأحسّ به الإمام الكاظمعليه السلام، فدعاه وقال له: «**إلى أين يابن أخ؟**». قال: إلى بغداد. قالعليه السلام: «**وما تصنع؟**». قال: علي دين، وأنا مملق. فقال له الإمام الكاظمعليه السلام: «**فأنا أقضي دينك، وأفعل بك وأصنع**».

وكان الإمامعليه السلام مشهوراً بصراره التي كانت تخرج إلى المحتاجين والمعوزين كلّ يوم، وخصوصاً ذوي قرابته، وكانت تتراوح بين (٢٠٠) و(٣٠٠) دينار ذهباً[1].

---

(١) تاريخ الإسلام ١٢: ٤١٨ ـ ٤١٩، مقاتل الطالبيّين: ٣٢٢.

فلم يلتفت علي بن إسماعيل إلى ذلك، وادّعى بأنه يريد التوسعة على عياله، وعزم على الخروج. فلمّا رأى الإمام الكاظمعليه السلام منه الإصرار على السفر استدعاه وقال له: «**أنت خارج؟**». قال: نعم، لابدّ لي من ذلك. فقالعليه السلام له: «**انظر يابن أخي، واتّقِ الله، ولا تؤتم أولادي**».

ثم أمر له بثلاثمئة دينار وأربعة آلاف درهم، فلما قام من بين يديه قال الإمام الكاظمعليه السلام لمن حضره: «**والله ليستعين في دمي، ويؤتم أولادي**». فقالوا له: جعلنا الله فداك، وأنت تعلم هذا من حاله وتعطيه وتصله؟ فقالعليه السلام: «**نعم، حدثني أبي عن آبائه عن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم أن الرحم إذا قطعت فوصلت فقطعت قطعها الله تعالى، إنني أردت أن أُوصله بعد قطعه لي حتى إذا قطعني قطعه الله تعالى**».

فخرج علي بن إسماعيل حتى أتى يحيى بن خالد فتعرّف منه خبر الإمام الكاظمعليه السلام، ورفعه إلى الرشيد، وزاد عليه، ثم أوصل علي بن إسماعيل إلى الرشيد، فسأله عن عمّه فسعى به إليه وقال له: خليفتان في الأرض تجبى لهما الأموال والخراج، ويطيعهما الناس؟ أنت خليفة وموسى بن جعفر خليفة؟ ثم أخبره أن الأموال تحمل إليه من كل مكان.. من المشرق والمغرب، وأنه اشترى ضيعة سمّاها البشيرة بثلاثين ألف دينار.

فلمّا سمع ذلك منه الرشيد شكره، ثم أمر له بمئة ألف درهم من أي ناحية يريدها، فاختار بعض كور المشرق، وأمضت رسله المال، ومرض في بعض تلك الأيام، فزحر زحرة خرجت منه حشوته كلّها، فسقط، وجهدوا في ردّها فلم يقدروا، فوقع لما به، وجاءه المال وهو ينزع، فقال: ما أصنع به، وأنا في الموت؟ ومثل هذا أما كان له نوع من هذا التفكير الذي يعصمه أن يصبح أداةً بيد الرشيد

وأعوان الرشيد للإيقاع بالأئمةعليهم السلام وهم رحمه؟[1]

الإمامعليه السلام والهادي العبّاسي

على أية حال، فهنا بدأت الحالة تشتدّ على الإمامعليه السلام وبدأت المضايقات العباسية ومراهنات السلطة على اعتقاله وقتله تزداد ونِسب ذلك تكبُر، وللإنصاف نقول: بأن الضيق لم يكن وليد عهد الرشيد، بل إنه ابتدأ منذ عهد الهادي الذي كان ينصب العداء لكل علوي، ولكل ما هو علوي، بل من عهد المهدي ثم الهادي ثم الرشيد، وكان الهادي يشتد حقده ويزداد غيظه، وكان يغلي حنقاً على الإمامعليه السلام، وقد وصل النبأ إلى الإمامعليه السلام بأن الهادي يتوعّده وكان عنده جملة من أهل بيته وأصحابه الخلّص، فقال عليه السلام لهم: «**ما ترون؟**». فقالوا: رأينا أن تتباعد عن هذا الرجل، وأن تغيب وجهك عنه؛ لأن هذا الرجل غشوم ظلوم وهو سوف ينالك بسوء.

فهدأهم الإمامعليه السلام وطلب منهم ألّا يخافوا، ثم تبسّمعليه السلام وأنشد:

«زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليُغلبنّ مغالبُ الغلّابِ»

ثم رفععليه السلام يده إلى السماء ودعا بهذا الدعاء العالي المضامين الجليل القدر، فقال: «**إلهي، كم من عدوّ شحذ لي ظبة مديته، وأرهف لي سنان حدّه، وداف لي قواتل سمومه، ولم تنم عني عين حراسته، فلمّا رأيتَ ضعفي عن احتمال الفوادح، وعجزي عن ملمّات الجوائح، صرفت ذلك عني بحولك وقوّتك لا بحولي ولا بقوتي، فألقيته في الحفير الذي احتفره لي خائباً ممّا أمّله في دنياه،**

---

(١) روضة الواعظين: ٢١٨ ـ ٢٢٠.

متباعداً ممّا رجاه في آخرته. فلك الحمد على ذلك قدر استحقاقك.

سيدي اللهم فخذه بعزّتك، وافلل حدّه عني بقدرتك، واجعل له شغلاً فيما يليه، وعجزاً عمن يناويه. اللهم وأعدني عليه عدوى حاضرة تكون من غيظي شفاء، ومن حقّي عليه وفاء، وصِل اللهم دعائي بالإجابة، وانظم شكاتي بالتغيير، وعرّفه عمّا قليل ما وعدت الظالمين، وعرّفني ما وعدت في إجابة المضطرّين؛ إنك ذو الفضل العظيم والمنّ الكريم».

ثم تفرق القوم، فما اجتمعوا إلّا لقراءة الكتاب الوارد بموت موسى الهادي بن المهدي [1].

وقد وقع هذا الأمر من هؤلاء مع علمهم التام ومعرفتهم تمام المعرفة بأن هذا الشخص لم يكن ليفعل شيئاً من هذا مع الأمين والمأمون، وأن كل ما كان يفعله هو تدريبهم على فنون الحربِ والفروسيةِ والقتال ودواعي تنمية الرجولة عندهما. وقد أيّد هذا عندهم ما كان يعتمل في نفوسهم من حقد وضغينة على آل أبي طالب، وما كان يحسونه من عقدة اتجاههم بأنهم إنما خلقوا ليخرجوا عليهم ويسلبوهم ملكهم وسلطانهم، ولذا فإنهم دعموا هذه التهم بهذه العقدة التي كانوا عليها في كتاباتهم إلى الرشيد وتقاريرهم التي رفعوها إليه.

فالإمام في حقيقة الأمر قد تعرّض في أيام الهادي إلى ملاحقة شديدة مكثفة، وإلى مضايقة وإلى مهاترات السلطة التي حاولت بشتى الوسائل أن توجد المبرر والسبب الداعي لقتله، وكان من ذلك الضغوط الشديدة والتهديد بالقتل حتى فعل الله ما فعل بالهادي ببركة دعاء الإمام.

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٤٥٩ ـ ٤٦٠ / ٦١٢.

الإمام عليه السلام والمهدي العبّاسي

وكان هذا الأمر ـ معاناة الإمام عليه السلام من العبّاسيين ـ على أشدّه في زمن المهدي من قبل.. المهدي الذي لم يكتفِ بالتهديد، بل فعل كل ما بوسعه من أجل إنزال الأذى بالإمام عليه السلام فقد عمد إلى سجن الإمام عليه السلام في السجون الخاصة؛ ذلك أنه كان عنده نوعان من السجون: سجون عامة وسجون خاصة، مع أنه عليه السلام قد سجن كذلك في السجون العامة لكنه سجن أيضاً في السجون الخاصة. يروي الفضل بن الربيع عن أبيه الربيع قال: كنت ذات ليلة في فراشي مع بعض جواريّ، فلما كان في نصف الليل سمعت حركة باب المقصورة، فراعني ذلك، فلم يمضِ إلّا يسير حتى رأيت باب البيت الذي كنت فيه قد فتح، وإذا مسرور الكبير قد دخل عليّ فقال لي: أجب الأمير، ولم يسلم علي. فيئست في نفسي وقلت: هذا مسرور دخل إلي بلا إذن، ولم يسلّم، فما هو إلّا القتل.

فنهضت ولبست ثيابي وخرجت معه حتى أتيت الدار، فسلمت على الخليفة وهو في مرقده، فردّ علي السلام، فقال: تداخلك رعب؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. فتركني ساعة حتى سكنت، ثم قال لي: سر إلى حبسنا فأخرج موسى بن جعفر بن محمد وادفع إليه ثلاثين ألف درهم، واخلع عليه خمس خلع، واحمله على ثلاثة مراكب، وخيّره بين المقام معنا أو الرحيل عنا إلى أي بلد أراد وأحبّ. فقلت: تأمر بإطلاق موسى بن جعفر؟ فقال لي: نعم. فكررت ذلك عليه ثلاث مرّات، فقال لي: نعم ويلك أتريد أن أنكث العهد؟ فقلت: أي عهد؟ قال: بينا أنا في مرقدي هذا إذ ساورني أسود ما رأيت من السودان أعظم منه، فقعد على صدري وقبض على حلقي وقال لي: حبست موسى بن جعفر ظالماً له؟ فقلت: فأنا أُطلقه وأهب له وأخلع عليه، فأخذ عليّ عهد الله وميثاقه وقام عن صدري وقد كادت

نفسي تخرج.

فخرجت من عنده ووافيت موسى بن جعفر وهو في حبسه، فرأيته قائماً يصلّي، فجلست حتى سلّم، ثم أبلغته سلام أمير المؤمنين، وأعلمته بالذي أمرني به في أمره، وأني قد أحضرت ما أصله به، فقال: «**إن كنت أمرت بشيء غير هذا فافعله**». فقلت: لا وحقّ جدّك رسول الله ما أُمرت إلّا بهذا. فقال: «**لا حاجة لي في الخلع والحملان والمال إذا كانت فيه حقوق الأمّة**». فقلت: ناشدتك بالله لا تردّه فيغتاظ. فقال: «**اعمل به ما أحببت**».

فأخذت بيده وأخرجته من السجن، ثم قلت له: يابن رسول الله، أخبرني السبب الذي نلت به هذه الكرامة من هذا الرجل. فقال: «**رأيت النبي ليلة الأربعاء في النوم فقال لي: يا موسى أنت محبوس مظلوم. فقلت: نعم يا رسول الله محبوس مظلوم. فكرّر عليّ ذلك ثلاثاً ثم قال: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[1]، أصبح غداً صائماً، وأتبعه بصيام الخميس والجمعة، فإذا كان وقت الإفطار، فصلّ اثنتي عشرة ركعة، تقرأ في كلّ ركعة الحمد مرّة، واثنتي عشرة مرّة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، فإذا صلّيت منها أربع ركعات، فاسجد ثم قل: يا سابق الفوت، ويا سامع كلّ صوت، يا محيي العظام وهي رميم بعد الموت، أسألك باسمك العظيم الأعظم أن تصلّي على محمد عبدك ورسولك وعلى أهل بيته الطيّبين، وتعجل لي الفرج مما أنا فيه. ففعلت فكان الذي رأيت**».

وفي رواية أنّ المهدي لما كان في بعض الليالي رأى علي بن أبي طالب وهو يقول له: يا محمد، ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا**

---

(١) الأنبياء: ١١١.

أَرْحَامَكُمْ﴾ [١] فاستيقظ مذعوراً وأمر به فأُخرج عليه السلام من السجن ليلاً، أمر فجيء به عليه السلام إليه، فلمّا رآه قال له: مرحباً بك يابن العم. ثم أجلسه معه وعانقه وأقبل عليه، وأخبره خبره، ثم أخذ عليه العهد ألّا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده، فقال عليه السلام: **«والله ما هذا من شأني ولا حدّثت فيه نفسي»**.

فالإمام عليه السلام يخبره بأن هذا ليس من شأنه وليس وارداً في اعتباراته أو حساباته؛ لأن هذا الأمر موكول إلى زمنه، فقال له: صدقت. ثم أمر بتجهيزه بعد أن خيره بين المكوث عنده وبين الرجوع إلى أهله، فاختار الإمام عليه السلام الرجوع إلى أهله بعد هذه الفترة الطويلة من السجن؛ لأنهم قد استوحشوه، فجهزه الربيع وخرج به حتى يوصله إلى المكان الذي يغادر منه إلى المدينة [٢].

وهذا ما ذكره عليه السلام لأبي خالد الزبالي حيث قال: قدم أبو الحسن موسى الكاظم عليه السلام زبالة [٣] ومعه جماعة من أصحاب المهدي، بعثهم إليه في إشخاصه له، فأمرني بشراء حوائج له، ونظر إليّ وأنا مغموم فقال: **«يا أبا خالد، مالي أراك مغموماً؟»**. فقلت: جعلت فداك، هو ذا تصير إلى هذا الطاغية، ولا آمنه عليك.

---

(١) سورة محمد: ٢٢.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٧٣ ـ ٧٤ / ٤، تاريخ الإسلام ١٢: ٤١٨ ـ ٤١٩، البداية والنهاية ١٠: ١٩٧.

(٣) زبالة ـ بضم أوّله ـ: منزل معروف بطريق مكّة من الكوفة، وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية. وقال أبو عبيد السكوني: زبالة بعد القاع من الكوفة وقبل الشقوق، فيها حصن وجامع لبني غاضرة من بني أسد.

وسميت زبالة بزبلها الماء، أي بضبطها له وأخذها منه. يقال: إن فلاناً شديد الزبل للقرب والزمل. ويقال: ما في الإناء زبالة، أي شيء.

وقال ابن الكلبي: سميت زبالة باسم زبالة بنت مسعر، وهي امرأة من العمالقة نزلتها. معجم البلدان ٣: ١٢٩ ـ ١٣٠ ـ زبل.

فقال: **«يا أبا خالد، ليس عليّ منه بأس، إذا كانت سنة كذا وكذا، وشهر كذا وكذا فانتظرني في أول الميل، فإني أُوافيك إن شاء الله تعالى»**.

قال: فما كانت لي همّة إلّا إحصاء الشهور والأيّام، فلما حان حين ذلك، وكانت الليلة التي أُطلق فيها سراح الإمام غدوت إلى أول الميل في اليوم الذي وعدني، فلم أزل أنتظره إلى أن كادت الشمس أن تغيب، فلم أرَ أحداً، فشككت، ووقع في قلبي أمر عظيم، فنظرت قرب الميل فإذا سواد قد رفع، فانتظرته فوافاني أبو الحسن أمام القطار على بغلة له، فقال: **«إيه يا أبا خالد»**. قلت: لبّيك جعلت فداك. قال: **«لا تشكنّ، ودّ والله الشيطان أنك شككت»**. قلت: قد كان والله ذلك جعلت فداك.

قال: فسررت بتخليصه، وقلت: الحمد الله الذي خلّصك من الطاغية. فقال: **«يا أبا خالد، إن لهم إلي عودة لا أتخلّص منهم»** (١).

الرشيد يأمر بسجن الإمام

ثم جاء دور الرشيد الذي تكلّمنا عنه آنفاً، وهو دور لم يكن بأقل حقداً وحنقاً وغيظاً وبغضاً لأهل هذا البيت، فكان أن فعل أكثر مما فعل أسلافه، وقد حجّ الرشيد بعد ذلك، فلما قرب من المدينة أمر بأن يستقبله الناس ـ وكان هذا جزءاً من تشريفات الرشيد التي اعتاد عليها ـ فاستقبله الوجوه من أهلها، وتقدّمهم الإمام موسى بن جعفر على بغلة، فقال له الربيع: ما هذه الدابّة التي تلقّيت عليها أمير المؤمنين هارون الرشيد، وأنت إن طَلبت عليها لم تدرِك، وإن طُلبت لم

(١) قرب الأسناد: ٣٣٠ ـ ٣٣١ / ١٢٢٩، الكافي ١: ٤٧٧ ـ ٤٧٨ / ٣، الفصول المهمة ٢: ٩٤٢ ـ ٩٤٣.

تفت؟ فقال عليه السلام: **«إنها تطأطأت عن خيلاء الخيل، وارتفعت عن ذلّة الحمير، وخير الأمور أوسطها»**.

فلما دخل هارون الرشيد المدينة توجّه لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه الناس، فتقدّم إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يابن عمّ. ومدّ بها صوته مفتخراً بذلك على غيره، وكان قصده من هذا السلام أن يبيّن بأنَّ مكانه في الخلافة غير متقلقل؛ لأنه ابن عمّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يقول للناس بأنه حينما يكون ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه يكون حينئذٍ الأحقّ بالخلافة من بعده، وأنه لم يغتصبها من أحد. وهنا تقدم أبو الحسن عليه السلام فقال: **«السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبه»**.

فتغيّر الرشيد وتبين الغيظ فيه حتى عزم على قتله؛ لأنه ظنّ أن في الأمر تحدّياً، وأن الإمام عليه السلام يريد أن يواجهه، وأن يقول له: بأنك إذا كنت تدّعي هذا الأمر بالقرابة فأنا أحقّ به منك لأني ابنه [١].

وهنا توجه الرشيد تلقاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أعتذر إليك من أمر قد عزمت عليه، فإني أُريد أن آخذ موسى بن جعفر فأحبسه؛ لأني قد خشيت أن يلقي بين أُمّتك حرباً تُسفك فيها دماؤهم وتزهق أرواحهم.

ثم أمر به فأُخذ من المسجد فأُدخل عليه فقيّده، واستدعى بقبّتين فجعله في إحداهما على بغل وجعل القبة الأُخرى على بغل، وخرج البغلان من داره عليهما

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٧٣، روضة الواعظين: ٢١٥ ـ ٢١٦. وانظر: الإرشاد ٢: ٢٣٤ ـ ٢٣٥، البداية والنهاية ١٠: ١٩٧ ـ ١٩٨، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٧٣، قال (الذهبي): ولعل الرشيد ما حبسه إلّا لقولته تلك: «السلام عليك يا أبه»؛ فإن الخلفاء لا يحتملون مثل هذا.

القبّتان مستورتين، ومع كلّ واحد منها خيل، فافترقت الخيل فمضى بعضها مع إحدى القبّتين على طريق البصرة، والأُخرى على طريق الكوفة، وكان الإمام الكاظم عليه السلام في القبة التي مُضي بها على طريق البصرة، وإنما فعل ذلك الرشيد ليعمّي على الناس أمر الإمام عليه السلام. وأمر القوم الذين كانوا مع قبة أبي الحسن عليه السلام بأن يسلموه إلى عيسى بن جعفر المنصور، وكان على البصرة حينئذٍ فسُلّم إليه، فحبسه عنده سنة.

وكتب إليه الرشيد في دمه، فاستدعى عيسى بن جعفر المنصور بعض خاصّته وثقاته، فاستشارهم فيما كتب به الرشيد، فأشاروا عليه بالامتناع عن ذلك والاستعفاء منه، وحذّروه من هذا الأمر تحذيراً شديداً، وطلبوا منه ألّا يقحم نفسه في غلطة كهذه، وقالوا له: إن الرشيد ربما انقلب عليك بعد ذلك، ونسب لك أمر قتله، وأنك تصرفت في هذا الأمر من نفسك ثم يقتلك. وعليه فإياك أن تفعل مثل هذا الفعل! وحاول أن تتخلّص منه.

وفعلاً أخذ عيسى بمشورتهم، وكتب عيسى بن جعفر إلى الرشيد يقول له: قد طال أمر موسى بن جعفر ومقامه في حبسي، وقد اختبرت حاله ووضعت من يسمع منه ما يقول في دعائه فما دعا عليك ولا عليّ، وما ذكرنا بسوء، وما يدعو لنفسه إلّا بالمغفرة والرحمة، ولم أرَه إلّا قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً[1]، ولم

---

(١) حينما حُبس الإمام عليه السلام عند السندي بن شاهك سألته أُخته أن تولّى حبسه، وكانت تتدين فسمح لها، فكانت تلي خدمته، تقول: كان إذا صلّى العتمة حمد الله عز وجل ومجّده، ودعاه، فلم يزل كذلك حتى يزول الليل، فإذا زال الليل قام يصلّي حتى يصلّي الصبح، ثم يذكر قليلاً حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يتهيّأ ويستاك ويأكل، ثم يرقد إلى قبل الزوال، ثم يتوضّأ ويصلّي حتى يصلّي العصر، ثم يذكر في القبلة حتى يصلّي المغرب، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة، فكان هذا دأبه.

أسمعه إلّا داعياً. فإن أنفذت إليّ من يتسلّمه منيّ ويحضره إليك، وإلّا خلّيت سبيله؛ فإنني متحرّج من حبسه.

وهنا وجد الرشيد أن من الخطر ترك الإمامعليه السلام عند عيسى؛ لأن هذا قد أصبح يثني عليه ويمدحه في شخصيّته وخصاله؛ ولذا فإنه وجه إليه من يتسلّمه من عيسى بن جعفر، وصير به فسلم إلى بغداد. سُلّم إلى الفضل بن الربيع، فبقي عنده مدّة طويلة، فأراد منه الرشيد أن يقتله، فأبى، فكتب إليه بتسليمه إلى الفضل بن يحيى فتسلّمه منه، وجعله في بعض حجر دوره، ووضع عليه الرصد، فكانعليه السلام مشغولاً بالعبادة يحيي الليل كلّه صلاة وقراءة قرآن ودعاء واجتهاداً، ويصوم النهار في أكثر الأيام، ولا يصرف وجهه من المحراب، فوسّع عليه الفضل بن يحيى وأكرمه، فعلم الرشيد بذلك، فكتب إليه ينكر عليه توسيعه على الإمامعليه السلام، ويأمره بقتله. فتوقّف عن ذلك، ولم يقدم على ما أمره به؛ ممّا حدا بالرشيد أن يستشيط لذلك غيضاً وحنقاً [1].

فلما جاؤوه بعد ذلك به وضعه في سجن عام يقال له سجن القنطرة، وكان هذا السجن في غاية البشاعة والإرهاب؛ ذلك أنه كانت تمارس فيه ألوان لا يمكن أن يتصوّرها العقل من فنون التعذيب وإلحاق الأذى بالنزلاء فيه، وقد اشتهر عنه ما فيه من أدوات تعذيب، وقتل وإبادة، ونشر الإرهاب بين نزلائه. وهذا الحال كان يصفه لنا الشيخ المجلسي بقوله: «كان الإمامعليه السلام يألم من عذاب المعذَّبين أكثرَ مما يألم لنفسه وهو في سجنه»؛ لأنهعليه السلام كان يسمع أصوات المعذبين وصراخهم ويرى آلامهم على وجوههم وتأوهاتهم التي تصدر نتيجة ما يلاقونه من شتى صنوف

☚ وكانت إذا نظرت إليه كذلك قالت: خاب قوم تعرّضوا لهذا الرجل؛ فقد كان عبداً صالحاً.
تهذيب الكمال ٢٩: ٥٠، تاريخ بغداد ١٣: ٣٢ ـ ٣٣، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٧٣، الكامل في التاريخ ٦: ١٦٤.

(١) روضة الواعظين: ٢١٨ ـ ٢٢٠.

التعذيب.

ثم بعد ذلك أرسلوه إلى سجن الفضل بن يحيى بن خالد ثم بعد ذلك إلى سجن غيره، وكل هؤلاء يمتنعون عن قتل الإمام عليه السلام؛ لما يرون عليه من آثار الزهد والورع والعبادة والتقوى، حتى إذا رأى الرشيد منهم ذلك ورأى إصرارهم على عدم تنفيذ أمره في قتل الإمام عليه السلام قال: أرسلوا به إلى سجن السندي بن شاهك، وبمجرّد أن دخل سجن السندي دخل عليه أبو يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وهما من أصحاب أبي حنيفة وكانا يتلمذان للإمام عليه السلام وقد دخلا عليه ليسلما عليه وليسألاه، وحينما كانا جالسينِ معه جاءه الموكل بالسجن فقال له: يابن رسول الله لقد انتهت حراستي لهذا اليوم، وأنا عازم على الذهاب إلى أهلي، فهل من حاجة أقضيها لك وأنا خارج السجن؟ فشكره الإمام عليه السلام على ما أبداه من تعاطف معه.

فلما خرج الموكل بالسجن قال الإمام عليه السلام: **«مسكين هذا يريد أن يقضي لي حاجة وهو لا يعلم أنه سيموت بعد ساعة»**.

فنظر كل من أبو يوسف ومحمد بن الحسن إلى بعضهما وقالا: جئنا نسأله في مسألة شرعية فأخبرنا بمسألة غيبية. ثم أرسلا خلفه من يتتبعه ليرى ما يكون من أمره، فخرج هذا الشخص خلف الموكل بالسجن فلما دخل إلى بيته دخل هذا الشخص الذي أوكلاه بمراقبته إلى مسجد قرب بيته وبقي فيه، وما تناصف الليل حتى سمع الصراخ من بيته، فلما سأل عن السبب قيل له: بأن هذا الموكل بالسجن قد توفي. فلما رجع إليهما وأخبرهما بما حصل جاءا إليه عليه السلام وقالا له: يابن رسول الله لقد علمنا أنك قد أخذت علم الفقه والدين من هذا البيت.. من أبيك عن آبائك، لكن هذا العلم الذي هو إخبار عن المغيبات من أين

أخذته؟

وهنا أجابهما الإمامعليه السلام بقوله: «**قد أخذت هذا العلم من الألف باب التي فتحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي بن أبي طالبعليه السلام، فانفتح له من كل باب منها ألف باب**». فأذعنا وسكتا[1].

على أية حال، فإن الإمامعليه السلام بعد أن نُقل إلى هذا السجن كان نوعاً ما أحسن من السجون التي سبقته؛ فقد كان يلتقي بعض الناس، أو كان يدخل عليه بعضهم للمسألة أو الاستعلام وما إلى ذلك، كما رأينا من أمري أبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن، لكن الرشيد بعد ذلك أخذ يشدّد عليه أكثر وأكثر حتى إنه نقله إلى الطامورة.

وكأنما هذا السجن كان على طبقتين: الطبقة الأرضية التي يوضع فيها عامة السجناء، وهنالك الطامورة التي إذا اُدخل فيها أحدٌ فإنه لا يراه أحدٌ ولا يرى أحداً، وعلى حد تعبير المؤرخين فإنه يقولون: انحدر به إلى الطامورة التي لم تكن يعرف فيها الليل من النهار، أي أنزلوه إليها.

ومكث الإمامعليه السلام في هذا السجن الفترة التي بقيت له من حياته، وكان السّجانون يسمعونه وهو يصلي ويبكي ويناجي ربه جلّ وعلا برقيق الدعاء والمناجيات التي لم تكن تفارقه، ومن ضمن ذلك أنهعليه السلام هناك تفرّغعليه السلام لعبادة ربه سبحانه وتعالى، ولذا فإنه كان يناجي ربه في سجوده قائلاً: «**اللهم إنك تعلم أنني كنت أسألك أن تفرّغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت؛ فلك الحمد يارب على آلائك ونعمائك. إلهي مسكينك بفنائك، وفقيرك بفنائك، يامحسن**

---

(١) الصراط المستقيم ٢: ١٩١ / ١٢.

قد أتاك المسيء، تجاوز عن قبيح ما عندنا بجميل ما عندك»:

من البصره السجن بغداد جابه ... بحديد وگيد ويدور باهابه

ذبّه ابسجن مظلم غلگ بابه ... ونهى السجان يمه ناس يصلون

* * *

بسجن والسندي بن شاهك السجان ... عليه بكل وكت مغلگ البيبان

ظل اسنين للوادم فلا بان

وقد مكث في هذا السجن فترة طويلة ليس له من دأب أو ديدن إلّا العبادة والانقطاع إلى الله جل وعلا، يروي علي بن سويد يقول: دخلت عليه فوجدته متفرّغاً للعبادة، فلما فرغ من صلاته قال: **«ما وراءك يابن سويد؟»**. فقلت: سيدي متى الفرج؟ فقال له: **«يابن سويد، الفرج قريب»**. فقلت: متى يكون ذلك يا سيّدي؟ قال: **«يوم الجمعة على الجسر ببغداد ضحىً»**.

فخرجت منه ولا تكاد تحملني قدماي، فما انتهيت إلى باب من أبواب إخواني إلّا طرقتها وأخبرتهم الخبر وبشّرتهم، إلى أن حانَ الموعد، فاحتشدنا في الطرقات المؤدّية إلى الجسر، وبينما نحن كذلك إذا بالسجانين يحملون على أيديهم جنازة قد لفّت بعباءة، فطرحوها على الجسر، ونودي عليها بذلك النداء الفظيع.

يقول ابن سويد: كانت لي صحبة مع طبيب نصراني كان قد مرَّ أمام الجسر، فقلت له: بالمسيح عيسى عليك إلّا ما نظرت في كفّ هذا المسجّى. فكشف عنه الرداء وأخذ يده فلمّا نظر فيها طويلاً قام ولم يتكلم، فقلت له: ما بالك؟ قال: يا هذا لا تُطل، هل لهذا الرجل من عشيرة؟ قلت: ما الخبر؟ قال: ليطالبوا بدمه

فإن الرجل مسموم.

وانتهى الأمر بأن جاء سليمان وأخذ الجنازة ووضعها في مفترق أربعة طرق، ونودي عليها: ألا من أراد أن يحضر جنازة الطيّب ابن الطيّب فليحضر. فبلغ عدد المشيّعين سبعين ألفاً[1]:

يگلوله غريب اهله امبينين   لاچن بالمدينه عنّه بعيدين

* * *

أتــناست بـاب الحـوائـج فـهرٌ   وهو في قيده يعاني الحـبوسا

---

(١) عيون أخبار الرضاعليه السلام ٢: ٩٣.



﴿١٩١﴾

ملامح الشخصيّة الرساليّة
مسلم بن عقيل بن أبي طالب أُنموذجاً

رسول حسين ونعم الرسول
إليـهم من العترة الصـالحه
لـقد أسـلموه وقـد خذلوه
وغـدرتهم لم تزل واضحه

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأول: دور الشخصيّة الرساليّة

إذا أراد الباحث أن يتلمّس الملامح العامة للشخصية التي تتصف بصفة الولاء لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وتنتمي إليهم عليهم السلام فإنه حتماً سوف يتلمس الملامح العامة للشخصيةِ الرسالية؛ ويبحث عن شخصية كل ملامحها أنها شخصيةأمينة على أداء رسالتها. وهذا في واقع الأمر يعتبر أمراً هاماً جداً على صعيد دراسة الشخصية الرسالية.. الشخصية التي يجب أن تكون أمينة في أداء هذه الرسالة التي يناط بها أمر تبليغها وأدائها والوصول بها إلى الهدف الذي أُعلنت من أجله. وهذا من الأمور الهامة التي راعى وجودها الإمام الحسين عليه السلام في شخصية رسوله إلى

الكوفة، أعني ابن عمّه مسلم بن عقيل عليه السلام.

لقد كان اختيار الإمام الحسين عليه السلام لمسلم بن عقيل اختياراً انتقائياً قائماً على أساس من التفكير السليم والتخطيط الواعي والشعور بالمسؤولية تجاه هذا الهدف الذي كان يرنو إلى تحقيقه، ذلك أن الإنسان وهو يعيش في أُسرته فإنه غالباً ما تنطبع عليه بصمات تلك الأُسرة وعاداتها وثقافاتها وما إلى ذلك من لوازم تفكيرها. وهذا ليس ببعيد عن حال مسلم بن عقيل عليه السلام؛ ذلك أنه عاش في أُسرة هي من أشرف الأُسر، والأُسرة كما بينّا أكثر من مرّة [1] هي من أهمّ وجوه المحيط وتركيباته، وكان لهذا الأمر مدخلية في تكوين وتركيب شخصية هذا الإنسان المؤمن الرسالي.

ولقد عاش رضي الله عنه حالة التأثير والتأثّر الطبيعيتين اللتين لا يمكن أن ينفك عنهما إنسان يعيش في مجتمع، وكل ما في الأمر أن هاتين الحالتين (التأثير والتأثر) تارةً تكونان سلبيتين وتارةً تكونان إيجابيتين. وتأثير مسلم بن عقيل رضي الله عنه وتأثره كان من النوع الإيجابي؛ حيث إنه عليه السلام قد تشرب بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخلاق أمير المؤمنين عليه السلام والإمامين الحسنين عليهما السلام، وبهذا فإنه كان على مستوى رفيع من الأخلاق النبيلة والحسنة، وبهذا فإننا نعرف أن الشخص يسهمُ إسهاماً كبيراً في بناء الأُسرة، والأُسرةُ كذلك تسهم إسهاماً أكبر في بناء ملامح شخصية الإنسان.

وهذا التأثير وهذا التأثّر ينسحبان على كل مفردات حياة الحرب، وحياة السلم.. الحياة التي يشتبك فيها سلاحُ الحقّ مع سلاح الباطل. ولاشك أن هذا الأمر قد مارسه مسلم بن عقيل عليه السلام على أتمِّ وجهٍ بما أثر فيه من تربية نالها من

---

(١) وسيأتي كذلك.

هذه الأُسرة الكريمة ومن أبنائها المعصومين عليهم السلام.

ومعركة الطفّ كانت تعد معركةً حاسمةً في تاريخ الإسلام والتشيع، وهي معركةٌ طبعت بصماتها على الشخصية التي تنتمي لهذه الأُسرة الشريفة، ومعركة الطفّ كذلك لا شك في أنها تخضع من قريب أو من بعيد لتناقض القيم والنفعيّات وهذا يعني أننا إذا أردنا أن نبحث في سيرة سيد الشهداء عليه السلام، هذا الإمام العظيم فإننا سوف لن نجد أن هناك أي جانب أو منطلق نفعي يدفعهُ لولوج هذه المعركة.

كما أن من المستحيل والمتعذّر على كلّ باحثٍ موضوعي أن يقول: بأن هناك دوافعَ مثل هذه وراء قيام معركة الطفّ، فالباحث الموضوعي الأكاديمي الذي ينشدُ الحقيقة لابدّ له أن يقف موقفاً واضحاً إزاء هذه النهضة، وأن يبتعد عن المؤثّرات الخارجية كالمؤثرات الاجتماعية أو السياسية أو غيرها من المؤثرات الشخصية التي ربما تدفع بشخصية الباحث إلى الانجراف وراء الأهواء والآراء، فيبتعد عن الحقيقة والحقّ، ولا يصيب منهما شيئاً. وإذا كان كذلك فإنه حتماً سوف يصف هذه الحركة بأنها ذات دوافع نفعية مادية دنيوية.

إذن فالباحث الموضوعي لا يمكن أن يتوصل إلّا إلى أن هذه الحركة ليس من ورائها أي دوافع دنيوية أو شخصية أو نفعية، وما خلا ذلك فإن هذا الباحث يعد منحرفاً. إن جميع الدوافع التي برهنت عليها الوقائع التي لابست هذه النهضة المباركة تقرر أنه ليس هنالك من دوافع سوى إرادة وجه الله جل وعلا وثوابه والتقرب إليه، ثم بعد ذلك خدمة هذا المجتمع وإنقاذه من السلطة التي أرادت أن ترجع به إلى عهد ما قبل الإسلام. وهذه الدوافع الشريفة النبيلة والأهداف السامية الجليلة التي قامت من أجلها هذه النهضة المباركة هي في واقع أمرها بصمات طبيعية خلفتها هذه الأُسرة المباركة عند أبنائها.

سرّ اختيار الإمام الحسين(عليه السلام) لمسلم(رضي الله عنه)

إننا سنرى من خلال البحث التالي الدوافع التي جعلت من الإمام الحسين(عليه السلام) يتخذ مسلماً(رضي الله عنه) رسولاً له دون غيره، إنّ شأني في ذلك شأن غيري لا أستطيع أن أدعي أنّ كل من ينتمي إلى بني هاشم من نمط واحد وعلى تربية عالية كما أرادها الله جل وعلا ورسوله الكريم؛ ذلك أن هناك الكثير من أبناء الأئمة قد خرجوا عن طريق آبائهم(عليهم السلام)، ونحن لا نجلّهم؛ لأنهم لا يحملون بصمات هذه الأُسرة الشريفة العالية الطاهرة. وبهذا فإننا نستطيع أن نقول بأننا يمكن أن نطلق على هذا البعض تسمية (شاذين)، في حين أن البعض الآخر تظهر عليه بصمات الأُسرة العلوية واضحة بينة.

حقيقة البنوّة

إن الواقع الذي ينبغي الإشارة إليه هو أنّ الابن ليس الذي ينحدر من الأب عن طريق الدم واللحم؛ لأنهما ليس لهما قيمة، والذي له ثمن وقيمة هو أمر أسمى من مسألة اللحم والدم.. أمر يتّسم بسمة المشاعر، فالإنسان ما لم يحمّل ابنه قيمهُ وأخلاقهُ، لا يمكن يعكس صورة حقيقية عنهُ على المستوى الأخلاقي والديني والاجتماعي والتربوي، وبالتالي فإنه لا يمكنه أن يعده شيئاً ذا قيمة وأهمية؛ لأن هذا الابن ليس إلّا امتداداً لهذين الدم واللحم الفانيين، أما الصفات الخالدة فهي بعيدة كل البعد عن هذا الابن.

وبهذا فإنه يمكن للبعيد دماً ولحماً أن يصبح كالابن، وأن يصبح الدم واللحم عينه شيئاً غريباً عن الشخص الذي يفترض به أن يكون قريباً له.

المبحث الثاني: الطبيعة الديموغرافيّة لسكّان الكوفة

ومن هذا التقريب فإننا يمكننا أن ندرك حقيقة اختيار الإمام الحسين(عليه السلام)

لمسلم بن عقيل وإرساله نيابة عنه إلى أهل الكوفة. إن الواقع يقول: إن هذا الاختيار ينمُّ عن أهميةٍ اكتسبها من خلال تعبير الإمام الحسين عليه السلام الذي ورد بكتابه إلى أهل الكوفة بعد أن حمله مسلم بن عقيل عليه السلام، حيث يقول فيه: «**وأنا باعث إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل**»[١].

والمخاطبون بهذا الكتاب هم أهل الكوفة، وهنا لابدّ من إعطاء بعض ملامح الكوفة وأهلها في ذلك الوقت، إن لأهل الكوفة خطراً عظيماً في ذلك الزمان لما لهم ولها من ثقلٍ في الحياة الإسلامية، ولما لها من أثر كبير في سير الأحداث[٢].

ويؤكّد هذه الأهمية الوصية التي أوصى بها معاوية بن أبي سفيان ابنه يزيد حيث قال له فيها: «وانظر أهل العراق؛ فإن سألوك أن تعزل عنهم كلّ يوم عاملاً فافعل؛ فإن عزل عامل أيسر من أن يشهر عليك مئة ألف سيف»[٣].

وهذا يعني أن أهل الكوفة مجموعة غير متجانسة، وأن تركيبتهم لا تتّصف بأنها تركيبة واحدة، بمعنى أن وحدة التجانس والتركيب غير متوفّرة في هذا المجتمع. إننا حينما نرصد السكان في الكثير من البلدان فإننا نرى أن هؤلاء يكونون عادة من قومية واحدة أو ديانة واحدة؛ كأن يكونوا كلهم عرباً أو روماً أو أتراكاً أو ما إلى ذلك، وهذا يعني أنهم تربطهم مع بعض وحدة تجانس، وأن هناك وحدات سلوكية موجودة بينهم تسيطر على سلوكهم وعلى تصرفاتهم مما يؤدي بالنتيجة إلى سهولة ضبطهم والسيطرة عليهم.

إن مثل هذه التركيبة عادة تكون السيطرة عليها أسهل بكثيرٍ من البلاد ذات

---

(١) روضة الواعظين: ١٧٣، الكامل في التاريخ ٤: ٢١.

(٢) ولعلّها المنفذ الذي تمرّ منه الجيوش الإسلامية الفاتحة وهي تنطلق عبر البلاد ممّا وراء النهر.

(٣) الكامل في التاريخ ٤: ٦، كتاب الفتوح ٤: ٣٥١.

الأطياف المختلفة والعناصر غير المتجانسة كما هو الحال مع الكوفة؛ ولذا فإننا وجدنا معاوية بن أبي سفيان يحذر ابنه يزيد من هذا البلد، ويأمره أو يرشده إلى ضرورة استعمال اللين معهم وتلبية مطالبهم حتى لا يثوروا عليه، وبالنتيجة فإنه يصعب إسكات مئة ألف سيف.

وهنا أود أن أُلفت النظر إلى أن علماء الاجتماع عندما يحاولون البحث في التركيبة السكانية لمدن الموانئ أو المناطق الساحلية التي تكون فيها موانئ، فإنهم يعاملون هذه المدن معاملة تختلف عن المدن الأُخرى التي تقع داخل البلد؛ الميناء عادة يسكنه أشكال وأجناس كثيرة من الناس من ذوي الطبائع المختلفة، فبعضهم حاد الطبع وبعضهم بارد وبعضهم يحتمل بعض القوانين وبعضهم لا يحتملها وبعضهم تصلح له أخلاق من نوع ما وآخر لا تصلح له بل تصلح له أخلاق غيرها.

وهكذا فإننا نجد التنوع في التقاليد والعادات والممارسات والأخلاقيات والموروثات بحكم الاختلاف السكاني الموجود في مدن الموانئ، وهذا ينتج عنه نسيج غير متجانس وتنوع في التقاليد والتعاملات فيما بينهم، بل ربما ينتج عنه أيضاً حالة من عدم الاستقرار في التعامل داخل المجتمع؛ لأن العادات غير متشابهة والطبائع مختلفة والاعتقادات والمبادئ تتباين من مجموعة إلى مجموعة ومن نوع إلى نوع.

وعلماء السلوك أو الاجتماع حينما يدرسون هذه المدن، فإنهم يأخذون بنظر الاعتبار أن هذا الاختلاف في التركيبة السكانية يعني أن هناك مجموعات تكثر فيها جرائم من نوع معين، وهنالك تركيبات أُخرى تكون عندها هذه الدوافع إلى هذه الجريمة بشكل أقل وربما تكون عندها دوافع أكبر إلى نوع آخر من أنواع

الجريمة؛ وبهذا فإنهم يركزون أكثر على هذه الجنبة وهم يدرسون هذه المناطق أو هذه المدن لما فيها من مجتمعات غير متجانسة. وفوق هذا فإنهم يركزون على هذه المدن بشكل أكبر لأنها تمثل وشيجاً غير متجانس ولا تتوفر فيه الوحدة السلوكية، وبالتالي فإنها تمثل مختبراً لإقامة التجارب، ولكنها تجارب سلوكية فيستطيعون أن يخرجوا منها بنتائج حول المجتمعات الأكبر التي ينتمون إليها. وبه يبينون أو يشرعون أو يقنّنون كيف يجب أن يكون التعامل مع هؤلاء، بحيث إنه يتم ضبطها والسيطرة عليها، وما هي وسائل الأمن التي تصلح لها.

وبالرجوع إلى محور حديثنا وهو بلد الكوفة وهو بلد في واقع الأمر يمثل ـ كما ذكرنا ـ وحدة غير متجانسة، فهو أشبه ما يكون بالبلد الساحلي أو البلد الذي يكون فيه ميناء، وقد قصده الكثير من الناس من مختلف الأطياف والأديان والقوميات وما إلى ذلك؛ لأنه (بلد الكوفة) في الأساس كان معسكراً وليس مدينة سكن، فالمدينة يسكنها أهلها من أبناء الجنس الواحد والديانة الواحدة والنوع الواحد، وعادة تكون فيها حياة وتكون فيها زراعة وصناعة وما إلى ذلك من الفعاليات الحياتية المختلفة. كما أنها تمارس فيها أنواع الكسب كافة فلا أقل من أن تقع على طريق للقوافل التجارية أو القوافل السياحية التي عادة يكون الهدف والغرض منها اقتصادياً.

وهذا الأمر يختلف مع الكوفة لأنها كانت تمثل معسكراً وليست مدينة، فهي في بادئ أمرها كانت محطاً للعساكر والجيوش التي تتوجه إلى فتح البلاد؛ ذلك أنها رملة مرتفعة.

وقد كتب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب كتاباً إلى سعد بن أبي وقاص قال فيه: اتّخذ للمسلمين دار هجرة تصلح لهم ولنياقهم، ولا تجعل بينها وبينهم بحراً. فأتى

الأنبار وأراد أن يتّخذها منزلاً، فكثر على الناس الذباب، فتحوّل إلى موضع آخر فلم يصلح، فتحوّل إلى الكوفة فاختطّها وأقطع الناس المنازل، وأنزل القبائل منازلهم، وبنى مسجدها، وذلك سنة (١٧)هـ[1].

أي أنه يأمره بأن يتخذ مكاناً ليس فيه حشرات مؤذية كالبعوض، ولا حيوانات مثلها فتؤذي الجيش أو تقتل بعض أفراده. كما أنه إذا كان نجداً فهذا يعني أن هواءه أنقى وأصلح وأقلّ تلوثاً؛ ولهذا فإنه اختار الكوفة التي كانت منطقةً صحراويةً مرتفعةً، وهي امتداد طبيعي للنجف، يقول أحد الشعراء المعاصرين مخاطباً تربتها:

صدق الذي سمّاك في وادي طوى	يا دار بل وادي طوى وعَراءِ
جلست على الأنهار بلدان الورى	فعلام أنت جلست بالصحراء

وهذا المعسكر جميع أفراده من أغلب البلاد الإسلامية؛ فكان فيه البصري والكوفي والواسطي والشامي، إضافة إلى ما فيه من أسرى ممّن كانوا يجلبون أثناء بعض الحروب التي يخوضونها كأسرى الروم وأسرى الفرس والنبط وغيرهم من الجنسيات المختلفة المتنوعة. وبهذا فإن المنطقة أصبحت منطقةً غير متجانسة، وكان النسيج السكاني فيها عبارة عن أطياف وقوميات وأفراد مختلفة في التفكير والرأي والحضارة والسلوك ومستوى التفكير ونمطه، وما إلى ذلك من الفوارق الثقافية والفكرية والحضارية التي تميز كل أبناء بلدة وجِلدة عن غيرهم من القوميات الأخرى.

فالتنوع الأخلاقي الذي كان يخيّم عليهم من الصعب على السلطات الحاكمة

---

(١) انظر: فتوح البلدان ٢: ٣٣٨ / ٦٩٨، معجم البلدان ٤: ٤٩١ ـ الكوفة.

آنذاك أن تسيطر عليه، وبعد أن استقرَّ الحال أصبحت الكوفة بلداً واضح المعالم متكاملاً وليست مجرد معسكر؛ فبنيت بها الدور وبني بها مسجد للعبادة، واتخذت فيها بعض الأعمال وما إلى ذلك. ثم نما السكان فيها نمواً هائلاً وسريعاً، فكثر أهلها ممن جاؤوا للسكن فيها؛ سواءً جاؤوا مهاجرين إليها، أو من ذوي المعسكر والجنود، أو الأسرى الذين بقوا فيها. وبعبارة مختصرة: إنها كانت وحدة سكانية غير طبيعية، وفيها أنماط غريبة متنوعة من الناس.

ولعل هذا هو ما يفسّر السبب الذي من أجله أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان في آخر أيامه يتعايش معهم تعايش الجسد ـ أي تعايش جوار ـ ولم يكن يتفاعل معهم أو يستأنس بهم؛ لأنهم كانوا أحزاباً متفرقةً متناثرة، لا يقفون موقفاً واحداً، ولا يلتفون حول قائدٍ واحد. ويؤيد هذا قوله عليه السلام مخاطباً إياهم في وصيّته: «**وإنما كنت جاراً، جاوركم بدني أياماً**»[1].

---

(١) من كلام له عليه السلام قبل موته؛ ولما فيه من مضامين عالية أحببنا أن نورد بعضاً منه، يقول عليه السلام: «أيها الناس، كلّ امرئ لاقٍ ما يفرّ منه في فراره، والأُجل مساق النفس، والهرب منه موافاته. كم اطّردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا الأمر، فأبى الله إلّا إخفاءه. هيهات، علم مخزون.

أمّا وصيّتي، فالله لا تشركوا به شيئاً، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا تضيّعوا سنّته. أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين، وخلاكم ذمّ ما لم تشردوا. حمل كلّ امرئ منكم مجهوده، وخفف عن الجهلة. ربّ رحيم، ودين قويم، وإمام عليم. أنا بالأمس صاحبكم، وأنا اليوم عبرة لكم، وغداً مفارقكم، غفر الله لي ولكم. إن تثبت الوطأة في هذه المزلّة فذاك، وإن تدحض القدم فإنما كنا في أفياء أغصان ومهبّ رياح، وتحت ظلّ غمام اضمحلّ في الجوّ متلفّقها، وعفا في الأرض مخطّها. وإنما كنت جاراً جاوركم بدني أياماً، وستعقبون مني جثّة خلاء، ساكنة بعد حراك، وصامتة بعد نطق؛ ليعظكم هدوي وخفوت إطراقي وسكون أطرافي؛ فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ والقول المسموع. ودّعتكم وداع امرئ مرصد للتلاقي. غداً ترون أيامي، ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلو

وهو تعبير دقيق جداً، فلم يعبر عليه السلام بعبارة «جاورتكم روحي»، بل إنه عليه السلام استخدم الجوار للجسد، وجعله من خواصه في هذه المسألة، وهذا يعني أنها مجاورة مكانية فقط، ولا تتعداها إلى المجاورة الفكرية. ومؤدّى هذا لم يكن عليه السلام ليندمج معهم ولم يكن قريباً منهم؛ لأنهم في الواقع لم يحاولوا أن يستفيدوا منه أو أن يريحوه مما كان يعتريه من همّ يحسه بسبب ما كان يستشري في الجسد الإسلامي من أمراض وغيرها حاول الأُمويّون أن يدسوها فيه؛ كي يُرجِعوا الناس إلى جاهليتهم. وكما قلنا فإن هذا يعود إلى كونهم مجموعة غير متجانسة فلا يمكن السيطرة عليها إدارياً أو سياسياً.

ثم إن الكوفة لم تكن بالبلد الصغير، بل إنها في ذلك الوقت كانت تمتد من ذي قار إلى طريق الحجاز في الكوفة، فكل هذه المنطقة الشاسعة كان يطلق عليها لفظ الكوفة. إذن فمنطقة بهذه المساحة الشاسعة وبهذا الاختلاف والتنوع الديموغرافي للسكان فإن من الواضح ومن الطبيعي أن يصبح أمر ضبطها ليس باليسير بل هو متعذر تطبيقه.

لماذا اختار الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل عليه السلام؟

وبعد هذا التوضيح الذي ذكرنا نفهم الغاية والعلة التي من أجلها اختار الإمام الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل رسولاً له إلى أهل الكوفة، ذلك أنه كلفه بمهمة دراسة استعدادهم ومدى قبولهم لاتّباع أهل البيت عليهم السلام ولنصرتهم. وهذه الرسالة بطبيعة الحال تتطلب شخصاً كفوءاً، وتحتاج إلى عنصر واعٍ يتحلى بكفاءات عدة على المستويات كافة، ويتصف بالأهلية الكاملة ليقوم بهذه المهمة الخطرة والخطيرة

☚ مكاني وقيام غيري مقامي...». نهج البلاغة / الكلام: ١٤٩، الكافي ١: ٢٩٩ / ٦.

في آن، وليس شخصاً عادياً لا يمكن أن يقوم بذلك.

لقد كان مسلم بن عقيل عليه السلام يحمل كل أسباب الكفاءة. وسوف أذكر الآن بعض الملامح العامة التي تميز شخصية هذا الرجل الرسالي العظيم، لقد كان هذا الرجل ـ كما ذكرنا ـ يحمل كل صفات الأهلية التي يجب أن تتوفر في الشخصية المنتدبة للقيام بما كلف القيام به من أمور مصيرية بما تمتلكه من هدف حيوي ونبيل.

ومن أبرز المؤهلات التي اتّصف بها الشجاعة والإقدام والعزم على المضي في ما كلف فيه، وما أُرسل من أجله. يذكر المؤرخون أنه سار معه دليلان فقط ليرشداه إلى الطريق، لكن الذي حصل أنهما ماتا أثناء تلك الرحلة، وقبل أن يسلما الروح أشارا له إلى اتجاه الطريق الصحيح كي يستدل إليه بعدهما، وفعلاً بعد أن توفيا جاء إلى الطريق الذي أشارا إليه حتى وصل إلى مكان استطاع منه أن يكتب كتاباً إلى الإمام الحسين عليه السلام ويرسله مع أحد الناس، تقول الرواية: سارت قافلة مسلم تجدّ في السير لا تلوي على شيء، يتقدّمها الدليلان وهما يتنكّبان الطريق؛ خوفاً من الطلب، فضلاً عن الطريق، ولم يهتديا له وقد أعياهما السير واشتدّ بهما العطش، فأشارا إلى مسلم بسنن الطريق بعد أن بانَ لهما، وتوفيا في ذلك المكان.

فلمّا توفّيا سار مسلم مع رفقائه حتى أفضوا إلى الطريق، ووجدوا ماءً فأقاموا فيه ليستريحوا ممّا ألمّ بهم من عظيم الجهد والعناء. وهنا بعث مسلم كتاباً للإمام الحسين عليه السلام جاء فيه: «أما بعد: فإني أقبلت من المدينة مع دليلين، فجازا عن الطريق فضلاً، واشتدّ عليهما العطش فلم يلبثا أن ماتا، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء فلم ننجُ إلّا بحشاشة أنفسنا، وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن

الخبث. وقد تطيّرت من توجهي هذا، فإن رأيت أعفيتني منه، وبعثت غيري والسلام».

وهذا الكتاب وإن كان البعض من المؤرخين يثق فيه إلّا إنني أستبعد صدوره من مثل مسلم بن عقيل.

وعلى أية حال، فإن التطير المذكور في الكتاب لا يشكل جانب نقص أو مثلبة عند مسلم؛ لأن عندنا ـ نحن الشيعة ـ أن الأئمة هم الذين لا يتطيّرون فقط، وما عداهم فيكره له التطير. وهنا كتب له الإمام الحسين جواباً لكتابه جاء فيه: **«أما بعد، فقد خشيت ألّا يكون حملك على الكتاب إليّ في الاستعفاء من الوجه الذي وجّهتك له إلّا الجبن، فامضِ لوجهك الذي وجّهتك فيه والسلام»**.

فقال مسلم لمن قرأ الكتاب: «هذا ما لست أتخوّفه على نفسي»[1].

وفعلاً مضى مسلم في طريقه، وأقبل حتى دخل الكوفة وحده، وهو تصرفٌ ينمّ عن لون عالٍ من ألوان الإقدام خصوصاً أن صاحبه قد أقدم على بلد لا يعرفه ولا يعرف أهله وليست له خبرةٌ بأحوالهم وعاداتهم وثقافاتهم وما إلى ذلك. وبعد أن دخل الكوفة قصد دار المختار ثم تركها بعد ذلك وانتقل إلى دار هاني بن عروة، ومنها أدار الحركة ومنها جعل مقراً لقيادة الثورة.

عوامل فشل حركة مسلم بن عقيل

لقد اجتمعت عوامل عدّة حالت دون نجاح حركة مسلم بن عقيل، وكانت هذه العوامل خارج نطاق إرادته وسيطرته، وهي عوامل بعيدة جداً عن عامل نقص الكفاءة أو عدم المقدرة في القيادة الإدارية أو العسكريةِ أو السياسية. ومن

---

(١) الإرشاد ٢: ٣٩ ـ ٤٠، تاريخ الطبري ٤: ٢٦٣ - ٢٦٤.

باب المقدمة لهذا المبحث نذكر أنه عليه السلام حينما دخل على عبيد الله بن زياد في مجلسه يروي المؤرخون أن هناك محاورة قاسية دارت بينه وبين عبيد الله هذا، ذلك أنه لمّا جيء به عليه السلام وأُدخل على عبيد الله بن زياد اتّهمه ابن زياد بأنه يهدّد أمن المجتمع، فقال له: إيه ابن عقيل، أتيت الناس وهم جمع فشتتّت أمرهم، وفرّقت كلمتهم، وحملت بعضهم على بعض.

وهنا وقف مسلم موقف المدافع عن الحقّ، فقال: كلّا، لست لذلك أتيت، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم واستبقى شرارهم، وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، وجعل مال الله دولة بين أغنيائهم وجبابرتهم، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى الكتاب. فقال له ابن زياد: وما أنت وذاك يا فاسق؟ لِمَ لمْ تعمل فيهم بذلك إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر؟

وهنا فإننا نجد أن مسلماً لم يكن لينزل إلى هذا المستوى من البذاء، لكنه أراد أن يبين الحق، فقال: أنا أشرب الخمر؟ أما والله، إن الله ليعلم أنك غير صادق، وأنك قد قلت بغير علم، وأني لست كما ذكرت، وأنك أحقّ بشرب الخمر منّي، وأولىٰ بها من يلغ في دماء المسلمين ولغاً، فيقتل النفس التي حرّم الله قتلها، ويسفك الدم الذي حرّم الله على الغصب والعداوة وسوء الظنّ، وهو يلهو ويلعب، كأن لم يصنع شيئاً. فقال له ابن زياد: يا فاسق يا عاقّ يا شاقّ، إن نفسك منّتك ما حال الله دونه، ولم يرَك الله له أهلاً. فقال مسلم: فمن أهله إذا لم نكن نحن أهله؟ فقال ابن زياد: أمير المؤمنين يزيد. فقال مسلم: الحمد لله على كلّ حال، رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم، فاقضِ ما أنت قاض.

فقال له ابن زياد: قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يُقتلها أحد في الإسلام من الناس. فقال له مسلم: أما إنك أحقّ من أحدث في الإسلام ما لم يكن، وإنك لا

تدع سوء القِتلة وقبح المُثلة وخبث السيرة ولؤم الغلبة، لأحد أولى بها منك.

فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم الحسين وعلياً عليهما السلام وعقيلاً، وأخذ مسلم لا يكلمه، ثم أمر ابن زياد بأن يُصعد به فوق القصر ويضرب عنقه، فقال مسلم رحمه الله: والله لو كان بيني وبينك قرابة ما قتلتني[1].

ثم التفت في المجلس باحثاً عن شخص يوصيه وبعد أن طلب منه من ينفذ وصيّته بعد استشهاده قال له عمر بن سعد: أنا أُجيبك إلى ذلك، فطلب منه أن يقوم ببيع ما يملك وهو عبارة عن سيفه ودرعه ويقضي عنه دينه، وأن يستوهب جثته بعد القتل ويدفنها، وأن يبعث إلى الإمام الحسين عليه السلام من يخبره الخبر، وأن يطلب منه أن يرجع عن هذا المقصد ويعود إلى مدينة جده صلى الله عليه وآله وسلم، أي أنه يبين له أنّ هؤلاء الذين طالبوه بالقدوم إلى الكوفة لم يكونوا على مستوى الرجولة أو الأخلاق أو الصفات التي يجب أن يتصف بها المسلم.

وعلى ضوء هذه الوصايا الثلاث التي أوصى بها لعمر بن سعد سوف تتمحور دراستنا لشخصية هذا الرسالي العظيم، فحينما دخل مسلم بن عقيل الكوفة كان الوالي عليها النعمان بن بشير، والمعروف عن هذا الرجل أنه كان مترهّباً ناسكاً، ويعزو بعض المؤرخين برودة موقف النعمان بن بشير من مسلم ومن عبيد الله بن زياد بعد ذلك حينما ظنه الإمام الحسين عليه السلام، وذلك حينما دخل الكوفة إلى أن هنالك خلافات بينه وبين بني أُمية، وهذه الخلافات قائمة على ما يروى من أن هناك مشكلة أو قضية خلقية لا أودّ أن أخوض فيها من على هذا المنبر، لأني أُريد أن أُنزّهه عن مثل هذه الأُمور.

---

(١) الإرشاد ٢: ١٩٧ - ١٩٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٧ ـ ٥٠، مثير الأحزان: ٢٥، بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٦، تاريخ الطبري ٤: ٢٨٢.

هذا ما يذكره المؤرخون مع أن الحقيقة ليست كذلك، فالمعروف عن هذا الرجل أنه كان ناسكاً كما قلنا، ويتوفّر على شيء من الورع والرهبانية؛ ولذا فإنه حينما ولي أمر الكوفة صعد المنبر خاطباً فقال: أمّا بعد، فاتّقوا الله عباد الله ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة؛ فإن فيهما يهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الأموال. وكان يحب العافية، فقال: إني لا أُقاتل من لا يقاتلني، ولا أثب على من لا يثب عليّ، ولا أُشاتمكم، ولا أتحرّش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظنّة ولا التهمة. ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنّكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ولو لم يكن لي منكم ناصر. أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحقّ منكم أكثر ممّن يرديه الباطل [١].

وهنا سنناقش ملامح الشخصية الرسالية عند مسلم على ضوء هذه الوصية، وذلك كالآتي:

الوصيّة الأولى: بيع سيفه ودرعه وسداد دينه

إن مسلم بن عقيل حينما دخل الكوفة لم يكن مع النعمان بن البشير في القصر سوى بضعة نفر من الحرس وكان بإمكان مسلم أن يخرجه من قصر الإمارة ويستولي عليه، وعلى بيت مال المسلمين، وينفق منه ما يشاء. لكنه لم يفعل، ولم يغره بريق الذهب والفضة. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن مسلم بن عقيل كان قد طلب في مرحلة الإعداد للثورة والحركة جمع الأموال والتبرع بها لهذه الثورة، فجمعت له الآلاف لكنه مع ذلك لم يمدّ يده إليها ولم يتصرف بها، بل إنه اقترض من أحد الشخصيات مبلغ سبعمئة درهم ليدير بها شؤونه ويقضي بها

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ٢١ ـ ٢٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٦٤، البداية والنهاية ٨: ١٦٣، الكامل في التاريخ ٤: ٢٢.

حاجاته خلال وجوده بالكوفة.

إذن فقد اقترض هذه السبعمئة درهم ليقضي بها حاجاته ولوازم معيشته وهو في الكوفة، مع أنه كان بإمكانه أن يمد يده إلى ما تبرع به الكوفيون للثورة، أو كان بإمكانه أن يخرج النعمان بن البشير ويستولي على بيت المال. ونحن حينما نرجع إلى ولاة الأُمويّين والعباسيين فإننا نجد أنهم كانوا يملكون الأموال الطائلة التي لا عدَّ لها، ومن ذلك ما ينقل عن بلال بن أبي بردة الذي كان أحد عمال يزيد بن معاوية، حيث يقول عنه المؤرخون: إنه قد حُمل له من الأموال أكداس وقناطير مقنطرة.

وكان عبد الرحمن بن زياد قد بعث له يزيد بهدية مقدارها عشرون ألف ألف درهم، فكان أن انتهى الأمر بهذه العشرين المليون درهم أن أُنفقت في غير محلّها وفي غير وجهها الشرعي، حتى إن حالة عبد الرحمن بن زياد كما يروي المؤرخون عنه أنها وصلت به تحت وطأة الفقر والحاجة إلى أن يعمد إلى نسخة من القرآن الكريم كانت عنده، وكانت محلّاة بشيء من الذهب، فنزع الذهب عنها وباعه ليأكل من ثمنه[1].

وأمام هذه السنخية سنخية أُخرى تضادها تماماً، يقول هارون بن عنترة: دخلت على أمير المؤمنين ﵇ علي بن أبي طالب ﵇ بالخورنق والسدير فوجدت عليه سمل قطيفة وهو يرتعد من البرد.

وبطبيعة الحال فإن هذا الرجل واهم؛ لأن الامام ﵇ ما كان ليتأثر بالحر والبرد؛ فقد دعا له النبي ﷺ بقوله: **«اللهم قِهِ الحرّ والبرد»**[2]. لكنه ﵇ كان إذا

---

(١) وكذلك عامل المأمون الذي اعترض المعتصم عليه.

(٢) الإرشاد ١: ١٢٦، مناقب آل أبي طالب ٢: ٦٦، ١٣٠، كشف الغمّة ١: ٢١٣.

أراد الوضوء أو الصلاة ارتعش وارتعدت فرائصه ومفاصله خوفاً وخشية من الله جل وعلا. يقول: فقلت له: إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في بيت المال حقاً. قال: **«إني أكره أن أرزأكم من أموالكم شيئاً، إن الله يعلم أنها القطيفة التي خرجت بها من أهلي في المدينة، وإن خرجت منكم بغيرها فأنا خائن»**(١).

أما طعامه عليه السلام فلم يكن أكثر مما يرويه سويد بن غفلة حينما قال: دخلت عليه وهو في طريقه إلىٰ الحجاز، فوجدت جراباً معلقاً ومختوماً، فلما حان وقت الظهر أنزل ذلك الجراب ومد يده فيه ثم أخرج شيئاً من السَّويق، فقلت: يا سيدي، أراك قد أغلقته! قال عليه السلام: **«أوَتظن ذلك لبخل؟ لا والله ولكن هذا طعامٌ من أرض أنا أزرعها منذ كنت بالحجاز، والآن يزرعها أهلي ثم يبعثون لي منها، وأنا آكل منه ولا أُحب أن يدخل بطني إلّا الطعام الطيب»**.

وهو عليه السلام كان يمدّ يده إلىٰ رغيف الخبز ويأكله، ثم يمسح بيده علىٰ بطنه ويقول: **«من أدخله بطنه النار، فأبعده الله»**(٢).

وكان يجلب إلى بيته قوصرّة تمر وهو يرتجز:

«أفلح من كانت له قوصرّه ... يأكل منها كلّ يوم مرّه»(٣)

---

(١) ومن ذلك حديث أبي الدرداء حينما جاء فاطمة الزهراء عليها السلام صارخاً ينعاه إليها بعد أن رآه يتعبّد الله تعالى عند مغيلات النخل خارج المدينة، وقد أجابته الزهراء عليها السلام بقولها: «هي والله - يا أبا الدرداء - الغشية التي تأخذه من خشية الله تعالى».
الأمالي (الصدوق): ١٣٧ ـ ١٣٩ / ١٣٦، روضة الواعظين: ١١١ ـ ١١٢، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٩، ٢: ٣٢. وسيأتي مفصّلاً في محاضرة (حقيقة الزهد) من هذا المجلّد.

(٢) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث ٣: ٨٦ ـ قرر، البداية والنهاية

فهوعليه السلام يؤكد أنَّ الأمر لا يتوقّف عند حدّ أنه لا يريد أن يدخل جوفه طعام محرم بل وحتى الطعام الذي فيه شبهة بل وحتى بيت المال وإن كان لهعليه السلام حق فيه فهو يفضل أن يأكل من عرقه وكدّه على أن يأكل من بيت مال المسلمين مع أنهعليه السلام كان عنده ألف مبرر وألف وسيلة وطريق ليمد يده ويأخذ من بيت مال المسلمين. إن الأساس الذي دفع الإمامعليه السلام إلى هذا الموقف هو أنه لا يريد طريقاً توصله إلى معدته فيه شبهة أو فقدان كرامة أو اعتداء على أكثر من الحق؛ ولذا فهوعليه السلام يفضل أن يأكل من عرقه كي يبيت وهو مطمئن بأنه قد أكل من طريق مشروع وشرب من طريق مشروع عن طريق عرقه وكده. ولذا فإنهعليه السلام كان ينزل إلى الأرض الزراعية وبيده مسحاته وهو يقول:

لنقل الصخر من قلل الجبالِ … أحبّ إليّ من منن الرجالِ

يقول الناس لي في الكسب عار … فقلت العار في ذلّ السؤالِ[1]

فهذا الرجل العظيم طعامه مما تجود به يده وعرق جبينه ولباسه تلك القطيفة السملة أو المدرعة التي يصورها بأحسن تصوير في قولهعليه السلام: **«ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ»**[2].

وكانعليه السلام يقول: **«ما لعلي ولنعيم يفنىٰ ولذة لا تبقىٰ؟»**[3]، وحقّ للشاعر حينما يقول:

☚ ٨: ٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٠. والقوصرّة: الوعاء الذي يكنز فيه التمر من البواري. الصحاح ٢: ٧٩٣ ـ قصر.

(١) المبسوط (السرخسي) ٣٠: ٢٧٢.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

(٣) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

أأبا الحُسينِ وتِلكَ أروعُ كنيةٍ وكِلاكُما بالرّائعات قَمِينُ
لكَ في خَيال الدَّهرِ أيُّ مَلامحٍ تَروي السَّنا ويُترجِمُ النَّسرينُ
في الصبح أنت المُستَحِمُّ منَ اللَّظىٰ واللَّيل في المحرابِ أنتَ أنينُ
تكسو وأنتَ قطيفةٌ مَرقوعةٌ وتَموتُ من جوعٍ وأنت بَطينُ
آلاؤك البيضاءُ طوَّقتِ الدُّنَا فَلها علىٰ ذِممِ الأنامِ دُيونُ(١)

إننا حينما نتأمل هذه السنخية الفريدة والهمة العالية نجدها عند أغلب أهل هذاالبيت المطهر.. البيت الشريف، ومن هؤلاء مسلم بن عقيل الذي أبى أن يمد يده إلى بيت المال مع قدرته على الوصول إليه أو إلى التبرعات المخصصة للثورة وهي تحت سلطته وتحت سيطرته. لقد أبى إلّا أن يدخل جوفَه طعام حلال ليس به شبه وإلا أن ينام على فراش حلال ليس فيه شبه، فأي عطر أزكى من هذا العطر! وأي نُبل أكبر من هذا النبل! فأن تسموَ بالإنسان نفسه وتحت متناول يده الذهب والفضة، ثم يتنازل ولا يمدّ يده إليهما، ويترفع حتى عن حقه المشروع الذي وهبه الله له لهو قمة النبل والكرامة والورع والتقوى والإنسانية. إن هذا اللون من التصرف الواعي المدروس الذي يرتبط مباشرةً بالله جل وعلا لا يمكن أن نجده إلّا عند ذوي النفوس الكبيرة التي تترفع عن الرغبات المؤقتة واللذائذ غير الدائمة.

الوصية الثانية: استيهاب جثته عليه السلام

وجاء في وصيته الثانية أنه طلب من ابن سعد أن يستوهب جثّته بعد القتل، ويدفنها. ولنا أن نتساءل عن الدوافع التي اضطرّت مسلم بن عقيل عليه السلام إلى أن

---

(١) ديوان المحاضر: ١٩.

يطلب أو أن يوصي بهذه الوصية، إن الجميع يعلم كما قالت أسماء لابنها عبد الله بن الزبير: إن الشاة لا يضيرها السلخ بعد الموت [(١)]:

وما هذه الأجساد من بعد نزعها سوى قفص خالٍ وقد أفلت الشادي [(٢)]

والحقيقة أنه عليه السلام يريد من وراء هذه الوصية أن يجنب الناس منظراً من المناظر غير النبيلة.. المناظر التي لا ترتضيها الرجولة ولا تقرها الشهامة، أعني مناظر المثلة. والمعلوم والثابت تاريخياً أن الأُمويّين كانوا أبطالاً في هذا الميدان. وهذا هو السبب الذي من أجله أوصى أمير المؤمنين عليه السلام بأن يُخفى قبره عن الناس، وأن يدفن سرّاً [(٣)]؛ لأن هؤلاء الجاهليين (الأُمويّين) لم يكن عندهم وازع ديني أو إنساني ولا مانع أخلاقي من أن ينبشوا القبر بعد ذلك وأن يمثّلوا بالجثّة التي يعتبر التمثيل بها تمثيلاً بالإسلام.

وسوف أروي هنا شاهداً واحداً يدل ويؤكد صحة ما ذكرته، وهو نبشهم قبر طفل عمره ستة أشهر في واقعة الطف، ذلك أن عمر بن سعد سأل جنوده عندما جلبوا له الرؤوس فقال: هناك رأس مفقود، فأين هو؟ قالوا: رأس من هو؟ قال: إن الحسين قتل له طفل اسمه عبد الله الرضيع، فأين رأسه؟ قالوا: بلغنا أن أباه احتفر له بجفن السيف، وواراه في أرض المعركة. وكان الإمام عليه السلام قد واراه تجنيباً للنساء عن هذا المنظر المؤلم. فقال: انبشوا الأرض برماحكم، وأخرجوه واحتزّوا رأسه وجيئوني به.

وقد حدثنا التاريخ عن تمثيلهم بجثة عمرو بن الحمق الخزاعي رضي الله عنه في

---

(١) شجرة طوبى ١: ١٢٤، بلاغات النساء: ١٣٧.
(٢) البيت للشيخ علي الشرقي. مدينة النجف (محمد علي التميمي): ٧٦ - ٧٧.
(٣) الغارات: ٨٤٧، الإرشاد ١: ٢٣، إعلام الورى ١: ٣٩٣، فرحة الغري: ٦٦.

الموصل حيث إنه طورد ولوحق حتى الكهف الذي التجأ إليه، ثم مجيئهم برأسه على طرف رمح إلى الكوفة تاركين جسده هناك [١].

وكذلك فعلهم مع زيد؛ حيث صلبوه بعد قتله منكوساً على أُمّ رأسه. والأنكى من كلّ هذا أنهم تركوه مصلوباً أربع سنين، حتى عشّشت الفاختة في جوفه، وكان ﷺ قد استرسل جلده على عورته فسترها. فكتب هشام كتاباً جاء فيه: «أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا، فانظر عجل أهل العراق فأحرقه، وانسفه في اليمّ نسفاً. والسلام» [٢].

وكم من جسد من بعد مصرعه قد عمدوا إليه وفعلوا به الشيء نفسه؛ فقد حدث هذا في أكثر من وقعة وأكثر من مكان وواقعة. ولو رجعنا إلى الوراء قليلاً.. إلى حروب الرسول الأكرم ﷺ لوجدنا أن هذه الشيمة الرذيلة موجودة عند أبيهم أبي سفيان فقد فعل الفعل نفسه مع عاصم بن أبي الأقلح، فقد كان عاصم هذا بطلاً من أبطال المسلمين وقد أنكى نكاية كبيرة في جيوش المشركين، وبعد أن قتل طلب منهم أبو سفيان أن يدلّوه عليه، فقالوا له: ما تريد منه؟ قال: أُريد أن أقطع رأسه وأسلخ جلده وأستخرج قحفه؛ لأضع فيه الخمر وأشربه [٣].

وهذه كتب التاريخ أمامنا تذكر هذا حتى إن عاصماً هذا سمّي حمي الدبر، لأن الله جل وعلا قد أرسل إليه الدبر [٤] التي أصبحت تحوم حول جسمه، فحمته من محاولات أبي سفيان الشائنة. وهو طبع لئيم يدل على خسة صاحبه، وينبئ عن دنوّ همته، وعن لؤم طبعه ومنبته، وخساسة معدنه:

---

(١) الاستيعاب ٣: ١١٧٤ / ١٩٠٩، البداية والنهاية ٨: ٥٢.

(٢) مقاتل الطالبيّين: ٩٨، عمدة الطالب: ٢٥٨.

(٣) الحادثة في تاريخ مدينة دمشق ٣٢: ٢٠٢، لكنه نسبها لسلافة بنت سعيد من بني عوف.

(٤) الدبر: جماعة النمل، جمع دبور.

إن الأُســـود أُســـود الغـــاب هـــمّتُها ... يوم الكريهة في المسلوبِ لا السلبِ (١)

فالإنسان إنما يقتل عدوه ليدفعه عن نفسه فإذا فعل ذلك وقتله فليس من النبل في شيء أن يعمد إلى الجسد الميت فيقطعه؛ لأن هذا منظر غير كريم، والرجولة والشرف والإنسانية لا ترتضي هذا الفعل، فهمُّ الرجل أن يقتل عدوه لا أن يسلب رداءه أو أن يقطع أوصاله وأعضاءه.

وبالعودِ إلى وصية مسلم فإننا نجد أن الدافع الذي دفـع مسـلماً﵇ إلى هـذه الوصية هو ما كان يعلمه من أمر الأُمـويّين واسـتهانتهم بـالإنسان والإنسـانية، فهو﵇ لم يكن بالذي يغفل عن هذه الأمور ولم يكن بالذي لا يعرف تـاريخهم ونواياهم وما يمثلونه من جاهلية عمياء ومن ظلامية، فهو﵇ كان يعرف كل هذا؛ ولذا فإنه اضطر إلى أن يوصي بهذه الوصية.

ولكن مع ذلك قد مثّل بجسده فقد ربطوا الحبل برجله وبرجل هاني بن عروة الصحابي الجليل الذي كان من خيرة صحابة رسول الله ﷺ. ومسلم لم يكن أقل شأناً منه؛ فهو من بيت الرسالة، ثم جروهما بالحبال في أسواق الكوفة ونـودي عليهما: هذا جزاء من عصى الأمير (٢).

ولذا فإن أحد الشعراء يقف فيخاطبهم قائلاً:

---

(١) البيت لأبي تمّام. مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٤، شرح نهج البلاغة ٧: ١٠٤، ١٤: ٢٣٨، درر السمط في خبر السبط: ٨٧، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات (شرح شواهد الكشّاف): ٤٩٨، تفسير البحر المحيط ٥: ١٩، وفيات الأعيان ٢: ٢٢.
وكان أمير المؤمنين﵇ يقول لقنبر: «يا قنبر لا تعرّ فرائسي». أي لا تسلب قـتلاي مـن البغاة. مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٤.

(٢) انظر: الإرشاد ٢: ١٩٧ – ١٩٩، الملهوف في قتلى الطفوف: ٤٧ ـ ٥٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٦.

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري إلى هانئ بالسوق وابن عقيلِ
إلى بطل قد هشّم السيف وجهه وآخر يهوي من طمار قتيلِ
ترى جسداً قد غيّر الموت لونه ونضح دم قد سال كل مسيلِ
أصابهما أمر الأمير فأصبحا أحاديث من يسعى بكلّ سبيلِ
أيركب أسماء الهماليج آمناً وقد طلبته مذحج بذحولِ
تُطيف حواليه مراد وكلّهم على رقبة من سائل ومسولِ
فإن أنتمُ لم تثأروا بأخيكمُ فكونوا بغايا أُرضيت بقليلِ[1]

إذن فهذا هو الدافع الأساس الذي جعل من مسلمﷺ يوصي بهذه الوصية؛ لأنه لم يكن يريد أن يرى أحد هذا المنظر الرهيب الذي هو في حقيقته منظر بعيد عن كل قيم الإنسانية والإسلام معاً. فلم يكن يريد أن يحدث هذا المنظر البشع البعيد عن النبل والشهامة والكرامة في مدينة إسلامية. أما ما عدا ذلك فلم يكن ليخطر على بالهﷺ؛ لأنه لم يكن ليضرّه ما فعلوه به بعد أن انتقلت روحه إلى جوار رفيقها الأعلى. فما فعلوه به بعد ذلك لم يكن ليضره أو يضيره بل إنه يضرّ عدوه ولا يلحق مسلماً منها إلّا الشرف؛ لأنه استشهد في ميدان الشرف، فخرجت روحه إلى بارئها راضية مرضية، وما عدا ذلك من فعل شنيع فإنما يدل على شناعة صاحبه وانحطاطه، وبعده عن النبل وكرم الأخلاق وحميد الخصال.

لقد كان مسلمﷺ من النمط الذين لا يرضون الضرر حتى لعدوهم، وقد يستغرب البعض هذا فيقول: إن هذه مثالية مفرطة والحقيقة أنها ليست مثالية البتة،

(١) انظر: الإرشاد ٢: ٦٤ ـ ٦٥، مقاتل الطالبيّين: ٧٢، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٣٧، الطبقات الكبرى ٤: ٤٢، الأخبار الطوال: ٢٤٢، تهذيب الكمال ٦: ٤٢٧، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٨.

وإنما هي سجية جبل عليها أهل هذا البيت، وإلّا فما معنى أن يمر الإمام علي عليه السلام بعد واقعة البصرة ويجلس بين القتلى وينظر إليهم ثم يقول: **«والهفتاه! لقد فقدت قومي، لقد جذذت يدي»**؟

فهذا نبل لا يقف عند حد، وكذلك ما معنى أن يقف الحسين عليه السلام يوم الطفّ ويبكي لأجل هؤلاء؛ لأنهم سيدخلون النار بسببه؟ فنحن لو تأملنا هذه المسألة لوجدنا أنها ليست خاصّة بمسلم بن عقيل أو بأحد من أفراد هذا البيت المشرف، بل إنها سجية عامة لكل من انتسب إلى هذا البيت أو إلى هذه الأُسرة التي تكلمنا عن بصماتها في صدر هذه المحاضرة، وهي بصمات خلقية منها هذا النبل الذي كان عندهم بأسمى معانيه وأرقى أنماطه وألوانه.

الوصية الثالثة: إرسالهم إلى الحسين عليه السلام من يرده عن وجهته

وفي الوصية الثالثة أنه عليه السلام طلب من عمر بن سعد أن يكتب كتاباً إلى الحسين ليرجعهُ عن الكوفة، وليذكر له بأنّه حينما دخل مسلم الكوفة بايعه ثمانية عشر ألفاً من أهلها، وأنه بعد ذلك تلفت يميناً وشمالاً فلم يجد منهم ناصراً أو معيناً، وأن هذه الكتب التي وصلت إلى الإمام الحسين عليه السلام لا تعبّر عن رجولة ولا عن سجية التزام بعهد. وبهذا فإن عليه أن يرجع لئلّا يتعرّض إلى ما لا يرتضيه وما لا يرضيه.

وهذا تصرف أيضاً في غاية النبل، وقبل الولوج في تفاصيل هذه الوصية لاستنطاق ملامح هذه الشخصية أروي رواية تدور حول موقف لخالد بن عبد الله القسري، فقد جاءه جماعة طالبين منه الاشتراك في تدبير خطّة لاغتيال عبد الملك بن مروان في موسم الحج القادم، فرفض وقال: لا يمكنني فعل ذلك. فقيل له: ألست تشكو من ظلمه واعتدائه؟ فقال: نعم، لكن هذا شيء، والاشتراك في مخطّط لقتله شيء آخر. فقالوا: إذن نطلب منك شيئاً واحداً. قال: ماهو؟ قالوا: أن

تكتم علينا. فقال: أمّا هذه فلكم.

وفعلاً فإن خالداً لم يشترك معهم، لكنه بعث إلى عبد الملك ناصحاً إيّـاه ألّا يخرج للحجّ عامه هذا دون أن يشي بأسماء هؤلاء، أو بشيء من المؤامرة، فلم يخرج، لكنه أرسل خلف خالد مستعلماً منه عن سبب تحذيره إيّاه من الخروج للحجّ، فلم يشأ أن يخبره؛ لما قطع من عهد على نفسه لأُولئك القوم، فأخذه عبد الملك بن مروان إلى الصحراء وعذّبه وأمر فأُخرج إلى الصحراء ووضع على ظهره صخرة مضرمة حتى مات.

فهذا نبل من خالد كونه لم يفشِ السر وإن أوصله إلى الموت، أما عمر بن سعد فلم يكتم السر بل إنه بمجرد أن عاد إلى عبيد الله بن زياد أخبره بما أوصـاه بـه مسلم عليه السلام، مع أن عبيد الله قال له: اكتم على ابن عمك. فأجابه ابن سعد قائلاً: لا؛ فقد قال لي كذا وكذا. وهنا قال له ابن زياد: أما أمواله فليس لنا بها حاجة، وأما جثته فلا نبالي إن قتلناه ما نصنع بها بعد الموت، وأما حسينٌ فإن كان لم يردنا لم نرده.

وهنا ينبغي الالتفات إلى هذا التعبير ذلك أن بعض المؤرخين يقولون: إن الإمام الحسين عليه السلام أبدى استعداده لأن يرجع إلى المكان الذي جاء منه. والحقيقة أن هذا غير صحيح بل هو شهادة عبيد الله بن زياد حيث يقول: إذا لم يردنا لم نرده. ومن يذكر أنّ الحسين عليه السلام خيّرهم بين أن يضع يده بيد يزيد أو أن يرجع إلى المدينة أو أن يذهب إلى أرض الله العريضة فهذا كلام ليس بصحيح؛ ويدل على هذا أن أحد أصحاب الحسين عليه السلام يقول: والله لم أفارق الحسين أبداً منذ أن خرج من المدينة إلى أن قتل في الطفّ، ولم تمرّ هذه الكلمة على لسانه. إذن فهذه العبارة هي من افتراءات التأريخ الذي أراد أن يلوث مواقف الشهامة والرجولة ومـواطـن العـز

والكرامة والنبل. وهذه المحاولة ليست غريبة على التاريخ.

على أية حال، فالوصية الثالثة جاء فيها طلبه من عمر أن يكتب إلى الإمام الحسين عليه السلام طالباً منه الرجوع عن مقصده. وهذا الموقف أو هذه الوصية يتجلى عنها عفةٌ وزهدٌ وبطولةٌ ورجولةٌ وأمانٍ، فكلها تستجلي ملامحها على تصرفات مسلم بن عقيل عليه السلام، وكل هذه الصفات قد كشف عنها في هذه الوصية. كما أنه وقف موقف الصلابة والرجولة والشجاعة عندما قارع ابن زياد وسط المجلس حينما أُدخل عليه حيث قال له الحرسي: سلّم على الأمير. فقال له مسلم عليه السلام: ويحك ما هو لي بأمير:

أميري حسين ونعم الأميرْ　　　سرور فؤاد البشير النذيرْ

فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم الحسين وعليّاً عليهما السلام وعقيلاً، وأخذ مسلم لا يكلمه، ثم قال ابن زياد: أين الذي ضرب مسلم عاتقه بالسيف؟ فجاء بكر بن حمران الذي أصابته ضربة من مسلم أثناء القتال معه، فأجافته ـ أي بلغت جوفه ـ فأمره بأن يصعد به فوق القصر ويضرب عنقه، فقال مسلم عليه السلام: والله لو كان بيني وبينك قرابة ما قتلتني.

فصُعد به، وهو يكبّر ويستغفر الله ويصلّي على رسول الله صلى الله عليه وآله ويقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكذّبونا وخذلونا. ثم طلب منه أن يمهله حتى يصلّي ركعتين، فأمهله، فصلّاهما، فلمّا فرغ منهما التفت ناحية زرود[1]، وكان الإمام الحسين عليه السلام آنذاك فيها، فصاح: عليك مني السلام أبا عبد الله، إن ابن عمّك بين يدي القوم لا يدري متىٰ يقتل. فقام الحسين عليه السلام مختنقاً بعبرته وقال: **«وعليك**

---

(١) زرود: جبل رمل قرب جبل طيّئ يبعد عنه بمسيرة ليالٍ. معجم ما استعجم ٣: ٩١٤ ـ عالج.

السلام ياغريب كوفان».

ثم دخل إلى خيمة النساء، وصاح: «**زينب**». قالت: لبّيك. قال: «**عليّ بطفلة مسلم**». فأخرجت إليه طفلته، فوضعها في حجره، وأخذ يمسح بيده على رأسها، فرفعت رأسها إليه وقالت: ياعمّ، أراك تصنع بي ما يُصنع باليتامىٰ، لعلّه قد استشهد والدي؟ قال عليه السلام: «**بنيّة عظم الله لك الأجر بأبيك أنا أبوك، وبناتي أخواتك**». قالت: ياعم أنت خير من أظلّت الخضراء وأقلّت الغبراء[1].

ثم اخترط بكر بن حمران سيفه، وضربه ضربةً فلم تعمل به شيئاً، ومسلم عليه السلام يقول: اللهم إلى رضوانك ورحمتك، باسم الله وبالله. ثم التفت إليه وقال: أو ما في خدشةٍ مني وفاءٌ لدمك؟ ثم ثنى عليه بالضربة فقتله ثم حمل جسده بعد أن أبان العنق وألقاه من أعلى القصر إلى الأرض. ولما سقط الجسد أقبلوا إليه ووضعوا في رجليه الحبال وجعلوا يسحبونه في الأزقّة والشوارع[2]:

المگدّر گضه وشاعت اخباره   رموه الگوم من گصر الإماره



---

(١) انظر بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٤.

(٢) الإرشاد ٢: ١٩٧ – ١٩٩، الملهوف في قتلى الطفوف: ٤٧ ـ ٥٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٦.



﴿١٩٢﴾

الوحدة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتناول هذه الآية الكريمة مباحث عدة سأعرض لها تباعاً إن شاء الله تعالى:

المبحث الأول: مورد الوحدة وأسباب عدم تحقّقها

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وتقرير أمر هذه الأُمة الواحدة يمكن أن يتصور على عدة أشكال، كأن يساويهم في العقيدة أو في الطاقات البدنية أو ما إلى ذلك مما له دخل في بناء المسلم والدولة الإسلامية.

فالله تعالى يذكر لنا في هذه الآية الكريمة أن ذلك ممكن بالنسبة لله جل وعلا، لكنه لم يرد أن يفعله مع أنه لو أراد لفعل. وعدم تحقق ذلك يعود إلى الأسباب التالية:

---

(١) هود: ١١٨ ـ ١١٩.

السبب الأول: عدم الإجبار على الإيمان

إن الله جل وعلا لا يريد أن يجبر الناس على عقيدةٍ ما وأن يدفعهم إلى ممارساتهم الدينية بالقسر والإكراه، بل إنه تعالى يريد أن يبين لنا الصحيح من الخطأ، وأن هذا أمر مقبول ويجب اتّباعه، وهذا أمر مرفوض يجب تركه، ثم ترك لنا حرية الاختيار بينهما ليختار الإنسان ما يريد. والإنسان مسلح بالعقل، ثم يأتي الدليل فيعينه على فعل هذا، وترك ذاك دون إجبار أو إكراه؛ لأنه إذا أجبره بطلت مسألة الثواب والعقاب، فمن يجبر غنياً على إعانة فقير بالقوة والإكراه فإن هذا الغني ليس له نصيب من الثواب؛ لأنه لم يكن قاصداً هذا الفعل، ولم يكن قاصداً وجه الله والقربة إليه.

فالثواب بهذا يتضح لنا أنه إنما يترتب على الفعل الاختياري، وهذا ما ميّز الإنسان عن الحيوانات الأُخرى فهو إنسان مريد مختار لا يجبر على فعل، وإنما يحركه عقله وتوجهه إرادته إلى استثمار طاقاته الذهنية والبدنية وما إلى ذلك، مع بقاء صفة الاختيار له مطلقاً: **﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾**[1].

فالإنسان إذن يملك خاصية الاختيار؛ لأن العقيدة لا يمكن أن تأتي بالإكراه، وهذاالمفهوم حاول بعض الناس تشويهه ظناً منهم بأنهم يستطيعون أن يجبروا الإنسان على عقيدة هم يعتقدونها، بأن يحاربوهم في وجودهم وحرياتهم وأرزاقهم، ويستعملوا معهم أساليب وحشية، مع أن الأمر خلاف ذلك فهؤلاء لا يمكن أن يصلوا إلى ما يرومون؛ لأن معنى العقيدة هو الاقتناع التام عن طريق حرية الاختيار، وعن طريق التثقف واستعمال العقل في هذا الباب.

---

(١) الكهف: ٢٩.

السبب الثاني: توقف حركة المجتمع

ذلك أن الله جل وعلا لو جعل الناس أُمّة واحدة في القوة والمال والعقيدة فإن حركة المجتمع سوف تشل؛ ذلك أن المجتمعات فيها خدمات متنوعة، فهناك المستشفيات لعلاج المرضى ولها كادرها الخاصّ، وهناك المدارس لتعليم الطلاب والتلاميذ ولها كادرها الخاص، وهناك مؤسسات النقل من سيارات وقاطرات وطائرات ولها كادرها الخاص، وهناك الخدمات الاجتماعية الأُخرى التي تتوزع بين الناس؛ فمن طبيب إلى مهندس إلى معلم إلى تاجر إلى عامل وما إلى ذلك من وجوه العمل في المجتمع.

فإذا حدث أن هؤلاء الناس كانوا بمستوى واحد، وكان كل واحد منهم ذا علم ومال فإن هذا يعني أن المجتمع سوف تتوقف الحركة فيه وتشل؛ لأننا سوف لن نجد فلّاحاً يزرع الأرض أو عاملاً يبني داراً أو نجاراً يصنع أثاثاً وما إلى ذلك. فلابد من وجود تنوع في القدرة المالية والقدرة العلمية، وفي الطاقة والقوة بين الناس حتى تتحرك الأُمور في المجتمع، وحتى تنشط الحركة، وحتى تعمّ الرفاهية في المجتمع بهذا النمط من التكامل الذي يوفره بعضهم لبعض. فكما أن العامل يبني بيتاً للطبيب فإن الطبيب يعالج العامل وهكذا.

وبالرجوع إلى ما طرحته الماركسية حول ضرورة المساواة بين الناس وطبقات المجتمع كافة فإننا نجد أن في الأمر خدعة؛ لأنه لا يمكن أن يساوى بين الناس في كل شيء؛ فهذا يمتاز على ذلك بأن له ذهنية كبيرة، وهذا يمتاز على ذاك بأن له طاقة عقلية كبيرة، وهذا يتميز عن غيره بأن له طاقة بدنية أو قوة جسدية تمكنه من إنجاز عمل ربما ينجزه غيره بضعف الوقت. وهكذا تستمر هذه السلسلة من الفروقات والتمايزات بين هؤلاء، والتي على ضوئها نقول: بأن من الضرورة

أن يكون هناك تمايز بين الناس على ضوء طاقاتهم الذهنية والعلمية والعقلية والبدنية كما أسلفنا.

إن من غير العدل أن يساوى العالم بالجاهل، أو أن يساوى القوي بالضعيف؛ لأن القوي والعالم حينئذٍ سوف يشعران بالمظلومية؛ إذ إنهما قد أُعطيا عين ما أُعطي ذلك الضعيف أو الجاهل. وبالنتيجة فإن هذا يؤدي إلى عدم الإبداع عند هؤلاء، وإلى عدم استعمال طاقاتهم العقلية أو البدنية.

وبالنتيجة فإن هذا الأمر يعود بالضرر على المجتمع نفسه، وعلى الإنسان الضعيف، وعلى الإنسان الجاهل حينما لا يجد من يتطوع لأن يدرس الطب فيعالجه، ومن يشتغل في البناء فيبني له بيتاً.

إذن هذه التمايزات القائمة على هذا الأساس العضوي أو النفسي أو العقلي هي تمايزات عادلة، وعلى ضوئها تتحقق الرفاهية في المجتمع.

وإذا أردنا أن نناقش الماركسية حول هذه النقطة (وهي ضرورة المساواة بين الناس) فإننا إنما نحتج بما ذكرنا آنفاً حول الطاقات الذهنية والطاقات البدنية التي يتوفر عليها البعض دون البعض؛ فإن البعض يمتلك ذهنية يستطيع أن يحل بها معادلات رياضية في فترة قياسية، في حين أن البعض الآخر لا يتمكن من اجتياز المرحلة الدراسية بسبب عدم تمكنه من حل تلك المعادلة.

وكذلك مسألة القوة البدنية العضلية التي يمتلكها البعض دون البعض الآخر، فهذا الإنسان القوي المفتول العضلات ربما يستطيع أن يقاوم في العمل لمدة تزيد على ثماني ساعات أو عشر ساعات، في حين أن الإنسان الضعيف لا يمكن أن تسعفه طاقته وقوته في العمل لمدة ساعتين. وبهذا فإننا نجد أن هذا الإنسان القوي يوفّر لنا زمناً أكبر وطاقة إنتاجية أكثر، في حين أن الإنسان الضعيف لا

يعطينا من ذلك شيئاً فهو قليل العمل قليل الإنتاج.

وبناءً على هذا فكيف يمكن أن نقول: إننا سوف نساوي بين الناس، وإننا ندّعي أن هذا ضرورة لابدّ من القيام بها وتحقيقها داخل المجتمع لنحقّق العدل والمساواة؟

السبب الثالث: أن الوجود نفسه مبنيٌ على أساس التمايز

وهذا يتضح جلياً بملاحظتنا للموجودات كافة فيه، فالنخلة مثلاً تعطي ثمراً غير ذلك الذي تعطيه شجرة البرتقال التي هي بدورها تعطي ثمراً يختلف عن غيرها من الأشجار وهكذا. وهذا الأمر حتى على مستوى الحيوانات. ثم إن كل لون من ألوان الفواكه والخضار له طعمه ورائحته ومذاقه الخاص وما إلى ذلك؛ فكل ما في الوجود له كيانه الخاص الذي يميزه عن غيره من الكيانات الأُخرى؛ فالسماء خلقها الله بشكل تختلف فيه عن الأرض التي منها ما هو ترابي ومنها ما هو صخري ومنها ما هو جبلي، وما إلى ذلك من أنواع الترب.

وبهذا ندرك أن الله جل وعلا قد نوّع الكون بما خلق لنا ليظهر لنا براعة الخلق والإبداع فيه من جهة، ولأن نظام العالم يتوقّف على هذا النوع من التنوع من جهة ثانية.

والإنسان نفسه منه من هو جميل ومنه من هو قبيح، بل ربما تصل البشاعة ببعض إلى أنه يصل إلى أعلى مستويات القبح. دخل عمران بن حطان يوماً على امرأته، وكان شيخاً دميماً قصيراً، وقد تزيّنت، وكانت امرأة حسناء، فلما نظر إليها ازدادت في عينه حسناً، فلم يتمالك أن يديم النظر إليها، فقالت: ما شأنك؟ قال: لقد أصبحت والله جميلة. فقالت: أبشر فإني وإياك في الجنة. قال: ومن أين علمت ذاك؟ قالت: لأنك أُعطيت مثلي فشكرت، وابتليت أنا بمثلك فصبرت،

والصابر والشاكر في الجنة [١].

وعمران بن حطّان هذا له أبيات يمدح بها عبد الرحمن بن ملجم على قتله سيد المتقين وإمام العابدين الإمام علي بن أبي طالب﵇ فهو يقول:

ياضربة من تقيّ ما أراد بها ... إلّا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البريّة عند الله ميزانا [٢]

فهو قد رُبّي على النصب والبغض لأهل البيت﵈؛ لأنه كان يبغض أمير المؤمنين﵇ بشكل لا يمكن أن يتصور معه البغض والحقد، وأبياته المارة دليل واضح وناصع وبرهان ساطع على هذا. وهو بهذا إنما يعاند القرآن الكريم: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾** [٣]، وحيث يقول: **﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾** [٤]، وعلي بن أبي طالب﵇ من أهل البيت ومن ذوي القربى، وهو من الخمسة أهل الكساء الذين جمعهم الرسولﷺ وأدار الكساء عليهم [٥].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٩١.

(٢) ويردّ عليه القاضي أبو الطيب الطبري، حيث يقول:

يا ضربة من شقيّ ما أراد بها ... إلّا ليهدم من ذي العرش بنيانا
إنـي لأبـرأ مما أنت قائله ... عنِ ابن ملجمٍ الملعون بهتانا
إنـي لأذكره يوماً فألعنه ... وألعن الدهر عمران بن حطانا
عليك ثمّ عليه الدهر متّصلاً ... لعائن الله إسراراً وإعلانا
فأنتُمُ من كلاب النار جاء به ... نصّ الشريعة برهاناً وتبيانا

انظر الحور العين: ٢٠١.

(٣) الأحزاب: ٣٣. (٤) الشورى: ٢٣.

(٥) فعن عائشة قالت: خرج النبيﷺ غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معهما، ثم جاء علي فأدخله

وهنا لنا أن نسأل: هل إن من يشتم ذوي القربى وينتقصهم يعد مسلماً؟ ومع كل هذا نجد أن عمران بن حطان من شيوخ البخاري[١].

وكذلك نجد هذا الأمر عند حريز، وهو أيضاً من شيوخ البخاري[٢] وكان يشتم علي بن أبي طالب عليه السلام في كل يوم سبعين مرة. إننا نقول واثقين بأن مثل هذا الفعل لا يمكن أن يؤثر سلباً في أمير المؤمنين عليه السلام أو أن يكون موجباً من موجبات النقص له، أو أن يعدّ مثلبة عليه، لكننا نريد أن نطرح هنا سؤالاً هو: لو أن عمران بن حطان هذا كان يشتم أبا بكرٍ فهل كان المسلمون يأخذون عنه حكماً شرعيا؟ والجواب بكل صراحة: النفي لأن من يشتم أبا بكرٍ يعدّ كافراً[٣]. ولذا فإننا نجد أنهم يأخذون أحكامهم الشرعية ممن يشتم علي بن أبي طالب عليه السلام.

وهؤلاء بهذا إنما يناقضون أنفسهم؛ لأن شتم الصحابة ـ وأمير المؤمنين من الصحابة ـ يعتبر إنكاراً لضرورة من ضرورات الدين عندهم، وفاعله يعتبر كافراً. لكنهم مع هذا نجدهم لا يأبهون لهذا الأمر، بل يأخذون رواياتهم عن فاعله، وكأنهم قد نسوا أو لم يسمعوا أو لم يرووا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي أمير المؤمنين عليه السلام: **«حبّك حبّي وبغضك بغضي»**، و**«من مات يحبّك بعد موتك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن مات يبغضك مات ميتة جاهليّة وحوسب بما عمل في**

☚ معهم، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب: ٣٣. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

مسند أحمد ٦: ٢٩٨، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٤٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥٠١ / ٣٩، تخريج الأحاديث والآثار ١: ١٨٨ ـ ١٨٩.

(١) انظر صحيح البخاري ٧: ٤٥.
(٢) انظر صحيح البخاري ٤: ١٥٧.

(٣) وشتم أمير المؤمنين عليه السلام ليس موجباً للكفر عندهم.

الإسلام»[١]، و«**حربك حربي وسلمك سلمي**»[٢]، «**من أحبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام**»[٣].

بعث رسول الله ﷺ بعثين إلى اليمن؛ على أحدهما أمير المؤمنين عليه السلام، وعلى الآخر خالد بن الوليد، وقال ﷺ: «**إذا اجتمعتم فعلي عليكم أجمعين، وإذا افترقتم فكلّ واحد على أصحابه**».

فأصاب القوم سبايا، فاصطفى أمير المؤمنين عليه السلام جارية لنفسه، فكتب بذلك خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ، وأرسل بالكتاب مع بريدة الأسلمي، وأمره أن يخبر النبي ﷺ بلسانه، ففعل، فقال رسول الله: «**إن علياً منّي وأنا منه، وله ما اصطفى**». وتبيّن الغضب في وجهه ﷺ، فقال بريدة: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله، بعثتني مع رجل وأمرتني بطاعته، ففعلت وبلّغت ما أرسلني به. فقال رسول الله: «**يا بريدة، إن علياً ليس بظلّام، ولم يخلق للظلم، وهو أخي ووصيّي ووليّ أمركم من بعدي**».

قال بريدة: والله لو أن الناس سلكوا وادياً كثير الشجر والماء ـ وإنما حياة الناس الشجر والماء ـ وسلك علي وادياً ليس فيه شجر ولا ماء، لسلكت وادي علي وتركت وادي الناس[٤].

---

(١) مسند أبي يعلى ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، كنز العمّال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، جواهر المطالب ١: ٧٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وأقواله ﷺ بهذا المعنى أحاديث كثيرة، انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤.

(٣) مسند أبي يعلى ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقال: قال البوصيري: رواته ثقات.

(٤) دعائم الإسلام ١: ٣٨٢ ـ ٣٨٣، مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ١: ٤٨٧ / ٣٩٤، مسند أحمد ٥: ٣٥٨، عمدة القاري ١٨: ٧.

وبهذا التقريب فالآية الكريمة حينما تقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ إنما تمنع هذا الاجتماع للأسباب الآنف ذكرها.

المبحث الثاني: السلوك الفطري والجمعي وعوامل التحكّم بالمجتمع

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، وفي هذا المقطع الشريف إشارة إلى أن هناك قسمين من العوامل؛ فمنها يعمل على تفرّق المجتمع، ومنها ما يعمل على اتّحاده:

الأولى: عوامل اتّحاد المجتمع

ومن الأُمور التي تعمل على تجمعه التقليد وهو هنا قسمان: تقليد فطري وتقليد اكتسابي.

الأول: التقليد الفطري

وهو ما يقلد فيه الإنسان أو الحيوانات الأُخرى بعضها البعض دون وعي ودون تفكير. ومن ذلك أنه إذا صاح أحد الديكة فإن جميع الديكة الأُخرى التي تسمعه سوف تصيح معه. وهذا السلوك يسمى سلوكاً جمعياً؛ لأن صاحبه يسلكه تأثّراً بالآخرين وعند تنقلهم.

الثاني: التقليد الاكتسابي

وهو تقليد تمليه العصبية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1].

فهؤلاء يتبعون آباءهم وأجدادهم، وإذا قيل لأحدهم: اترك هذا المسار، فإنه يتمسك به متذرعاً بأن آباءه وأجداده كانوا يختطّونه ويسيرون عليه.

---

(١) البقرة: ١٧٠.

ومثل هذا السلوك الاكتسابي عانى منه الرسول الأكرم ﷺ معاناة كبيرة، حتى إنه قال لهم مرة: «**فوالذي نفسي بيده لما يدهده الجعل بمنخريه خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية**»[١]؛ لأن ما كان ينتهجه هؤلاء هو جوهر العصبية، وفي الأثر: «اعرف الرجال بالحقّ، ولا تعرف الحقّ بالرجال»[٢]. وهذا يعني أن المقياس الحقيقي لمعرفة الرجال هو الحق، بل لمعرفة كل ما يودّ الإنسان معرفته؛ ولهذا فإن الله جلّ وعلا قد سلّح الناس بالعقل وحدّد له مقاييسه.

الثانية: عوامل تفرّق المجتمع

هذا على صعيد ما يدفع الناس على أن يجتمعوا، أما على صعيد ما يدفعهم لأن يتفرّقوا، فهو أُمور، منها:

الأوّل: الجمود على النص

الجمود على النصوص وعدم التعامل معها بروح مرنة؛ فلا يتحرّك الإنسان في مثل هذه الحال لقراءة الكتب والنظريات الحديثة، بل إنه يجمد على النصوص القديمة، ويتذرّع لذلك بأنه لا يريد أن يغير النهج الذي اختطّه آباؤه وأجداده. وهذا في حقيقة الأمر خطأ فادح كبير؛ لأن الله جلّ وعلا قد كلّف الإنسان بأن يبحث عن الصواب ويبتعد عن الخطأ؛ مستعملاً بذلك العقل الذي سلّحه به، والفكر والذهن؛ فيستغل كل تلك الطاقات في قراءة الكتب وارتياد المكتبات والتعرّف على رجال الفكر وآرائهم وأفكارهم.

إن المسلمين الآن يمتازون بأن عندهم قطيعة منكرة مع الثقافات؛ لأنهم لم

---

(١) مسند أحمد ١: ٣٠١، تحفة الأحوذي ١٠: ٣١٧.

(٢) الحدائق الناضرة ٢٥: ٢٩٤.

يدفعوا بأنفسهم إلى قراءة أفكار الآخرين ومعالجة الأخطاء التي فيها؛ ليستفيدوا منها، والأثر الشريف يقول: **«الحكمة ضالّة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحقّ بها»**[١]. فعلى المؤمن أن يبحث عن الحق والحقيقة، والمفروض عليه مراجعة كل ماتطاله يده من كتبٍ ودوريات وقراءتها دون أن يفرق بين أن يكون هذا الكاتب من المذهب الفلاني وذاك من المذهب الفلاني. إن عليه أن يقرأ لكلّ كاتبٍ ولكلّ مفكّر مهما اختلفت مذاقاته ومشاربه ومناهجه ومذاهبه العقيدية أو الفكرية.. فلا فرق بين كاتب سني أو كاتب شيعي أو مسيحي أو ما إلى ذلك فـ: **«إنكم ولد آدم، وآدم من تراب»**[٢].

إن علينا أن نبحث عن الحقيقة أينما كانت، وهذه الحقيقة بعد معرفتها يجب الأخذ بها إن كان صاحبها صادقاً وإن لم يكن من أتباع أبناء مذهب ذلك الإنسان الذي عرف هذه الحقيقة، فنحن مثلاً عندنا بعض الأحكام الشرعية التي نأخذها من روايات وردت عن النبي ﷺ أو عن أهل البيت عليهم السلام لكن في طريقها رجال رواة من أهل السنة. فإننا نأخذ رواياتنا هذه مع وجودهم فيها؛ لأنهم رجال ثقات غير معروفين بالكذب. وبهذا فإننا لا نفرق بين سنّيٍّ وشيعي في مسألة أخذ الحق والحقيقة؛ لأن الذي يهمنا آخراً هو الحقيقة[٣].

---

(١) انظر: الكافي ٨: ١٦٧ / ١٨٦، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٩٥ / ٤١٦٩.

(٢) الفصول المهمّة (الحرّ العاملي) ١: ٣٥١.

(٣) إن في كتبنا الرجاليّة ذكر للكثير من رواة السنة سوف نذكر قسماً يسيراً منهم كدليل وشاهد على منهجيّتنا العلميّة، وموضوعيّتنا وعدم لهاثنا كما يلهث الآخرون حقداً ويتميّزون غيظاً:

١ ـ الحسين بن علوان الكلبي. كوفي عامّي، وأخوه الحسن يكنّى أبا محمد، ثقة. رجال النجاشي: ٥٢ / ١١٦.

٢ ـ أصرم بن حوشب البجلي. عامّي ثقة. رجال النجاشي: ١٠٧ / ٢٧١.

ومثل هؤلاء نسمّي رواياتهم بالروايات الموثّقة، وعندنا قاعدة وضعها لنا أئمتنا﵈ تقول: «**خذوا ما رووا، ودعوا ما رأوا**»[1]؛ ذلك أن الله جلّ وعلا قد اشترط العدالة علينا في مسألة أخذ الروايات، فقال جلَّ من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾[2]. إن هذا يعني[3] أنه إذا جاء عادل بنبأ أو رواية فإنه لا داعي معه في أن نبحث عن مصداقية هذه الرواية وعدم مصداقيتها وإن خالفنا في الرأي؛ لأن رأيه وعقيدته هنا لا يعنيان شيئاً.

وعليه فإن المسلم الصادق مُصدّق من أيّ مذهب كان، ويؤخذ بروايته. هذا هو واقع الحال عندنا في حين أن الآخرين لا يأخذون برواية أي شيعي؛ متّهمين إياهم بالرفض؛ فيقال: هذا رافضي وهذا كاذب[4]، وما إلى ذلك وهو خلاف ما يجب أن يكون عليه المسلم من احترام الآخرين؛ مسلمين أو غير مسلمين.

إذن فالجمود حتماً سوف يؤدي إلى تفرّق الناس.

☚ ٣ـ حاتم بن إسماعيل المدني. عامّي. رجال النجاشي: ١٤٧ / ٣٨٢.
٤ ـ يحيى بن سعيد القطّان، أبو زكريّا. عامّي ثقة. رجال النجاشي: ٤٤٣ / ١١٩٦.
٥ ـ عبد السلام بن صالح الهروي، أبو الصلت، عامّي. رجال الطوسي: ٣٦٠ / ٥٣٢٨.
٦ ـ يحيى بن يحيى التميمي، عامي. رجال الطوسي: ٣٦٨ ـ ٣٦٩ / ٥٤٨٢.
٧ـ حفص بن غياث القاضي، عامّي المذهب، له كتاب معتمد. وسائل الشيعة ٣٠: ٢٢٥.
٨ـ طلحة بن زيد، عامّي المذهب إلّا إن كتابه معتمد. المصدر نفسه.

(١) الفقيه ٤: ٥٤٢، خاتمة المستدرك ١: ٣٣٧ـ ٣٣٨، ٤: ٢٦٨ ـ ٢٦٩ / ٩٨، عن الفطحيّة.

(٢) الحجرات: ٦.

(٣) بمفهوم الشرط.

(٤) انظر: تذكرة الموضوعات: ٩٦، ١: تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق ٢٤٢، تخريج الأحاديث والآثار ١: ٣٨٣، كنز العمّال ١: ٤٣٥ / ٣٠٠٥٠، بل في كشف القناع ٦: ١٤٣ أن من قال لأخيه: يا رافضي وجب تعزيره.

الثاني: الاحتفاظ بالمصالح

فهؤلاء الذين يحتفظون بمصالحهم بشكل يبعدهم عن الحق والتزامه وتطبيقه واتّباعه فإنهم حتماً سوف يبتعدون عن الناس أو يبعدهم الناس عنهم، مع أنـهم يعلمون علم اليقين بأن الانسان سوف لن يعيش أكثر من الفترة التي خصّصها الله له إلّا ما أراد لهم خلاف ذلك. فعمر الإنسان محدود ولا يمكن أن يعيش فترة طويلة.. إنها أيام سيفد بعدها هذا الإنسان على الله جل وعلا: **﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾**[1]. فهل هذه الحياة القصيرة بما فيها من هموم ومآسٍ يمكن أن تعد حياة؟ وهل هذه هي الدنـيا؟ إن المفروض على كل إنسان بعد أن يعرف حقيقة هذه الدار أن يندفع لقول الحق وأن يدافع عنه وأن يبتعد عن الباطل.

الثالث: الشبهة

ويبتني هذا الأمر على أن الكثير من الناس حينما يرى أنه وأصحابه أو وأبناء مذهبه أو أتباعه هم الأغلبية، فإنه يقول: إن من غير المعقول أن يكون كل هؤلاء على باطل، وغيرهم الأقلية على صواب. وهذا الأمر ينطوي على مغالطة واضحة وبدون بيّنة، ولدينا أمثلة كثيرة من مجتمعاتنا التي نعاصرها الآن يمكن أن تشكل رداً واضحاً على مدّعي هذا. ففي هذه المجتمعات الكبيرة والكثيرة نـجد هـناك الكثير من الممارسات التي تبتعد عن الإسلام وعن روح الإسلام وعن الحق، مثل شرب الخمر أو الإقدام على الزنا والسرقة وما إلى ذلك، فهل يعني هذا أن هؤلاء على الحق في قيامهم بهذه الأُمور لأنهم الغالبية أو الأكثرية؟

---

(١) النحل: ١١١.

إن هذا الأمر لا يعدو كونه شبهة غير ناهضة وغير قوية وغير متينة؛ فعلى الإنسان ـ سواء كان من الأكثرية أو الأقلية ـ ألّا تؤثر فيه هذه العوامل، وإنما عليه أن يعرف موضع الحقّ في أي جانب هو ليسير عليه، وهذا ما يؤكده القرآن دوماً بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وبقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[2].

ولو رجعنا إلى التعبير القرآني في هاتين الآيتين الشريفتين لوجدنا أن القرآن يؤكد أن الأكثرية هم أصحاب المذاهب الباطلة، وأصحاب الاعتقادات الفاسدة، وأصحاب الأخطاء دون أن ينسب ذلك إلى الأقلية.. الأقلية التي في الغالب تكون مع الحق ويكون الحق معها، والتي يجب أن تتبع إذا كان الحق معها وإن كانت كذلك (هي الأقلية). وهذه المقاييس هي المقاييس العقلية والشرعية الصحيحة التي رسمها لنا الدين والقرآن الشريف وأمرانا باتّباعها.

المبحث الثالث: حجية الظن

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، والذي يتراءى من هذا المقطع الشريف أن الله جل وعلا قد خلقهم للرحمة، وهذا يعني أن هناك اختلافاً في الرحمة، واختلافاً في العذاب؛ فالاختلاف في الرحمة هو ذلك الاختلاف الذي لا يقف وراءه شيطان يعتري أولئك المختلفين أو مصلحة عصبية. ولتوضيح هذا نقول: إن الاختلاف في الدين مثلاً يمكن أن يتصور على نحوين:

الأمر الأول: الاختلاف عن طريق المنهج

ومن ذلك الأحكام المبتنية على الظن، فهناك بعض الآيات ظاهرها يعطي ظناً

(١) النحل: ٧٥، النحل: ١٠١، الأنبياء: ٢٤، النمل: ٦١، لقمان: ٢٥، الزمر: ٢٩.
(٢) يوسف: ١٠٣.

بالحكم الشرعي، وهو الحكم المأخوذ من الظاهر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[1]، فالعمل هنا بظاهر الآية الشريفة، وهو لا يفيد قطعاً وإنما يفيد ظناً؛ ذلك أن المكلف يصيب الحكم الواقعي وربما لا يصيبه، فحينما يقول تعالى: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ فإن كلمة (إلى) هنا تأتي بمعنى (مِن) فهي لتحديد المغسول لا لتحديد الغسل، أي لتحديد المنطقة المغسولة.

وهنا أود أن ألفت النظر إلى أن الله جل وعلا قد تعبدنا بأن نعمل بالظن. وهذا موضع خلاف واختلاف بين فقهاء المسلمين.

ومن هذا خبر الواحد وحجيته وتماميته، ومن موارد تطبيق هذا الأمر ما إذا كان هناك حكم عام في القرآن الكريم ثم يجيء خبر عن المعصوم ليخصصه، وكان هذا الخبر غير متواتر، بل هو خبر آحاد، فنحن هنا نستطيع أن نخصص بهذا الخبر إذا كان غير ضعيف هذا العموم القرآني، بناءً على رأي القائلين بجواز تخصيص القرآن الكريم بخبر الواحد، وهو مورد الاختلاف في هذا الأمر (الاختلاف في المنهج)، وبه يتم تخصيص الآية مورد العموم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[4]. وهي آيات يستفاد منها حكم عمومي، هو أن النبي ﷺ كباقي الناس يرثه أولاده، فإذا جاءت رواية عن النبي ﷺ تقول: إن النبي لا يورّث المال وإنما يورث العلم، فهل نخصّص هذه الآية أو هذه الآيات الشريفة

---

(١) المائدة: ٦.
(٢) النمل: ١٦.
(٣) الأنفال: ٧٥، الأحزاب: ٦.
(٤) مريم: ٥ ـ ٦.

بهذا الخبر، أم إننا لا نخصّصها؟ في الواقع إن هناك نزاعاً بين الفقهاء حول هـذه المسألة؛ فبعضهم يرى أن خبر الواحد لا يخصّص القرآن، وهم غالب أهل السنة، وبعضهم يرى أن خبر الواحد يخصّص القرآن كما هو عندنا (١).

الأمر الثاني: الاختلاف بالغاية

نماذج من الاختلاف بين الفقهاء وهذا الاختلاف له عدة موارد، نذكر منها:

الأوّل: ميراث الحفيد

ذلك ما لو أن رجلاً مات وليس له وارث إلّا جده وأخواه فهل نعطي الميراث للجدّ وحده، أم نعطيه للأخوين وحدهما، أم نعطيه لهم جميعاً؟ فعلى مستوى الفتوى وتطبيق التشريع نجد هنالك من يقول: إن الجد هو أب، وإذا كان أباً فإنه من الطبقة الأُولى، وإذا كان من الطبقة الأُولى فهذا يعني أن الميراث له وحده؛ لأن الإخوة من الطبقة الثانية، ومع وجود شخص من طبقة متقدمة يحجب الآخرين من طبقة متأخرّة.

وهناك من الفقهاء من يقول: بأن الجدّ ليس أباً مباشراً، وإنما هو أب غير مباشر، والقرآن الكريم إنما أسماه أباً مجازاً. وهناك من يرى أن الأخوين إذا كانا متّفقين مع الجدّ في الانتماء ـ أي أن الجدّ للمتوفّى جدّ للأب، والإخوة إخوة للأب نفسه أيضاً ـ فحينئذٍ يذهب نصف الميراث للجدّ، والنصف الآخر يذهب إلى الأخوين. وهذا رأي الإمامية، وهناك من يذهب إلى خلاف الرأيين الآنفين.

وهذا اختلاف فيه رحمة؛ لأنه اختلاف مبتنٍ على دليل، فكل من هؤلاء له

---

(١) إن رأي المذاهب الإسلامية الأربعة أن القرآن لا يخصَّصُ بخبر الواحد، انظر: الإبهاج في شرح المنهاج ٢: ١٧١ ـ ١٧٢، نهاية السؤل ٢: ٤٥٩ ـ ٤٦٠، البحر المحيط ٣: ٣٦٥، وعليه فحديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» لا يمكن أن يكون مخصّصاً للقرآن الكريم.

دليله في إثبات هذا الحكم الشرعي أو ذاك في هذه المسألة. وهذا مما لا ينبغي أن يبعث على الحقد والعداء والتكفير للآخرين.

الثاني: أجل عدّة المطلّقة

ومن هذا النمط أيضاً الاختلاف في عدّة المطلّقة؛ فبعض الفقهاء يرى أنها تنتهي بمجرد الانتهاء من الحيضة الثالثة؛ لأن لفظ القرء الوارد في قوله تعالى: **﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾**[1] يطلق على الطهر والحيض فيتمسك بذلك، فعليه فإن الرجل يجوز له أن يعقد على المطلقة بعد انتهاء الحيضة الثالثة، أما غيره فيقول: إن هذا لا يسوغ أبداً؛ لأنه بعد أن تنتهي من حيضها لابدّ لها أن تطهر؛ حتى يصح لذلك الرجل أن يعقد عليها. وهذا كما هو واضح اختلاف علمي.

الثالث: حكم البيع عند إقامة الجمعة

ومن هذا أيضاً قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[2]، فإذا وقع البيع في مثل هذه الحالة، فهل البيع باطل أم إنه حرام؟ وهذا الاختلاف في الحكم يعتمد على أحد نوعين من الأحكام؛ لأن من يسميه حكماً وضعياً فإنه يعتبره بيعاً باطلاً، أما من يعتبره حكماً تكليفياً فهو يعتبره بيعاً صحيحاً لكن صاحبه مأثوم؛ لأنه قد فعل المحرم. فالبيع الباطل يعني أن العقد ليس بشيء، وما اتّفق عليه البائع والمشتري لم ينعقد، وعليه يجب إرجاع الثمن إلى المشتري والمثمن إلى البائع، أما إذا كان حراماً فإن البيع يصح وإن العقد يقع، لكن بائعه يكتسب الإثم.

وهذا مبتنٍ على قاعدة ـ هي محل نقاش بين الأُصوليين ـ تقول: هل إن النهي

---

(١) البقرة: ٢٢٨. (٢) الجمعة: ٩.

يقتضي الفساد في المعاملات أم لا[١]؟ ومثل هذه الاختلافات وهذه التفاعلات الفقهية هي في واقع الحال ثروة علمية كبيرة وضخمة للإسلام. وهذا خلاف تقف وراءه الرحمة؛ أما الخلاف الذي يقف وراءه الشيطان ليدفع بالمختلفين إلى التنازع والتقاتل فهو ليس من الإسلام في شيء؛ لأنه مما يؤدي إلى حصول النزاع والخلاف بين المسلمين. ومن ذلك أن أحد الفقهاء يسأل عن التحنّك في الصلاة فيقول: إن رسول الله ﷺ كان إذا وقف للصلاة حلّ حنكه وأرسله إلى كتفيه وصدره، وكان هذا الفعل معروفاً في عهد الخلفاء، لكن بما أنه صار شعاراً ـ للشيعة فإني لا أستعمله[٢].

وهذا في واقع الأمر ليس لغة فقهية أو علمية، بل هو معاندة لله، ولكتابه، ولرسوله ﷺ وسنته، وهو خلاف يقف الشيطان وراءه بكل وضوح. فالخلاف العلمي هو الخلاف الذي تكمن وراءه الرحمة، أو هو الخلاف الذي يبتغى به وجه الحق أو وجه الله، ومن هذا أن الإمام علياً عليه السلام كان لا يتشنّج حتى مع أعدائه من الخوارج وغيرهم؛ ولذا فإنه عليه السلام أمر ابن عباس بأن يذهب إليهم ويحاجّهم ليلقي الحجّة والبيّنة عليهم، وأن يبيّن لهم أنّه لا مصلحة لأمير المؤمنين عليه السلام في قتالهم.

وهذا الأمر عينه قد استخدمه الإمام الحسين عليه السلام مع أعدائه، وذلك عندما نزل إلى ساحة القتال وهو يحمل القرآن الكريم، وكان يلبس ملابس رسول الله ﷺ وقال لهم: **«ويلكم على ماذا تقتلونني؟ أعلى عهد نكثته، أم على سنّة غيّرتها، أم**

---

(١) انظر: الذريعة إلى أُصول الشريعة ١: ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٩٥، عدّة الأُصول ١: ٢٦٠، ٢: ٤٨٨، ٥١١، ٥٢١، أُصول الفقه (المظفر) ٢: ٤١٠ ـ ٤١٤ / المسألة: ٥.

(٢) (وكذلك المسائل الأخرى التي خالفوا فيها السنة لأن الشيعة قد فعلوها وأصبحت شعاراً لهم).

على شريعة بدّلتها، أم على حقّ تركته؟». فقالوا: نقاتلك بغضاً منّا لأبيك[١].

ثم رشقوه بالسهام رشقة واحدة، فرجع وقال: **«اللهم إن هؤلاء قوم قد استولى عليهم الشيطان فأنساهم ذكرك، فتبّاً لهم ولما يريدون».**

ثم بعد ذلك تناوشته السهام من كل مكان، وأخذته الجراح، وعندها سقط إلى الأرض وأخذت دماؤه تنزف بشدّة حتى استنزفت معها كل طاقاته وقواه، يقول السيد رحمه الله:

قد ضم قطريه الطعان فجسمه كالتاج بالطعن الدلوج مرصّعُ

تقع السهام على القنا ما لم يكن بين الأسنّة والأسنّة موضعُ

ولم يكن الأمر يقتصر على الجراح، بل إنهم جاؤوا إلى الأعضاء الشريفة وتوزعوها بالسيوف، فقطعوا الأنامل وشجوا بعض الأعضاء وبقيت الأجساد صرعى على رمضاء كربلاء إلى أن رحلت عيالات الإمام الحسين عليه السلام، وبقي المخيم خالياً، والأجساد على الثرى تسفي عليها الذاريات.

وهنا لنا وقفة مع الحوراء زينب حينما مرّت عليها الليالي وهي تهدّئ من روع الأطفال وصراخهم، ومن أنّات العيال، ثم تخرج لوحدها إلى جسد أبي عبد الله الحسين عليه السلام وتشكو إليه آلامها، وتمسح التراب والدم عنه، وتخاطبه بلسان حالها: أبا عبد الله أُولاء نحن أرامل ويتامى بقينا بعدك دون حامٍ أو مدافع. ثم تبكي وتسكب عبراتها وتقول:

خويه اتنعش ساعة الليل علىّ اسنين أشوفنّه

تهلّ ولا تنام العين بين الألم والونّه

* * *

---

(١) نور العين في مشهد الحسين عليه السلام: ٤٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٠.

ولو مرّ الصبح يحسين | يجدّد لوعتي من اجديد
اشوف ادياركم وحشه | خلت حتى بليالي العيد
لا ديوان بي شمعه | ولا هضل الزلم والويد

وكان حال مسيرة السبيّات من كربلاء إلى الشام حتى رجعت إلى دور آل محمد ﷺ النوح والبكاء والألم، فكل طريق السبا والرجوع ألم ومعاناة، وما هدأن الليل ولا النهار، وكانت العقيلة الكبرى بعد رجوعها إلى المدينة تجول من دار إلى دار، وهي تندب قتلاها:

أ أُخيّ هل لك أوبة تعتادنا | فيها بفاضل برّك المعتادِ
أتُرى يعود لنا الزمان بقربكم | هيهات ما للقرب من ميعادِ
أ أُخيّ كيف تركتني حِلف الأسى | مشبوبة الأحشاء بالإيقادِ [1]

---

(١) الأبيات لأحمد بن الحسن الميثمي النجفي المعروف بالنحوي. أعيان الشيعة ٢: ٥٠٤.

﴿١٩٣﴾

القصّة والعِبرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: طبيعة الأسلوب القرآني في التربية

إن من الأساليب التي ينتهجها القرآن الكريم في العملية التربوية التي يعمد إلى استعمالها هو أُسلوب القصص لاستخراج العبر والعظات منها، ذلك أنه يذكر القصة ويطرحها ويلقيها على مسامع الناس مشيراً إلى مواضع العبرة في هذه القصة؛ لأن القصة تمثّل دوراً مهماً في تثبيت الجانب التربوي وجعله فاعلاً ومؤثراً في بني البشر. والقصص أيضاً وسيلة من وسائل التربية الناجعة والناجحة في التأثير بالإنسان وتربية الجيل والنشء.

---

(١) المائدة: ١١٤.

ومن هذا المنطلق فإننا نقول: إن المسؤولية تلقى كاملة على الكتّاب الذين يكتبون القصص؛ لأنهم تقع عليهم مسؤوليّة تربية الجيل، فلابدّ حينئذٍ أن يضمّنوها مكارم الأخلاق، والعوامل التي تدفع بالإنسان إلى انتهاج طرق الخير وفعله وترك الشر. وكذلك ذكر كل ما يخدم المجتمع على أصعدته كافة سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو تربوية أو أخلاقية أو ما إلى ذلك.

وبناءً على هذا فإننا نقرّر أن الذهن بطبيعة الحال ـ وكما هو معروف ـ يتأثّر بكلّ شيء، وهذا ما سنلمسه واضحاً من خلال تناولنا لمقاطع هذه الآية الكريمة إن شاء الله تعالى.

تقول الآية الكريمة: ﴿قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ﴾، وأول ما يلفت النظر في هذا المقطع من الآية قوله تعالى: ﴿عِيسَى ابن مَرْيَمَ﴾، فنحن هنا نجد أن القرآن الكريم قد نسبه إلى أُمّه دون الاكتفاء بذكر اسمه هو‌عليه السلام، وهذه النسبة تعود للأسباب التالية:

السبب الأول: الإشارة إلى الإعجاز في ولادته‌عليه السلام

فهذه الآية الكريمة حينما تنسب نبي الله عيسى إلى أمه‌عليهما السلام، فإنها إنما تريد أن تؤكد أنّ ولادة عيسى‌عليه السلام كانت عن طريق المعجزة؛ فهو‌عليه السلام قد ولد من أم دون أب. وفي هذا إشارة أيضاً إلى أن الله جل وعلا لا يقف في طريق إرادته شيء؛ ففي حين أن هناك ولادات تتمُّ بالشكل الطبيعي نجد أن هناك ولادات تتم بشكل غير مألوف عند الإنسان. وهذا يعني أن قدرة الله جلّ وعلا غير محدودة، وأن إرادته شاملة لكل الموجودات، وأنه تعالى قادر على أن يخلق جنيناً دون أب أو دون توفّر الظروف الطبيعية لحصول الحمل والولادة.

السبب الثاني: الدقّة في نسبة الولد إلى أمّه

إن نسبة الولد إلى أبيه في واقع الأمر ينبغي أن تكون هي غاية في البساطة والقلّة؛ وذلك للسببين التاليين:

الأول: أن الأب لا يشعر بالولد عند حمله، فهو يحمله خفيفاً، بخلاف حمل الأُم له؛ حيث إنها تحمله ثقيلاً.

الثاني: أنه يضعه في أحسن وأجمل لحظة من لحظات اللذة، أمّا الأُمّ فتتحمل أثناء حملها كل الآلام والمصاعب في الحبل والوحام والطلق وما إلى ذلك. وهي أُمور أشدّ وأثقل من الجبل على قلبها. ثم بعد ذلك تتلقاها متاعب ما بعد الولادة من رعاية وتغذية وتنشئة وما إلى ذلك مما يتطلبه وضع الوليد.

فالولد إذن مدين للأُمّ أكثر من الأب الذي يأتي دوره بعد ذلك، ونعني به دور التربية؛ ذلك أنه هو المسؤول عن تربية ابنه وإعداد الجوّ المناسب الذي يعيش فيه بشكل سليم ومستوٍ، وتهيئة لوازم ذلك الجو بما يتفق مع إيجابياته؛ ليخرج الطفل إلى المجتمع سليماً من العيوب النفسية والأمراض العصبية التي يمكن أن تؤثر في علاقاته بالناس، وفي وجوده كإنسان، وفي تفاعله مع المجتمع والحياة، وفي إنتاجه وإفادته واستفادته من كلّ ذلك.

إذنْ فإرادة الله جل وعلا لا تقتصر على الطريق الاعتيادي فقط في الولادة، وإنما هناك طرق أُخرى إعجازية له يمكن أن تكون في أي مورد يرى الله جل وعلا أنه يتطلب ذلك.

السبب الثالث: الإشارة إلى أن بعض الأمّهات أشرف من بعض الآباء

إن البعض من الأمهات يمثلن دوراً فاعلاً ومؤثراً في الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الحربية وكذلك في المجتمع، كما أننا يمكن أن نجد أن البعض من

النساء أفضل من كثير من الآباء. وقد قدمت هؤلاء النسوة أمثلة عالية في التاريخ الإسلامي من الورع والتقوى والإيمان والحكمة وما إلى ذلك.

وبناءً على هذا فإن طبيعة الذكر بشكل إجمالي عام كطبيعة الأُنثى، وإن التفاوت الذي يوجد في البين هو تفاوت ناشئ من المجتمع نفسه وبتأثيره وأوضاعه التي تساعد على إبراز وجهة نظر الرجل أكثر من وجهة نظر المرأة.

ومما يروى في هذا المجال أُنموذج زوجة أبي طلحة الأنصاري ـ أحد أصحاب النبي ﷺ ـ فقد كان عنده ولدٌ واحد، وكان يحبّه كثيراً، فأصابه المرض، ممّا حدا بأبيه أبي طلحة أن يجلس عنده يمرّضه، حتى إنه ترك الصلاة خلف النبي ﷺ بسبب ذلك، وهنا التفتت إليه زوجته يوماً قائلة: أيلهيك مرض ابنك عن حضور الصلاة خلف النبي ﷺ؟ اذهب وصلِّ خلف النبي ﷺ. فذهب أبو طلحة واعتذر إلى النبي ﷺ، وأخبره بما كان من أمره وأمر زوجته أُمّ طلحة، فقال ﷺ: **«الحمد لله الذي جعل في أُمّتي أمثال هذه المرأة»**.

وكان ولده قد مات ساعة خروجه من البيت إلى النبي ﷺ، فسجّته أُمّه ووضعت عليه إزاراً، ولبست أجمل ما عندها من الثياب وتزيّنت وتعطّرت، فلما رجع زوجها سألها: كيف حال الولد؟ قالت: هدأ واستراح، ففهم من كلامها أنه قد برؤ من مرضه.

وكانت تعني أنه مات، فدنا إليها فلاطفها ولاطفته وضاجعها وكأن شيئاً لم يكن، ثم جلست إلى جانبه تضاحكه ثم قالت له: أنت نعم الرجل لولا خصلة فيك. قال: ما هي؟ قالت: إنك إذا استودعت أمانة تأبى أن تردّها أو ترجعها إلى أهلها. قال: معاذ الله من هذا، فلست كذلك. قالت: بلى، إن اللّه استودع عندك هذا الصبي وقد شاء أن يستردّه. قال: وهل مات؟ قالت: نعم. فسجد لله شكراً، فكان

أن رزقهما الله خلفاً له[١].

وبهذا فإننا نرى أن بعض النساء أفضل من بعض الرجال، وأكثر منهم قدرة على التحمل، وأكثر كمالاً.

السبب الرابع: أنهم أرادوا أن ينزل عليهم مائدة من السماء

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**اللهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ**﴾، إن البعض من أصحاب النبي عيسى عليه السلام أو من الحواريين قد طلبوا منه معجزة وهي إنزال مائدة من السماء ليأكل منها، وإنما أشاروا إلى المائدة وطلبوها بالخصوص لأنهم يعرفون أن مريم عليها السلام كان يأتيها رزقها من السماء إلى المحراب: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[٢]. فكأنما هم يريدون أن يقولوا له: إن أمك عليها السلام كان يأتيها رزقها إلى محرابها من السماء وينزل عليها من الجنة، فبرهن لنا على أن هذا الرزق لا ينقطع عنك بحال من الأحوال.

وهنا نقطة ينبغي الإشارة إليها هي أن النبي عيسى عليه السلام قد امتنع عن إتيانهم بمعجزة مرة واحدة؛ لأن الدنيا لا يمكن أن يبنى أمرها على المعجزات، وإنما يجب أن تأخذ وضعها الطبيعي وإلّا فإن الحياة سوف تتوقف، والمجتمع سوف يتعطّل فلابد أن يعمل؛ لأن العمل نفسه عبادة فعلى الإنسان ألّا ينتظر من السماء أن تمده بالطعام والشراب دون أن يمد يده بالعمل، فيصبح ذا روح اتّكالية، وهو عمل يأباه الدين ويأباه الله جل وعلا.

فالمحراب لا يقتصر على محراب المسجد وإنما يمتد ليشمل كل ما يمكن أن

---

(١) انظر: مسكّن الفؤاد: ٦٩، بحار الأنوار ٧٩: ١٥١، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٤: ٦٦، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ٤٠٢.

(٢) آل عمران: ٣٧.

يكتسب به الإنسان رضا الله جل وعلا، وأن يقصد به وجهه، كالسوق الذي يعمل فيه فإنه يتحول إلى محراب فيما إذا كان القصد من ذلك التقرب إلى الله جل وعلا وتطبيق أوامر الله والابتعاد عمّا حرم فيه.

فالآية إذن تشير إلى هذا المعنى، وإلى سبب نسبته عليه السلام إلى أمه عليها السلام.

المبحث الثاني: في إنزال مائدة من السماء

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**اللهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ**﴾، حيث إنه عليه السلام دعا ربّه جلّ وعلا أن ينزل عليهم مائدة من السماء لتكون لهم عيداً.

ومعنى العيد هنا أنهم يفرحون بهذا الطعام الذي أُنزل إليهم، ولذا فإنهم فعلاً قد اتخذوا هذا اليوم عيداً؛ لأنها نزلت يوم الأحد وهو اليوم الذي جعله المسيحيون عيداً لهم. وهي مائدة مباركة قد نزلت عليهم من السماء لتشبع بطونهم، مع أن إشباع العقول أهم وأولى من إشباع البطون. وهذا ما لا يمكن أن ينكره أحد؛ ذلك أن الإنجازات في الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا وما إلى ذلك من العلوم الأُخرى جاءت كنتاج للنشاط العقلي والفكري وكعطاء لهما لا لنشاط البطن أو عطائه. إن البطن يمكن أن يملأ بقرص من الخبز، وهذا ما كان عليه أمير المؤمنين عليه السلام حيث كان يمر على أحد أصحابه وهو ميثم التمار الذي كان يبيع التمر فيأخذ منه قوصرّة صغيرة من التمر يحملها عليه السلام وهو ثم يردّد قائلاً:

«أفلح من كانت له قوصرّه يأكل منها كلّ يوم مرّه»(١)

ثم يتناول تمراً وخبزاً ويمسح على بطنه ويقول: **«من أدخله بطنه النار، فأبعده الله»**(٢).

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث ٣: ٨٦ ـ قرر، البداية والنهاية ٨: ٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٠. (٢) مرّ تخريجه في المحاضرة السابقة.

وقد ورد في الأثر الشريف: **«من كانت هِمَّتُهُ بطنُه كانت قيمتُه ما يخرج منها»**[١]؛ ولذا كان الأهم في نظر الإنسان الواعي الاهتمام بمائدة العقول وليس بمائدة البطون.

رجع

وكانت المائدة التي أنزلها الله جل وعلا على نبيه وروحه عيسى عليه السلام مائدة مفعمة بشتى أنواع الطعام ممّا لذّ وطاب منه، وكان هذا أمر أصحابه عليه السلام، أما نحن فقد نزلت علينا مائدة تشبع عقولنا، وهو قوله تعالى: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[٢].

فالدين فيه إشباع لأنواع الحياة كافّة، وإذا كانت كذلك فلماذا لا نعتبر اليوم الذي نُصب فيه الإمام علي عليه السلام أميراً للمؤمنين وقائداً لهم وخليفة لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم يوم عيد؟ إن على المعترض على هذا والرافض له أن يرجع إلى كتب السير والتاريخ ليرى يوم الغدير وواقعة الغدير، ومن يرويهما، ومن ينصّ على وجودهما، إذ إن كل المذاهب الإسلامية تروي هذا الحدث العظيم وتنصّ عليه وعلى وجوده. لقد كتب المسلمون المجلّدات عن الغدير، ومن هؤلاء الطبري الذي كتب مجلداً في صحّة حديث الغدير وطرقه المعتبرة؛ ولذلك فإنه حينما مات منعوا تشييع جنازته، فهم يعادون الحقّ وأهل الحق.

إننا نحترم كل صحابي تحترمه السماء، وننحني له إجلالاً، ونتبرّك بالتراب

---

(١) قد أشرنا فيما مرّ من أجزاء من هذا الكتاب إلى أننا لم نعثر عليه بهذا النصّ، وهناك حديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أمقت العباد إلى اللّه من كان همّه بطنه وفرجه». عيون الحكم والمواعظ: ١٢٤. (٢) المائدة: ٣.

الذي تطؤه قدماه، وهو بهذا موضع تقديسنا واحترامنا. كما أننا لا نبخس أحداً حقّه وإن كان هذا البخس موجوداً عند غيرنا حينما يتحدثون بتشكيك عن حديث الغدير، في الوقت الذي يحدثنا التاريخ عن أن هناك العشرات من المصادر والكثير من الروايات التي خرجت في إثبات هذا الأمر في زمن كان من يذكر علي بن أبي طالب عليه السلام في خير فيه يتعرض للإبادة، ولله إرادة في هذا.

ورحم الله الشيخ الأميني حينما كتب موسوعته الضخمة بهذا العنوان، وقد ذكر فيها المئات من المصادر الإسلامية. إن علينا أن نستخدم عقولنا، وأن نوسّع في آفاق تفكيرنا وأن نساهم في تنميتها وتفتّحها لتلقي المعرفة والعلم الصحيحين؛ فالمعرفة عطاء الله جل وعلا، وما وهب الله جل وعلا لامرئ هبة أفضل من عقله ومن أدبه [1]:

لم يـهب الله لا مـرئ هـبة ... أحسن من عـقله ومـن أدبـهْ
هـما حـياة الفـتى فـإن فـقدا ... من الفتى فالموت أليق بـهْ [2]

(١) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر. ثم قال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أُكملك إلّا فيمن أُحب. أما إني إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وإيّاك أُعاقب وإيّاك أُثيب». المحاسن ١: ١٩٢ / ٦، الكافي ١: ١٠ / ١.

ومرّ أن رجلاً من جند الشام له عندهم تجلّة واحترام استأذن على عبد الملك بن مروان وهو يلعب بالشطرنج، فقال عبد الملك لغلامه: يا غلام، غطّها؛ فهذا شيخ له جلالة. ثم أذن له، فلما دخل عليه سأله عبد الملك عن مسألة فلم يعرفها، ثم سأله عن أُخرى فلم يعرفها كذلك، ولمّا كلّمه وجده يلحن، فمدّ رجله أمامه وقال: يا غلام اكشفها فليس للاحن حرمة. اتفاق المباني وافتراق المعاني ١: ١٣٧.

(٢) نخبة اللآلي شرح بدء الأمالي: ٩٠. وقد أفاد الشعراء الكثير من النظم في العقل والأدب نذكر منه قول الشاعر:

وأفـضل قـسـم الله للـمرء عـقله ... فليس من الخيرات شـيء يـقاربه

فإكمال الدين وإتمام النعمة هما عيد لنا؛ لأن الله جل وعلا أرشدنا إلى أمر سماوي وهو ولاية إنسان حمل تعاليم الإسلام باهرة ناصعة، وقد فرض الله ولايته.

إذن فغذاء الروح والعقل والعقيدة والدين هو أهم غذاء بالنسبة للإنسان الذي يطمح إلى الكمال والتكامل، ويوم حدوثه ووقوعه هو يوم عيد له. وبهذا فإننا نعتبر الغدير هو من أهم أعيادنا؛ لأننا قد غذينا فيه مائدة العقيدة وإكمال الدين وإتمام النعمة، ورحم الله شاعرنا حيث يقول:

ويوم الدوح دوح غدير خمّ　　أبان له الولاية لو أُطيعا

ولكن الرجال تبايعوها　　فلم أرَ مثلها خطراً منيعا

ولم أرَ مثل هذا اليوم يوماً　　ولم أرَ مثله حقّاً أُضيعا

أضاعوا أمر قائدهم فضلّوا　　وأقربهم لدى الحدثان ريعا

تناسوا حقّه فبغوا عليه　　بلا ترة وكان لهم قريعا[١]

☚ وقوله:

ألا إنما الإنسان غمد لعقله　　ولا خير في غمد إذا لم يكن نصلُ

وقوله:

ليس اليتيم الذي قد مات والده　　إن اليتيم يتيم العقل والأدبِ

وقوله:

إنما الفخر لعقل ثابت　　وحياء وعفاف وأدبْ

وقوله:

العقل حلّة فخر من تسربلها　　كانت له نسباً تغني عن النسبِ
والعقل أفضل ما في الناس كلّهمُ　　بالعقل ينجو الفتى من حومة الطلبِ

(١) الأبيات للكميت. خصائص الأيمّة: ٤٣، مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٢٩، رسالة في معنى المولى: ١٩، أقسام المولى: ٤١.

المبحث الثالث: في معنى العيد

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾، وفي سبب تسمية العيد بهذا الاسم آراء أربعة هي:

الأول: أنه من العود

فالعيد وفق هذا الرأي يصبح مشتقّاً من العود، أي أنه يعود على الناس كل سنة. وهذا هو الشأن الغالب في الأعياد، كأعياد الإسلام الرئيسة وهي: عيد الأضحى، وعيد الفطر، والعيد الثالث عند الشيعة خصوصاً وهو عيد الغدير؛ فإنها تعود في كل سنة مرة.

نقد هذا الرأي

لكننا لا يمكن أن نقبل بهذا الرأي ولا أن نأخذ به، فإن كل يوم في حياة الإنسان يعود عليه، وهذه الأيام تستمر على حالتها هذه إلى أن يأتي اليوم الذي لا تعود فيه عليه، وهو اليوم الذي يموت فيه. فالإنسان له أيام معدودات، فإذا انتهت هذه الأيام وقضي أجله التحق بربه، وانقطعت هذه العادة ولم يعد هنالك شيء يعود عليه.

الثاني: أنه تعاد فيه الرحمة

ووفق هذا الرأي فإن الله جل وعلا يعود بالرحمة على عباده يوم العيد، فيرزقهم ويمنحهم رحمته وخيره وعطاءه فيه أكثر من سائر الأيام. فهناك مواسم خاصة عند الله جلّ وعلا تفتح فيها موائده لعباده بأصنافها كافة؛ كموائد الرزق وموائد الخير وموائد الرحمة وما إلى ذلك. ومن هذه المواسم ليالي القدر والمناسبات الدينية الهامة الأخرى التي وضعها الله جل وعلا رحمة بعباده.

إن العيد عادة يأتي بعد أداء فريضة معينة، فعيد الأضحى بعد أداء الحج وعيد الفطر بعد أداء الصوم؛ ولهذا فإنه يكون شكراً لله جل وعلا على أن مكنهم من أداء فرائضه التي افترضها عليهم. ثم إن الله جلّ وعلا على أساس هذا الشكر يجزل عطاءه على الناس عن طريق هذه الأعياد.

الثالث: لأن الناس يعود فيه بعضهم بعضاً

فالمعروف والمألوف بين الناس، أن كل شخص يزور معارفه وأرحامه؛ كي يطلع على أحوالهم، وكي يكسب الثواب من الله جلّ وعلا على هذا، وقد اعتادوا هذا الأمر وألفوه منذ القدم. فالله جلّ وعلا قد أمرنا بأن يعود بعضنا البعض بالرحمة والمودة والحبّ والإخلاص وما إلى ذلك من الصفات التي تقرّب الناس من بعضهم، وتنشر بينهم المودّة والأمن والسلام.

ومن لوازم هذه الرحمة والمودّة المطلوبة في مثل هذه الأعياد أن ينفق الناس بعضهم على البعض؛ فينفق غنيّهم على فقيرهم، ويساعد ثريهم وموسرهم عائلهم ومحتاجهم؛ كي تعمّ الفرحة والمودّة الجميع. فليس من حق إنسان أن يلبس ابنه ثوباً جديداً ويخرجه أمام ابن جاره الذي لا يستطيع أن يشتري مثل ذلك الثوب، بل ربما كان يلبس خرقة بالية لعدم تمكنه من تجديدها. ففي هذه الأعياد يتذكر الناس بعضهم بعضاً ويحنو بعضهم على بعض، ويذكر الموسرون أيتام المسلمين وأطفالهم ومحتاجيهم؛ فإن اليتيم إذا أسرّه أحد بشيء فإنما يكون قد أسرَّ الله في عرشه، يقول أحد الشعراء:

سل قاطع العيد أفراحاً وتهنئة ... هل هزّه منظر للبؤس مشهودِ

أطفالك الغرّ قد جدّدت ملبسهم ... وطفل جارك بالي الثوب مقدودِ

فاليتيم له لوعة، والجار الفقير محتاج ويشعر بأنه أقل من غيره. وعليه فإن علينا أن يرحم بعضنا بعضاً ولو بإعطاء الحق الواجب، فهذا المقدار يقضي على الحاجة في المجتمع وينتشله من وهدة الفقر والجريمة والعوز، رافعاً إيّاه إلى مصافّ المجتمعات المتلاحمة والمتماسكة والمتحابّة.

إذن فالعيد إنما عبّر عنه بذلك لأن الناس يعود فيه بعضهم بعضاً، فيمتصُّ الفقر بعضهم من البعض، ويمتصّون الأحقاد والشنآن والبغضاء وما إلى ذلك من الصفات التي تفسد المجتمع وتخلق منه وحدة هشّة سريعة الكسر، وتنسف قواعد المساواة والتلاحم والتماسك فيه.

لكننا مع بالغ الأسف نقول: إن العيد يمرُّ على المسلمين دون أن يستفيدوا منه، أو دون أن يتّعظوا منه، أو دون أن يأتمروا بما أمرهم الله فيه، فإذا كان المفروض أن الله جل وعلا قد فتح لعباده أبواب الرحمة في هذه المناسبات وهذه المواسم، وجعلها رحمة لعباده في الدنيا والآخرة، فإن على الإنسان أن يستثمر موارد هذه الرحمة، وأن يتشبث بها، وألّا يتركها حتى يحصل على ذلك الرضوان وتلك الهداية الإلهية، وحتى يحقق الهدف الذي وضع الله جلّ وعلا من أجله هذه الأعياد بينهم: **«إن كنتم تريدون رحمتي، فارحموا خلقي»**[١].

فعلى الناس أن يشدّ بعضهم أزر بعض في هذه المناسبات التي هي في حقيقتها ليست إلّا مناسبات للرحمة والمودّة والمحبّة والتسامح، فليتزاوروا وليزر بعضهم بعضاً متناسين انفعالاتهم وأحقادهم ومكاناتهم الاجتماعية، وليفعلوا ذلك بعيداً كل البعد عن الحجم الاجتماعي لكلّ منهم. ففي مثل هذه الحالة يقال: إن هناك نوعاً من التعاطف والتراحم بينهم، وما عداه فإنه ليس كذلك.

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٨، كنز العمّال ٣: ١٦٧ / ٥٩٩١.

الرأي الرابع: أنه تشبيه بكرائم الخيل لأنه أشرف الأيام

كان عند العرب نوع من الخيول الكريمة تسمى بالخيول العيدية، وهي منسوبة إلى فحل كريم كانوا يعبرون عنه بالعيد، ثم بعد ذلك راحوا يسمون كل فرس كريم بهذا الاسم؛ تشبيهاً له بهذا الفرس الكريم، ولأنه فرس أصيل. وحينما وجدوا أن أيام الأعياد هي أشرف الأيام وأنبلها وأنها تفضل على الأيام العادية الأخرى فإنهم شبهوها بهذا الفرس الأصيل الذي كانوا يسمونه العيد؛ فسميت هذه الأيام عيداً.

وكون هذه الأيام أصيلة وكريمة لأنها ـ كما قلنا في الرأي الثالث ـ موضع رحمة الله جلّ وعلا، وزمان بسط موائده لعباده؛ ليمتاروا منها مايريدون. فمن الموائد الأُخروية إلى الموائد الدنيوية. فبهذا اللحاظ فإن العيد سمي عيداً، فهو أشرف الأيام، وفيه تسبق الرحمة الإلهية غضبه تعالى فيعطف على عباده ويرأف بهم ويشفق عليهم.

ثم إن للإمام علي عليه السلام نظرة أبعد وأشمل من كل هذا فيقول: **«كل يوم لا يعصى اللّه فيه فهو عيد»**[1]. والمعصية إما إيجابية أو سلبية؛ فالمعصية الإيجابية هي ارتكاب محرم، أما المعصية السلبية فهي الامتناع عن أداء واجب، ومن الواجب وموارد الوجوب عود عباد الله تعالى بعضهم على بعض بالرحمة والعفو والإكرام، فإذا تأخّر أحدهم بالعود عن التوبة فهو عاصٍ.

وكان طلب النبي عيسى عليه السلام من الله هذا قد كلّله عليه السلام بأن يجعله الله جلّ وعلا عيداً لأولهم ولآخرهم، أي على امتداد التاريخ.

---

(١) روضة الواعظين: ٣٥٤، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٧٣.

المبحث الرابع: وجوب المعجز لكل نبي

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾، أي إنني أُريدها أن تكون دليلاً منك على صحّة نبوّتي أمام هؤلاء. فالنبي عادة إذا لم يأتِ بمعجزة فإن المبعوث إليهم لا يمكن أن يصدقوه، فإن جاء بالمعجز فعلوا؛ لأن المعجز هو ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله. فالمعجزات هي آلية خرق العادة والناموس الطبيعي الذي اعتاد الناس عليه، والنبي يصدَّق بيسر وسهولة إذا كانت هنالك معجزة تعضد قوله وتصدق مدعاه؛ لأن الكثير من الناس لا يذعن للحق إلّا بعد أن يروا الأشياء الخارقة للعادة.

وكما أن النبي أو الرسول لابدّ لهما من معجزة، فإن الولي أو وصي النبي لابدّ له من كرامة تثبت بها ولايته وأحقّيّته بالأمر بعد النبي أمام الناس.

المبحث الخامس: في مشروعية بعض الأسماء

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ﴾، ومن هذا المقطع الشريف نستفيد أنّ الإنسان العادي له الحق بأن يتسمى بأنه رازق، أي أن لنا صلاحية إطلاق كلمة رازق على الإنسان. بمعنى أن قوله تعالى: ﴿خَيرُ الرَّازِقِينَ﴾ يفيد أنّ هناك أشخاصاً غيره تعالى يسمون رازقين؛ فرب العائلة يرزق أطفاله حينما يأتيهم بالرزق بما تكدّ يده وما تعمل؛ فهو رازق بالنسبة إليهم، وصاحب البيت رازق بالنسبة للضيف؛ لأنه يقضي حوائجه ويأتيه بطعامه وشرابه، ويوفّر له مسكنه ومبيته وما إلى ذلك.

وبناءً على هذا فإننا لا نرى أي مبرّر أو أي موجب للتشنّج الذي يبديه البعض إزاء من يسمي أحد أبنائه (رزّاقاً) أو (كريماً) وما إلى ذلك مما يشابهها من أسماء

في السنخيّة، متذرّعين بأن هذا شرك؛ لأن الله تعالى وحده هو الرزاق والكريم...إلى آخره.

وهؤلاء ليس لهم دليل على هذه الدعوة ناهض كي يحتجوا بمثل هذا الاحتجاج؛ فالقرآن الكريم ـ كما رأينا ـ يعطي هذا الحق للناس، وإذا اصطدم العقل بآية من آيات القرآن الكريم، فإننا نقدم العقل لأن الله جل وعلا هو خالق العقول وهو سيد العقلاء وهو الذي تعبّدنا بالعقل ما لم يتعارض مع أساسيات الدين. فنحن قد تعبدنا الله جلّ وعلا بأُمور يجب علينا ألّا نحيد عنها، وقد تعبدنا بأن نأخذ بالعقل، لكن لا أن نأخذ به وإن اصطدم بالثوابت الأساسية للإسلام، وإن كنّا نعتقد جازمين بأن العقل الكامل لايمكن أن يصطدم مع الثوابت الأساسية، وإنما عقولنا نحن كبشر ناقصين غير مكتملي التفكير والإرادة.

ومن الموارد التي تعبدنا الله تعالى باتّباع العقل فيها مقدمة الواجب، فالله جلّ وعلا قد أمرنا بالحج وقال: ﴿**وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾[1]. ونحن نعرف أنه لا يمكن أن نصل إلى الحجّ مالم نحصّل مقدماته من السفر والزاد ووسيلة النقل (الراحلة) وما إلى ذلك. فوجوب هذه المقدمة قد استنبطناه من حكم العقل؛ لأن العقل يحكم بأنه مالم تتوفر هذه الأُمور فإن الإنسان لا يمكنه أن يسافر وأن ينتقل إلى حيث يريد.

إذن فهذا الحكم هو حكم عقلي قد أقرّه الشارع المقدس؛ لأنه مقدمة لما يستلزم وجوده في عملية تحقيقه وإنشائه وإيجاده في الخارج.

---

(١) آل عمران: ٩٧.

المبحث السادس: أصحاب الرسول وأصحاب الأنبياء

من خلال هذه الآية الكريمة، ومن خلال قوله تعالى معبراً عن أصحاب النبي موسى عليه السلام في طلبهم الرؤية حيث قال تعالى: **﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾**[(١)]. فإننا نستطيع أن نتبيّن الفرق الواضح والكبير بين أصحاب رسول الله ﷺ وبين صحابة من سبقه من الأنبياء: وأن نتلمّس معالم طبيعة المزاج عندهما.. صحابة النبي ﷺ الذين قالوا له على لسان المقداد وبعض الصحابة الآخرين[(٢)]: يا رسول الله تعالى، إنا لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: **﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾**، ولكنا نقول: أقدم فقاتل؛ إنا معك مقاتلون. ففرح رسول الله ﷺ بذلك وقال: **«إن ربي وعدني القوم وقد خرجوا، فسيروا إليهم»**[(٣)].

وذلك بعد أن استشارهم في قتال بعض أعدائهم وأعداء الله جلّ وعلا، والمقصود بهم أبو سفيان الذي أقبل في قافلة من الشام فيها تجارة قريش، وهي اللطيمة، فبلغ رسول الله ﷺ أنها قد أقبلت، فاستنفر الناس، فخرج معه ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً، فبعث عيناً له من جهينة، حليفاً للأنصار يدعى ابن الأريقط، فأتاه بخبر القوم. وهنا جزّى رسول الله ﷺ المقداد ومن حذا حذوه على هذا

---

(١) المائدة: ٢٤، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ البقرة: ٥٥.

(٢) كسعد بن معاذ الذي قال: يا رسول الله، أراك تشاور أصحابك فيشيرون عليك، وتعود فتشاورهم، فكأنك لا ترضى ما يشيرون عليك؟ وكأنك تتخوّف أن تتخلّف عنك الأنصار؟ أنت رسول الله، وعليك أُنزل الكتاب، وقد أمرك الله بالقتال، ووعدك النصر، والله لا يخلف الميعاد، امضِ لما أُمرت به؛ فوالذي بعثك بالحقّ لا يتخلّف عنك رجل من الأنصار.

(٣) جامع البيان ٩: ٢٤٦ ـ ٢٤٧ / ١٢٢١١، عمدة القاري ١٧: ٨٠ ـ ٨١.

القول خيراً، حيث قام الصحابة من بعده كلّهم وقالوا له مثل ذلك.

وفعلاً وقفوا بين يدي رسول الله ﷺ في ساحة القتال يتساقطون أمامه كما يتساقط الثمر من الشجر. وكان عمارة بن يزيد في يوم أُحد قد أُثخن بالجراح، وكان في لحظات نزعه الأخيرة، فوضع رأسه على قدمي النبي ﷺ وما رفعه حتى لفظ أنفاسه.

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، لكنه أبىٰ إلّا أن يجاهد، وكان له أربعة بنون شباب يجاهدون كلّهم مع رسول الله ﷺ، فحاولوا منعه لعاهته، فقال له رسول الله ﷺ: **«أما أنت، فقد وضع الله عنك الجهاد»**. وقال لبنيه: **«وما عليكم أن تدعوه؛ لعلّ الله يرزقه الشهادة؟»**.

وهكذا أذن له النبي ﷺ في أن يجاهد حينما رأى إصراره على الجهاد، وفعلاً خرج مع رسول الله ﷺ، فقتل يوم أُحد شهيداً، بعد أن قتل أولاده الأربعة قبله [(١)].

ومثل هؤلاء هم موضع احترام منا وإجلال وتقديس واحترام؛ لأنهم نصحوا لله ولرسوله، وصدقوا الله ما وعدهم به، وقاتلوا بين يدي رسوله ﷺ حتى استشهدوا راضين مرضيين، فرضي الله عنهم بما أرضوهُ به من جهادٍ وبذلٍ للأموال والأرواح في سبيله.

المبحث السابع: مائدة الزهراء عليها السلام

وللآية الكريمة هنا علاقة برواية موضوعها المائدة، فقد روى المؤرّخون أن

---

(١) السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ٢٤، الاستيعاب ٣: ١١٦٨ - ١١٦٩ / ١٩٠٣، الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٢٦ - ٢٢٧، وفي (الاستيعاب) أن رسولنا الأكرم ﷺ قال: «لقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته».

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب دخل يوماً على السيّدة الزهراء فقال: «**يا فاطمة، هل عندك من شيء تغذّينيه؟**». قالت: «**لا والذي أكرم أبي بالنبوّة ما أصبح عندي شيء أُغذّيكه، ولا أكلنا بعدك شيئاً، ولاكان لنا شيء بعدك منذ يومين إلّا شيء أوثرك به على بطني وعلى ابنيّ هذين**». فقال: «**يا فاطمة، ألا أعلمتيني حتى أبغيكم شيئاً؟**». قالت: «**إني أستحي من الله أن أُكلّفك ما لا تقدر عليه**».

فخرج من عندها واثقاً بالله، فاستقرض ديناراً، فبينا هو يريد أن يبتاع لأهله ما يصلح لهم، إذ عرض له المقداد ـ وكان يوماً شديد الحر ـ وقد لوّحته الشمس من فوقه، وآذته الأرض من تحته، فلما رآه أنكره، فقال: «**يا مقداد ما أزعجك من رحلك هذه الساعة؟**». قال: يا أبا حسن، خلّ سبيلي، ولا تسألني عما ورائي. فقال له أمير المؤمنين: «**لا يحل لك أن تكتمني حالك**». قال: أما إذا أبيت، فوالذي أكرم محمداً بالنبوّة ما أزعجني من رحلي إلّا الجهد، ولقد تركت أهلي يبكون جوعاً، فلما سمعت بكاء العيال لم تحملني الأرض، فخرجت مغموماً راكباً رأسي، فهذه حالي.

إننا نجد عندنا في الفقه الاجتماعي تحميلاً للجماعة مسؤولية الفرد إذا جاع، أي أن الفقه الاجتماعي الإسلامي يحمّل الجماعة مسؤولية كل فردٍ من أفراد المجتمع إذا أصابه العوز. صحيح أنه يضع النفقات على ذوي القرابة فيقسمها إلى نفقات واجبة ونفقات مستحبة، لكن هذا لا يعني أنه أعفى المجتمع من الشعور بالمسؤولية، بل إنه اعتبر المجتمع مسؤولاً عن أفراده؛ لأن هؤلاء الأفراد هم أجزاء داخل النسيج الاجتماعي[1]، وهو ما يسمى بالتكافل الاجتماعي.

---

(١) يقول الرسول الأكرم: «كلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤول عن رعيّته فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته، والرجل في أهله راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيّتها، والخادم في مال سيّده راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته،

وبهذا اللحاظ فإن المشرع الإسلامي يمنح الإنسان الجائع الحق في أن يأكل ما يكفيه ويسد رمقه من طعامِ من يملك الطعام دون أن يكون لصاحب الطعامِ الحق في أن يمنعه عن ذلك إذا ما توقفت حياته عليه. بل وأكثر من هذا أننا نجد أنه إذا مانعه صاحب الطعام وتقاتلا ثم جرح الجائع صاحبَ المال فإن الإسلام لا يحمّله مسؤولية الجرح، وإذا قتله فإنه لا يحمّله مسؤولية القتل.

وفعلاً فقد تأثّر الإمامعليه السلام بمعاناته، وهملت عيناه بالبكاء حتى بلّت دموعه لحيته ثم قال: «**أحلف بالذي حلفت به ما أزعجني غير الذي أزعجك، ولقد اقترضت ديناراً فهاكه أُوثرك به على نفسي**».

فدفع له الدينار ورجع حتى دخل على النبيصلى الله عليه وآله وسلم فصلى الظهر والعصر والمغرب، فلما قضى النبيصلى الله عليه وآله وسلم صلاة المغرب، مرّ بعليعليه السلام في الصفّ الأول فناداه، فلبّاه وسار خلفه حتى لحقه عند باب المسجد، فقالصلى الله عليه وآله وسلم « **يا أبا الحسن، هل عندك شيء تعشّينا به؟**».

فأطرقعليه السلام لا يحير جواباً حياءً من النبيصلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه يعرف الحال التي خرج عليها، فقال له النبيصلى الله عليه وآله وسلم: «**إما أن تقول: لا، فننصرف عنك، أو نعم فنجيء معك**». فقالعليه السلام له: «**حبّاً وتكريماً، اذهب بنا**».

وكأن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى نبيّهصلى الله عليه وآله وسلم أن تعشّ عندهم، فأخذصلى الله عليه وآله وسلم بيده، فانطلقا حتى دخلا على فاطمةعليها السلام في مصلّاها، وكانت خلفها جفنة تفور دخاناً، فلما سمعت كلام النبيصلى الله عليه وآله وسلم خرجت من المصلّى فسلّمت عليه، وكانت أعزّ الناس عليه، فردّ عليها السلام، ومسح بيده على رأسها، وقال:

☚ والرجل في مال أبيه راعٍ وهو مسؤول عن رعيته؛ وكلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته».
عوالي اللآلي ١: ١٢٩ / ٢، مسند أحمد ٢: ٥، ٥٤، ١١١، ١٢١.

«كيف أمسيت؟ عشّينا غفر الله لك، وقد فعل». فأخذت الجفنة فوضعتها بين يديه، فلما نظر أمير المؤمنين ذلك، وشمّ ريحه رمى فاطمة ببصره رمياً شحيحاً، فقالت: **«ما أشحّ نظرك وأشدّه، سبحان الله! هل أذنبت فيما بيني وبينك ما أستوجب به السخطة»**. قال: **«وأي ذنب أعظم من ذنب أصبتيه اليوم، أليس عهدي بك اليوم وأنت تحلفين بالله مجتهدة ما طعمت طعاماً من يومين؟»**.

فنظرت إلى السماء فقالت: **«إلهي يعلم ما في سمائه، ويعلم ما في أرضه أني لم أقل إلّا حقاً»**. قال: **«فأنى لك هذا الذي لم أرَ مثله، ولم أشمّ مثل رائحته، ولم آكل أطيب منه؟»**. فوضع النبي كفّه المباركة بين كتفي أمير المؤمنين ثم هزّها وقال: **«يا علي هذا ثواب الدينار، وهذا جزاء الدينار. هذا من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»**.

ثم استعبر النبي باكياً وقال: **«الحمد لله الذي لم يخرجكما من الدنيا حتى يجريك في المجرى الذي أجرى فيه زكريا، ويجريك يا فاطمة في المجرى الذي أجرى فيه مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾[١]...»**[٢].

وكان الرسول الأكرم يبارك هذا البيت ويغدق عليه عطفه وحنانه، وكان لا يبارح منزل فاطمة ستة أشهر كل يوم عند صلاة الفجر، فإذا مرَّ بهم قال:

---

(١) آل عمران: ٣٧.

(٢) انظر: الأمالي (الطوسي): ٦١٤ - ٦١٥ / ١٢٧١، ٦١٧ - ٦١٨ / ١٢٧٤، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٥٠، ٣: ١١٧، ١٣٥، ذخائر العقبى: ٤٥ ـ ٤٧، تخريج الأحاديث والآثار (الزيلعي) ١: ١٨٤، قال: ورواه أبو يعلى، تفسير البيضاوي ٢: ٣٥ - ٣٥، تفسير أبي السعود ٢: ٣٠ - ٣١، الدرّ المنثور ٢: ٢٠.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١]، ثم يقول: **﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾**[٢]، ويقول: **«أتأذنون لمحمد بالدخول»**. فتقول له: **«البيت بيتك، والحرّة ابنتك»**[٣].

وكان ﷺ يضع رأسه علىٰ رأسها، ويشبعه لثماً وتقبيلاً، ويقول: **«أشمّ منها رائحة الجنّة»**[٤].

وهكذا أشبعها ﷺ عطفاً وحناناً، وأغدق عليها من رأفته ومن شفقته. ولكنها بعد أن فقدته تكاثفت عليها الهموم وتكاتفت عليها الآلام واجتمع عليها المسلمون وانتزعوا منها حقها، وكسروا لها ضلعها؛ فكانت الآلام والأحزان تغمر قلبها وتعمره، فتلجأ إلى قبر أبيها ﷺ وتستجير به ضارعة إليه بالدموع، وكانت عليها السلام تردد هذين البيتين:

قل للمغيّب بين أطباق الثرى ... لو كنت تسمع صرختي وبكائيا

صُبّت عليّ مصائب لو أنها ... صُبّت على الأيّام صرن لياليا[٥]

* * *

خلاف عينك ما رعوني ... خذوا نحلتي وبچّو اعيوني

بالباب لمن هيّسوني

---

(١) الأحزاب: ٣٣. (٢) الشورى: ٢٣.

(٣) ذكرنا فيما مضى أن هذا الحديث الشريف قالته الزهراء عليها السلام لمّا مرضت وأراد أبو بكر وعمر أن يزوراها، وذلك بتغيير طفيف؛ حيث استأذن لهما الإمام علي عليه السلام منها فقالت له: «البيت بيتك والحرة زوجتك». كتاب سليم بن قيس: ٣٩١، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٣، ٤٣: ١٩٨، أمّا في مثل هذا المورد فلم نعثر عليه.

(٤) علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٥ / ٤.

(٥) المغني (ابن قدامة) ٢: ٤١١، نظم درر السمطين: ١٨١، سبل الهدىٰ والرشاد ١٢: ٢٨٩، ٣٣٧، مغني المحتاج ١: ٣٥٦.

هذه الشكوى كانت تسكبها على القبر الطاهر، ثم ترجع وهي مكلّلة بالأحزان والألم، وعاشت بعد أبيها كسيرة قلب دامعة عين، يُغشى عليها من الألم ساعة بعد ساعة، إلى أن فارقت الدنيا؛ وبالجسد أثر وبالعين حمرة، وما بين الجفون دمعة، وواراها أمير المؤمنين عند منتصف الليل، وأهال عليها التراب، وجلس على شفير القبر وهو يقول:

أرى علل الدنيا علي كثيرة وصاحبها حتى الممات عليلُ

وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على ألّا يدوم خليلُ [1]

---

(١) ديوان الإمام علي: ٨٧.

﴿١٩٤﴾

الأُسرة الأُنموذجيّة في المنظور الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: محرّمات الزواج

إن إصلاح المجتمع في واقع الأمر يتطلب أن يبتدئ به المعنيون من الأُسرة؛ لأن الأُسرة هي المنطلق الحقيقي للمجتمع، وهي الأسُّ والنواة له؛ ذلك أن المجتمع عبارة عن مجموعة من الوحدات الصغيرة المتمثلة بالأُسر. والأُسرة يمكن إصلاحها عن طريق أمرين: التلقين، والاهتمام بالنظام الأسري والتركيبة الأُسروية. أي أن يركز على التركيبة الاجتماعية للأُسرة ونظامها الأسروي وصيرورته داخل المجتمع.

وموضوع محرّمات الزواج موضوع ذو صلة وثيقة ببناء المجتمع وقيامه؛ ولذا فإننا نجد له في التشريع الإسلامي وزناً واهتماماً خاصين. ومحرّمات الزواج

---

(١) النساء: ٢٢.

تكون على نحوين: محرمات نسبية، ومحرمات سببية، وبالرجوع إلى الجو العام للآية ومكان نزولها ومورده سوف نستكشف منهما طبيعة التشريع الإسلامي هذا.

فهذه الآية الكريمة نزلت لتعالج بعضاً من القضايا الاجتماعية التي تعتبر من رواسب التراث أو الموروث الاجتماعي، ذلك أن العرب كانوا إذا مات أحدهم وكان له أبناء وزوجة غير أُمهم فإن للولد الأكبر الحق في أن يرث زوجة أبيه هذه؛ وله الحق في أن يتزوجها أو يزوجها من غيره ويأخذ مهرها. وعلامة ذلك أنه يأتي بردائه، فيلقيه عليها ويعضلها، بمعنى أن هذه المرأة لا يحقّ لها أن تتزوج إلّا منه أو بإذنه.

وهذا المعنى في واقع الأمر يبتعد ابتعاداً كبيراً عن جانب تكريم الأُسرة وبنائها بناء هادفاً، وهما الأمران اللذان يحث الإسلام الكريم على انتهاجهما. فهذا اللون من العلاقات الجاهلية كانت تبتعد جوهراً ومظهراً عن الصورة التي رسمها الإسلام للأُسرة الإسلامية، وعلى ضوء هذه الصورة ينبغي أن تكون علاقة الأب بابنه أو علاقة الابن بأبيه علاقة قداسة لا علاقة بهيمية.

نظر الإسلام إلى الزواج والجنبة العبادية فيه

وأود أن أُلفت النظر هنا إلى أن عقد الزواج في التشريع الإسلامي يختلف تماماً عن العقود الأُخرى، ففي التشريع الإسلامي نجد أن القرآن الكريم يقرر هذا الأمر مستخدماً في تحقيقه عبارات تدل على ثقل هذا الأمر عنده وعلى أهميته، فيقول جلَّ من قائل: ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾[١].

وكلمة ميثاق لا يستعلمها القرآن الكريم إلّا في القضايا المهمة، كتلك القضايا

---

(١) النساء: ٢١.

التي تدور حول العلاقة بين الإنسان وربه في مقام التوحيد والعبودية، أو أن يستعملها في القضايا التي تدور حول العلاقات بين دولة وأخرى. بمعنى أن هذه الكلمة تستخدم في المجالات التي تشغل الجانب المهم والضروري والحساس في حياة الإنسان. وإذا كان الأمر كذلك، فنجد أن الله جل وعلا قد استخدمها في مسألة العقد بين الرجل والمرأة، ويعبّر عن ذلك العقد بأنه ميثاق، ثم يؤكد هذا الميثاق، ويصفه بأنه غليظ ـ أي شديد ـ فإن هذا يوحي بأن عقد الزواج قد منح معنى العبادة.

وأكثر الفقهاء يقولون: إن عقد الزواج ليس عقداً معاملياً، بمعنى أن عمليّة الزواج ليست معاوضة جسدية. ونعني بالمعاوضة الجسدية أن الرجل يدفع المال والمرأة تدفع الجسد مقابله؛ فهذه معاوضة خسيسة وبخسة يرفع الله المؤمنين عنها وقد كرمهم وفضلهم على غيرهم. فالواقع أن هذه المعاوضة هي معاوضة روحية أو على حد تعبير بعض الفقهاء بأنها تعبير معاوضة روح بروح. وبهذا الشكل فإن هؤلاء الفقهاء أو الإسلام الحنيف يعطي هذه العلاقة الزوجية معنى من معاني القداسة ولوناً من ألوان التفخيم. وبناءً على هذا فإن العلاقة بين الزوج والزوجة تأخذ هذا الطابع وهذا البعد.

كما أني أود أن أُلفت النظر هنا كذلك إلى أن العقود التي تجرى في معاملاتنا هي غالباً عقود معاوضية. والعقود هي إما أن تكون عقوداً لفظية أو عقوداً معاطاتية، بمعنى أنه قبض وإقباض أو تسلم وتسليم للبضاعة والثمن، إلّا الزواج فإنه لا يتم إلّا بعقد معيّن وإلّا بلفظ معين افترضه الشارع المقدس علينا؛ كي تصحّ عملية الزواج هذه؛ ذلك أن المشرع الإسلامي يعتبر هذا العقد التزاماً ضخماً ومقدساً؛ ولذلك فإن موضوع العلاقة الزوجية يأخذ حيزاً واسعاً من القداسة التي يوليها

الإسلام لمثل هذه الأشياء.

وبهذا فإن زوجة الأب في واقع الأمر هي مثل الأم، وتقديم فروض الاحترام لها هو فرع من تقديم فروض الاحترام والطاعة للأب، وكذلك من فروض الطاعة والاحترام للأُم؛ ولذا فإن على الإنسان أن يبتعد عن هذه العلاقة؛ لأنها علاقة مدنسة لا تصلح أن تكون مصدراً لبناء مجتمع سليم أو بناء أُسرة صحيحة قائمة على أسس الإسلام وتعاليمه. ونعني بهذه العلاقة هي ما كان عليه المشركون في الجاهلية من تزوّج الابن زوجة أبيه بعد وفاته.

إذن فعلاقة بهذا الشكل فيها جميع أنواع الانحطاط الخلقي، والقضاء على مصادر العفّة اللازمة في بناء المجتمع والانحدار به إلى هاوية الرذيلة ولذلك فإن الله جل وعلا أولى هذه المسألة أهمية خاصة.

المبحث الثاني: المقصود بـ ﴿مَا﴾ في هذه الآية

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾، إن المفسرين يختلفون في معنى ما الواردة في الآية الشريفة؛ فمنهم من يذهب إلى أنها موصولية، ومنهم من يذهب إلى أنها مصدرية. وبناء على كل من هذين الرأيين يكون لها معنى مختلف في كل مرة.

اختلاف العلماء

وهذا الاختلاف بين الفقهاء والمفسرين هو حتماً اختلاف آتٍ من اختلافهم في فهم الدليل، فكلّ منهم حينما يفهم من الدليل شيئاً معيناً يؤسس عليه حكماً يصدره، ويفتي به بناءً على ما توصّل إليه من فهمه لذلك الدليل.

وهذا أمر لا شائبة فيه؛ لأننا لا يمكننا أن نحجر على عقول الفقهاء، فكل فقيه له

الحق في أن ينتهج الطريق أو المنهج الذي يوصله إلى الحكم الشرعي ما دام ضمن نطاق الخطوط العامة والعريضة للتشريع الإسلامي التي وضعها الله جل وعلا، أو وضعها الرسول الأكرمﷺ. وإذا رجعنا إلى الاختلاف في المسائل الفقهية بين المسلمين لوجدنا أن معظمه من هذا النوع.

الهدف من التركيز على هذا الموضوع

وأنا أركز دائماً كلما سنحت لي الفرصة على هذا الموضوع لأني أُريد أن أرفع رسالة إلى الذين يصرّون إصراراً واضحاً وكبيراً على تمزيق وحدة المسلمين وتفتيت جمعهم وفت عضدهم وهو إصرار يكمن وراءه اندفاع ونوايا.. ونود أن تتضمن الرسالة توجيهاً واحداً هو أنه إذا كانوا غائبين عن الحقيقة ولم يكونوا عامدين على فعل هذا فإن عليهم أن يبحثوا وأن يدققوا أكثر في هذه المسألة.. يجب عليهم أن يبحثوا عن الحقّ والحقيقة وأن يفتحوا أعينهم إلى ما يراد بهم وبغيرهم من المسلمين من التفريق والتمزيق. وإن لم يكونوا كذلك، فإنهم لايعدون أن يكونوا لصوصاً يريدون تمزيق وحدة المسلمين وكلمتهم واجتماع صفهم.

فهم لصوص بلحاظ أنهم يريدون أن يسرقوا من المسلمين وحدتهم واتّحادهم، ومثل هذه السرقة عظيمة عند الله جل وعلا؛ لأن الله سبحانه وتعالى في واقع الأمر لم ينزل الأديان لتمزق وحدَة العباد واتفاقَهم واجتماعَهم، بل إن الأديان نزلت أساساً لتوحيدهم في كل حيثيات وجودهم وكيانهم..توحيدهم في العبادة وتوحيدهم في الاتجاه إلى خالق واحد وتوحيدهم في الالتفاف حول نبي واحد وكتاب واحد وما إلى ذلك من دواعي الاجتماع والاتحاد.

نماذج من الاختلاف بين الفقهاء

إن عندنا من الأحاديث النبوية الشريفة ـ كما هو شأن الآيات القرآنيّة الكريمة المختصّة بالجانب التشريعي هذا ـ ما يعتبر أحاديث أحكام؛ لأنها تترتّب عليها أو يستنبط منها أحكام شرعية. وقد وقع بين الفقهاء فيها نزاع واختلاف بسبب اختلاف فهمهم وأفهامهم لها، ومنها:

الأول: الاختلاف في حليّة الضبع وحرمتها

قوله ﷺ: «**كل ذي ناب من السباع فأكله حرام**»[١]، وحينما نأخذ الضبع كمثال فإننا نجد أن لها ناباً تنهش به، والفقهاء حيال هذا الأمر ينقسمون على أنفسهم إلى قسمين؛ فقسم منهم يرى أن الضبع حرام أكلها؛ لأنها تملك ناباً، وبالنتيجة فهي حرام؛ لأنها بالإضافة إلى كونها ذات ناب فهي من السباع.

أما القسم الآخر منهم، فلا يقول بحرمتها؛ لأنه يرى أن هذا الناب الموجود عندها لا تستعمله دائماً في عملية النهش، وإنما هو يُستخدم في حالات قليلة معينة، فهي تتغذّى على الرمم[٢] وتتقوّت غالباً عليها، ولا تستخدم نابها إلّا في حالات معينة، ولا تستخدم مخلبها كذلك لأجل القوت إلّا في حالات نادرة كما ذكرنا.

وبهذا اللحاظ والاختلاف في فهم الدليل وجدنا أن أثر ذلك قد خلُص إلى مرحلة الفتوى، فمن حلّل حكّم عمليّة التحليل في اللفظ، ومن حرّم اقتصر على ظاهر اللفظ. وممن يقول بحرمتها المذهب الإمامي، أما المذاهب الإسلامية الأُخرى فيعتبرونها من الطعام الحل وليست من المجموعات المحرمة.

---

(١) الكافي ٦: ٢٤٤ ـ ٢٤٥ / ٢، مسند أحمد ٢: ٢٣٦.

(٢) ولذا فإنها تسمى الحيوانات الرمّيّة.

وكان العرب يكنونها بعامر، وكانوا يتمدحون بها ويرون أن الإنسان حينما يموت فمن العار عليه أن يدفن فيما إذا ما ت على فراشه، ويذهبون إلى ما هو أبعد من هذا فيرون دفن الميت عيباً، ولذا فإنهم يتركونه لتأكل من لحمه العقبان والطيور والسباع وما إلى ذلك، يقول شاعرهم:

فلا تدفنوني إن دفني محرم   عليكم ولكن خامري أُمّ عامرِ [1]

وكان العرب يستخدمون عبارة «**خامري أمّ عامرِ**» لإخراج الضبع من وجارها؛ حتى يتمكنوا من اصطيادها وأكلها، فهذا الشاعر يطلب من ذويه أنه إذا مات فعليهم ألّا يقبروه بل أن عليهم أن يتركوه على الأرض، وأن ينادوا على أم عامر بهذه الكلمة كي تخرج وتأكله.

وفوق هذا نجد أنهم كانوا يعتبرون الإقامة بالحضر ذلّاً وعاراً، يقول شاعرهم:

الموقدون بنجد نار أودية   لا يحضرون وفقد العزّ في الحضرِ [2]

فكانت هذه النزعة وهذا اللون من التفكير موجودين عندهم، وهي نزعة مرتبطة بالصحراء وبخصائصها وأثرها. يروي المؤرخون أن قوماً خرجوا لصيد، فطردوا ضبعة حتى ألجؤوها إلى خباء أعرابي، فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت، فجاء ابن عمّه يطلبه، فوجده مقتولاً ملقى، فعرف أنها الضبع فتبعها حتى وجدها فأوتر قوسه وقتلها وأنشد يقول:

ومن يصنع المعروف في غير أهله   يلاقِ الذي لاقى مجير امّ عامرِ

---

(١) البيت لتأبّط شرّاً، ويروى للشنفرى. الأمالي (السيد المرتضى) ٣: ١٥٨ ـ ١٥٩، شرح نهج البلاغة ١: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات، شرح شواهد الكشّاف: ٤٦٠.

أعدّ لها لمّا استجارت ببيته	أحاليب البان اللقاح الدوائرِ
وأسمنها حتى إذا ما تمكّنت	فرته بأنياب لها وأظافرِ
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من	يجود بمعروف على غير شاكرِ [(١)]

على أية حال، فالفقهاء اختلفوا في حرمة الضبع وإن كانت ذات ناب؛ لأنها عند محلي أكلها لا تستخدم نابها للنهش إلّا في حالات نادرة. وكما ذكرنا فإن المحرمون يقولون بأنها ذات ناب وهذا هو الظاهر من الحديث، أمّا المحلّون فيبنون الحكم على قاعدة هي أنه ليس المقصود بهذا الحديث الشريف كل ذي ناب من السباع، أي ليس المقصود وجود الناب عنده، بل لابدّ أن يستخدم الناب في عملية التقوّت، بمعنى أن ينهش به، وما لم ينهش به فإنه لا يكون محرّماً.

دليل السنّة الفعليّة

وهؤلاء يستدلون كذلك على صحّة رأيهم بالحليّة بالسنة الفعلية؛ لأنهم يروون أن النبي ﷺ كان يأكله. وهؤلاء لهم دليلهم، وهو عليهم حجة.

ونحن هنا لسنا بصدد مناقشة الدليل حتى نثبت أنه دليل صحيح أو مخطوء، وأن صاحبه على صواب أو على خطأ، لكن الذي نريد أن نبينه هنا هو أن أحد مناشئ اختلاف الفقهاء هو فهم النص؛ فكلٌ يفسر النص وفق فهمه؛ وبالنتيجة فإنه يترتب عليه الاختلاف على صعيد الإفتاء.

الثاني: ميراث البنت وحدها

وكمثال آخر على هذا الاختلاف ما لو أن إنساناً مات وترك ابنة واحدة فإنها ترث ثروته كاملة؛ نصفها بالفرض ونصفها بالرد الذي هو فرض أيضاً؛ بدليل قوله

---

(١) المستطرف من كلّ فنّ مستظرف ١: ٤٥٢.

تعالى: ﴿وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [1]، وهذه ابنته، وهي أقرب الناس إليه، فهي تتقرّب إليه مباشرة دون واسطة، كما هو الحال عند ابنة الأخ مثلاً فإنها تتقرب إلى عمها بواسطة هو أبوها.

هذا ماعند الإمامية حول هذه المسألةِ وأما ما عند غيرهم من أبناء المذاهب الإسلامية الأخرى فإنهم يستدلون بحديث طاووس: «**ألحقوا الفرائض بـأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر**» [2].

نقد الرواية

وهذا الحديث يرويه طاووس هذا عن النبيﷺ، ويعني أن البنت لها حصتها الشرعية من الميراث، وما تبقى فلا يرد عليها وإنما يعطى لعصبة أبيها.

نظرة حول الروايات

إننا لا نتعامل مع الروايات الواردة إلينا عن النبيﷺ عن طريق الصحابة ومن تبعهم نظرة عشوائية، بل إننا ندقق في الرواية على صعيدين: على صعيد السند، وعلى صعيد الدلالة. ومعنى هذا أنه يجب أن تكون الرواية صحيحة أو موثقة أو حسنة حتى يمكن العمل بها [3]، وأن تتوفّر فيها الشروط المتكاملة لكي يـمكن أخذ الحكم الشرعي منها، والأثر الشريف يقول: «**أخوك دينك، فاحتط لدينك**» [4].

---

(١) الأنفال: ٧٥.

(٢) مسند أحمد ١: ٢٩٢، ٣٢٥، سنن الدارمي ٢: ٣٦٨ ـ ٣٦٩، صحيح البخاري ٨: ٥، ٦ ـ ٧، ٨.

(٣) فعلى صعيد دلالة الرواية نجد أن هناك بعض الروايات تكون تماميّتها غير متحصّلة في بعض الموارد التي يستدلّ بهذه الرواية لها، وحيئنذٍ فإن الرواية ربما تكون صحيحةً سنداً لكنها لعدم تماميّة دلالتها لا يصح الاستدلال بها في هذا الباب.

(٤) الأمالي (المفيد): ٢٨٣، الأمالي (الطوسي): ١١٠ / ١٦٨، بحار الأنوار ٢: ٢٥٨ / ٤.

طاووس راوٍ مجروح

وطاووس نحن لا نثق به ولا بروايته؛ لأنه من نمط الشُّعبي وأمثاله[1] الذين كانوا يعيشون ضمن فلك الحكام، كما أنه (طاووس) معروف عنه أنه كان يجامل هؤلاء الحكام ويداهنهم؛ ولهذا فإنه لا يعترف له بالوثاقة فأحكام الله جل وعلا لا يمكن أن تؤخذ من طريق مشكوك في ناقله.

ثم إن هذه المسألة مسألة نظر فنحن نعتمد على رواية في هذا الباب والآخرون يعتمدون على رواية أُخرى غيرها، فينشأ بهذا الاختلاف بين الفقهاء على صعيد الفتوى ـ أي أن الاختلاف في السند ورجاله من حيث الوثاقة وعدمها ـ أحد مناشئ الاختلاف بين الفقهاء على صعيد مرحلة الإفتاء؛ فمن يعتمد على رواية طاووس فإنّه يعطي نصف تركة الميت للبنت ويعطي النصف الآخر لعصبته ـ وهم أعمام البنت وأقاربها الآخرون حسب الطبقات ـ استناداً إلى هذه الرواية؛ أمّا نحن فاستناداً إلى الآية فإننا نعطيها النصف بالفرض والنصف الثاني بالردّ، فالقرآن الكريم يقول: ﴿**وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ**﴾[2].

وبهذا فإننا نجد أن هناك ألواناً ـ كثيرة من الاختلاف من هذا النوع بين الفقهاء. وباختصار فإن الاختلاف إما أن يكون بسبب فهم الدليل، أو الاختلاف في فهم النص، أو الاختلاف في وثاقة الراوي أو عدمها، أو الاعتماد على معنى ظاهرٍ من النص الشريف دون النظر إلى المعاني الأُخرى التي يحتملها، في حين أن الآخر يأخذ بمعنى آخر غيره.

---

(١) كابن عمه، وقد مرّ الكلام عنه في ج ٣/ محاضرة (التوكّل الواعي) من كتابنا هذا، وكعكرمة الذي مرّ الحديث وتحقيق حاله عنه كذلك في ج ٣/ محاضرة (الإمامة في القرآن) من كتابنا هذا.

(٢) الأنفال: ٧٥، الأحزاب: ٦.

الثالث: رؤية الله تعالى

وكذلك من موارد الاختلاف رؤية الله جل وعلا يوم القيامة، فحين نقرأ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١]، فإن بعض المسلمين يقولون بأن هذه الآية تعني أن الله جل وعلا يمكن أن يُرى يوم القيامة، أما نحن فنقول لا يمكن ذلك، ونحن مضطرّون إلى أن نأوّل هذه الآية إلى معنى آخر غير الذي يوحي به ظاهرها؛ ذلك أن الله جل وعلا لو كان بالإمكان أن يرى فهذا يعني أنه سبحانه وتعالى جسمٌ، وإذا كان جسماً فهذا يعني أن له أبعاداً، وإذا كان له أبعادٌ فهذا يعني أنه صار محدوداً.

اتّساع الكون

وهنا بيت القصيد؛ ذلك أنه تعالى إذا كان كان محدوداً فإنه لا يمكن أن يحيط بالسموات والأرض[٢]، أي أنه تعالى إذا محدوداً فكيف يمكنه أن يحيط بهذه السماوات والأرض، وبهذا الكون كلّه، والذي أثبت العلم الحديث أنّه يتّسع في كلّ ثانية، بل يزداد اتّساعاً هائلاً، وقد عبّر هو جلّ وعلا عن هذه الإحاطة بقوله: ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾[٣].

كما أن العلم قد اكتشف أن هناك مجرّات تبعد عنا مليارات السنين الضوئية، ويبتعد بعضها عن البعض بسرعات عالية.

وبناءً على نظرية الانفجار الكبير «*Big Bang*» فإن الكون في توسع مستمر، وهذا يعني أن الله جل وعلا لابدّ أن يكون قادراً محيطاً غير محدود حتى يتمكن

---

(١) القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) ففاقد الشيء لا يعطيه.
(٣) النساء: ١٢٦. وبقوله: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ فصلت: ٥٤.

من التصرف في هذا الكون كله [١].

ونظرية اتّساع الكون تؤكدها الآية القرآنية الشريفة التي تقول: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [٢].

فإذا كان الله جل وعلا محدوداً فكيف يمكنه أن يحيط بهذا الكون كله؟ وكيف يمكن السماوات والأرض أن تكون جميعاً في قبضته وفي يمينه؟ ولذا فإننا نقول: إننا مضطرون إلى تأويل هذه الآية الشريفة وإلى رفض الأخذ بظاهرها والقول بأنه تعالى يمكن أن يرى.

وليس الإمامية وحدهم هم من يرون هذا الرأي، وإنما هناك غيرهم من أبناء المذاهب الإسلامية فعائشة زوجة الرسول الأكرم ﷺ ترى مثل هذا [٣]، وابن القيّم الجوزية تلميذ ابن تيمية يذهب إلى هذا الرأي أيضاً، وهناك جماعة أُخرى غيرهم من المحققين يذهبون إلى أن الله جل وعلا لا يمكن أن يرى في الدنيا ولا في الآخرة.

إذن فالرؤية هنا إمّا أن تؤول بأنها رؤية عقلية [٤]، أو أن تكون على تعبيرنا العامي رؤية نعيم الله جل وعلا ورؤية عطائه سبحانه وتعالى، بمعنى أن هؤلاء ينتظرون عطاء الله ورحمته وينتظرون رأفته. فهذا هو المقصود من الآية الكريمة.

رجع

إذن فالمفسرون ـ كما ذكرنا ـ اختلفوا في معنى ﴿مَا﴾ المذكورة في الآية

---

(١) هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنه جلّ وعلا إذا كان جسماً وكان محدوداً فهذا يعني أنه فقيرٌ محتاج وليس بغني، أي أنه محتاج في وجوده إلى غيره، وهذا كفر صريح والعياذ بالله؛ لأنه خلاف صريح القرآن الكريم والسنّة الشريفة، ومسلّمات العقائد الحقّة.

(٢) الذاريات: ٤٧.

(٣) جامع البيان ٧: ٣٩٢/١٠٦٧١.

(٤) وتسمى الرؤية القلبيّة، كقول القائل: رأيت الله كبيراً.

الكريمة وهل إنها مصدرية أو إنها موصولية. وهكذا فنحن إزاء هذه الآيـة عـلى رأيين للفقهاء:

الرأي الأول: أنها مصدرية

وبناءً على هذا فإن معنى الآية الكريمة حينئذٍ يصبح: ولا تستعملوا أسـاليب الزواج التي كان يستعملها آباؤكم من قبل. ومن هذه الأساليب التي كانت سائدة آنذاك:

الأول: زواج المقت

وهو زواج معروف مشهور معمول به في الجاهلية. وهو أن يتزوج الابن زوجة أبيه كما كان يعمل به في الجاهليّة، منه فعل أُميّة جد أبي سفيان حيث إنـه طـلق زوجته وزوجها من ابنه.

وهذه الأُمور بطبيعة الحال لا نقاش فيها ولا أثر لها؛ لأنَّ الإسلام يجبّ ما قبله كما هو وارد عن الرسول الأكرمﷺ [١]، ولولا ذلك لوقع الكثير من المسلمين في مشكلة أدبية أو مشكلة التزامية فقهية؛ ذلك أن معظم الذين عاصروا النـبيﷺ كان زواج أمهاتهم قائماً على هذه الطريقة، بل إنه في بعض الأحيان لم يكن هناك عقد بين المتزوجين، فكان الرجل إذا نوى الزواج فإنه بمجرد أن يضع باب خبائه قبال باب خباء المرأة فإن هذا يعتبر عقداً وتعتبر المرأة زوجة له. وبناءً على هذا فإننا نقول: **«لكل قوم نكاح»**[٢]، وهذا يعني أنّ الإسلام يجبُّ ما قبله.

إذن فالآية الكريمة تخاطب المسلمين وتأمرهم بأن يبتعدوا عن النـهج الذي كان يسلكه آباؤهم فيما إذا أرادوا الزواج؛ لأن زواج آبـائهم لم يكـن زواجـاً

---

(١) المجازات النبويّة: ٥٤ / ٣٢، تخريج الأحاديث والآثار ٢: ٢٧.

(٢) تهذيب الأحكام ٧: ٤٧٢ / ١٨٩١، المهذب (ابن براج): ٢٥٥.

شرعياً، وليس هو بالزواج الذي يليق بمكانة الإنسان التي وضعه الله فيها. وهذا يعني أن الطريقة التي كان آباء المسلمين يستخدمونها لا سبيل إلى تطبيقها في عهد الإسلام الجديد، بل إن عليهم أن يتزوجوا وفق التشريع الإلهي الجديد الذي يتعامل مع المرأة على أنها كيان محترم وليس كياناً بهيمياً أو سلعةً تورث وتزوج كيف يشاء الوارث.

الثاني: زواج الشغار

وهو أن من لا يملك مهراً يتزوج به فإنه يُزوّج أُخته من شخص مقابل أن يزوّجه ذلك الشخص أُخته. وهذا النوع من الزواج باطلٌ وإن كان ما زال موجوداً إلى يومنا هذا في بعض البلاد الإسلامية، ويسمى عند البعض بـ(التحيير)، يعني أن المرأة لا يسمح لها أن تتزوج إلى أن يحصل أخوها على زوجة يبادلها بها ويتزوّجها إزاءها.

سلبيّات زواج الشغار

وفي هذا الزواج جهات سلبية كثيرة، نذكر منها:

الأول: سلب الفتاة حقّ الذمّة المالي

فهذا الزواج يسلب المرأة حقّها من الزواج، وهو المهر. فالمهر لها وليس لأخيها، لكنه مع ذلك ـ وفق هذا الزواج ـ يأخذه ليتزوج به أُخت الذي يتزوّج أُخته، وهي سرقة كما هو واضح. إن الاستيلاء عليه وإن كان ـ المهر ـ شيئاً بسيطاً يعدّ لصوصيّة.

الثاني: سلب الفتاة إرادتها

كما أن هذا الزواج يلغي إرادة المرأة إلغاءً كاملاً، ويعطيها إلى أخيها الذي ليس

له الحق في أن يزوّجها دون رضاها. وهذا هو الظلم بعينه، بل إنه الجريمة بعينها؛ لأن المرأة إذا أُلغيت إرادتها كان العقد فاسداً، ومعنى كون العقد فاسداً أن هذا ليس بزواج، بل هو زنا، وأن المتولّد من مائه ليس ابناً شرعياً. فالعقود يجب أن تنبعث من الرضا، ويجب أن يضمن الطرفان رضا بعضهما وهما العاقدان.

إذن فالمشرع الإسلامي يراعي هذه الجنبة ويأمر بوجوب إعطاء المهر للمرأة وإن لم يكن مالاً؛ لأنه (المشرع الإسلامي) لايشترط في المهر أن يكون مالاً، بل إنه يعتبر كلّ ما له مالية جائزاً العقد فيه كمهرٍ، ومن ذلك تعليم آية من القرآن أو غير ذلك. بمعنى أن كل ما يمكن أن يؤول إلى ماليّة فإنه يصحّ جعله مهراً للمرأة.

وليس التعليم هنا مختصراً على تعليم القرآن الكريم، بل إنه يشمل حتى تعليم القراءة والكتابة، أو يعلّمها نظريّة علميّة معيّنة ذات فائدة للمرأة فيعلّمها إيّاها، ويجعلها مهراً لها في زواجه منها.

إكراه بعض الفتيات على الزواج من أقربائهن

إذن فزواج الشغار زواج باطل من هذه الجهة. وتأسيساً على هذا فإننا نعرج على مسألة أُخرى هي مسألة إجبار بعض النساء على الزواج من أقاربهن. وهي مسألة ـ كما قلنا ـ فيها جريمة لأن العقد يكون حينئذٍ باطلاً، ويحصل إشكالٌ في هذا الوطء، وفي الأولاد المتولدين منه. كما أنها تنطوي على ضرر نفسي وضرر اجتماعي وضرر صحّي أيضاً؛ فالانغلاق على الأُسرة نفسها وعدم السماح للفتاة بأن تتزوج من أُسرة أُخرى يؤدي إلى مضاعفات اجتماعية، منها أن هذه الأسر تتحول إلى طوائف اجتماعية تترتب عليها آثارٌ مرعبة. فضلاً عن الأضرار الصحية التي تترتب على زواج الأقارب كما أثبته العلم الحديث.

فهذه الأساليب إذن كانت متبعة عندهم في الجاهلية، وهي أنكحة باطلة؛ ولذا فإن القرآن الكريم هنا ينبّه المسلمين إلى هذه الحقيقة، ويحذرهم من الولوج فيها، ويقول لهم بأن آباءكم إنما كانوا يستعملون نكاحاً غير مشروعٍ وغير صحيح، ولا يمكنكم أن تستعملوا مثل هذه الأنكحة الآن.

أنواع الحرمة في الزواج

ثم إن النكاح تارةً يكون حراماً حرمة مؤبّدة، وتارةً يكون حراماً حرمةً مؤقتة. فالتحريم المؤبّد من قبيل حرمة الأخت أو الأم أو البنت أو أخت الزوجة ما دامت الأخت في عصمة زوجها إلّا في الإماء كما هو مروي عن سفيان حيث إنه كان يرى جواز الجمع بين الأُختين الأمتين [١].

وهذا الرأي يخالف المسلمين بصورة عامة لأن الآية الكريمة فيها عموم، وهي قوله تعالى: **﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾** [٢]، فيحرم الجمع بين الأُختين مطلقاً؛ لأنه يؤدي إلى العقوق والى قطع الأرحام؛ لما في هذا الأمر من غيرة من المرأة. فالمرأة حينما يتزوج زوجها عليها فإنها تأكلها الغيرة، وهذا الأمر يتفاقم أكثر حينما تكون الزوجة الثانية أخت الزوجة الأُولى ذلك أنها سوف تحتمل منها في نفسها وسوف تكرهها وتحقد عليها، وبالتالي فإن هذا يؤدّي إلى حدوث القطيعة والعقوق بينهما.

---

(١) روى عبد الرحمن بن قدامة عن ابن منصور عن أحمد وسأله عن الجمع بين الأُختين المملوكتين أحرام هو ؟ قال: لا أقول: حرام، ولكن ننهى عنه. ثم قال ابن قدامة: وظاهر هذا أنه مكروه غير محرم. الشرح الكبير ٧: ٤٩٠، المغني ٧: ٤٩٣.
وقال السرخسي: وكان عثمان يقول: أحلّتهما آية وحرّمتهما آية، فكان يتوقّف في ذلك، ولكنا نقول: عند التعارض يترجّح جانب الحرمة. المبسوط ٤: ٢٠١.

(٢) النساء: ٢٣.

إذن فالإسلام ينبه إلى أن تلك الأساليب التي كانت سائدة في الجاهلية توضع وتطبق بغير ضوابط عقلية أو ضوابط شرعية، فكان للشخص في الجاهلية الحق في أن يتزوّج بأي عدد شاء من النساء بمجرد أن يملك المال. وقد كان بعض العرب تحته عشر من النساء، وكان بعضهم تحته أكثر من ذلك، وكانوا على هذه الحال حتى بعد دخولهم في الإسلام فبعث النبيﷺ خلفهم وأمرهم بأن يختاروا أربعاً منهن وأن يطلّقوا الباقي.

وأود أن أذكر هنا أنه قد وردتني بعض الرسائل التي تدور حول قضية العنوسة، وفيها تساؤلات حول عدم التشجيع على تعدّد الزوجات لحلّ مشكلة العنوسة وللقضاء على العدد الكبير من العوانس، وهو عدد يتزايد هذه الأيام. وفي واقع الأمر أن تعدد الزوجات وُضع لحل مشكلة اجتماعية أو غيرها، أما الزواج بهذه الطريقة التي يدعو لها أصحاب هذه الرسائل التي وردتني فربما تخلق مشكلة؛ أعني بها المشاكل الاقتصادية وغيرها، في حين أن هناك أساليب أُخرى يمكن عبرها أن نتخلص من هذا الفائض. أما التعدد بدون سبب فهو مشكلة في الواقع؛ لأن الله جل وعلا حينما أعطى هذه الرخصة فإنما أعطاها لحكمة يراها لا لمجرد التشهّي. وقد تطرقنا إلى هذا في محاضرات أُخرى.

الرأي الثاني: أنها موصولية

وبناءً على هذا الرأي أو هذا الفهم للآية فإن معناها يصبح: ولا تتزوجوا الزوجات اللواتي تزوجهنَّ آباؤكم، أو اللواتي كنَّ زوجات لهم. وبهذا المعنى فإن زوجة الأب يحرم على الابن أن يتزوجها لأنها تعد بمنزلة الأم.

حول حرمة الزواج من زوجة الجد

وتأسيساً على هذا الرأي فإنه يمكن أن يرد سؤال في البين هو: هل إن الزواج

من زوجة الجد حرام أم لا؟ إن القرآن الكريم قد استعمل لفظة الجد بمعنى الأب؛ سواء كان جداً للأُم أو جداً للأب. وهذه النقطة مثّلت دوراً ضخماً في تاريخنا؛ لأنه إذا اعتبرنا أن الجدّ للأُمّ أب، فإن ذلك يعني أن سيدي شباب أهل الجنة عليهما السلام أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا الأمر يعد مصيبة ومشكلة بالنسبة إلى السلطات الحاكمة آنذاك؛ ولذا فإننا حينما نرجع إلى التاريخ نجد أن هذه المشكلة قد أُثيرت في تلك الأيام؛ لأنها قد خلقت مشكلة داخل البلاط الأُموي والبلاط العباسي.

وهذا هو الذي دفع بأصحاب هذه البلاطات إلى أن يحشدوا طاقات كبيرة لإبعاد الحسن والحسين عليهما السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد جنّدوا شعراءهم وأُدباءهم لخدمة هذا الغرض، ودفعوا بكل طاقاتهم نحوه، وجندوا أيضاً حتى من ينتمي إلى الشريعة، وهم وعاظ السلاطين، فسخّروهم لخدمة هذا الهدف ولتحقيقه، يقول أحد الشعراء:

لكم رحمٌ يا بني بنته ... ولكن بنو العم أولى بها

قتلنا أُميّةَ في غابها ... فنحن أحقُّ بأسلابها

ونحن ورثنا ثياب النبي ... فكم تجذبون بأهدابها[1]

والعرب كما هو معروف لا يعرفون نظرية الانتخاب، وإنما درجوا وعاشوا على نظرية الميراث، حيث يموت الأب فيأتي الابن ليرث ملكه وسلطانه. وهذه النظرية كانت متجذّرة عندهم آنذاك؛ ولذا فإن عبد الله بن المعتز صاحب هذا الشعر يقول: صحيح أن الحسن والحسين أولاد بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكن هذا الأمر لا يعدو أن يكون أوهاماً، أي أمر كونهم أبناء لرسول الله، وأنهما إمامان وأن لهما الخلافة من بعده. فهو يقر بأنهما سبطان وليسا ولدين. وهذا الاعتقاد وهذا

---

(١) ديوان ابن المعتزّ: ٢٩، الغدير ٦: ٥٢.

التوجيه وهذا التضليل والتهريج هو خلاف ما درج عليه النبي الأكرم ﷺ ؛ لأنه (صلوات الله عليه) لما عرف أن هذا سوف يحدث من بعده، وأن ممّن يدّعي أنه من أُمّته سوف يقول بهذا، وضع لهذا الأمر أساساً، فكان يعبر عن الحسن والحسين عليهما السلام بقوله: **«الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»**[١]، وعن الإمام الحسن عليه السلام بقوله: **«إن ابني هذا سيد»**[٢]، وعن الإمام الحسين عليه السلام بقوله: **«أتاني جبرائيل فأخبرني أنّ أُمّتي ستقتل ابني هذا»**[٣] إلى آخره من الأخبار والروايات الدّالة على هذا المعنى.

فالنبي الأكرم ﷺ وضع لنا الأسس التي يجب أن نتّبعها؛ لأنها صادرة عن قناة التشريع الإلهية.

إذن فالفقهاء يعتبرون الجدّ للأُم أباً، والجد للأب أباً أيضاً. ومعنى ذلك أنه حتى على نظرية الميراث فإن الحسن والحسين عليهما السلام هم أولاد، والأولاد حكمهم أن يرثوا كما لو كانوا أولاداً مباشرة. وهذا هو الذي يقع فعلاً في كل زمان، فمن ناحية الزواج لا يمكن الرجل أن يتزوج زوجة جدّه لأُمّه أو جدّه لأبيه؛ لأنهما محرمتان عليه. ومع كل هذا فإن هذه القضية ظلت تمثّل دوراً ضخماً في تاريخ المسلمين ـ كما ذكرنا ـ لأنها تمسّ قضيةً يؤمن بها الشيعة، ولأنها تمسّ خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وخلافة الحسن والحسين عليهما السلام.

ثم إن الشيعة قد أعطوا وقدّموا تضحيات كثيرة من أجل هذا الاعتقاد، وكانوا

---

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٧، علل الشرائع ١: ٢١١، الإرشاد ٢: ٣٠.

(٢) مسند أحمد ٥: ٣٧، ٤٤، ٤٩، ٥١، صحيح البخاري ٣: ١٦٩، ١٧٠، ٤: ١٨٤، ٢١٦، ٨: ٩٩، سنن أبي داود ٢: ٣١١ / ٤٢٩٠، ٤٠٥ / ٤٦٦١، وغيرها كثير.

(٣) المستدرك على الصحيحين» ٣: ١٧٦ ـ ١٧٧، قال: «وهذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين».

صامدين على هذه النظرية وعلى القول بها مع أنها قد كلّفتهم كثيراً أو كلفتهم الكثير الكثير من الأموال، والأرواح، والتهجير، وسلب الحقوق والمعايش، وما إلى ذلك. لقد وطّنوا أنفسهم على هذا الأمر، وعلى القول بهذه النظرية مع علمهم بأنها ستكلّفهم دماءهم ورقابهم ولا أقل من أموالهم وأرزاقهم، فصمدوا ولم يتراجعوا ولم يهنوا أبداً.

إذن فزوجة الجد هي زوجة أب؛ سواء كان الجدّ للأب أو للأم؛ وبهذا فإن العقد يحرم عليها.

هل إن النهي يتناول الوطء أم العقد فقط؟

إن الزواج أو النكاح الذي أشارت إليه الآية الكريمة، والذي نهت عنه قد ذكر فيه رأيان للمفسرين هما.

الأول: أنه يشمل الوطء.

الثاني: أنه يقتصر على العقد.

وهذا يعني أنه لو أن أحداً عقد على امرأة ولم يدخل بها ثم توفي، فهل هذه المرأة مشمولة بهذا الحكم أم لا؟

وللجواب عن هذا لابدّ من الرجوع إلى نظرة الفقهاء إلى النكاح، فمن يقل منهم: إن النكاح أساسه العقد فإنه يرى هذه الحرمة ثابتة هنا، أي لمجرد العقد، أما الذي يرى غير ذلك، فيعتبر أن النكاح لا يكون إلّا بالوطء، وأن أساسه الوطء فإنه يعتبرها غير محرمة؛ لأنها حينئذٍ ليست بزوجة ولا مدخول بها.

والذي عليه أغلب الفقهاء هو الحرمة حتى لمجرد العقد؛ لأن الوطء يشتمل على العقد ضمناً؛ لأنها امرأة سواء كانت معقوداً عليها فقط أو مدخولاً بها، فإنها

تحرم على ابن الزوج أو ابن ابنه أو ما إلى ذلك.

وعليه فالآية الكريمة تنبّه إلى هذا المعنى، وتنهى المسلمين عن الولوج والتوغّل فيه؛ لأنه نكاح باطل بأي صورة كان؛ سواء كان بالعقد فقط، أو بانضمام الوطء معه.

المبحث الثالث: في أن الإسلام يجبُّ ما قبله

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، أي أن ما حدث قد رفع الله تبعته؛ لأن بعض الناس ينظرون إلى الأُمور بهذا الشكل، فيتّهم أحدهم الآخر بأن أباه كان متزوّجاً على هذه الطريقة من النكاح الباطل. فالآية تريد أن تقول لهؤلاء بأن ما سلف قد سلف، وقد عفا الله عنه ورفع تبعته.

اتهام الشيعة بأن آباءهم مجوس

ومن هذا أن البعض يتّهم طائفة من المسلمين بأن آباءهم كانوا مجوساً، وهذا أمر عجيب؛ لأن هذا المتهم غيره بأن أباه كان مجوسياً لم يكن أبوه في الجاهلية إلّا وثنيّاً، فلماذا يعدُّ هذا الأمر منقصة وعيباً عند البعض ولا ينظر إليه في نفسه على أنه كذلك؟ إن الإنسان يجب أن يتحلّى بالواقعية، وأن يصطبغ بصبغة الموضوعية في اتهاماته وفي انتقاداته وفي تلميحاته ومناقشاته، فيرى العيب في نفسه قبل أن يرى العيب في غيره [1].

لقد جاء الإسلام وخلّصنا من مجتمع الجاهلية، فجبّ ما قبله؛ حتى يرفع تبعته، وحتى ينبّه المسلمين إلى أنهم غير مسؤولين عمّا كان يفعل آباؤهم، لكن عليهم

---

(١) ورد في الأثر الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو عن أمير المؤمنين عليه السلام أنهما قالا: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس». نهج البلاغة / الخطبة: ١٧٦، مسند الشهاب ١: ٣٥٨.

ألّا ينتهجوا طريقتهم في الأنكحة الفاسدة وفي غيرها.

المبحث الرابع: في معنى الفاحشة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾، والفاحشة هي الأمر القبيح قبحاً شديداً، فالقرآن الكريم والروايات النبوية الشريفة تعبّر عن كل ما هو قبيح قبحاً شديداً بأنه فاحشة؛ لأنه يترتب عليه عدة أُمور:

الأول: اصطدامه بالطباع

ذلك أنه أمر غريب عن المألوف عن العادات، عن الطبيعة البشرية، ويصدم بها.

الثاني: أنه ينشر العهر والرذيلة داخل الأسرة

إننا إنما نأخذ من حضن الأم الدفء العاطفي، والتربية السليمة، والقداسة في العلاقة؛ لأن الأم وهي في طور التربية وفي طور التنشئة تنشئةً وتربيةً صحيحتين وسليمتين ينظر لها نظرة قداسة. يروى أن شاباً كان مع إخوان له، فقال لهم: أُريد أن أدخل إلى الدار ثم أعود إليكم، فلمّا دخل فيها تأخّر فترة ثم خرج، فلما سألوه عن سبب تأخره قال: كنت واضعاً خدي على تراب الجنة. فقالوا له: أنت في الدنيا، فما لك والجنة؟ قال: نعم، أنا في الدنيا، لكن رسول الله ﷺ قال: «**الجنة تحت أقدام الأمّهات**»[1]، فأنا كنت أُقبّل موضع قدم أُمّي.

وفعلاً فإن حضن الأم لا يجاريه شيء طهارةً ـ أو قداسةً.. الحجر الذي وضع الله عز وجل فيه الحنان والدفء العاطفيين اللذين تغدقهما الأم على ولدها كي تنشئه تنشئة سليمة، فيخرج إلى الحياة سليماً معافياً، كما أنه مدرسة يغتذي عليها

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، عن لب اللباب للقطب الراوندي، مسند الشهاب ١: ١٠٢/ ١١٨، كنز العمّال ١٦: ٤٦١/ ٤٥٤٣٩.

الولد، يقول الشاعر:

الأمّ مـــدرسة إذا أعـــددتها أعددت شعباً طيّب الأعـراقِ [١]

فهذا الحِجر يجب أن نكرمه، وألّا نحوّله إلى غريزة؛ ولذا فـقد عـبر القـرآن الكريم عن هذه الحالة (تحويل هذا الحجر إلى غريزة) بقوله: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً**﴾، فاعتبرها فاحشة، والفاحشة مما ينبغي اجتنابها والابتعاد عـنها، وعـدم سـلوك سبيلها.

المبحث الخامس: في معنى المقت

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**وَمَقْتاً**﴾، إن بعض المتأثرين بـالغرب مـن المسلمين ومن غيره يشكل على التشريع الإسلامي في هذا الخصوص فـيقول: لماذا يحق للرجل أن يتزوج أكثر من امرأة ولا يحق للمرأة أن تتزوج بأكثر مـن رجل؟ وكأنما هؤلاء المعترضون يطالبون بالمساواة بين الرجل والمرأة في هـذا المجال، والحال أن المساواة لا تتحقق في كل شيء بل إن تطبيقها في كل شـيء لا يحقق العدل بل يحقق الظلم، فمن العدل ألّا تكون هناك مساواة.

فالمجرم مثلاً لا يمكن أن يُعامل معاملة الإنسان التقي أو الإنسان المسـتقيم الصالح في حقوقه كافة؛ لأن ذلك مجرم متمرس على الإجرام محترف له شـغله الشاغل الاعتداء على الآخرين واستلاب حقوقهم والسيطرة عـلى مـقدراتـهم وحقوقهم، أما هذا الإنسان الصالح فإن شغله الشاغل هو خدمة الآخرين وتوفير

---

(١) وتمامها:

الأمّ روض إن تعاهده الحيا بـالريّ أورق أيـما إيـراقِ
الأمُّ أُستاذ الأسـاتذة الأُلى شغلت مآثرهم مدى الآفاقِ

الأسرار الفاطميّة: ٥٢٥.

الأجواء المناسبة داخل المجتمع ليكون المجتمع مجتمعاً سليماً وطبيعياً. وحينئذٍ فإن معاملة هذين على حد سواء يكون فيه ظلمٌ لهذا الإنسان، بل وظلمٌ للمجرم لأن هذا فيه مساعدة له وتشجيع له على الجريمة والإجرام.

وعليه فهذا خلاف العدل وكذلك الأمر هنا فإن العدل لا يمكن أن يتحقق بالمساواة بين الرجل والمرأة في هذا الباب؛ لأن الرجل إذا كان قد أبيح له أن يعدد أو أن يتزوج بأكثر من امرأة فإن الماء حينئذٍ سوف لن يختلط وسوف يبقى نسب المتكونين من هذا الوطء معروفاً فأمهاتهم معروفة وأبوهم معروف، أما المرأة فإذا عددت فإن ذلك يستلزم أمرين:

الأول: اختلاف الأنساب لأن هذا المتولد من هذا الوطء سوف لن يعرف أبوه فيما إذا كان هو الواطئ الأول أو الثاني أو الثالث وما إلى ذلك.

الثاني: أن ذلك يورث الحقد والعداوة والبغضاء؛ لأن الإنسان بطبعه يحب أن يستأثر بزوجته وبالجنين الذي في بطنها، فحينما تحصل حالة التعدد هذه سوف تتشاح المسألة وتنتشرُ وسينتشرُ الحقد بينهم؛ لأنهم حينئذٍ كلٌ يريدُ أن يدعي أو يريد أن يضم هذه الزوجة تحت جناحه وأن يأخذ الجنين الذي في بطنها إليه مع أنه ربما لا يكون ابناً له ولم يكن قد انعقد من نطفته. ولهذا فإن في بعض المجتمعات نجد أن المرأة إذا انحرفت فإن أيسر ما يكون عند زوجها هو قتلها؛ لأن الحقد يربو في هذه المسألة ويتصاعد ويأخذ بخناق الزوج حتّىٰ يقوده إلى هذه الجريمة. فهذه المسألة إذن ممّا يتّصل بالغريزة والطباع.

والواقع أن هذه الخصلة هي خصلةٌ محببةٌ للمرأة، بل وتعتز بها لأنها تحب أن يغار عليها زوجها وأن يندفع للدفاع عنها بكل ما أُوتي من قوة وطاقة؛ لأنها حينئذٍ

سوف تستشعر شدة حبه لها، فإذا صار البناءُ أن يكون حجر المرأة مؤهلاً لأكثر من رجل فإن هذا يعني أننا قد لوّثنا الأُسرة بجراثيم أخلاقية تؤدي إلى إفسادها وإفساد المجتمعِ في التنيجة، كما أننا نكون قد خلقنا المقت وهو البغض والعداوة والشنآن داخل الأُسرة وداخل المجمتع.

المبحث السادس: ضرورة النسب الطاهر

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾، وهذا المقطع من الآية الكريمة هنا يقرر أنّ هذا الطريق الذي سلكه آباؤهم هو من أسوأ الطرق؛ لأنه طريق غير نظيف ولا يؤدي إلى مسارٍ نظيف أبداً. فزوجة الأب هي أم ثانية وبعض زوجات الأب ربما تعطي من وقتها ومن نفسها ومن حبها وحنانها وعاطفتها لأبناء زوجها أكثر مما تعطيه الأم نفسها، فكثير من زوجات الآباء كان لهنَّ أدوارٌ كبيرة وضخمة في حياة أبناء أزواجهن بما مثلنه من دور هو تمام دور الأم ويحوي جميع خواصه.

كان عقيل بن أبي طالب صاحب طنفسة تفرش له في المسجد فيفتي الناس بعلم الأنساب، فإذا ما أراد أحد أن يتزوج أو يصاهر فإنه يلجأ إليه فيخبره بخواص القبيلة التي تنتمي إليها المعنية أو الأصهار المعنيون. يروى أن أحد الأثرياء في ذلك الزمان سئل عن ابنه فقال: والله لهو نعم الولد عقلاً وتربية. فقيل له: فكم تعطيه في الشهر مصروفاً؟ قال: ديناراً واحداً. فقيل له: إن ثلاثين ديناراً لا تفي باحتياجاته، فكيف بدينار واحد؟ فقال: إن ثلاثين ديناراً أسرع في نقص الثروة من السوس في الخشب.

والشاهد هنا هو قولهم له: نشهد أنك من بني فلان، فبعض القبائل معروفة مثلاً

بالبخل وبعضها بالكرم وبعضها بالشجاعة وما إلى ذلك، وكان العرب يتسابقون للزواج من القبائل المعروفة بالصفات الحسنة كالصولة والشجاعة والكرم والمجد؛ ولهذا فإن أمير المؤمنين حينما أراد أن يتزوج بعد وفاة الزهراء استدعى أخاه عقيلاً وقال له: «**انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب؛ لأتزوّجها فتلد لي غلاماً فارساً، يكون ناصراً وعضداً لولدي الحسين بطفّ كربلاء**». فقال له عقيل: عليك بفاطمة بنت حزام الكلابيّة؛ فليس في العرب من هو أفرس وأفتىٰ من أهلها؛ فإن من قومها مُلاعب الأسنّة، ومهلهلاً، وعامراً الذي يقال عنه: لو سقط نجم من السماء لالتقطه برمحه [1].

وأهلها هم الذين افتخر بهم لبيد الشاعر في مجلس النعمان بقوله:

نحن بنو أمّ البنينَ الأربعهْ ... ونحن خيرُ عامرِ بنِ صعصعهْ
الضاربون الهامَ وسطَ الخيضعهْ ... والمطعمون الجفنةَ المدعدعهْ [2]

فخطبها أمير المؤمنين وتزوجها وكانت كالأم فقد رعت الحسنين رعاية ليس بعدها رعاية، وحينما توفي أمير المؤمنين كان حبها للحسنين أشد وأكبر حتى إن بعض المؤرخين يروي فيقول: إنها كانت تقول لأمير المؤمنين: لا تناديني بفاطمة، بل ناديني بكنيتي؛ كيلا يسمع الحسنان اسم فاطمة ويتذكّرا أُمّهما ممّا يسبّب لهما الألم. فكانت تحدب على خدمة سيدي شباب أهل الجنة خدمة منقطعة لا نظير لها، وأبرز مواقفها يوم أن رجع ناعي الطفّ ينعى الحسين، يقول بشر بن حذلم: أمرني الإمام السجاد

---

(١) انظر: عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧، وليس فيه: «يكون ناصراً...».
(٢) ديوان لبيد بن ربيعة (ضمن ديوان الفروسيّة): ١٦٨.

بأن أدخل المدينة قبلهم وأنعى الحسين عليه السلام ولو ببيتين من الشعر، فدخلت ووقفت على مرتفع وصرخت:

يا أهل يثربَ لا مقامَ لكم بها — قتل الحسينُ فأدمعي مدرارُ

الجسمُ منه بكربلاءَ مضرّجٌ — والرأسُ منه على القناةِ يدارُ

يقول: فقلبت المدينة رأساً على عقب وخرج الرجال والصبيان، وخرجت من بينهم امرأة تشق طريقها إلي وكانت تذود الناس إلى أن قربت مني فوقفت وقالت: ياهذا أنت الناعي ريحانة رسول الله ! قلت: بلى قالت: بالله عليك، أخبرني عن الحسين هل هو حيٌ أم ميت؟ قلت: عظم الله لك الأجر بأبي عبد الله. يقول بشر: نظرت إليها وكان على كتفها طفل، فلما نعيت لها الحسين انهدل كتفها وسقط الطفل من على كتفها إلى الأرض فصاحت: ويحك لقد قطعت نياط قلبي[1].

فكان الناس يسمعون بعد ذلك ندبتها بعد أن تخرج إلى البقيع لتندب أولادها وتندب الإمام الحسين عليه السلام فقد كانت تخرج من دارها تحمل طفل أبي الفضل العباس وتقف خارج المدينة، وتندبهم بأشجىٰ ندبة:

لا تدعونّي ويكَ أمّ البنينْ — تذكّريني بليوثِ العرينْ

كانت بنون ليَ أُدعىٰ بهم — واليوم أصبحت ولا من بنينْ

أربعة مثل نسور الربىٰ — قد عالجوا الموت بقطع الوتينْ

يا ليت شعري أكما أخبروا — بأن عباساً قطيع اليمنْ[2]

ومن جملة من سمع ندبتها وبكى لها مع الباكين مروان بن الحكم.

---

(١) مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ٢٣٩، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١١٥.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٨٧، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٨١.

لگــعد عـلى درب الظـعون أسـايل اليـرحـون ويـجون
كـــلمن إله غــياب يــلفون ونه غايبي بـاللحد مـدفون

* * *

بعد هـيهات دهـري بـيكم ايـعود اردن اشــيل راسـي بـيكم اردود

* * *

أحــبتنا مــن للـظعائن بـعدكم فليت فداكـم يـا كـرام الظـعائنُ

﴿١٩٥﴾

الفتنة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: المراد من الفتنة

إن الفتنة تطلق على عدّة معانٍ منها الاختبار والبلاء والنعمة، والمراد منها في الآية الكريمة آية المقام هو الاختبار، بمعنى أن الأولاد والأموال طاقة تُمنح للإنسان ليُختبر بها، فيعرف ما إذا يحسن التصرّف إزاءها أو لا يحسنه. والقرآن الكريم عندما يشير إلى هذه الناحية فإنه إنما يشير إلى حقيقة متأصّلة في نفس الإنسان ، وهي شهوة وغريزة تعيشان في نفسه وتتركّزان داخلها يوم بعد يوم. وهناك آية كريمة أُخرى في خصوص هذا المقام كذلك تقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾[2]، وهي بهذا تؤكّد الرغبة الكامنة في أعماق كلّ إنسان بمجرّد أن يترعرع ويكبر؛ فإنه حينئذٍ يشتهي الدنيا، كما إنه يشتهي امتداد حياته فيها، وهذا الامتداد هو امتداداته

---

(١) الأنفال: ٢٨.

(٢) آل عمران: ١٤.

بالبنين الذين سوف يحيون ذكره.

والإنسان بهذه الرغبة إنما يريد أن يؤكّد أو يحقّق أنه حينما ينتقل من الدنيا فإن ذاته تبقى حيّة بالولد ولن تموت، فهي تعيش عبر أبنائه وحفدته الذين يعتبرون امتداداً له في الحياة، وبالتالي فهم يحيون ذكره، ولا يقول أحد بعد رحيله عن الدنيا: إن فلاناً قد مات.

إذن فحفظ ذكره إنما يكون عن طريق أبنائه الذين يمثّلون امتداد الذات الإنسانيّة. ولذا فإن في تعبيرات الناس أن من يمت وكان قد خلّف ـ أي أن له عقباً ـ فإن الناس حينئذٍ سوف يقولون: إن فلاناً لم يمت، بل إنه موجود بيننا بشخص ابنه.

فالولد بهذا هو عبارة عن رغبة كامنة في أعماق الوالدين؛ ولذا فإن المفسرين يقولون: إن حنّة بنت فاقوذ (امرأة عمران، وأُمّ مريم) كانت امرأة لا تحمل، فرأت يوماً منظراً هزّها من أعماقها، فقد رأت طائراً يزقّ فرخه، فتحرّكت روحها واشتهت الولد فدعت الله تعالى من أعماقها أن يهبها ولداً، فاستجاب الله دعاءها، وأوحى إلى عمران: «**إني واهب لك ذكراً مباركاً، يبرئ الأكمه والأبرص، ويحي الموتى بإذن الله تعالى، وجاعله رسولاً إلى بني إسرائيل**». فحدث امرأته حنّة بذلك، وواقعها زوجها فحملت منه، فلما تحقّقت الحمل نذرت أن يكون محرّراً، فقالت: ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى**﴾[1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿**مُحَرَّراً**﴾: خالصاً مفرّغاً للعبادة، ولخدمة بيت المقدس[2].

---

(١) آل عمران: ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) مجمع البيان ٢: ٢٨١، تفسير القرآن العظيم ١: ٣٦٧.

معنى النفي في ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾

إن هذا النفي الوارد في ذيل الآية الكريمة الثانية هو نفي خصوص الصلاحيّة المعطاة للولد أو الممنوحة له في خدمة المسجد أو المعبد دون الفتاة، ولا يعني أن الذكر أفضل من الأُنثى في كلّ حال؛ ذلك أن الولد بطبيعة الحال لا تعتريه العوارض التي تعتري المرأة؛ وبالتالي فإنه يصلح أكثر لخدمة المسجد. فالمرأة قد يمرّ بها دور نفاس، أو حيض، أو استحاضة، وما إلى ذلك، وهذا مما يمنعها من دخول المسجد في تلك الأيام المحدودة، في حين أن الرجل بمنأى عن كلّ هذا. وهذا هو الذي دفع بالناس إلى أن ينذروا أبناءهم الذكور لخدمة المعبد دون بناتهم الإناث.

وهكذا فإننا قد وجدنا أن الذي حرّك هذه الرغبة الكامنة في أعماق حنّة لطلب الولد هو المنظر الخارجي الذي رأته في ذلك الطير. ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر يروى في هذا المجال أنه كان لأبي الطمحان القيني الأسدي ـ وهو من الشعراء ـ موقف طريف حينما ذهب مع الجيش إلى الري، والإنسان حينما يكون غريباً، تنقبض نفسه وتضنك، وهكذا كان حال أبي الطمحان، فكان أن رأىٰ يوماً حمامة تزقّ فراخها، فراح ينشد قائلاً، وقد تذكّر أطفاله في العراق:

أفي كلِّ يومٍ غربةٌ ونزوحُ ... أما للنوَىٰ من أوبةٍ فنريحُ

لقد طلح البينُ المُشِدُّ ركائبي ... فهل أرينّ البينَ وهوَ طليحُ[1]

وأرّقني بالريِّ نوحُ حمامةٍ ... فنحتُ وذو الشَّجوِ الشديدِ ينُوحُ

علىٰ همّها ناحت ولم تُذرِ دمعةً ... ونحتُ وإذراءُ الدموعِ سفوحُ

---

(١) طلح: أعيى. ترتيب إصلاح المنطق: ٢٤٢ ـ طلح. يريد: لقد أعياني البين، فمتى يمكن أن أراه عيياً؟

ونـاحت وطـفلاها بـحيثُ تـراهـما   ومـا بـين أطـفالي مـهامةُ فـيحُ[1]

فهذه الحمامة كانت تشعر بالحرارة؛ مما بعثت في نفسه حرارة ولوعة، وفي أعماقه شوقاً إلى أبنائه. وهو تعبير دقيق عن هذه الرغبة الكامنة في النفس تجاه الولد.

المبحث الثاني: التزامات الآباء تجاه الأبناء ودوره في بناء الأسرة

وفي الوقت الذي أوجد الله جل وعلا هذا الحبّ في صدري الأبوين تجاه أبنائهما، فإنه سبحانه وتعالى قد ألزمهما بالتزامات كثيرة تجاههم، وأوجب عليهما واجبات تدخل في صلب عملية التربية والمراعاة الأخلاقية المطالب بها الأب تجاه ابنه أمام الله جل وعلا وأمام المجتمع. وموضوع التبادل بين الالتزامات تجاه الأبوين والأبناء موضوع مهم لأنه مما تقوم عليه الحياة الأسرية وبالتالي حياة المجتمع ككل، باعتبار الأُسرة خليّة مساهمة في بناء الهيكل الاجتماعي؛ فلا يمكن أن نبني مجتمعاً من دونها.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى ضرورة بناء الأُسرة بناء سليماً وفق النظام الذي شرعه الله جلّ وعلا وأراده، وهو النظام الذي تقوم على أساسه الأُسرة السليمة والصحيحة؛ كي ينعكس ذلك إيجابيّاً على المجتمع ككل. إن النزوع الموجود في أعماق الأبوين إلى الولد لم يخلقه الله جل وعلا بطبيعة الحال عبثاً، بل إنه جلّ وعلا خلقه لحكمة؛ لأن من غير هذا النزوع لايمكن أن نضمن للمجتمع الاستمرار.

---

(١) تاريخ بغداد ٩: ٤٩٣، تاريخ مدينة دمشق ٢٩: ٢٢٧ـ ٢٢٨، معجم البلدان ٣: ١١٩، وفيها أنها لأبي محلم.

إن الإنسان ما إن ينضج وتكتمل شخصيّته حتى يفتح عينيه على الحياة ومشاكلها، فيبدأ بالتفكير في مشاكلها المختلفة، ومن ذلك على سبيل المثال أزمة السكن، وأزمة الطعام، وأزمة الأخلاق، وهي أزمات تقف جميعها حائلاً دون ولوج الإنسان قفص الزواج؛ وهو الأمر الذي يضطر البعض إلى أن يتهرّب من الزواج أمامها.

ولولا وجود هذه النزعة القوية الكامنة في الأعماق والرغبة الأكيدة الموجودة في النفس البشرية إزاء الأولاد لما أقدم الإنسان على اجتياز هذه العقبات والوصول إلى عشّ الزوجية؛ لأنها هي التي تجعله يرضخ ويتزوّج بناءً على هذه الرغبة في الحصول على الولد. ولذا فإنه ما إن يرَ منظراً يهزّه من الأعماق حتى يتحرّق شوقاً لتحقيق هذه الرغبة في نفسه.

إذن فالمجتمع لا يمكن ضمان بقائه من غير رعاية هذا الجانب، وهو جانب الرغبة في الحصول على الولد؛ لأنها الرغبة الوحيدة التي تجعل من الأبوين كائنين يتحمّلان كلّ هذه المشاكل والأزمات، ويجتازانها في سبيل الحصول عليها. ولذا فإننا نجدهم يتناسون مآسي الحياة وقساوتها، وشظف العيش، وقسوة الظروف، وما إلى ذلك ممّا يعترض المسيرة الإنسانية في هذه الحياة من معرقلات وعقبات في سبيل الحصول على الولد.

وهذا الأمر يتوفّر على إيجابيات كثيرة أهمها أنه يحافظ لنا على عمليّة استمرار النوع والمجتمع، فما لم يكن هناك تناسل، وما لم يكن هنالك إيلاد؛ فلن يكون هناك مجتمع.

الأبوان والتربية

لكن المسألة لا ينبغي أن تنتهي عند هذا الحدّ بل إن على الأبوين أن يفكّرا أن

هناك وراء هذه المسألة التزامات كثيرة أوجبها الله جلّ وعلا وذكرتها الشريعة، فعليهما قبل أن يفكّرا بالحصول على الولد، أو ـ لا أقلّ ـ من أن يكون ذلك في الوقت الذي يفكّران فيه بالحصول عليه أن يفكّرا بالالتزامات الشرعيّة والإنسانيّة إزاءه. وهذا الأمر يخضع لقاعدة قرآنية يتبنّاها الشرع الحنيف حيث يقول تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[1].

وهذا يعني أن هناك معادلة تبادليّة حول مسؤولية التربية بين الآباء والأبناء، أي أن هناك علاقة في تبادل المسؤولية والحقوق والواجبات. وهذه العلاقة التبادليّة تمتدّ لتشمل كلّ أبعاد الحياة، وأبعاد السلوك الإنساني في حياته العامّة، وعلى أصعدتها ومستوياتها كافّة.

والمنهج القرآني في هذا المجال واضح لا لبس فيه، فهو يشير عبر هذه الآية الشريفة المارّة إلى قضية تبادل الالتزامات بين الأفراد داخل المجتمع، سيما بين الآباء والأبناء؛ فعلى الأُم التزامات إزاء أولادها، وعلى الأولاد التزامات إزاء أبويهم.

إذن فنحن هنا إزاء نوعين من الالتزامات:

الأول: الالتزامات الكسبيّة

ومثاله حبّ الإنسان لصديقه فإن هذا الحب لم يولد مع الإنسان كغريزة، بل إن هذا الحبّ يتولّد نتيجة العلاقة التي تربط بينهما، ونتيجة الصحبة، ونتيجة الالتزامات التي تكون عادة خارج إطار الالتزامات القسرية أو الغريزية. فهذا الصديق بحكم ما هنالك من تبادل للمنافع وتقارب للنفسيات أصبح صديقاً يبادل صديقه هذه العاطفة والمحبّة والاحترام.

---

(١) البقرة: ٢٧٩.

الثاني: الالتزامات القسرية

بمعنى أن الله جل وعلا قد خلقها على شكل غـريزة، فـحبّ الأولاد مسـألة غريزيّة، أي أنه يولد مع الإنسان. فحبّ الولد غير تلك العاطفة التي تـربط بـين صديقين؛ لأن هذه العاطفة ـ كما قلنا ـ عاطفة غريزيّة تخلق مع الإنسان، وتولد معه بشكل قسري.

الرأفة بالحيوان في التشريع الإسلامي

وهذه العلاقة بما أنها غريزيّة فهي لا تختص بالإنسان وحده، بل إنها تشـمل حتى الحيوانات؛ ولذلك فإن في الفقه الإسلامي نجد أن هناك تشريعاً يمنع مـن إيذاء الحيوان أمام أبويه كتذكية الحيوان؛ فإنه يكرّه كراهة شديدة أن يذبح حيوان أمام أُمّه أو أمام أبيه؛ لأن هذه الحيوانات وإن لم تكن تملك عقلاً كعقل الإنسان لكنها ذات غريزةٍ لا تكاد تبتعد في حيثيّاتها، وفي مكوّناتها عن الغريزة البشريّة من حيث الحنوّ على الأولاد والأطفال، ومن حيث الشفقة والرأفة بهم.

تروي كتب التاريخ أن رجلاً من بني إسرائيل ذبح عجلاً بين يدي أُمّه، فأيبس الله تعالى يده؛ لأنه لم يشفق عليها. فبينما هو كذلك ذات يوم تحت شجرة فيها وكر طائر، إذ وقع فرخ ذلك الطائر على الأرض، فغبّر في الترات، فأتاه الطائر وجعل يطير فوق رأسه ـ يستنجد به أن يرجع إليه فرخه ـ فأخذ ذلك الرجل الفرخ فمسحه من التراب وأعاده في وكره، فرد الله عليه يده [1].

وهذه الرواية ينقلها كذلك أهل كتب الحيوان، وهي رواية ربما يكـون فـيها عنصر أُسطورة أو مبالغة، لكن المغزى منها واضح بيّن، وهو المعنى الذي يـريد

---

(١) شعب الإيمان ٧: ٤٨٤، فيض القدير ٢: ٥٠٩، الكبائر ١: ٢٠٠، وانظر: حلية الأولياء ٦: ٥٢، الفرج بعد الشدّة ١: ٤٥ ـ ٣٥.

أن يوصله هؤلاء الرواة إلى الإنسان حول عمليّة الرأفة بالحيوان والشفقة عليه، وعدم إيذائه بولده.

وهناك حادثة أُخرى حدثت أيّام النبي ﷺ حيث إن أعرابيين جاءا إلى رسول الله ﷺ يختصمان في ناقة؛ كلّ منهما يقول: الناقة لي. فقال أحدهما: يا رسول الله، مر بنحر الناقة؛ فإن في كبدها صدعين. فقال له النبي ﷺ: **«تنحر وتضمن أنت الثمن»**. فقبل، فأمر النبي ﷺ فنحروها وأخرجوا كبدها، فإذا فيه صدعان، فقال ﷺ: **«من أين علمت أن في كبدها صدعين؟»**. فقال: يا رسول الله، إني نحرت لها ولدين وأنا أعلم أن فقد الولد يصدع كبد الوالدين. فأعطاه النبي ﷺ ثمنها، ثم فرّق لحمها [١].

فالمهم أن هذه الظاهرة الغريزيّة العجيبة هي ظاهرة حيوانيّة مرصودة ومدروسة بعيداً عن التجسيد الخارجي، فلدى الحيوان حنو على أولاده فضلاً عن الإنسان.

وعليه فإن التبادل بالالتزامات ليس وليد وضع اجتماعي بين الأبوين؛ ذلك أن الكثير من الالتزامات هي وليدة وضع اجتماعي، فمثل عمليّة البيع والشراء التي تتمّ بين شخصين عادة يحصل بينهما التزام اجتماعي حول تسليم الثمن والمثمن. هذا في حين أن الالتزامات بين الأبوين هي التزامات منشؤها وراثي أو غريزي، فهي نزعة تعيش مع الإنسان في أعماقه. وهنا لابدّ من الإشارة إلى جملة من هذه الالتزامات التي وضعها الله عزّ وجل على الآباء تجاه الأبناء:

الأول: التزامات الأب

وقد سنّت الشريعة الإسلاميّة الكثير من النظم التي تحدّد علاقة الآباء بأبنائهم،

---

(١) انظر شجرة طوبى ٢: ٤١٧.

وهو أمر لعلّه خافٍ عن كثير من الناس؛ لما في هذه الشريعة الغرّاء من توصيات للأبناء تجاه آبائهم. وهو ما ستناوله هنا إن شاء الله تعالى.

لماذا التوصية بالآباء؟

وكما قلنا فإن الكثير من الناس ـ لعدم اطّلاعهم على قوانين الإسلام بشكل كامل ودقيق، ولعدم علمهم به ـ يتساءلون حول السبب الذي من أجله أثقل الله جلّ وعلا في القرآن الكريم كاهل الأولاد، ووسّع أعباء مسؤوليّتهم تجاه أبويهم، مع أن المفروض والمعلوم والثابت بالحسّ والوجدان أن الأبناء لم يخرجوا إلى الحياة باختيارهم، بل إنهم خرجوا نتيجة لحظة من لحظات اللذّة التي يتبادلها الأبوان. ويترتب على هذا أمران:

الأول: أنه لابدّ من تذكير الآباء بمسؤوليّتهم تجاه الأبناء.

الثاني: تحميل الأبناء شيئاً لم يكن باختيارهم، فهم ربما لم يكونوا راغبين في ولوج هذه الحياة، لكن الآباء تحت سيطرة اللذّة في تلك اللحظة أخرجاهم إلى الوجود بعيدا عن رغبتهم وإرادتهم. ولعلّ ما يثير هذا الأمر هو أن الحياة كلّها مسؤولة عن إخراج أي نبتة تنبتها، ومن ذلك الشوكة التي حينما يطؤها الإنسان فإنها حتماً ستخزه، ففي مثل هذه الحالة لا يمكن أن يلعن الإنسان الأرض؛ لأنها هي التي أنبتت الشوكة، ذلك أنها غير مسؤولة عن هذا الأمر، وإنما هي لا تعدو كونها سبباً طبيعيّاً للإنبات.

وإذا كان حال الأرض هكذا، فكذلك الولد والوالدان، فهما (الوالدان) ليسا إلّا سبباً طبيعيّاً للإيلاد لا سبباً وعلة في الإيجاد؛ لأنهما ليس لهما حرّيّة اختيار الولد ولا إيجاده. ولو أنهما السبب الموجد له لما تخلّف المسبّب في بعض الحالات؛

فكثير من الآباء ليس عندهم معوّق عن الإنجاب، فهم سبب طبيعي كامل، ولكنهم مع ذلك لا يلدون ولا ينتجون؛ وهو أمر يعني أن الولد من الله جلّ وعلا، وليس من أبويه.

منظومة حقوق الأولاد على الآباء

وفي مضمار الإجابة على الإشكال الأول ـ وهو أن القرآن الكريم والدين الحنيف يحثان الولد على برّ والديه وطاعتهما دون أن يكون هناك حثّ للأبوين على برّ أولادهما بذلك المقدار أو بجزء منه ـ نقول: إن هناك الكثير من الحقوق التي افترضها الله على الآباء تجاه أبنائهم، وهي سابقة على حقوق الآباء على الأولاد أو التزامات الأولاد تجاه الآباء[1]، وهناك الكثير من الحقوق التي رسمتها الشريعة المقدسة للأولاد على آبائهم نذكر منها:

الأول: اختيار البيئة الصالحة للولادة

والبيئة بالنسبة للولد تكون على نحوين: بيئة قبل الولادة وبيئة بعد الولادة وكلتاهما يعتني به المشرع الإسلامي. وبيئة ما قبل الولادة هي اختيار الرحم الطاهر للولد، ومواصفات الرحم الطاهر هي أن تكون المرأة متديّنة، وذات خلق وعفاف ونقاء؛ لأنها إذا كانت ذات دين فإنها حتما ستكون نجيبة، وإذا كانت نجيبة كانت ذات حجر نظيف يصلح للحمل ولإنتاج الجنين وتربيته. وقد حثّ

---

(١) أشار المصنف في إحدى المحاضرات السابقة التي مرت في هذا الكتاب إلى أن الأبوين لا يحتاجان إلى التوصية لأبنائهما أو الحث على رعايتهما لأن ذلك أمر فطري وغريزي عندهما وهو ما ألمح له في صدر هذا المبحث، وعليه فإن من نافلة القول أن يقال: لماذا لم يحث الدين الإسلامي الوالدين على بر أبنائهما ولو بجزء من المقدار الذي حث به الأولاد على بر أبويهما.

الإسلام ممثّلاً بالنبيﷺ على اختيار الحجر الطاهر فـقال: **«إيـاكـم وخـضراء الدمن»**[١].

وأمرﷺ بحسن الاختيار فقال: **«تخيّروا لنطفكم»**[٢].

وقالﷺ كذلك: **«اظفر بذات الدين تربت يداك»**[٣].

وهذه العبارات كلّها توحي بأن الحقّ الأدبي الأول للولد عـلى الأب هـو أن يختار له بيئة صالحة وأُمّاً صالحة تنشئه تـنشئة صـالحة، وتـربّيه تـربية سـليمة مستقيمة. والبيئة الصالحة كما ذكرنا تتمثّل بالأُمّ النـظيفة المـتديّنة ذات الحـجر النظيف. وهذا الأمر أوّلي وضروري وواجب مراعاته وفق نظر المشرّع الإسلامي عند كل من يريد أن يقدم على الزواج، أمّا ما تبقّى من شروط فكلّها تدور حول هذا، أي أنها شروط كمالية، وليست أساسية، بمعنى أنها أُمور ثانوية. فإذا تحصّل أمر ذات العفاف وذات الدين، كان كل ما عدا ذلك ممّا لا يستحق أن ينظر إليه، أو أن يؤخذ بنظر الاعتبار.

ومن حاجات العصر مثلاً، والتي عبرنا عنها بأنها أُمور كمالية أن ينظر البعض إلى أن تكون الزوجة ذا ت رصيد مالي، أو ذات طبقة اجتماعية راقـية، أو ذات ثقافة، وما إلى ذلك. فهذه كلّها ـ كما أسلفنا ـ حاجات عصرية، وكلّها ممّا يمكن اعتباره عقبات في طريق الزواج.

وأنا لا أقصد حتماً أن الثقافة عقبة، لكنها تظلّ شيئاً أوليّاً بالنسبة إلى التـديّن

---

(١) تهذيب الأحكام ٧: ٤٠٣ / ١٦٠٨، وسائل الشيعة ٢٠: ٣٥ / ٢٤٩٦٣، كنز العمال ١٦: ٣٠٠ / ٤٤٥٨٧.

(٢) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩، سنن بن ماجة ١: ٦٣٣ / ١٩٦٨.

(٣) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.

والعفة والإحصان؛ لأن هدف الإنسان من الزواج هو أن ينجب أولاداً صالحين يمدّ بهم المجتمع وأن يوجد جيلاً صالحاً يمنح هذا المجتمع حياة وطاقة تتعامل بالحقّ، وتنصاع إلى الحق. وما لم يكن الأمر كذلك ـ أي لم يكن حجر الأُمّ نظيفاً ـ فإنه لا يمكن أن يقال بأن هذا المجتمع قد أنتج جيلاً صالحاً.

وعليه فالولد مدين باستقامته وبصلاحه وتقواه إلى حجر أُمّه وإلى اختيار أبيه لهذا الحجر بالدرجة الأُولى. ومما يروى في هذا المجال أن عبد الملك بن مروان خطب إلى عقيل بن علفة المري ـ وهو بدوي كان يعيش بالصحراء ـ فقال له: أصلح اللّه الخليفة، جنّبني هجناءك؛ فإن أُمّهاتهم جوارٍ ربين على غير تربيتنا[١]. (والهجين هو كلّ من يولد من أب عربي، ومن أُم غير عربية[٢]). فكأنه بهذا يريد أن يقول له: أنا لا أحتقرهنَّ لأنهنَّ إماء، وإنما ابتعد عنهنَّ؛ لأنهنَّ غالباً لم يخضعن لعملية التربية.

الثاني: حقوق فترة الحمل

وهنالك جملة من الأحكام التي يضعها المشرّع الإسلامي للجنين بمجرّد أن تنعقد نطفته ويتكوّن في بطن أُمه[٣].

---

(١) طبائع النساء ١: ٦٧. وفي الأغاني ١٢: ٢٩٨، خزانة الأدب ٤: ٤٣٨: قوله لمن خطب إليه ابنته: يخطب إليّ عبد الملك فأردّه... مشيراً إلى ما نقل عنه في (طبائع النساء) الآنف.

(٢) العين ٣: ٣٩٢ ـ هجن.

(٣) قد سبق الكلام من المحاضر في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب عن مظاهر رعاية الجنين في الإسلام حيث قال: ونفهم من هذا أنّ للجنين في بطن أُمّه حرمة يجب أن تراعى، فالشريعة الإسلامية تمنحه حصانة وصيانة، وسوف نذكر بعض اللمحات أو المظاهر التي يأخذها المشرّع الإسلامي بنظر الاعتبار في هذا المعنى:

الأُولى: بطلان صوم الحامل إذا أضر بجنينها

الثالث: حقوق ما بعد الولادة

إن الجنين بمجرد أن يخرج من بطن أُمه ويلج الحياة، فإن الشارع المقدّس يرصد له جملة من الحقوق التي لا يجوز التهاون فيها، ومنها:

الحقّ الأول: عدم جواز التفريق بينه وبين أمّه

وفي واقع الأمر فإن هذه المسألة مما يشكّل مشكلة وعقبة كأداء في عصرنا الحاضر في سبيل تكوين أُسرة قائمة على أساس التفاهم والتواصل بين الآباء والأبناء؛ ذلك أن الكثير من الأُمّهات يعملن خارج المنزل لساعات طويلة. وهذا يعني أنهنَّ سوف لن يتفرّغن لأولادهن. وبمعنى آخر فإنهن سوف يتركنهم تحت رحمة الخادمة أو المربية.

الأم ومشكلة العمل

وهذا في واقع الأمر مشكلة كبيرة؛ ذلك أن الطفل حينما تتركه أُمّه وتخرج إلى عملها الذي أصبح كلّ همها وشغلَها الشاغل، فإنها سوف تتركه من غير تربية؛ وبالتالي فإنه سوف ينشأ بعيداً عن المراقبة الأُسرية، وعن المتابعة وعن التوجيه والتربية الأساسيّين؛ بحكم أن الأب عادة يكون مشغولاً عن أُسرته بشؤونه الحياتيّة والعيشيّة وبأعماله. والطفل من غير حجرٍ وعين يراقبانه في كلّ حركاته وتصرّفاته فإنه سوف ينشأ ويكبر حتى يلج المجتمع وهو خِلوٌ من العطف والشفقة، والمودّة والحنان.

☚ الثانية: وجوب شقّ بطن الحامل المتوفاة لإخراج الجنين

الثالثة: ملاحظة حال الجنين عند علاج الأُم واشتراط ألّا يؤدي هذا العلاج إلى حدوث مضاعفات عند الأُم تؤدي بدورها إلى الإضرار بالجنين

الرابع: ملاحظة جنبة الذمّة للجنين واحترامها.

دور الأم ومشاكل المربّيات

إن الإصرار على دور الأُم ينبع من حقيقتين لابدّ من ذكرهما:

الأولى: أنها تغذّيه الحنان مع اللبن

فنحن نعلم أن المشاعر والعواطف والأحاسيس كلها أُمور يرتضعها الجنين مع اللبن من أُمه، وما لم يكن الأمر كذلك، فإن هذا الطفل سوف يخرج إلى الدنيا مريضاً، تطوّقه حالة من الافتقار إلى العاطفة والشفقة والحنان.

إن الآلاف من دور الحضانة لا يمكن أن توفّر للطفل حنان ساعة واحدة توفّرها له أُمّه وهو يلتقم ثديها. فالتربية ليست مجرّد احتضان وإرضاع، بل هي تغذية الطفل بالمشاعر والأحاسيس، والدفء والحنان، والاستقرار النفسي والأمان، وما إلى ذلك.

الثانية: أن المربية لا تمنح الولد عاطفة

هذا من جهة ومن جهة ثانية فإنه من الذي يضمن أن المربية التي يوضع عندها الطفل أنها سوف تعطيه كلّ الحنو والعاطفة. أما إذا كان الخادم رجلاً فهذا من المصائب الكبرى، ذلك أن البعض يسمحون لأنفسهم بأن يدخل الخدم وهم أجانب عن أزواجهم وعن بناتهم إلى بيوتهم، ويطّلعوا على عوراتهم دون أن تتحرّك داخلهم غيرة على بيوتهم وعوائلهم تدفعهم إلى عدم استخدام الرجال في أُمور الخدمة. ولسنا ندري ما هو المبرر إلى أن يفعل البعض ممّن يدّعي الإسلام ذلك.

إذن فعلى الأبوين أن يسعيا جاهدَين إلى ألّا يحرم طفلهما من حجر أُمّه؛ لأن هذا الحجر سوف يغذّيه العاطفة الكريمة، والحنان، والهدوء، والاستقرار قبل أن

يغذّيه الحليب. والأُم الملتزمة بطبيعة الحال تحرص على أن تربي أبناءها تربية طيبة صالحة إذا أحسن الرجل اختيارها أو اختياره إزاءها.

الحقّ الثاني: حسن التسمية

بمعنى أن على الأب أن يختار لأبنه اسماً من الأسماء الجميلة أو التي يتفاءل بها، لا الأسماء التي يمكن أن تصبح سبّة على الولد أو موضع سخرية واستهزاء من الآخرين بسببها. ومما كان سائداً عند العرب تقليد شائع هو أنهم كانوا يسمون أبناءهم بأوعر الأسماء ويسمون عبيدهم وخدمهم بأحسنها وأجملها، وقد سئل أحدهم عن العلّة التي من أجلها يسمون أبناءهم بهذه التسمية، وعبيدهم بهذه التسمية فقيل له: لم أنتم تحسّنون أسماء مواليكم دون أسماء أبنائكم؟ فقال: أسماء موالينا لنا، وأسماء أبنائنا لأعدائنا، فليفهم [١].

وهذا لأن حياتهم كانت قائمة على مبدأ الغزو والحرب، فكان أحدهم بحاجة إلى ولد غليظ المشاعر.. غليظ حتى بالاسم. فهم عندهم حاجة ملحّة وقائمة إلى هذا الأمر، وبإلغاء هذه الحاجة تلغى الغزوات والحروب، ولأن ما يحصل الآن هو إنه لا غزوات شخصية قبلية، ولا حروب من هذا القبيل فقد أُلغيت هذه الحاجة. وبناء على هذا فإن على الآباء أن يختاروا لأبنائهم أسماء جميلة.

وبهذا فإنه يجب أن نختار الاسم المشرق الجميل للولد.. الاسم الذي يمتّ بصلة إلى تاريخنا وحضارتنا وديننا وذوقنا وعقيدتنا.. اسماً معقولاً لا يعيّر صاحبه به أحد من الناس.

---

(١) تفسير الآلوسي ٤: ١٩٦.

التسمية تحت مجهر التشريع

وفي هذا المجال أودّ أن أذكر أن ابن قيم الجوزيّة ـ وهو من العمالقة، وتلميذ ابن تيمية، ومؤلفاته تحوي الكثير الكثير مما فيه عطاء ـ مع ما ذكرنا حينما يتناول مسألة التسمية في كتابه (تحفة المودود بأحكام المولود) يذهب إلى أن بعض الأسماء مثل عبد النبي، وعبد الحسين، وعبد الحسن وغيرها ممّا شابهها هي أسماء شرك؛ فهي بالتالي محرّمة. قال: (لا تحلّ التسمية بعبد علي ولا عبد الحسين، وما شابه)[1].

وأكثر من ذلك أننا نجد عنده أنه يذهب إلى حرمة من يسمي ببعض الأسماء التي يسمى بها الله التي مثل رزّاق أو خالق أو رحمن، ويعدّه شركاً؛ لأنها أسماء مختصّة بالله جلّ وعلا[2].

وهذا مستغرب من مثل هذا الرجل؛ لأنه عربي عاش حضارته العربية، ولابد أن يكون قد سمع أن العربي على طول مسيرته عندما يحبّ أحداً، أو يريد أن يظهر له احترامه وإكرامه إيّاه يقول له: أنا عبدك، أو: أنا غلامك، ومن هذا قول شاعرهم:

وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً ... وما شيمةٌ لي بعدها تشبه العبدا[3]

فهذا المفهوم موجود في حضارة العرب ومتوارث فيها. ونحن إذ نسمي عبد الحسن مثلا أو عبد الحسين فليس أحد منا يسمي ذلك وهو يعتقد بأن الحسن والحسين يميتان أو يحييان، ويرزقان ويمنعان، أو يمرضان ويشفيان، وما إلى ذلك؛ لأننا نعتقد أنهما عبدان من عبيد الله جل وعلا، وما هذه التسمية إلّا لأجل

---

(١) تحفة المورود ١: ١١٣. (٢) تحفة المودود ١: ١٢٥.

(٣) البيت لحاتم الطائي. الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٣٩، باختلاف عنه.

الحبّ والاحترام والإجلال والتبجيل التي نكنّها لهؤلاء الأشخاص.

والواقع أن هذا وقوف عند ظواهر الألفاظ، وهو فهم ساذج، بمعنى أننا حينما نريد أن نسمي أحداً باسم الرحمن فإننا لا نقصد به أنه هو الذي يرحم العباد (معاذ الله)؛ لأن هذا هو الكفر وليس مجرد تسمية. وكذلك الحال فيما لو أسمى أحدنا شخصاً باسم عبد الحسن مثلاً، فهذه العبوديّة ليست بمعنى العبوديّة التي تكون لله جلّ وعلا.

فتلك العبودية يترتّب عليها العبادة له جلّ وعلا، وإطاعته، والخوف منه، والاعتقاد بأنه هو الخالق الرازق، وهو الذي يعذّب، وهو الذي لا يعذب عباده، أما هنا فنحن لا نقصد بها تلك المعاني كلّها، وإنما نحن نعتقد اعتقاداً كاملاً بيّناً بأن الإمام الحسن عليه السلام، أو الإمام الحسين عليه السلام هما عبدان من عباد الله، وأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عبد لله كذلك. وعليه فلا قصد في البين أن هذا يعبد الحسن، أو أن الحسن خالق له، بل إن الحسن عليه السلام هو مخلوق لله جل وعلا، وعبد له ونحن في صلاتنا نقول: **«وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»** (١). ولهذا فإننا مع ذلك (وهو أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبد لله) نسمي باسم عبد النبي؛ ممّا يعني أننا لا قصد عندنا بشيء من الأمور التي يرمينا بها الخصم.

فالإسلام ليس مجرّد ظاهر نقف عنده دون أن نلج اللبّ، ولكن مع ذلك فأنا أقول: إذا كان الاسم يجلب شبهة، ويسبّب لصاحبه متاعب أو عداء ـ سيّما مع الاختلاط الكبير الذي نراه حاصلاً اليوم بين أبناء الأديان والمذاهب كافّة ـ

---

(١) في كلّ تشهّد من صلاتنا اليوميّة الراتبة والمندوبة، وفي أدعيتنا، ونكتب في معاملاتنا: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». انظر: الكافي ٢: ٥٢٩ / ٢١، ٥٨٧ ـ ٥٨٨ / ٢٦، الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا ٧: ١٠٨، النهاية: ٨٣ ـ ٨٤، مصباح المتهجّد: ١٦ / ١٦.

فأنا أُحبّذ ألّا يسمى به.

وهذه مأساتنا التي نعيشها اليوم؛ لأن البعض لا يريدون أن يفهمونا.. يفهموا الحقائق التي نحن نعيشها. إنهم لا يريدون أن يفهمونا، أو إنهم يفهموننا لكنهم لا يريدون أن يقرّوا بذلك ويعترفوا به. وهؤلاء وصل بهم العناد إلى حد أنهم يرون أحدنا يطأ على التربة برجله قائلاً له: أنا لا اعتبر هذه التربة إلهاً، ولا أعبدها، بل إنني أسجد عليها؛ لأنني متيقّن من طهارتها، ولوجوب السجود على الأرض، ومع ذلك نجده يقول له: أنت مشرك تعبد الحجر. ولست أدري لماذا هذا الحقد، وهذه السطحية في الفهم، أو التعمّد على عدمه، إنها من ابتلاءاتنا التي ابتلينا بها على طول مسيرة التاريخ.

على أية حال فاختيار الاسم مهمّ بالنسبة للأبناء، فيجب ألّا يكون اسماً مثيراً للسخرية، أو أن يجعل الولد سبّة[1]، وأن ينأى عن التسمية بالأسماء التي تعيد مسائل الخلافات بيننا وبين غيرنا.

الحق الثالث: حسن التربية

وهذا الحقّ من الالتزامات الأدبيّة، فعلى الأب أن يحسن تربية ابنه. وهذه الكلمة في واقع الأمر ليست سهلة؛ فالتربية لها أبعادها ولها مقوّماتها الخاصّة، ولها مناهجها العلميّة التي تعتمد عليها في مرحلة تطبيقها. والتربية اليوم تشترك فيها كل وجوه المحيط. وبناء على هذه الرؤية الجديدة فإننا نستطيع أن نقسم التربية إلى نحوين بلحاظ نوع الوجه الذي يعتبر العامل المؤثّر فيها على الولد من وجوه المحيط الثلاثة: الأُسرة، والمدرسة، والمجتمع.

---

(١) كأن يسمي أحدهم ولده كلباً أو ثوراً أو ما إلى ذلك.

التربية المقصودة

وهي التربية الموجّهة التي تخضع لمنهجيّة معيّنة حيث إن الولد يتعلّم تلك التربية، ويأخذ بها بقصد من الشخص المتولّي لها. فنحن مثلاً حينما نضعه في المدرسة ونعطيه في كلّ مرحلة من المراحل معلومات معيّنة، ونغذّيه بأخلاقيّات وسلوكيّات معيّنة، ويستمرّ هذا معه على المراحل كافة، فإنه حينئذٍ يكون قد أخذ تربية مقصودة، وبالتالي فهي تربية ممنهجة وموجّهة، وتختلف عن تلك التربية التي يأخذها عن طريق المجتمع.

وهذه التربية يأخذها الطفل عن طريق وجهين من وجوه المحيط، ويمكن إجمالهما بالتالي:

الوجه الأول: الأسرة

والمقصود بها الأُم ثم الأب، وربما الابن الأكبر فيها. وهذا دور خطر وخطير في آن؛ لأن بعض الآباء لا يفهم من حسن التربية إلّا توفير الجانب المادي والمعيشي للطفل، أي جنبة النفقة. والدليل على هذا أن الكثير من الآباء ما إن يحاسب على تقصيره في تربية أبنائه حتى يبادر مجيباً: أنا لست مقصّراً مع أبنائي في شيء؛ لأني أعمل ليل نهار في سبيل توفير الراحة لهم، ولقمة العيش، وتأمين مستقبلهم المادّي ووضعهم الاجتماعي. وهذا في واقع الأمر تهرّب من المسؤوليّة المناطة به تجاه أبنائه.

الوجه الثاني: المدرسة

ثم إن هذا الولد إذا وقع بين أيدي جماعة من المعلمين من ذوي الأخلاق والتديّن والالتزام، فهذا يعني أنه قد بني بناء متيناً صحيحاً سليماً وقويماً. وفي

واقع الأمر أن للمعلم تأثيراً كبيراً وواضحاً على الطفل أكبر حتى من تأثير الأبوين عليه، وهو ما نشاهده في واقع الحال. وبناء على هذا فإن الطفل يتأثّر تأثّراً كبيراً بمعلّمه الذي إن كان مؤمناً ملتزماً متأدّباً بآداب السماء فإنه حينئذٍ سوف يبني هذا الطفل بناءً جيداً، أما إذا كان المعلّم فاسداً، فإنه سوف يبنيه بناء فاسداً كذلك وبعيداً عن تعاليم السماء، وعن روح الأديان. وبالتالي فإنه يخلق لنا جيلاً بعيداً عن أخلاق الإسلام التي أمرت السماء بالتزامها.

التربية غير المقصودة

وهي التربية التي يحصل عليها الولد من الوجه الثالث من وجوه المحيط التي سبق ذكرها.

الوجه الثالث: المجتمع

فهو من وجوه المحيط الذي يؤثّر على تربية الطفل. وهذه التربية إنما أُسميت تربية غير مقصودة؛ لأن الطفل في الشارع يتأثّر بكل ما يسمعه من الناس؛ فهو إذ يسمعهم يسبّون ويلعنون ويتلفّظون ببعض الألفاظ، أو يراهم يتصرّفون ببعض التصرفات في البيع والشراء والمعاملة، أو في علاقاتهم الاجتماعية فإنه سوف يأخذ هذه الأشياء المتلقّاة من المجتمع ويختزنها في ذهنه، ويدرج عليها، ثم يعمل الشيء نفسه بعد ذلك. فهذه تربية غير مقصودة، أي أن الطفل لم يُقصد إبلاغه بها، لكنه مع ذلك يمتصّ الألفاظ النابية والتصرّفات غير السليمة.

أو أنه على العكس من ذلك، فإذا كان المجتمع سليماً صحيحاً قويماً فإنه سوف يمتصّ الألفاظ الحسنة، والتصرّفات والسلوكيّات العقلائية المتكاملة المحمودة، ثم يطبّقها لفظاً وسلوكاً في حياته.

وهذا النمط من التربية يسمى التربية غير الموجهة كذلك.

الالتزامات مادّيّة وأدبيّة

إن هنالك جملة من الأُمور والالتزامات التي ينبغي على الأب مراعاتها وتوفيرها لأبنائه، وهي التزامات أدبيّة ومادّيّة. وهذه الأخيرة ليست بمستوى الالتزامات الأدبيّة أو التربويّة، أو بأهميّتها لهم.

شرائط وجوب النفقة

فعلى الأب أن ينفق على عائلته وأُسرته، وهذا ليس فيه وجه إحسان أبداً؛ لأن الأب في حقيقة الأمر مجبور على النفقة على أولاده فضلاً عن بعض أقاربه بشروط ثلاثة:

الشرط الأول: أن تكون القرابة مانعة من الزواج لو كان أحدهما ذكراً والآخر أُنثى.

الشرط الثاني: أن يكون المنفق موسراً والمنفق عليه محتاجاً فقيراً.

الشرط الثالث: أن تكون النفقة ضرورية، بمعنى أن تكون في إطار توفير السكن واللباس والطعام.

وكلّ هذه الأُمور كما ذكرنا التزامات مادّيّة يكون الأب مجبراً على توفيرها لأبنائه كما أمرت السماء، لكنها تبقى دون الالتزامات الأدبيّة، أو التربوية، ولا ترقى إلى أهميّتها كما بيّنّا.

وعليه فحينما يترعرع الولد فإن على الأب أن يغذّيه بالأخلاق، وأن يوفّر له مقوّمات التربية السليمة، كالمكتبة الأخلاقيّة، أو التوجيه الشخصي، أو المتابعة له في الشارع والمدرسة، والسؤال عنه والاستفسار، وما إلى ذلك، مع عدم ترك

وقت فراغ له. إن أوقات الفراغ التي يعيشها الشباب إذ تحصل في حياتهم، سيما المراهقين منهم ربما تؤدّي بهم إلى سلوك دروب المعصية، وركوب موجة التمرّد والوقوع في الخطأ أو الخطيئة؛ ولذا فإن على الآباء أن يقتلوا أوقات الفراغ هذه عند أبنائهم، فيشغلوهم بالنشاطات الثقافيّة والعلميّة، أو النشاطات البدنية، أو توفير جوّ لهم داخل البيت للمطالعة والاستفادة من الوسائل المتاحة المتوفّرة في الحياة؛ لتعود عليه بالنفع والفائدة.

وفي هذه الأيام كما هو معلوم هنالك الكثير من النشاطات التي تؤدّي إلى امتصاص طاقات الشباب، وإبعادهم عن موارد الخطأ أو الوقوع فيها. ومن ذلك كرة القدم مثلاً، لكن هذه الممارسة تكون جيّدة نوعاً ما إذا كانت ضمن حدود معيّنة، أما إذا تجاوزت الحدّ، وأفرغت الإنسان من محتواه الثقافي والأخلاقي، ومن التزاماته الدينية والعبادية والاجتماعيّة، فإنها تصبح حينئذٍ داء. وهذه هي المصيبة بعينها.

وهنا لابدّ من أن نسائل الآباء والمؤسّسات التربويّة والثقافيّة عن دورها الذي يجب أن تقوم به إزاء النشء الجديد، وعمّا قامت به من فعلاً من محاولات لامتصاص هذا الزخم في الطاقة عند الشباب، وتوجيهه وجهة صحيحة حسنة. وكمثال على هذا أننا لو أخذنا دولة الكويت أُنموذجاً فإننا سنجد أن هناك مناهج ومؤسّسات علميّة وتربويّة ضخمة. لكن للحقّ والحقيقة أن هذا لوحده غير كافٍ في تطبيق هذه العمليّة التربويّة ما لم يدعّم بالمسؤولية، أي أنه يجب أن تكون هنالك مسؤولية يشعر بها الآباء أو تشعر بها هذه المؤسسات إزاء الأبناء في عمليّة التطبيق هذه على مستوى تربيتهم توجيههم؛ كي تبني للمجتمع تاريخه وثقافته وحركته العلميّة والأدبيّة.

هذا وفي الوقت نفسه فإنها تعمد إلى ترشيح أخلاقيّات هذه المنطقة من آداب ودين وأخلاق في نفوس الشباب، وفي قناعاتهم، وصبّها في عقولهم؛ كي ينشؤوا شباباً مسلمين صالحين.

إننا نعاني أكثر ما نعاني من البعض من الناس الذين حينما يختبرهم الإنسان يجدهم قشراً برّاقاً خالياً عديم المحتوى، لا همّ له سوى الجري وراء الكرة، ولا ديدن له سوى اللعب واللهو، دون أن يفهم من دينه، وأن يعي من أمره ومن حياته ومن آدابه شيئاً سوى هذه الكرة، وسوى هذا اللعب واللهو. إننا لا نريد أن نبني جيلاً كهذا، ولا نسعى إلى إنشاء جيل ليس له من همّ سوى الركض في الملاعب، أو في أي مكان كان، فليس هذا هو الهدف الذي وضعناه لتربية هذا الجيل الذي رصدنا أنفسنا لتحقيق ذلك عنده.

وربما يقال في هذا المجال: إن الأُمم الراقية مهتمة كذلك في هذا المجال، وتضع كرة القدم في أولويّات الرياضات عندها، أو في أولويات الاهتمامات الشبابيّة، كما إنها تلاقي تشجيعاً واسعاً وعريضاً عندها، وبالتالي فإننا لا نكون قد حدنا عن الطريق عندما نفعل الفعل عينه.

ونقول: إن هذا صحيح إلى حد ما، لكنه أمر ينطوي على مغالطة، وقياس مع الفارق؛ ذلك أن هذه الأُمم الراقية التي تهتمّ بهذه الكرة حينما يختبر أحد أبنائها فإنه يُلفى ذا خلفيّة علمية وثقافية كبيرة، أي أن عنده التزامات في محيطه وله مسؤوليّته الشخصية أو الاجتماعية التي تفرضها عليه طبيعة حياته ونوع مجتمعه والتزاماته الأخلاقية والدينية وما إلى ذلك.

ثم إننا جملة وتفصيلاً غير مسؤولين عنه من هذه الجنبة، لكن ينبغي علينا أن نستوعب أمراً هو أننا كما قلدناه، أو كما نحاول تقليده في مسألة الاهتمام بالكرة،

فينبغي علينا كذلك أن نقلّده في مسألة الالتزام بأخلاقيّات الدين، والعلم، والمجتمع، كما أنه يلتزم بأخلاقيات مجتمعه. فعلينا إذن أن نهتمّ بالعلم والثقافة كما أنه يهتم بها، لا أن نقلّده في شيء ونترك تقليده في شيء آخر، مع الأخذ بنظر الاعتبار أننا إنما نقلّده في أتفه ما عندهم. إننا في هذا نكون قد قلدناه تقليداً أعمى؛ لأننا قلدناه فيما فيه رضا لأنفسنا ولهواها ولرغباتها دون أن نقلّده فيما فيه رضا لعقولنا ورغباتنا الثقافيّة.

إن المجتمعات الإسلاميّة لها أدبيّاتها، ولها أجيالها، ولها أخلاقيّاتها المستمدّة من التعاليم السماويّة، وهناك التزامات أدبيّة على الوالدين تجاه أبنائهما أقرّتها الشريعة، وأقرّها الدين الإسلامي، ويجب عليهما أن يراعياها في عملية التربية. والأُم مثلاً يجب أن تغذّي أبناءها بشيء من الأخلاق والتربية لأنها المؤثر الأول عليهم، لكن الحالة عندنا أن الطفل ما إن يبصر النور حتّى تتلقّفه دور الحضانة، ورياض الأطفال، ومؤسّسات أُخرى غربيّة تعلّمه غير ما يريد الله له، وتوجّهه خلاف الوجهة التي يريد أن يوجهه الإسلام إليها.

وبعد كلّ ذلك نروح نتشكّى وننادي ويلاً وثبوراً بأن شبابنا قد ضاع، وبأنه قد انحرف عن مسيرته الصحيحة.

وأقول من على هذا المنبر: إن المسألة لا تحسب بهذا الشكل؛ فنحن السبب في ضياع الأبناء دائما؛ لأننا لا نملك خاصّيّة تبادل الالتزامات أبداً. إننا مجتمع نفتقر إلى تبادل مثل الالتزامات، وبمعنى آخر أننا ليس لدينا التزامات تبادليّة أبداً، وكلّ تفكيرنا لا يتجاوز أنفسنا. أمّا النتيجة السلبية المترتّبة على هذا الخطأ الذي نعيشه، فنحن من سيقع فيها، ونحن من يجب عليه أن يتحمّلها؛ لأن الولد الذي تختار له البيئة الفاسدة فإنه حتماً سوف يتحوّل إلى مصيبة من المصائب التي

قد تنتهي به إلى قتل أبيه.

وهذه التربية الفاسدة حتماً تأتي من المؤسّسات الفاسدة التي تتولّى زمام الطفل وأُموره، وهي بعيدة عن روح الدين وروح السماء. قيل لكسرى: إن ابنك يخطّط لقتلك. فأخذ سمّاً ووضعه في حُقّ، ووضع معه ورقة كتب عليها: إن هذا ينفع للمرض الفلاني والمرض الفلاني، ثم وضع الحُقّ في صندوق وأقفل عليه. وفعلاً فإن ابنه قتله بعد فترة وجيزة، وتولّى زمام الأمور من بعده، وحينما وجد هذا الصندوق فتحه فوجد تلك الورقة والمسحوق فيه، فعمد إلى شربه فمات من وقته.

فالولد من الممكن أن يقتل أباه إذا تعارضت مصلحته مع مصلحته، ما لم يكن متسلّحاً بالدين والأدب والأخلاق؛ ولذا فإننا نجد أن القرآن الكريم كثيراً ما يؤكّد على هذا المعنى حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

وهو طبعاً يقصد الولد الذي تهمل تربيته، والذي لم يربّه الدين والخلق والمثل، ثم جاء دور المحيط الذي شارك في إفساده ولم يشارك في تربيته تربية صحيحة وإن كانت تربيته غير موجّهة وغير مقصودة، فالمجتمع كما أسلفنا يشارك في بناء الطفل وفي بناء شخصيّته سلباً أو إيجاباً.

ويجب أن نلتفت إلى أنه حتى موضوع اختيار المجتمع، واختيار المدرسة هو من مسؤولية الأبوين[٢]. وهذا يعني أن مسؤوليّة الأبوين مسؤوليّة التزاميّة أدبيّة

---

(١) التغابن: ١٤.

(٢) ولعل المحاضر يريد من ذلك أن الأبوين اللذين لا يجدان مجتمعاً صالحاً ينشأ فيه أبناؤهما، فإن عليهما أن يهاجرا إلى المجتمعات التي يمكن أن تؤثّر بأولادهما إيجاباً، وتبنيَ

خلقيّة، وليست فقط مسؤوليّة ماديّة.

حمل الآباء أبناءهم على عقوقهم

وهنا شيء هامّ أودّ أن أنبّه إليه، وهو أن على الآباء ألّا يحملوا أبناءهم على عقوقهم، والتنبيه يشمل أن هناك طريقين لحمل الأبناء على العقوق، هما:

الأول: القدوة السيئة

فالكثير من الآباء يمثّلون قدوة سيّئة، ومثالاً غير كريم لأبنائهم، وهو أمر يحملهم على العقوق؛ كأن يرى الولد أباه يشرب الخمر، فهو في هذا يدعوه إلى أن يشربها. فالأب بهذا يوجّه دعوة غير مكتوبة لابنه بأن يعاقر هذا الداء المحرم؛ لأنه يمارسها أمامه، فهي دعوة عمليّة إلى شربها.

الثاني: الضغط

فهناك من الآباء من يحمل أبناءه على عقوقه نتيجة ما يمارسه عليهم من ضغط وتحميل لهم ما لا يطيقونه من أُمور؛ سواء كانت مادّيّة أو غير مادية.

فهذه الأُمور التزامات يجب على الوالد مراعاتها وهو يؤدّي دور المربّي.

المبحث الثالث: التزامات الأبناء تجاه الآباء

أما التزامات الأبناء تجاه آبائهم فهي كثيرة، ويمكن جعلها على نحوين:

الأول: الالتزامات القهريّة

والمقصود بالالتزام القهري هو أنه كما أن على الآباء ـ بحكم ما لهم من ولاية ـ تربية الطفل ومتابعته حتى يترعرع وينضج ويكبر، فإن على الولد مقابل هذا طاعة

☚ أخلاقهما وتربيهما تربية سليمة.

والديه والتزام احترامهما. واعتبار القرآن الكريم ولاية الأبوين على الصبي بلحاظ أنه غير ناضج، وبالتالي فإن تصرفاته سوف تكون كلّها غير ناضجة؛ وبهذا اللحاظ فهو يحتاج إلى ولاية من الغير.

متى تنتهي الولاية على الصبي

وأودّ هنا من هذا المقام أن أُشير إلى أن بعض الناس يظن أن الصبي بمجرّد أن يصل إلى مرحلة البلوغ، فإنه يجب أن يعطى أمواله. وهذا غير صحيح؛ لأننا بيّنّا في أكثر من موضع [١] أن المراد بالبلوغ هنا هو البلوغ العقلي وليس البلوغ البايولوجي وحده، أي أن الإنسان متى ما بلغ سنّ الرشد وهو عاقل غير سفيه فإن له حينئذٍ أن يأخذ أمواله. فحينها تنتهي الولاية من الأب أو غيره عليه. أما إذا كان حال بلوغه سفيهاً أو مجنوناً فإن الولاية حينئذٍ لا ترتفع عنه.

الثاني: الالتزامات الأدبيّة

وهي فرض على الولد إزاء أبيه، فعليه أن يكون ذائب الشخصيّة فيهما، فلا يرفع صوته عليهما، ولا فوق صوتيهما، ولا يسيء الأدب في حضرتهما. كما أن عليهما أن يربّياه تربية تجعل منه ذا شخصية قويّة بحيث إنه لا يشعر بالذلّ أمام أي أحد ـ مهما كانت منزلته ـ عدا أبويه، فإنه يجب عليه أن يشعر بالذوبان إزاءهما. وفي هذا المعنى يقول القرآن الكريم: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾** [٢].

إذن فالالتزام هنا هو الذوبان إزاءهما، أي ذوبان شخصيّة الولد قياساً

---

(١) وسيأتي في المحاضرات القادمة.

(٢) الإسراء: ٢٣.

بشخصيتيهما، وإشعاره بأنه فرع منهما عليه أن يتلقّى أوامرهما بالقبول والطاعة، وأن يقابل الإحسان الذي ابتدأاه به بمثله [١]، فيذوب شوقاً إليهم؛ ليشعر أبواه بأنه قرّة عين لهما.

ومن باب الشاهد على هذا ما يروى من أنه كان للإمام مالك بن أنس بنت تجلس وراءه إذا جلس في مجلس بحثه في كتاب (الموطّأ) أو غيره، فكان إذا أخطأ أو قصّر في فكرة ضربت بعصاً لها على الأرض لتنبّهه؛ لأنها كانت على علم كبير وفهم واسع لكتاب الموطّأ، وكان عنده ولد شُغْله الصيد واللعب بالصقور، فكان إذا بدأ أبوه مجلس بحثه، جاء بصقوره وفهوده وجماعته إلى البيت، وأخذ في إزعاجه، فكان مالك يقول لتلاميذه: الأدب أدب الله، فهذان كلاهما من بطن واحدة، لكن هذا الولد يسبّب لي ألف مشكلة، فكلّ له طريق [٢].

وعليه فإن الولد إما أن يتحوّل إلى قرّة عين لأبويه، أو إلى كارثة عليهما إذا لم يكن ممن يلتزم بهذه الالتزامات التي وضعتها الشريعة المقدّسة.

---

(١) وفي دعاء الإمام السجاد لوالديه: «اللهم اجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف، وأبرهما بر الأم الرؤوف، واجعل طاعتي لوالدي وبري بهما أقر لعيني من رقدة الوسنان، وأثلج لصدري من شربة الظمآن حتى أوثر على هواي هواهما، وأقدم على رضاي رضاهما، وأستكثر برهما بي وإن قل، وأستقل بري بهما وإن كثر. اللهم خفض لهما صوتي، وأطب لهما كلامي وألن لهما عريكتي، وأعطف عليهما قلبي، وصيرني بهما رفيقاً، وعليهما شفيقاً. اللهم اشكر لهما تربيتي، وأثبهما على تكرمتي، واحفظ لهما ما حفظاه مني في صغري. اللهم وما مسهما مني من أذى، أو خلص إليهما عني من مكروه أو ضاع قبلي لهما من حق فاجعله حطة لذنوبهما، وعلواً في درجاتهما، وزيادة في حسناتهما» إلى آخر الدعاء الشريف. الصحيفة السجادية الكاملة: ١٢٧ ـ ١٣٣ / ٢٤.

(٢) انظر: الحدّ الفاصل (الرامهرمزي): ٢٤٢، الجامع لأحكام القرآن ٩: ٤٧.

الثالث: الالتزامات الشرعيّة

وهي إطاعة الوالدين في كل شيء إلّا فيما فيه معصية لله جل وعلا. ذلك أن الله جلّ وعلا قد افترض على الأولاد طاعة والديهم، لكنه مع ذلك حدد هذه الطاعة بحدود وضعها لها، ورسم لها خطوطها ومساحتها التي تتحرّك ضمن إطارها. وعليه فإن طاعة الوالدين إنما تكون في الأشياء المباحة، وليست في الأشياء المحرمة، فلو أن الأب مثلا أمر ابنه بأن يقطع رحمه، فإن الولد حينئذٍ يجب عليه ألّا يطيع أباه؛ لأن هذا فيه معصية، بل إن عليه أن يعصيه؛ لأنه أمر مضادّ لأمر الله جلّ وعلا بصلته، وتقديم أمر الله أولى وأهم من تقديم أمر الأب.

أما لو نهاه عن المستحبّات، كما لو نهاه عن الذهاب إلى الحجّ المندوب، وأمره بصرف تلك الأموال في مساعدة الفقراء، فالنهي هنا نهي عن مستحبّ، وأمر بمستحبّ ربما هو آكد منه. وهنا تجب إطاعة الأب وإطاعة أوامره باعتبار أن الأب ربما يرى مصلحة وراء الأُفق لا يراها ولده.

بل وأكثر من هذا لو فرضنا أن الولد يريد أن يصوم تطوّعاً، وكان أبوه يخاف عليه؛ لضعف لاحظه عليه، أو لعلة أُخرى مقبولة شرعاً أو عقلاً، ثم نهاه عن الصيام، أو قال له: اشرب الماء، فهنا يجب على الولد الامتثال لأمر الأب وطاعته، وترك معصيته.

وبناء على هذا فإننا نخرج بنتيجة هي أن إطاعة الوالدين هي أول شروط الالتزام من الأولاد إزاءهما، وأهم تلك الشروط ما لم يكن في تلك الطاعة معصية لله جل وعلا أو ارتكاب لمحرم [١].

---

(١) قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الانسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ العنكبوت: ٨، وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

وهـذا الالتـزام المـتبادل أو هـذه الحـقوق المـتبادلة بـين الأبـناء والآبـاء اعتمدها المشرّع الإسـلامي نـظاماً ودسـتوراً لبـناء الأُسـرة؛ بـاعتبارها تـمثّل الأُسرة الصحيحة، وتبني الأسرة بناء متقناً لا يمكن أن ينقض أو أن يتهاوى أو أن ينهار مهما اعتورته من مصائب ومن ظروف ومن قسـوة. وكـمثال عـلى هـذا الالتزام المتبادل والتربية الصحيحة الأُنموذجية نأخذ أُنموذجا من التـربية التـي جسدها الإسلام وهي تربية أئمة أهل البيت لأبنائهم ومن ذلك تربية الإمـام الحسين لأبنائه جميعاً.

وكمثال على هذا نأخذ علياً الأكبر ومواقفه من أبيه التي تمثل تعاليم الإسلام وتجسد نظم السماء التي وضعتها لتـحكم العـلاقة بـين الآبـاء والأبـناء، يـقول المؤرخون: إن عليّاً الأكبر لم ينادِ الحسين بكلمة (يا أبه)، بل إنه كان يناديه بكلمة (يابن رسول الله) بعد أن يجلس في حضرته مطأطئاً رأسه ثم يناديه بكلمة يابن رسول الله أو يابن أمير المؤمنين أو يابن فاطمة الزهراء.

وحينما خرج الإمام الحسين إلى كربلاء كان علي الأكبر ممن خرج معه، ويروي المؤرخون أن الإمام الحسين لما بلغ الخزيمية في طـريقه إلى كـربلا هوّمت عيناه، ثم انتبه وهو يقول: **«لا حول ولا قوة إلّا بالله، إنّا لله وإنا إليه راجعون»**. فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي، لماذا استرجعت؟ قال: **«يـابني رأيت فـي منامي قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم، فعلمت أنها أنفسنا نـعيت إلينا»**. فقال الأكبر: ألسنا على الحق؟ قال: **«بلىٰ والذي إليه مرجع العباد»**. قال: إذن لا نبالي أن نموت محقّين. فاحتضنه الحسين وقال: **«جـزاك الله مـن ولد**

☚ «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». نهج البلاغة / الحكمة: ١٦٥.

خيراً». ثم أخذ يقبّله ويلثمه[١].

أي أنه يقول له نحن على الحق الذي يرجع إليه العباد فلا نخاف ولا نبالي ولا نخشى يقول الشاعر:

نحن أدرى وقد سألنابنجد ... أقصير طريقنا أم يطولُ

وكثير من السؤال اشتياق ... وكثير من ردّه تعليلُ[٢]

والواقع الذي لا غشاوة عليه أن علياً الأكبر يعلم أنهم من الحق والى الحق وعلى الحق لكنه كان يريد أن يسمعها من أبيه ويريد أن يُسمعها غيره: أولسنا علىٰ الحق. ولما أراد أن ينزل الأكبر إلى المعركة أستأذن من أبيه الذي كان ينظر إليه على أنه شبيه رسول الله صلى الله عليه وآله في خَلقه وفي خُلقه، وقد غير هذا الطلب أو هذا الاستئذان من سحنة الإمام الحسين عليه السلام الذي كان كلما برز أحد رجاله من أنصاره أو أهل بيته يبارك نزوله ويرمق السماء بطرفه ويدعو له، غير أن عليّاً الأكبر كان له حساب خاص عند أبيه الحسين الذي كان يبكي لأجل الجيش الذي سوف يدخل النار بسببه لكنه ما إن نزل عليٌّ الأكبر إلى القتال حتى راح الحسين عليه السلام يدعو على ذلك الجيش لأنه سوف يقتل شبيه رسول الله صلى الله عليه وآله.

يقول المؤرخون لما استأذن عليٌّ الأكبر قال له أبوه عليه السلام: **«اللهمّ اشهد علىٰ هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذااشتقنا إلىٰ نبيّك نظرنا إلىٰ وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا**

---

(١) الإرشاد ٢: ٨٢، روضة الواعظين: ١٨٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٣: ٣٠٢.

لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا»[1]. ثم قال له: **«ابرز بُني»**. وكانت عيناه تلاحقانه لكنه لم يشأ أن يطلق العنان لعواطفه كي لا تستشعر النساء ذلك فيتألمن منه؛ ذلك أن ليلى قد حدقت في وجه الحسين وهو ينظر إلى عليٍّ الأكبر لتستطلع من خلاله الحال التي عليها يكون عليها عليٌّ الأكبر الذي شدّ في القوم وهو يرتجز وينادي:

أنا عليُّ بنُ الحسينِ بنِ علي	**نحن وبيتِ اللّهِ أولى بالنبيّ**
من شبث ذاك ومن شمر الدنيّ	**أضربُكم بالسيفِ حتى يرتويْ**
ضربَ غلامٍ هاشميٍّ علويْ	**ولا أزالُ اليومَ أحمي عن أبيْ**

واللّهِ لا يحكمُ فينا بن الدعيْ[2]

فقاتل قتال الأبطال إلى أن سقط على وجه الأرض فأقبل عليه الحسن بين الكتائب، وذاد عنه الخيل يميناً وشمالاً حتى وصل إليه ورفع رأسه عن التراب ووضع خده على خده واحتضنه وصاح: **«بني علي، على الدنيا بعدك العفا، أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمها، وأبقيت أباك لهمها وغمها. وما أسرع اللحاق بك»**[3].

أما موقف أُمه فكما يقال: حدث ولا حرج، يقول أحدهم: مررت بالمدينة بعد واقعة الطفّ حتى جئت إلى حي من أحيائها، فسمعت بكاء في المنازل، ومن أحد المنازل كان ينبعث أنين وعتاب سمّر قدميَّ إلى الأرض، ولما سألت عن هذه الدار

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، العوالم والإمام الحسين: ٢٨٥.
(٢) الأمالي (الصدوق): ٢٢٦، شرح الأخبار ٣: ١٥٣، الإرشاد ٢: ١٠٦، مقاتل الطالبيّين: ٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٢، ينابيع المودّة ٣: ٧٨.
(٣) الدمعة الساكبة ٤: ٣٣١.

قالوا: هذه دار الحسين عليه السلام، وهذه الباكية ليلى أُمّ عليٍّ الأكبر، حيث كانت تجول في الدار لا تهدأ الليل والنهار:

يـــــبني لو تشـــــوف اللـــيل	عگب عـــــينك اشـــلون اگـــضّيه
نـــــص بـــــالدمع والحســـرة	ونـــص احـــلم وأشـــوفك بـــيه
أگــــول تـــــردّ ليـــــالينا	وزمـــــان الراح انـــــرد ليـــه

* * *

يــاكــوكباً مــا كــان أقــصر عــمره	وكـــذا تكـــون كـــواكب الأسـحار



﴿١٩٦﴾

أضواء على الحياة السياسية لأمير المؤمنين عليه السلام

خطب ألـمّ بركـن الدين فانهـارا

أورى الغداة بقلب المصطفى نارا

فأي حـادثة فـي الدين قـد وقعـت

فألبسـته مـن الأشجان أطـمارا

كرّت وقد شمّرت عن ساقها فرمت

فجدّلت بطلاً في الحـرب كـرّارا

هـذا عـلي أمـير المـؤمنين لُـقىً مـضرّجاً بـدم مـن رأسـه فـارا

قـد غيّب الخسـف بـدراً مـنه مكـتملاً وغـيّض الحـتف بـحراً مـنه تـيّارا

أودى ومـن حـوله للـمسلمين تـرى مـن دهشـة الخـطب إقـبالاً وإدبـارا(١)

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأول: نقاط مضيئة في سيرته عليه السلام

لكي يتمكّن الباحث من معرفة شيء يسير من الحياة السياسية لأمير المؤمنين عليه السلام ومعطيات خلافته لابدّ له من المرور ببعض الجوانب التي تسلط

---

(١) الأبيات للشيخ كاظم السبتي الذاكر النجفي رحمه الله. نهج السعادة ٧: ١٧٥.

الضوء على ما انتهى إليه عليه السلام خلال مجيئه إلى تلك الخلافة حتى مصرعه (سلام الله عليه). وهذا الجانب بحاجة إلى تغطية كاملة؛ ذلك أن الإمام علياً عليه السلام تتوفر حياته على جوانب كثيرة كان من المفروض أن تكون عواملَ استقرارٍ واستتبابِ أمنٍ، لا أن تصبح عوامل تؤدي إلى نشوب تلك الحروب الداخلية التي خاضها الإمام علي عليه السلام من أجل تثبيت وحدة الدين وتقوية شوكته، ومن هذه العوامل:

الأول: النسب

فكل الجوانب والظروف التي من حياة الإنسان.. أي إنسان يعيش أجواء متلائمة متناسقة ومتناغمة، ويعيش الأمن والاستقرار كانت كلها مجتمعة عند أمير المؤمنين عليه السلام؛ فقد كان العرب يعتدّون بالأنساب، ويرون أن الذي يتولى أُمورهم يجب أن تتوفر فيه أُمور عدة منها أن يكون ذا نسب شريفٍ وعالٍ، ولا أقل من ألّا يصل إلى مستوى هابط.

ومن هذه الناحية فإن أمير المؤمنين عليه السلام غني عن التعريف؛ ذلك أن هاشماً كان قلب قريش، وكان بيت عليٍّ عليه السلام قلب بني هاشم. وقد سلط القرآن الكريم الضوء على مسألة النسب في بعض من آياته، فهو عندما يفرق بين مجتمع الدنيا والآخرة يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[1].

أي أن هذا النسب الذي تعتزون به في الدنيا ليس له اعتبار قائم في الآخرة، بل إنه لا اعتبار له أصلاً[2].

إذن فمن ناحية النسب نجد أن الإمام علياً عليه السلام كان صاحب الحظّ الأوفر بين

---

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «ايتوني يوم القيامة بأعمالكم لا بأنسابكم؛ فإني لا أُغني عنكم من الله شيئاً». بحار الأنوار ٧: ٢٤١ ـ ٢٤٢، التفسير الكبير ٤: ٨٧.

جميع الصحابة والقريشيين منهم خاصة، باعتبار أن قريشاً كانت لها الزعامة على العرب، وكان لبيت هاشم الزعامة على قريش. وكما ذكرنا فإن قلب بني هاشم كان بيت علي عليه السلام ؛ لأنه يرجع إلى عبد المطلب وعبد المطلب هو قلب بني هاشم.

إذن هذه الجوانب التي يجب أن يسلط الضوء عليها هي أُمور عدة وكانت النقطة الأولى التي سلطنا الضوء عليها هي جهة النسب

الثاني: الشخصية المتكاملة

إن الناس عندما يطلبون المثل الأعلى فإنهم ينشدون صفات معينة عنده، وأول هذه الصفات أنهم كانوا يبحثون عن البطولة فيه، فهم كانوا يمجّدونها أي تمجيد، وكانوا يمجّدون الشخص الذي توجد فيه كلّ تمجيد، فكانوا يرون في شخص البطل في ساحة الحرب أنه المثل الأعلى، وأنه الشخص الذي يجب أن يقتدى به وأن يحتذى.

وتمجيدهم للبطولة إنما هو من حيث ما كانوا عليه من تركيبة ومن طريقة معيشة وتعامل مع الحياة والآخرين. وهذا المعنى أو هذا المضمون لا يمكن لأحد أن ينكره في حقّ علي عليه السلام ؛ فالبطولة والشجاعة عنده (سلام الله عليه) أشهر من نار على علم، وقد وصلتا إلى درجة من الاشتهار بحيث إن الإنسان لا يحتاج إلى أن يبرهن عليهما أو على أنه عليه السلام هو الشجاع والبطل. لقد كان عليه السلام إذا دخل الحرب فرَّ الناس من بين يديه كما تفر المعزى بين يدي الأسد، وكان العرب يعتبرون أن الفرار من الحرب عارٌ إلّا الفرار من سيف علي بن أبي طالب عليه السلام .

وهذا المعنى يضاف إلى رصيد أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الجوانب المشار إليها، وهو رصيد وافر. وبالرجوع إلى التاريخ الطويل للإمام عليه السلام في هذا المجال، وإلى إنجازاته الصارخة في ميدان البطولة والشجاعة والبسالة فإننا نجد أن هذا

المجال قد مجّدته السماء والأرض، وامتلأت به كتب التاريخ، وأشادت بذكره إشادة لا نظير لها؛ وعليه فإننا لسنا بحاجة إلى إثباته أو البرهنة عليه. ومما ينشده الناس في مجال البطولات هو التصاق البطل بالأُمة، واندماجه مع الجماهير، وكونه يتعايش معها ويتعامل مع قلوبها.

وقد بلغ أمير المؤمنين عليه السلام في قلوب الناس مبلغاً لم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعده إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بحيث إنه عليه السلام قد وصل به الأمر إلى أن ينام على دقعاء من الأرض حتى يلتصق ظهره بالتراب، فكان عليه السلام لا يتميز عن سائر الناس بشيء، ولم يكن يفكر في أن يتميز عنهم أو أن يشار إليه على أنه فوقهم. ومن طبيعة الإنسان أنه إذااجتمعت فيه مزايا كثيرة فإنه غالباً يصيبه نوع من الغرور إن لم يكن الغرور كله، أما عليٌّ عليه السلام فكان خلاف ذلك تماماً، فكان مع ما عنده من المزايا التي لا عدّ لها ولا حصر، والتي أشادت بها السماء قبل الأرض نجده في قمة التواضع، وفي منتهى الخلق النبيل مع الآخرين، وهذا في نفسه يعد قمة في النضوج، فلم يكن لأحد أن يراه متميزاً عن غيره من المسلمين، وهو على قمة هرم السلطة بلباسه أو طعامه أو في شرابه؛ سواءً كان ذلك في الساحة المدنية أو الساحة الحربية.

ومن هذا أنه عليه السلام كان إذا مر في سوق الكوفة لم تكن له علامة تميزهُ عن الناس الموجودين فيه، فكان الناظر إليه يحسبه بدوياً بما عليه من ملابس بسيطة. وهذه الملابس لم تكن تتعدى شملة قد شمرَ طرفيها إلى أنصاف ساقيه.

نعم هناك شيء واحد يميزه، وهو أنه كان يحمل بيده عصا ويأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويأمرهم بطاعة الله وبتقواه، وبالابتعاد عن الغش بالمعاملة.

الثالث: العلم

فهو عليه السلام لم يكن ليجاريه أحد في علمه ولا في لوازمه؛ من فصاحة وبلاغة وما إلى ذلك، فقد كان العلم المبرز فيها، وقد بلغ القمة ووصل إلى الشأو الأقصى في كل ذلك. فكان عليه السلام المثل الأعلى لغيره في العلم [١].

وكما ذكرنا فإن هذه النقاط كانت مشفوعة بالشجاعة والأخلاق العالية، والنفس الكبيرة والنبيلة، وكرم الطباع، وحبّ الله جلّ وعلا وطاعته، والانقياد إليه، والفناء فيه، وما إلى ذلك.

المبحث الثاني: أسباب اضطراب الدولة في أيامه عليه السلام

وإذا كانت كل هذه المؤهلات التي ذكرناها بأجمعها موجودة عنده عليه السلام، فإن من المفروض أن الأُمور ستستقر أكثر بعد مجيئه إلى الحكم، لكن الذي سطره لنا التاريخ هو أن الاستقرار بدأ يتراجع في عهده، إذ أن فيه كثرت الحروب الداخلية، وقد انشغل عليه السلام بهذه الحروب، وبتثبيت كلمة الله جل وعلا عن الفتوحات الخارجية إلّا ما ندر منها.

وحينما نتمعنُ في الوضع أو الظروف السياسية التي عاصرت الإمام عليه السلام فإننا سوف نتلمس فيها ومن خلالها جملة من الأسباب أدت إلى حصول هذا الصراع إبان دولته عليه السلام، وهو صراعٌ تحول إلى مضاعفات خطرة بعد رحيله من الدنيا، ومثل عليٍ لا يرحل عن الدنيا.

إذن فهناك جملة من الأسباب أدت إلى اضطراب الوضع السياسي والإداري

---

(١) ولقد ذكر ابن أبي الحديد فصلاً في انتماء جميع العلوم إليه عليه السلام. انظر شرح نهج البلاغة ١: ١٧ ـ ٢٩.

إبان خلافة أمير المؤمنين﵇؛ صيّرت من الإمام شخصاً كان دأبه أن يحاول جاهداً معايشة هذا اللون من الصراع وهذه الدوامة السياسية التي انعكست مضاعفاتها كما قلنا على الحياة العامة، وعلى كتب التاريخ أيضاً، ومن هذه الأسباب نذكر:

السبب الأول: الحسد

إن من النادر أن نجد شخصاً قد اجتمعت فيه كل المزايا الحسنة، والصفات النبيلة، والطبائع الكريمة كما اجتمعت عند عليٍّ أمير المؤمنين﵇، لقد اجتمع فيه من الصفات ما لم يجتمع لغيره إلّا أنبياء الله ورسله، فقد كان﵇ مثالاً في كل أمر حسن، ومثالاً في كل منقبةٍ يحمدُ عليها صاحبها دون أن يكون هناك حدّ أو حصرٌ لتلك الأُمور الحسنة أو المناقب الجميلة. يقول أبو الطفيل: قال بعض أصحاب النبيﷺ ـ وهي قالة تكلّف قائلها ثمناً غالياً ـ: «لقد كان لعلي بن أبي طالب﵇ من السوابق ما لو أن سابقة منها فرّقت بين الخلائق لوسعتهم خيراً»[1]. وهذا ما جعله﵇ هدفاً لسهام حقد القوم وحسدهم، الذي يمكن إجماله بالآتي:

الأول: الحسد على النُّبل

وفعلاً فأي شيء عند هذا الرجل العظيم وليست له القابلية على أن يغطي المجتمع كله؟ لقد كان﵇ ذا نفس نبيلة لو طرح نبلها على الدنيا جميعاً لغطاها؛ فقد وسع نبل نفسه حتى ألدّ أعدائه، وهذا النبل والكرم في الطباع لم يكونا ليفارقاه حتى في أصعب الظروف التي مرت به، فكانا يسموان به عن الحقد والغيظ، ومقابلة الآخرين بما يقابلونه به، والنزول إلى مرحلة الأخذ بالثأر

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٣٩١ / ٨٥٩، شواهد التنزيل ١: ٢٨ ـ ٢٩، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤١٨، أُسد الغابة ٤: ٢٣.

حتى مع من رام تمزيقه، يلج عليه السلام ساحة الحرب في معركة الجمل فيأمر مناديه أن ينادي جيشه ويأمرهم ألّا يأخذوا شيئاً من معسكر أهل الجمل أبداً. فيأتيه شخص من جنده وأتباعه ويقول له: يا أمير المؤمنين، أتباح دماؤهم ولا تباح أموالهم؟ قال عليه السلام: **«هؤلاء إخواننا بغوا علينا، فلا تتناولوا شيئاً من معسكرهم»**[1].

وكان بعد المعركة يمر عليهم وبيده عصاً يقلب بها بعض الأشلاء وهو ينظر إليها ويملأ الدنيا بحسراته وبآهاته وبألمه؛ لأنهم صرعوا وهو يعلم أن مصيرهم النار لأنهم قاتلوه، وهم إذ قاتلوه فإنما قاتلوا إماماً، وبغوا على خليفةٍ شرعي. فكان عليه السلام يتألم لأجلهم؛ لأنهم سوف يدخلون النار بسببه.

ومن مظاهر نبله (صلوات الله وسلامه عليه) في تلك المعركة أن امرأة استقبلته لمّا دخل البصرة بعد واقعة الجمل، ووقفت له بباب الدار، وقالت له: يا قاتل الأحبّة، أيتمت ولدنا أيتم الله ولدك. فقال عليه السلام: **«لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الحجرة»**[2].

ولم يكن فيها سوى مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير والوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثم تنهد تنهداً عميقاً نم عمّا في نفسه الكريمة من ألم وحزن.

الثاني: الحسد على الزهد والتواضع

نعم، إنها نفسٌ تختلف سنخيتها عن سنخية النفوس التي عاصرتها أجمع؛ ففي الوقت الذي كانت فيه تلك النفوس تلتهب حقداً، كانت نفسه الشريفة عليه السلام تفيض

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣.

(٢) دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٠٥.

رحمةً وعطفاً ووداً وشفقةً على الآخرين. وكيف لا يكون كذلك وهو ابن القرآن وتلميذ السماء، والابن النجيب لرسول الله ﷺ، وهو ترجمان القرآن في سلوكه وفي كل جزئية من جزئيات حياته؟ وكيف لا يكون كذلك وهو الذي قد رُبي في حجر الرسالة، ونشأ في مربع الرعاية الإلهية؟

إذن لابدّ لشخص يجمع كل تلك الصفات أن يكون على هذه الشاكلة وأن يكون بهذه النفس الطيبة الكريمة، وبهذه الدرجة من السمو.. الدرجة التي ينتهي الأمر معها إلى أن يجود صاحبها بكلّ ما تصل إليه يده من ذهب وفضة، ويفرّقه على غيره من المسلمين، ثم يؤوب إلى بيته وهو يحمل رغيفاً من الخبز لا يكاد يتناوله إلّا بصعوبة بالغة؛ لأنه كان رغيفاً جافاً قاسياً. وكان يأكل بضع تميرات يشتريها من صاحبها ميثم، ثم يمسح على بطنه ويقول: «**من أدخله بطنه النار، فأبعده الله**»[1]..

وهكذا نجد أنه عليه السلام قد أبى أن يتناول شيئاً من حطام الدنيا ومن زادها إلّا ما يقوّم بها بدنه على عبادة الله جل وعلا. وقد ذكر لنا التاريخ أنه عليه السلام أبى أن يتناول حتى من الهدية التي تهدى إليه؛ فقد أُهديَ إليه بخبيص أو فالوذج ـ على رواية ـ فمدّ يده إليه ليأكل منه، ثم سحبها ولم يذق منه شيئاً، ثم قال لأصحابه: «**هلمّوا وكلوا**». فقالوا له: نراك رفعت يدك عنه؟ فقال عليه السلام: «**لم أكن لآكل من شيء لم يأكل منه رسول الله ﷺ، فكلوا هنيئاً مريئاً**».

فورعه عليه السلام انتهى به إلى أن يمنعه عن تناول طعام مباح له، أو ممارسة رغبة

---

(١) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمّال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

مباحة؛ وذلك ابتغاء وجه الله جلّ وعلا ونزولاً في مستوى معيشته عليه السلام لمستوى أدنى الناس معيشةً؛ حتى يوازيهم وحتى يساويهم في مأكلهم ومشربهم وملبسهم [١].

وهذا الأمر في حقيقته شيء أكثر من عادي في سلوكه؛ لأنه عليه السلام قد ربّى نفسه على هذه المزايا التي كانت مبعثاً على أن يحسده الآخرون عليها؛ فقد حسده الأبطال والشجعان، وحسده أهل العلم، وحسده أهل الانقطاع إلى الله جل وعلا؛ لأنهم كانوا لايستطيعون أن يصلوا إلى المستوى الذي وصله. وهكذا كان الشجعان يفرّون بين يديه في الحرب، ووصل الأمر به أن أحدهم يذكر معاوية بن أبي سفيان بقوله:

أبت لي عفّتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمن الربيحِ

وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامةَ البطلِ المشيحِ

وقولي كلّما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي [٢]

ومع كلّ هذا فإننا نجد من يشتمُ عليّاً عليه السلام حتى الآن، والذي ينبغي بهذا الشاتم أن يكون عنده ولو شيء يسير من النبل، يرفعه عن شتم هذه الشخصية العظيمة، وهو إذ يشتم عليّاً فإنما يشتم نفسه؛ لأن عليّاً عليه السلام ينحسر عنه الشتم، ويعود على

---

(١) وقد أوضح عليه السلام هذا الأمر لعاصم في محاورة هذا الأخير معه، فقال (سلام الله عليه): «إن اللّه افترض علىٰ أئمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بالقوام؛ لئلّا يشنع بالفقير فقره». العقد الفريد ٢: ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «فينبغي له ـ الوالي ـ أن يكون كواحد من فقراء المسلمين في المعاش والرياش؛ حتّىٰ يسهل على الفقير فقره إذا نظر للوالي وما هو عليه». الكافي ٦: ٤٤٢ / ٨

(٢) تفسير الثعلبي ٤: ٥٢، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٣٥٩، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣، ٨: ١٨، ٥٩: ٢٠٣.

قائله؛ فهو عليه السلام طهر طاهر مطهر؛ لا تضيره تلك النفوس الخانعة الخاضعة، ولا تؤثر فيه تلك الألفاظ التي لا تسمو إلى أن تصل إليه.

إذن فلابد أن يحسد من كان على هذه الدرجة العظيمة من الفضائل.

الثالث: الحسد على العلم والمعرفة

وكان عليه السلام فوق كلّ هذا يتصدّى لحل المشاكل والقضايا العالقة بين المسلمين في القضاء وغيره، ومن ذلك أنه جيء بامرأة إلى عمر ومعها رجلان؛ أحدهما ابن زوجها السابق والثاني زوجها الحالي، والولد يتّهمهما بقتل أبيه، فقال عمر: أنقتل نفسين بنفس واحدة؟ فلننتظر حتى نرى رأي علي بن أبي طالب. فقال عليه السلام: **«نعم يقتل أكثر من نفس بنفس واحدة، أرأيت لو أن أكثر من رجل سرقوا جزوراً؛ فأخذ كل رجل منهم جزءاً منها، أكنت تقطع أيديهم؟»**. قال: نعم. قال عليه السلام: **«فهذه كتلك»**.

وكان هذا دأب المسلمين، فكلّ مسألة تواجههم كانت أعينهم ترقب علي بن أبي طالب عليه السلام ليجد حلّاً لمشكلها ومعضلها. ومثل هذه المواقف، ومثل هذه الأُمور حتماً ستترك حسداً لا حدَّ له في نفوس من يراه من المسلمين آنذاك؛ لأنه كان العلم والعيلم، والمتصدّي في كل الساحات الحياتية في زمانه؛ فهو الرائدُ والمبرَّز والمقدّمُ في ميدان الحرب، وهو الرائدُ والعلَمُ في ميدان العلم، وهو الرائدُ والمقدّمُ في ميدان القضاء؛ الذي يدعى إلى حل المعضلات والملمّات في القضايا كافة فيحلّها ويحلّ مشكلها ومعضلها دون أن يتردّد، ودون أن يتلكّأ.

هذا كلّه مع بيان العلة والدليل الذي من أجله حكم بهذا الحكم وهذه القضيّة، أو أفتى بهذه الفتوى.

الرابع: الحسد على الشجاعة والبطولة

وكما ذكرنا في المبحث الأول فإنه عليه السلام كان مثالاً في الشجاعة لا يرقى إليه أحد، ولا يصل إلى مستواه بطل مهما كانت شجاعته وبطولته، إضافة إلى ذلك كرم الأخلاق وحسن الطباع والشيم العالية ونبل النفس التي كان يُخضع نفسه الشريفة لها حتى في ميادين القتال[1]، وما إلى ذلك.

الخامس: الحسد على قربه من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

وكل هذه الأُمور كما ذكرنا تبعث على الحسد.. الحسد حتى من الأقارب والمختصّين بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم، مضافاً إليه قربه الشديد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ومن هذا أن أُسامة بن زيد وكان قد ربي في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان يعرف موقع علي بن أبي طالب عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومع هذا نجده يتخلّف عن بيعته عليه السلام، ولم يكن لديه من دافع سوى حقد دفين كامن في نفسه على هذه الشخصية العظيمة، فلم يكن ليطلب علياً بثأر حتى يقال: إنه لم يبايعه ثأراً منه. والأنكى من هذا أنه كان يسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -كما هو شأن كثير من المسلمين ـ يقول لعلي بن أبي طالب عليه السلام: **«حربك حربي وسلمك سلمي»**[2]، **«من أحبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام»**[3].

---

(١) كموقفه من عمرو بن عبد ودّ العامري، إذ أبى عليه السلام أن يقتله مباشرة بعد أن بصق اللعين عليه،
فتمهّل عليه السلام حتى سكن عنه الغضب، ثم قتله لله تعالى وفي سبيله.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم مكانته عليه السلام للمسلمين في خصوص هذا المعنىٰ في أحاديث كثيرة، انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤.

(٣) مسند أبي يعلىٰ ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمّال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقال: قال البوصيري: رواته ثقات.

ومع ذلك فإنه لا يضمر له في نفسه إلّا البغض والحسد، وهذا ما دفعه إلى التخلف عن البيعة له مع أنه قد رأى أن علياً عليه السلام قد استأثر بحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أخذ مكانه ومكانته من بعده. فهذا الأمر يمثّل أحد الأُمور التي كانت بمجموعها تشكّل دافعاً له لأن يحسد. والحسود يبحث عن ثغرة مهما صغرت لينفذ منها حتى يحطّ من قيمة المحسود.

لكن أي شيء يمكن أن يقال عن علي عليه السلام؟ هذا التاريخ بين أيدينا، ولم يستطع أن يجد له ثغرة من الثغرات إلّا أن يفتعل أحدهم مثلبة وينسبها إليه، ومن ذلك أن يقول أحدهم: لقد دُميت أصابع علي بن أبي طالب من كثرة تسوّره جدران بيوت نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فهل هذه لغة عالم أو فقيه؟ إن هذا القدح كما نعلمه نحن ويعلمه قائله لا يصل إلى علي بن أبي طالب عليه السلام منه شيء، بل إنه يرتدّ سهاماً قاتلة على نحر قائله، فتكيدهُ بما افترى على مثل هذه الشخصية الإلهية العظيمة[1] إن مثل هذا الذي يطلق سهامه على علي لهو يعلم حق العلم أن هذه السهام ستعود عليه هو نفسه وتصيبه. ثم إنه لا يعلم أنه بهذا الكلام إنما يشتم النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم ويهتك حرمة نسائه وعرضهنْ.. فحقّاً إن هذا الشتم سينحسر عن علي عليه السلام ويلتصق بصاحبه؛ لأنه لا يجد في عليٍّ ما يستحق ذلك الشتم.

وهنا نقطة ينبغي التنويه إليها هي أن هذا الحسد قد خدم علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا ما يقرره الشيخ الشفهيني بقوله:

إن يحسدوك على علاك فإنما ... متسافل الدرجات يحسد من علا

---

(١) وكما نسب إليه من قضية الصلاة وهو ثمل وقد رددنا كل هذا وعليه في ج ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩ من كتابنا هذا.

إنـــي لأعــذر حــاسديك عــلى الذي أولاك ربّك ذو الجــلال وفــضّلا (١)

إذن فالحسد لم يكن لينال من أمير المؤمنينعليه السلام، ورحم الله أبا حيان الأندلسي حيث يقول:

عـــداي لهـــم فـضلٌ عـليَّ ومـنَّةٌ فـلا أبـعدَ الرحـمٰنُ عـني الأعـاديا

هُـمُ بـحثوا عـن زلَّـتي فـاجتنبتها وهـم نـافسوني فـارتقيت المـعاليا (٢)

السبب الثاني: الحقد

وكان الحقد من قريش على هذا الرجل في أشد حالاته، وأبعد مدياته، وأوسع مستوياته. وهذا طبيعي منهم، ونروي هنا حادثةً وقعت عقيب موقعة بدر، فقد أمر رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم بقتلى بدر فسحبوا إلى القليب فطرحوا فيه، ثم وقفصلى الله عليه وآله وسلم عليهم فقال: «**يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدني بكم ربّي حقّاً**».

وكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة لمّا رأى أباه يسحب إلى القليب كره ذلك؛ لأن عتبة أباه كان من رجالات قريش، فعرف النبيصلى الله عليه وآله وسلم الكراهية في وجهه، فقال له: «**يا أبا حذيفة، كأنك كرهت ما ترى؟**». فقال: يا رسول الله، إني والله ما كنت بشكٍّ في الله ولا رسوله، ولكن أبي كان رجلاً سيّداً حليماً ذا رأي، فكنت أرجو أن يهديه رأيه إلى الإسلام، فلما فات ذلك منه، ووقع فيما وقع فيه أحزنني ذلك (٣).

وأبو حذيفة هذا كان له موقف قبل انتهاء المعركة حيث إن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم نهى يوم بدر أن يُقتل أحد من بني هاشم، وكذلك أبو البختري، وقالصلى الله عليه وآله وسلم: «**إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً، لا حاجة لنا بقتلهم؛**

---

(١) الغدير ٦: ٣٨٨. (٢) الكنىٰ والألقاب ١: ٦١.

(٣) مسند ابن راهويه ٢: ٥٧٣ ـ ٥٧٤ / ١١٤٨، صحيح بن حبان ١٥: ٥٦٢ ـ ٥٦٣.

فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري فلا يقتله، ومن لقي العبّاس بن عبد المطلب عمّ رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرها».
حيث إن قريشاً قالت للهاشميّين: لا تبقوا بين ظهرانينا ومحمد خارج لقتالنا، بل لابدّ من أن تخرجوا معنا وتقاتلوه.

وهنا قال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرنا، ونترك العبّاس، والله لئن لقيته لألحمنّه السيف [1].

وهذا المعنى إذا أردنا نقله إلى باقي أفراد قريش وغير قريش فإننا نجد أن دواعي الحقد ومسبباته موجودة عندهم، وكامنة في صدورهم ضدّ الإمام علي؛ لأنه صاحب النصيب والأوفر والعدد الأكبر من القتلى، فقد كان معظم القتلى في معظم الغزوات من فعل سيفه. فهؤلاء لا يمكن لهم أن ينسوا مصارع آبائهم أو إخوانهم إلّا إذا كان فيهم من بلغ من الإيمان مبلغاً عظيماً، أو كان ذا مستوى من الورع، أو التفاني، أو التضحية في سبيل الله بكل شيء؛ فإنه حينئذٍ يمكن له أن ينسى هذه الحالة.

وبهذا فإننا نجد أن أغلب بيوتات قريش كانت تطلبه بثأر وكانت تحقد عليه. وهذا المعنى قد عبّر عنه الخليفة الثاني في محاورته مع عبد الله بن عباس ذات مرّة، يقول عبد الله بن عبّاس: كنت مع الخليفة عمر فقال لي: يا ابن عبّاس، أتدري ما منع الناس عنكم؟ قال: لا. قال: لكني أدري. قال: ما هو؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة فتجفخوا جفخاً، وتنفخوا نفخاً، فنظرت قريش لنفسها فاختارت، ووفقت فأصابت. فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عني غضبه فيسمع؟ قال: قل ما تشاء. قال:

---

(١) الكافي ٨: ٢٠٢ / ٢٤٤، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٨٢ ـ ١٨٣.

أما قولك: إن قريشاً كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾**(١). أي أنك جعلت المناط في أحكام الله تعالى وأوامره هو كراهة قومنا وعدم كراهتهم، فلو كره قومنا نزول القرآن الكريم فهل يترك الله تعالى إنزاله؟ ولو أن قومنا كرهوا نزول الوحي والإسلام ـ كما حصل بالفعل ـ فهل يترك الله تعالى أمره، ويمتنع عن إنزاله على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؟ والحاصل أنه لو أراد الله تعالى شيئاً وكرهته قريش فهل نتركه طاعة لقريش ومعصية لله؟

وأما قولك: إنا كنا نجخف ـ أي يصبح عندهم كبرياء وتضخّم ـ فلو جخفنا بالخلافة جخفنا بالقرابة، ولكنا قوم أخلاقنا مشتقّة من خلق رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قال الله تعالى فيه: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾**(٢)، وقال له: **﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾**(٣).

وأمّا قولك: فإن قريشاً نظرت لنفسها فاختارت، فليس من حقّ قريش أن تختار لنفسها، ذلك أن الله تعالى يقول: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**(٤)، وقد علمت أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار. أي أن الله تعالى اختار وقضى، ولم يترك الأمر هملاً، أو دون أن ينزل فيه حكماً.

ولنلاحظ التعبير هنا وهو (قريشاً اختارت)، بمعنى أن المسلمين جميعاً لم يختاروا بل إن الذي اختار هو قريش فقط، وهم جزء من المسلمين وليسوا كلهم، فهناك الأنصار وهناك القبائل العربيّة المسلمة من غير قريش، فإن كان الأمر

---

(١) محمد: ٩. (٢) القلم: ٤.

(٣) الشعراء: ٢١٥.

(٤) القصص: ٦٨، أي أنه تعالى جعل كل اختيار خلاف اختياره جلّ وعلا شركاً.

متعلّقاً بكون قريش قبيلة النبي فبنو هاشم أهل بيت النبي ﷺ؛ ولذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام لمّا بلغه احتجاج أهل السقيفة بهذا قال عليه السلام: **«احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»**(١)؛ لأنه عليه السلام وولديه عليهما السلام أقرباء نبيّنا الأكرم ﷺ وخاصّته والحسنان عليهما السلام ابناه، وغيرهم من قريش أبعد عنه منهم. و على أيّة حال فهذا هو تعبير الخليفة الثاني نفسه.

وأما قولك: ووفقت فأصابت، فليس الأمر كذلك؛ لأن الذي يختار خلاف ما اختار الله تعالى لم يوفّق. فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها لوفقت وأصابت.

ثم نفض ابن عباس ثيابه وقام، فقال عمر: على رسلك يابن عباس، أبت قلوبكم يا بني هاشم إلّا غشّاً في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لا يحول. فقال ابن عباس: مهلاً، لا تنسب هاشماً إلى الغشّ؛ فإن قلوبهم من قلب رسول الله ﷺ الذي طهّره الله تعالى وزكّاه، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى فيهم: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**(٢).

وأما قولك: حقداً، فكيف لا يحقد من غصب حقّه ويراه في يد غيره؟ فقال عمر: أمّا أنت يابن عباس، فقد بلغني عنك كلام أكره أن أُخبرك به، فتزول منزلتك عندي. قال: وما هو؟ أخبرني به؛ فإن يكُ باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، وإن يكُ حقّاً فإن منزلتي عندك لا تزول به. قال: بلغني أنك لا تزال تقول: أُخذ هذا الأمر منك حسداً وظلماً. قال:

أما قولك: حسداً، فقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة، فنحن بنو آدم المحسود.

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٦٧. (٢) الأحزاب: ٣٣.

وأما قولك: ظلماً، فأنت تعلم صاحب الحقّ من هو. ثم قال: ألم تحتجّ العرب على العجم بحقّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واحتجّت قريش على سائر العرب بحق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سائر قريش. فقال له عمر: قم الآن فارجع إلى منزلك.

فقام، فلما ولّى هتف به عمر: أيها المنصرف، إني على ما كان منك لراعٍ حقّك. فالتفت إليه ابن عباس وقال: إن لي عليك وعلى كلّ المسلمين حقّاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فمن حفظه فحقّ نفسه حفظ، ومن أضاعه فحقّ نفسه أضاع. ثم مضى [1].

أي أنه عليه السلام يريد أن يقول له: إن الذي يختار غير ما اختار الله له وضدّه فإنه غير معلوم من أمره أنه موفّق، **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾**.

فالمحاورة على بساطتها تكشف عن معنى كبير؛ لأنها ليست من شخص من عامّة الناس بل إنها من الخليفة الثاني، وهو عمر بن الخطاب، وهو الشخص الملمّ بأحوال قريش؛ ولهذا فإنه يقول له: ليس من السهل أو اليسير أن تطيب نفوس قريش تجاهكم، ولا تظنن أن صاحبك ـ يقصد أمير المؤمنين عليه السلام ـ يمكن أن يجد له مكاناً في قلوب هؤلاء؛ لأنه طافٍ على بحرٍ من الدماء، وعلى جبال من أشلاء الضحايا من المشركين وجثثهم ممن ذهبوا بسنانه وسيفه، وهو يدافع عن دين السماء وعن نبي السماء.

وبهذا فإنه في مكان لا يحسد عليه، بل إن هذا المكان خلق له حقداً دفيناً كامناً لا حدود ولا أمد له في صدور القرشيين. وهذه أُخت عدي تقول حينما خرج أمير المؤمنين عليه السلام ليمتطي جمله:

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٥٢ ـ ٥٥، مناقب أهل البيت عليهم السلام: ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

لاهُـــمَّ فـــاعقر بـــعلي جـــمَلَه ولا تـــبارك بـــبعير حـــمَلَه[(١)]

وفوق ذلك فإننا نجد أن إحدى نساء النبي ﷺ حينما بلغها مصرعه قالت:

وإن يكُ نـــائياً فـــلقد نـــعاهُ نـــعِيٌّ ليس فـــي فـــيه التـــرابُ[(٢)]

ذلك أن العرب كانوا إذا فقدوا عزيزاً عليهم ثم ذكره أحدٌ ونعاه فإنهم يقولون له: في فيك التراب، أي ملأ الله فاك تراباً، لأنك جئت بهذا الخبر الشؤم. هذا في حين أن الذي حدث هو أن عائشة تصف هذا الذي جاء بنعي أمير المؤمنين عليه السلام بأنه ليس في فيه التراب؛ لأنه لم يجئ بخبر مشؤوم بالنسبة لها، بل إنه جاء بخبر مفرح.. جاء بخبر فألٍ حسن تراه؛ ولذا فإنها لم تدعُ عليه بأن يكون التراب في فمه، وهو دعاء مذمّة واستنكار واستقباح من القائل.

فهي لا تذمّ ناعي أمير المؤمنين عليه السلام، ولا تستقبح قوله ولا تستنكر عليه قوله هذا؛ ذلك أن أمير المؤمنين عليه السلام قد وتر الأقرب والأبعد في سبيل الله جلّ وعلا، فما من بيت من بيوتات قريش إلّا ولعلي بن أبي طالب عليه السلام فيه نضْح من الدماء دفاعاً عن الحق وعن السماء وتعاليم السماء ونبي السماء ﷺ. وبهذا فإننا نرى أن هذه الحوادث تكشف عن ذلك الحقد الذي يغلي في عروق هؤلاء، وهو حقد لم يأتِ من فراغ كما بيّنّا.

السبب الثالث: أنه عليه السلام سار بسيرة العدل

ومعلوم أن من يسيره بسيرة العدل فإنه حتماً سوف يرضي جماعة مستضعفة، ويغضب منه جماعة أُخرى من ذوي الجاه والسلطان والمال وما إلى ذلك.

---

(١) القائلة هي أُخت علي بن عدي من بني عبد العزّىٰ بن عبد شمس. تاريخ الطبري ٣: ٤٩٣، الإصابة ٥: ٥٣ / ٦٢٧٧.

(٢) الجمل: ٨٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٥.

فالسير بطريق العدل والصواب ـ وهو وضع الشيء في موضعه ـ يخلق حالة من الغضب عند شريحة عريضة من المجتمع [١]. ونضرب مثالاً على هذا، وهو أن الحاكم لو أراد مثلاً أن يلغي المصارف الربوية فإن الطبقات العامّة سوف يرضون بهذا ويستبشرون به، ويشجعون الحاكم عليه ويساعدونه؛ لأنه يكون بهذا القرار قد خلّصهم من هؤلاء المرابين الذين يمتصّون عرقهم وكسبهم بغير وجه حقّ، كما أنه يكون بهذا قد حقّق لهم مكسباً من المكاسب وهو حفظ أموالهم.

هذا في حين أن الطبقة المرابية التي كانت مستفيدة من النظام القديم سوف تعلن غضبها وثورتها واستنكارها لهذا القرار، وتعمد إلى خلق الفتن والمشاكل ضدّه؛ كي تطيح به؛ لأنه يكون قد أضرّ بمصالحها، وقد سدّ على أفرادها باباً من أبواب الرزق وإن كان رزقاً غير حلالٍ وغير مشروع.

والمستفيدون من البنوك الربوية كما هو معلوم هم أصحاب رؤوس الأموال الذين يفترضون سلفاً بأن هذا الحاكم إنما يريد ضرب مصالحهم عبر إغلاق الأسواق في وجه استثماراتهم الربوية، ومعاملاتهم غير المشروعة. وهؤلاء طبعاً هم غالباً ما يكون في أيديهم الحل والعقد، لأنهم مجموعة التكتلات التي تمتلك وسائل القوة، فهذه الطبقة الخاصة سوف يستثار في نفوسها حقدٌ لاحدود له؛ لأنها ترى من نفسها أنها طبقات مميزة، والطبقات المميزة تفترض أنها يجب ألّا تساوى مع الآخرين في التعامل أو العطاء أو الكسب أو ماتملك، بل وعلى كل مستويات الحياة وأصعدتها.

---

(١) ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «ما ترك الحقّ من صديق». كشف الخفاء ١: ٣٦٢ ـ ٣٦٣ / ١١٥٥.

فإذا حصل أن ذلك قد وقع بفعل قرار ترى أنه يسلب منها مكانتها وحقوقها وامتيازاتها فإنها تعمد إلى محاربة هذا القرار، ذلك أنها لا شيء يمنعها من الوقوف في وجه من يحاول مصادرة ذلك منها، بل إنها لا تتوانى عن ترك حتى الواجبات أو المستحبات الأكيدة في سبيل ألّا تنزل بنفسها مع الطبقة المتدنية؛ لأنهم يرون أنهم أرفع شأناً وأعلى مكاناً وأسمى مقاماً من هؤلاء الناس الذين يعدّونهم بنظرهم على أنهم من السوقة.

والتاريخ يحدثنا أن بعض المسلمين كان لا يصلي جماعةً، وكان يقول: إن في هذه الجماعة من يزاحمني من السوقة وعليه فلا أريد أن أضع نفسي في موضع مزاحمة معهم؛ أنفة من هذا، وتأنّفاً من أن يكون من منزلتهم. كما أنه يحدثنا أن جماعة من قريش وهم عتبة وشيبة وحكيم بن حزام والوليد قد دخلوا على النبي ﷺ فقالوا له: نحن نريد أن نجلس إليك ونسمع منك، لكن يمنعنا من ذلك هؤلاء الأراذل الذين اتّبعوك، وهم يحيطون بك.

إذن فإرضاء الطبقة العامة يؤدي إلى إغضاب وإزعاج الطبقات الخاصة المنتفعة بفعل وجودها، ومكانتها، وشأنيتها الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، وما إلى ذلك، ولهذا فإننا نجد أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقدم رضا العامة لأنهم الطبقة المسحوقة والطبقة التي تقف مع الحق غالباً. كتب عليه السلام إلى مالك الأشتر قائلاً: **«وليكن أحبّ الأمور إليك أوسطها في الحقّ، وأعمّها في العدل، وأجمعها لرضا الرعيّة، فإن سخط العامّة يجحف برضا الخاصّة، وإن سخط الخاصّة يغتفر مع رضا العامّة... وإنما عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدّة للأعداء العامّة من الأمّة»**[1].

---

(١) نهج البلاغة / ٥٣، عهده عليه السلام لمالك الأشتر.

ذلك أن العامة هم القاعدة العريضة، وهم الذين يصنعون الحياة بعرقهم، وهم الذين ينسجونها ويصوغونها بكدّهم وتعبهم؛ فلابدّ إذن أن يعطى الجائع البائس فرصته في الحياة. وهذا هو الذي يفسّر لنا كيف أن الإمام علياً عليه السلام كان ملتصقاً بالجماهير، متحسّساً لهمومهم ومشاكلهم ومعاناتهم، محاولاً أن يضع حدّاً لها. لقد كان عليه السلام يحمل على يديه الشريفتين أنات الضعفاء، وآلام المكلومين، وتأوّهات الجائعين والبائسين.

وهذا بطبيعة الحال قد سبب له مشكلة كبيرة مع أبناء الطبقة الخاصة الذين أعلنوا عصيانهم له وغضبهم منه بمجرد وصوله إلى السلطة، وأخذه الحقّ ممّن أخذه عنوة ودون حق وأرجعه إلى أهله [١].

دخل عليه بعض من أصحابه وقالوا له: كيف تريد أن تساوي بين الناس؛ سيّدهم وعبدهم في العطاء، والواقع يفرض أن يكون هناك تمايز بينهم؟ فرؤساء العشائر مثلاً يجب أن يميزوا بالعطاء عن أفراد عشائرهم، والعرب يجب أن يميزوا بالعطاء عن العجم، فلا يأخذ المولى كما يأخذ العربي على حدّ سواء، بل لابدّ من إعطاء المولى دون ما يعطى إلى العربي، ولهذا فعليك أن تفرق في العطاء في كل ما ذكرنا. فقال لهم الإمام عليه السلام: **«أتأمروا أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله، ما أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً. لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله تعالى»** [٢].

وهذا كله قد أوجب سخط الطبقة الخاصة عليه بل وحتى الأُدباء والشعراء،

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام عندما انتهت إليه الخلافة: «والله لو وجدتها مهرت بها النساء لرددتها، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق». نهج البلاغة / الكلام: ١٥.

(٢) نهج البلاغة / الكلام: ١٢٦.

كجرير وغيره الذين تعوّدوا أن يأخذوا أموالاً من الطغاة والسلاطين بغير حق، ذلك أنهم كانوا يأخذون أموالاً من المدح الكاذب، مما دفع بجرير هذا وغيره من الشعراء إلى تركه والالتحاق بمعاوية، يقول أحد الشعراء:

أنا لا أُريد الشعر إن جدّت بنا ... نوب يخلّي ما عناه ويقبعُ

أو أن يباع فيُشترى إكليله ... تاج من المدح الكذوب مرصّعُ

فهذا يأخذ أموال غيره ويذهب بها بكلمة أو كلمتين دون أن تكونا بوجه حق، ولو أنها كانت بوجه حق كأن يكون الممدوح يستحق كلام مادحه فإنه يمكن أن يهون الأمر، ويمكن أن يقال حينئذٍ: إنه لا بأس به، أما إذا كان الممدوح غير أهلٍ لهذا فإنه يكون قد اكتسب هذا المال عن طريق الكذب وكلام الزور.

إذن فهؤلاء يكسبون الأموال من غير حلها ويأخذونها ثم ينفقونها في غير حلّ كذلك، في حين أن أمير المؤمنين لم يكن ليعطي المال لجرير وأمثال جرير؛ ولهذا فإنه كان ممن تخلف عن بيعته والتحق بمعاوية كما ذكرنا. وكذلك تخلف عن بيعته حسان بن ثابت حيث إنه لم يحصل على الأموال التي كان يبغي الحصول عليها من أمير المؤمنين؛ فأمير المؤمنين كان يمنح عطاءه كله لمن يحتاجه، لكنه لم يكن بالذي يمد يده لبيت مال المسلمين ويأخذ منه ويعطي الشعراء والمتملّقين [١].

وهكذا نجد أن كثيراً من الشعراء والرؤساء قد التحقوا بمعاوية بعد أن منّاهم

---

(١) قدم على أمير المؤمنين خراج إصفهان، فقال: «أيها الناس، اغدوا فخذوا، فوالله ما أنا لكم بخازن». ثم أمر ببيت المال فكنس ونضح، ثم صلّى فيه ركعتين ثم قال: «يا دنيا، غري غيري»، الغارات ١: ٨٣ ـ ٨٤، وسائل الشيعة ١٥: ١٠٩ ـ ١١٠ / ٢٠٠٨.

وأعطاهم الأموال الجزيلة، وقد بلغ مقدار ما أعطاه لبعضهم مئة ألف دينار أو أكثر.
دخل الأحنف بن قيس، وجارية بن قدامة، والجون بن قتادة، والحباب بن يزيد أبو منازل على معاوية بن أبي سفيان، فأعطى كلّ رجل منهم مئة ألف درهم، وأعطى الحباب سبعين ألف درهم.

فلما خرجوا منه وكانوا في الطريق، سأل بعضهم بعضاً عمّا أعطاه معاوية، فأخبروا بجوائزهم، فرجع الحباب إلى معاوية، فقال له: ما ردّك يا أبا منازل؟ قال: فضحتني في بني تميم، أَما حسبي صحيح؟ أوَلست ذا سن؟ أوَلست مطاعاً في عشيرتي؟ فقال معاوية: بلى أنت كذلك. قال: فما بالك خسست بي دون القوم، فتعطي الأحنف ورأيه رأيه ـ وكان علويّ الرأي والهوى ـ مئة ألف درهم وتعطيني ورأيي رأيي ـ وكان عثمانيّ الرأي والهوى ـ سبعين ألف درهم؟ فقال: يا حباب، إني اشتريت منه دينه بما أعطيته، أمّا أنت فقد وكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفّان، فإني أبقيت لك دينك؛ لأنك عثماني، وأنا أُريد أن أُبقيك على عثمانيّتك. فقال الحباب: يا أمير المؤمنين، فاشترِ مني أيضاً ديني. فأتمّها له مئة ألف درهم، وألحقه بالأحنف ورفيقيه.

ثم لم يأتِ على الحباب بعد ذلك أُسبوع حتى مات، ورُدّ المال بعينه إلى معاوية [1].

فهذا النمط من الناس كان مستعداً لأن يعيش في ظل معاوية ويبيع دينه، ولم يكن ذا استعداد لأن يعيش تحت جناح أمير المؤمنين عليه السلام من غير مال؛ لأنه يرى أنه سوف لن يحصل على ما يحصل عليه من معاوية.

---

(١) انظر: الغارات ٢: ٧٥٤، تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

وهذا في واقع الأمر انتكاسة وهبوط بالإنسان عن طريق الإنسانية؛ لأن معاوية وأمثاله كانوا يرون أن المكانة يمكن أن يأخذها الناس عن طريق شراء الضمائر والذمم وبيع الحقيقة والدين والرسول والكتاب والعترة[1]، مع أن مثل هذه المكانة ليست بمكانة ذات قيمة، وإنما هي منحدر ومستنقع قذر يلجه أولئك من ذوي النفوس الضئيلة الوضيعة؛ لأنهم قد ساموا بها من باع عليهم مكانتهم هذه بدينهم.

وعليه فإن هؤلاء كانوا يرون أن تقديم الإمام عليه السلام للعامة قد أجحف برضا الخاصة.. الخاصة التي دبرت مصرعه. أما العامة فقد أنّوا أنة واحدة حينما صرع عليه السلام ولم تخرج تلك الأنة والآهة من قلوبهم إلى يومنا هذا.

السبب الربع: مجيئه عليه السلام إلى كرسي الخلافة بعد عثمان

فلو أنه عليه السلام جاء إلى الخلافة بعد أبي بكر أو عمر لما حصل كل هذا، ولما وصل به الأمر إلى أن يحارب وأن يقتل. وبيان ذلك أن الأمور بعد الخليفتين الأولين كانت طبيعية إلى حد ما، فقد كانت الأُمور بيد الخليفة نفسه يسيرها كيف يشاء، أما بعد مجيء عثمان إلى الحكم فإنه لم يكن سوى صورة وواجهة للحكام الحقيقيين الفعليين الذين كانوا يديرون الحكم ويديرون دفّته، وهم بنو أُمية، ويمثلهم ـ على رأسهم ـ مروان بن الحكم الذي حكم المسلمين باسم الخليفة عثمان الذي لم يكن أمامه سوى شكل وصورة كما ذكرنا.

---

(١) أعطى معاوية سمرة بن جندب أربعمئة ألف درهم ليروي أن قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ـ البقرة: ٢٠٧ ـ نزل في عبد الرحمن ابن ملجم؛ إذ باع نفسه لله عندما ضرب علي بن أبي طالب عليه السلام. الصراط المستقيم ١: ١٥٢، النصائح الكافية: ٢٥٣.

مؤاخذته عليه السلام على أُسلوب عثمان في الحكم

وعليه فلابدّ هنا من أن نشير إلى جملة من مؤاخذته عليه السلام على أُسلوب عثمان في الحكم، ومنها:

الأولى: تسليمه مقاليد الحكم لمروان

ومروان ورهطه هم الفئة التي طردها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة المنورة ونفاها منها[1]، لكن عثمان أعادهم إليها، فاستغلّوا الظروف التي كان عليها، وحكموا حكماً حقيقيّاً باسمه.

الثانية: إيثاره أقرباءه بمال المسلمين

وهذا الأمر ـ جعْل عثمان مجرّد علامة في الحكم ـ أدى إلى حدوث نوع من التسيب لا حدود له، وعندما جاء الإمام علي عليه السلام إلى الحكم عمل جاهداً على إصلاح ما أفسده هؤلاء، لكنه وجد الأمر في غاية الصعوبة والتعقيد؛ فمثلاً أنه عليه السلام قد وجد أن خمس أفريقيا قد أُعطي إلى مروان بن الحكم؛ ولذا فإن من الصعب على مثل هذا أن تجود نفسه بإرجاع هذه الأموال إلى بيت مال المسلمين بعد أن طوعت له أخذها بغير وجه حق، فهو لم يكن ليرتضي أن يعطي ما يملك من أموال هي في الحقيقة أموال المسلمين إلى بيت المال ثم يرجع فيأخذ عطاءه منه حاله في ذلك حال أدناهم دون أن تكون له ميزة عليهم.

الثالثة: تعطيل حدود الله لاعتبارات شخصية

كما أنه عليه السلام قد وجد أن حدود الله قد عطّلت، فقاتِل الهرمزان ونظائره لم تقم

---

(١) حيث إنه صلى الله عليه وآله وسلم طرد الحكم أبا مروان إلىٰ الطائف. انظر: الإحكام في أُصول الأحكام (ابن حزم) ٢: ٢٠٣، مجمع الزوائد ٨: ٤٣، المعجم الكبير ١٢: ١١٥، شرح نهج البلاغة ١: ٣٣٥، ٣: ٣٠، ٦: ١٤٩.

عليهم الحدود؛ ذلك أن إقامة الحدود تستوجب غضب جهات معينة، وليس هنالك صلابة عند أولئك الذين تسلموا كرسي الحكم بأن يأخذوا بحقّ الله وبحقّ المظلومين من هؤلاء. وهذا ما حدا بأمير المؤمنين﵇ ـ بمجرّد أن جاء ـ إلى أن يصلح الأوضاع المتردية، وكان إصلاحها أعسر من العسير. كما أن الزمن كذلك لم يسعفه، إذ لم يكن لديه وقت كافٍ لإصلاح كل تلك الأخطاء، وكل ذلك الخلل الذي وقع فيه من سبقه.

ثم إنه يؤخذ عامل الزمن بعين الاعتبار، عند محاولة دراسة آثار تلك الظاهرة وعلاجها والقضاء عليها، فقد كانت خلافته أربع سنوات وثمانية أشهر تقريباً، وهي فترة قصير سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار فيها مجموعة الحروب التي استنزفت كلّ هذه الفترة، وهو ما دفع به﵇ لأن يعمد إلى إصلاح كل هذه الأخطاء منذ لحظة وصوله الحكم، أو منذ لحظة اعتلائه كرسي الخلافة.

السبب الخامس: المساواة بين العرب والموالي

ولبيان هذا الأمر نروي هذه الحادثة، حيث إنه﵇ كان في يوم من الأيام جالساً في مسجد الكوفة عند بيت المال، فدخلت عليه امرأتان إحداهما مولاة مملوكة والأُخرىٰ عربيّة حرّة، تسألانه العطاء، فأمر لكل واحدة منهما بكرّ من طعام وأربعين درهماً، فأخذت المولاة العطاء الذي أُعطيت وذهبت، وقالت العربيّة: يا أمير المؤمنين، تعطيني مثل الذي أعطيت هذه، وأنا عربية وهي مولاة؟ فحمل أمير المؤمنين﵇ قبضتين من التراب وقال: **«والله، إني لا أرىٰ فرقاً بين هذه وبين هذه، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1] ...»**. ثم قال﵇ لها:

(١) الحجرات: ١٣.

«إني نظرت في كتاب الله عزّ وجلّ، فلم أرَ فيه فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحاق» [١].

وهذا ليس بالأمر السهل ولا الهيّن عند هؤلاء، بل إنه من الأُمور الحساسة والهامة في المجتمع آنذاك، فليس من السهل أو اليسير أن يجد العربي نفسه وقد وضع على قدم المساواة مع الموالي من غير العرب. فهذا من الأُمور التي أوجبت سخط المجتمع عليه، وأوجبت بذلك نقمة كبيرة منه عليه عليه السلام.

المبحث الثالث: علي عليه السلام يمثّل جوهر الإسلام

هذا كله مع أنه عليه السلام لم يكن يهدف لشيء سوى تجسيد رسالة الإسلام وتجسيد تعاليم السماء الحقّة، وهي المساواة بين المسلمين كافة دون فرق بينهم بالنسب أو اللون أو العرق والدم وما إلى ذلك. وهذا الأمر أدى إلى حدوث هذه الحروب الداخلية التي اشتعل أوارها إبان خلافته؛ لأن من حارب لم يكن يريد سوى تجسيد مفاهيم الجاهلية وقيمها. فحرب الجمل مثلاً إنما وقعت لأن طلحة والزبير لم يحصلا على ما كانا يؤمّلانه من الجاه والسلطة والأموال، فقد كان عليه السلام يمنعهما من الوصول إليها؛ لأنها ليست لهما بل هي حقوق المسلمين؛ وبالتالي فإنهما ليس

---

(١) انظر السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ٣٤٩،كنز العمّال ٦: ٦١٠ ـ ٦١١ / ١٧٠٩٥. وفي الكافي ٨: ٦٩ / ٢٦ أنه عليه السلام خطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة، وإن الناس كلّهم أحرار، ولكن الله خوّل بعضكم بعضاً، فمن كان له بلاء فصبر في الخير فلا يمنّ به على الله عز وجل. ألا وقد حضر شيء ونحن مسوّون فيه بين الأسود والأحمر». فقال مروان لطلحة والزبير: ما أراد بهذا غيركما.
ثم وزّع عليه السلام المال، فأعطى كل واحد ثلاثة دنانير، وأعطى رجلاً من الأنصار ثلاثة دنانير، وجاء بعد غلام أسود فأعطاه ثلاثة دنانير، فقال الأنصاري: يا أمير المؤمنين، هذا غلام أعتقته بالأمس تجعلني وإياه سواء؟ فقال عليه السلام: «إني نظرت في كتاب الله، فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلاً».

لهما الحقّ في الأخذ منها.

ثم وقعت بعدها حرب صفّين والنهروان، وكان ضحية المعركة الأخيرة الخوارج؛ لأنهم قد غرر بهم، فهم لم يكونوا سوى أداة منفذة لقتل علي بن أبي طالب؛ لأن الذي تولى مصرعه وخطط له هم قريش المتمثلة بمعاوية والأشعث بن قيس وعمرو بن العاص. وهنا نجد أن قريشاً قد لعبت الدور الكامل والكبير في اغتيال الإمام عليٍّ، ففي مثل هذه الليلة المشؤومة التي اغتيل فيها الحق والدين. يحدثنا التاريخ أن معاوية كان يلبس درعاً كاملة حينما خرج إلى الصلاة، وكأنه كان يعرف ما سوف يحدث؛ ولذا فإن الضربة التي تلقاها ضربة خفيفة يراد منها إضاعة معالم الاغتيال.

فالعملية لم تكن تعدو تمثيلية كتب السيناريو لها معاوية وعمرو بن العاص، وكان المنفذون لها هم الخوارج كما يذهب إلى ذلك محمود عباس في كتابه (اليمين واليسار في الإسلام). وكذلك الأمر مع عمرو بن العاص حيث إنه لم يخرج تلك الليلة إلى الصلاة، بل إنه تكلف المرض وادعاه ليحمي نفسه من هذه الضربة فقام بتكليف رئيس شرطته للخروج والصلاة مكانه. وكان الأشعث بن قيس ومجموعة من العناصر التي اشتركت في هذه المؤامرة متهيئين وعلى أتم الاستعداد للقيام بما خطّطوا للقيام به ومن أجله، وهو اغتيال أمير المؤمنين.

ومع كل هذا نجد أن أحد المؤرخين عندما يتناول هذه المسألة يحاول أن يضفي عليها بعداً قومياً، كما فعلوا في مسألة قتل الخليفة الثاني حيث إنهم اتهموا أبا لؤلؤة، مع أنه لم يكن سوى أداة منفذة في القتل، وكان المخطّط والمنظّر لعملية اغتياله هو المغيرة بن شعبة وجماعة من الأُمويّين الذين كبر عليهم ما كان يفعله عمر في أيامه الأخيرة من انحيازه إلى بني هاشم، وإظهاره ملامح الاحترام لهم

والميل إلى جانبهم.

وباختصار فإن مواقف عمر في أيامه الأخيرة قد تغيرت إزاء الأُمويّين والبيت الهاشمي، فقد بدأ يميل إلى أبناء هذا البيت، وكانت قد ظهرت على لسانه عبارات كثيرة في مدحهم وفي مدح الإمام علي عليه السلام حيث إنه كان يحاول أن يدنيه إليه، وأن يقربه منه، في الوقت الذي لمس الأُمويّون منه أنه بدأ يبتعد عنهم. وهنا رأوا أن هذا الأمر سوف يتفاقم، وسيخرج من أيديهم ويؤول إلى بني هاشم.

هذا هو السيناريو الحقيقي لمقتل الخليفة عمر، أما ما يذهب إليه البعض من المحلّلين من أن أبا لؤلؤة كان قد كلّم الخليفة عمر بأن يشفع له عند المغيرة؛ لأن الأخير كان يأخذ منه كل أُسبوع مئة درهم ـ باعتباره مولى له ـ كجزية أو كضريبة على عمله، فلم يفعل الخليفة ذلك، ولم يكلّم المغيرة في هذا الأمر؛ مما أدّى إلى حقد أبي لؤلؤة عليه وقتله، فليس بشيء ذي أهمية.

إن هذا في واقع الأمر ليس مبرّراً للقتل، وليس سبباً معقولاً لأن يؤدي إلى أن يقدِم أبو لؤلؤة على هذا الأمر، غير أن هذا التفسير وهذا التحليل انتشر لأن الأُمويّين كانوا وراءه، ولأنهم كانوا يريدون له أن ينتشر بهذه الصورة وبهذه الشاكلة. وهذا ما نجده كثيراً في تاريخنا حيث إننا نجد أن هناك الكثير الكثير من القضايا التي لها باطن وظاهر، بمعنى أنها عملة ذات وجهين، فتقرأ من وجه واحد ولم تقرأ من الوجه الثاني.

إذن فقضية اغتيال الإمام عليٍ عليه السلام ليست كما أرادوا لها أن تكون ـ أي ذات صبغة قومية ـ لكنهم حاولوا صبغها بتلك الصبغة، فادعوا أن أحد هؤلاء الثلاثة الذين تكفّلوا بقتل الثلاثة هو مولى واسمه زادويه، حيث إنهم يذكرون بأن هؤلاء الثلاثة قد اجتمعوا في الحجّ، وخططوا لعملية الاغتيال. لكن من الواضح أن هؤلاء

قد صبروا ما يقارب التسعة أشهر لتنفيذ عمليتهم، مع أنه ليس هنالك من مبرّر لكل هذا التأجيل، وهذه الفترة هي الزمن المحصور بين ذي الحجة حيث اجتمعوا وخطّطوا، وبين رمضان حيث تفرّقوا ونفّذوا.

غير أن الحقيقة هي أنهم اجتمعوا في عمرة في مكة ورتّبوا الأمر هناك، وكان الأشعث بن قيس حاضراً معهم ومتهيّئاً لتوفير كلّ ما يحتاجونه لهم، ووضع نفسه في خدمتهم ومساعدتهم في تحقيق أمر اغتيال أمير المؤمنين الذي عزموا عليه. والذي يدعم هذا الطرح أبيات مشهورة لأبي الأسود الدؤلي الذي كان يعيش في قلب الحادثة، حيث يقول:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فلا قرت عيون الشامتينا

أفي الشهر الحرام فجعتمونا ... بخير الناس طرا أجمعينا

ومن بعد النبي فخير نفس ... أبو حسن وخير الصالحينا

كأن الناس إذ فقدوا علياً ... نعام جالَ في بلدٍ سنينا

وكنا قبل مهلكه بخير ... نرى فينا وصيّ المسلمينا

فلا والله لا أنسى علياً ... وحسْن صلاته في الراكعينا

لقد علمت قريش حيث كانت ... بأنك خيرهم حسباً ودينا

فلا تشمت معاوية بن حرب ... فإن بقيّة الخلفاء فينا[1]

يروي المؤرخون أن عمرو بن العاص لما بلغه نعي أمير المؤمنين دخل على معاوية فأخبره الخبر وقال له: إن الأسد الذي كان يفترش ذراعيه في العراق قد قضى نحبه. فقال:

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ١١٦، المعجم الكبير ١: ١٠٣، أنساب الأشراف: ٥٠٨، الكامل في التاريخ ٣: ٣٩٥.

قــل للأرانب تــرعى أيــنما ســرحت   وللــضباع بــلا خــوف ولا وجــلِ [(١)]

إذن، فيد الأُمويّين ومآربهم كانت واضحة في عملية اغتيال أمير المـؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي بمصرعه صرع الحق وصـرع الديـن، يـقول أحـد الشعراء:

وليــتها إذ فــدت عــمراً بــخارجــةٍ   فدت علياً بـمن شـاءت مـن البشـرِ [(٢)]

فهذه الضربة لم تكن على هامة علي عليه السلام، بل إنها قد وقعت على هامة الإسلام، فصرع بمصرعه عليه السلام العدل والاستقامة والدين والحق؛ لأنه عليه السلام كان بحق راهباً من رهبان الليل.. كان إذا جن عليه ليله رمقَ السماء بنظره يناجي ربه ويصلي، ويتلو آيات كتابه، حتى جاءت تلك الليلة المشؤومة التي أقصي فيها الإسلام عن الحياة بإقصائه عنها. وبعد أن سرى السم في جسده الشريف جاؤوه بأثير بن عمر، وهو كبير الأطباء في ذلك الوقت، الذي أمر بأن يحضروا إليه شاة ويذبحوها ويخرجوا له رئتها، فاستخرج منها عرقاً وأنزله في دماغ أمير المؤمنين عليه السلام، فلمّا أخـرجـه التفت إليه وقال: سيدي أوصِ وصيتك، واعهد عهدك؛ فإن ضربة عـدو الله قـد وصلت إلى أُمّ رأسك.

يقول الأصبغ: لمّا دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام ووقع بصري عليه رأيت رأسه وقد عُصب بعصابة صفراء فوالله ما أدري أوجهه أشدّ اصفراراً أم العصابة، فبكيت، وكان رأسه على صدر ابنه الإمام الحسن عليه السلام، فتفصّد وجهه عـرقاً، فـمدّ الإمـام الحسن عليه السلام يده إلىٰ جيبه واستخرج منديلاً وراح يمسح به العرق عن وجه أبـيه، وهو يقول: **«أبة، أراك وقد تكلّل جبينك عرقاً؟»**. قال: **«بني إن المؤمن إذا نزل به**

---

(١) ناسخ التواريخ (القسم المختصّ بحياة أمير المؤمنين عليه السلام): ٦٩٢.

(٢) كشف الغمة ٢: ٦٦، سبل السلام (العسقلاني) ٢: ١١.

الموت عطف عِرنينُه، وسكن حنينُه، وعرق جبينه»[١].

يقول المؤرّخون: كان عليه السلام بين الآونة والأخرى يرمق السماء بطرفه ويـقول: **«رفقاً بي ملائكة ربّي، لمثلها فليعمل العاملون»**[٢].

فلما سمعه عياله علت أصواتهم بالندب والبكاء:

اللـيله مسـه المحراب خـالي … يـعماد خـيمتنا يـغالي

مـا چـنت اظـن لنّ اللـيالي … بـيك اتْـغَدر وتـخيّب آمـالي

* * *

هـذي المحاريبُ أيـنَ القـائمون بـها … واللـيلُ مُـرخٍ مـن الظـلماء أسـتارا

---

(١) قطعة منسوب ذيلها ـ من قوله: عطف ـ لأمير المؤمنين عليه السلام من خطبته خالية من الألف، انظر: شرح نهج البلاغة ١٩: ١٤١، كنز العمّال ١٦: ٢١١ / ٤٤٢٣٤، وعليه فليس فيها: إن المؤمن إذا نزل به الموت.

(٢) وفيات الأيمّة: ٥٨.

﴿١٩٧﴾

الخوف والرجاء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

تتناول هذه الآية الكريمة مجموعة من الأُمور الهامة سوف نحاول ـ إن شاء الله تعالى ـ استعراض ما يتيسر منها كلاً بمبحث مستقلّ.

المبحث الأول: العلائق وأسباب التفاعل في المجتمع

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، وفي آية أُخرى نجده تعالى يقول: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾[٢].

ومن خلال التدقيق في هاتين الآيتين الكريمتين وغيرهما من الآيات الشريفة نجد أن القرآن الكريم يحاول أن يوضّح لنا منظومة العلاقات وأسبابها التي يؤدي تحقّقها إلى حصول حالة من التفاعل بين الناس. وهي علاقات وأسباب قد وضعها الله جل وعلا على أحسن إتقان، وعلى أرفع صورة؛ فقد أصلح الأرض؛

---

(١) الأعراف: ٥٦. (٢) السجدة: ٧.

وأصلح مَن على الأرض سواء كان هذا الإصلاح للمستوى التدويني أو المستوى التكويني.

إن الله جلّ وعلا قد أنزل لهم شريعة عامة شاملة لجميع مستويات حياتهم.. شريعة تستوعب كل مستلزمات الحياة؛ قديمها وحديثها، وتستوعب قوانينها ومشاكلها واحتياجاتها كافة، ثم هيأ لهم الظروف لأن تكون مسيرة هذه الحياة على ضوء شريعته المقدسة؛ كي تصبح حياة هادئة هانئة، شريطة أن يلتزموا بما جاءت به الشريعة المقدسة من قوانين وأحكام وموادّ تقنّن الحياة وتسيّرها وفق الإرادة الإلهية، والمشيئة الربانية.

الإصلاح؛ ماهيّته ووسائل تحقّقه

ونحن إذ نلاحظ أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾؛ فإن لنا أن نتساءل عن الإفساد؛ ماهيته، وكيفية حصوله؛ إن الإجابة عن هذين التساؤلين وغيرهما من الأسئلة مما يدور في فلك هذا المضمار يمكن أن تتصور على عدة أنحاء، منها:

النحو الأول: إصلاح الدنيا بالبشر

فالله جل وعلا قد أصلح الدنيا بالإنسان الذي يعد زينة الدنيا وزينة الحياة، وهو ثروة ضخمة يمكن لنا أن نسميها سر الوجود ذلك أن الله جل وعلا لم يخلق مخلوقاً في هذه الدنيا يفضل على الإنسان؛ فقد سخر جميع ما في السماوات والأرض لخدمته [1]. فالإنسان إذن هو الأساس الذي وضع الوجود من أجله وتحت تصرفه.. الإنسان الذي أصلح الله به الأرض وجعل له عقلاً يحمله

(١) قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ البقرة: ٢٩.

ليستثمره في جميع ما يمكن أن يلجه من ميادين الحياة؛ فيستثمر به الأرض، ويستثمر به السماء، ويستثمر به كل الكائنات الموجودة مما أودع الله جل وعلا في خدمته في هذا الوجود.

وبناءً على هذا فقد وضع الله جل وعلا للإنسان قوانين تنظم علائقه بغيره وبالحياة الدنيا؛ كي تصبح حياته حياة متينة هانئة جيدة. وكما أنه تعالى خلق له أسباب السعادة، خلق له أسباب إدامتها؛ فقد أفاض عليه الحياة والوجود، وأمره بأن يحترم إنسانيّة أخيه الإنسان، وأن يتعامل معه على أساس من المحبّة وروح الأُخوّة، فاعتبر الإنسان أخا الإنسان بغضّ النظر عن كلّ ما يفصلهما من عناوين كالبيئة وما إلى ذلك.

فالاختلاف في السكن وفي نمط العيش وفي الدم والعرق لا يعدّ سبباً موجباً لأن يبتعد أحدنا عن الآخر، فليس هناك من فرق في الإنسانية بين الإنسان الذي يعيش في أميركا وأوروپّا، أو في أفريقيا، أو في آسيا؛ لأن هذه الفروقات هي فروقات خارجية، وليست لها علاقة بذات الإنسان. كما أنها فوارق مكانيّة لا ترقى لأن تصبح سبباً للتفريق بين الإخوة أو اختلاف بعضهم مع بعض. فالمفروض أن الرابط الإنساني موجود بين الجميع وإن اختلفت ألوانهم وأبدانهم وألسنتهم وأماكنهم، فكلّ هذا لا يعتبر فارقاً.

فكل هذه الأُمور العرضية مضافاً إليها البسطة في الجسم أو المال لا يمكن أن يعد فارقاً بين الإنسان وأخيه الإنسان؛ لأن هذه الأُمور العرضية ليس للإنسان دخل في إيجادها، فإذا كان أحدهم يملك أموالاً طائلة في ظروف معينة جعلته يتمكن من امتلاك تلك الأموال وآخر لم تتسنَّ له تلك الظروف كي يحوز تلك الأموال الطائلة، فإن على الأول ألّا يزدري الثاني، أو يحتقره، أو ينتقص منه، أو

يتكبّر عليه، بل إن الواجب أن يتعامل مع هذا ومع غيره بأخلاق إسلامية عالية، وبذوق إنساني رفيع.

وهذا الأمر ينسحب حتى على ميزان العلم فصحيح أن العالم له كرامة وله احترامه الخاصّ، لكن هذا لا يعني أن الرابطة الإنسانية بين العالم والجاهل يجب أن تعدم، أو أن يزدري هذا العالم ذلك الجاهل؛ لأن الملاك الأساس موجود عندهما كليهما وهو الإنسانية.. وأنهما مخلوقان من طين. وعليه فيجب ألّا يزدري أحد شخصاً غيره مهما كانت بينهما من فوارق سواء كانت هذه الفوارق وضعية أو غير وضعية.

وبالنتيجة فإن الإسلام والقرآن يريدان أن يؤكّدا أن الإنسان أخو الإنسان، وأنه لا فرق بين أفراده مهما اختلفت موجبات التفريق؛ سواء كانت فوارق عن طريق القيم أو الاعتبارات الاجتماعية أو الاقتصادية والسياسية وما إلى ذلك. بل إنهما يؤكدان أن هذه الفوارق بهذه الاعتبارات ما جاءت لتسبب الفساد في المجتمع وتُحطّم العلاقات في ما بين أفراده.

هذا هو المنظور القرآني والإسلامي للمسألة، أما على مستوى التطبيق البشري للمسألة، فقد جاء الإنسان ليقتل أخاه الإنسان، وليعتدي بعضهم على بعض، ويسفك بعضهم دماء بعض، مع أن الله جل وعلا هو الذي خلق الإنسان وهو وحده الذي يملك الحق بأن يسلبه روحه، دون أن يكون ذلك الحق لأي من المخلوقات إلّا إذا كان في سلب تلك الروح وجه حق، كأن تكون بأمر من الله جل وعلا كما في مسائل الحدود والدفاع عن النفس وما إلى ذلك.

جريمة القتل في الإسلام

وبهذا اللحاظ فإننا نجد أن الدين الإسلامي لا يعطي لأي إنسان الحرية في

مسألة سفك الدم مهما كان ذلك الإنسان، فحتى النبي ﷺ ـ وهو ممثل السماء، والقمة والقدوة بين الناس ـ لا يملك صلاحية أن يسفك دم أحد خارج نطاق الشريعة، فالشريعة ـ كما ذكرنا قبل قليل من أمر الحدود والدفاع عن النفس ـ هي التي تحدد له الموارد التي أباح الله له فيها أن يسفك الدم، قال تعالى: **﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسَاً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾**[1]؛ ذلك أن سفك الدم في واقع الأمر يعتبر من أبشع الجرائم التي يمكن أن نتصورها. فالإنسان كيان ضخم هائل، جعله الله جلّ وعلا في هذه الدنيا أو على هذه الأرض ليعمرها ويستثمرها، لا أن يأتي إنسان مثله، فيزهق روحه، أو يسفك دمه؛ فإنه حينئذٍ يعدّ مرتكباً لأبشع الجرائم؛ لأن المرتكب لهذا الجرم يعدّ صاحب حماقة وضلالة؛ فالإنسان مكرم عند الله جل وعلا بأشدّ أنواع التكريم[2].

وقد ورد في الحديث الشريف: **«لأن تزول السماوات والأرض أهون على الله من قطرة دم حرام تسفك»**.

ولذا فإن الشريعة المقدسة تفترض للإنسان قيمة غير محدودة، لكن الناس يفسدون في الأرض ويبغون الخراب والدمار لها بعد كل ما هيأه الله لهم من وسائل الإعمار والبناء. فالله عز وجل قد أمر بإصلاح الأرض وإصلاح الإنسان الذي جعله زينة للحياة وزينة على الأرض، أما نحن فنأتي لنفسد هذه الأرض ولنخرب هذه الزينة، فنسفك الدم، ونبغي على بعض، ونسلب حق الآخرين، وما إلى ذلك من أفعال تتعارض أساساً مع الهدف والمصلحة اللذين من أجلهما خلقت

---

(١) المائدة: ٣٢.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الإسراء: ٧٠.

السماوات والأرض، ثم خلق الإنسان.

إن سفك الدم يعد بحق إفساداً للأرض وفيها؛ لأنه يستلزم أو يؤدي إلى إفساد العلاقات الاجتماعية التي أمر الله جل وعلا بأن تكون على أحسن حال وان تكون في موضع القمة بين البشر. ومما يروى في هذا المجال أن عبد الله المجذر بن زياد قد قتل الحارث بن سويد غيلة، ذلك أن المجذر بن زياد كان قد قتل سويد بن الصامت (أبا الحارث) في الجاهلية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلم الحارث بن سويد بن الصامت والمجذر بن زياد، فشهدا بدراً، فجعل الحارث يطلب مجذّراً ليقتله بأبيه، فلم يقدر عليه يومئذٍ.

فلما كان يوم أُحد وحلّ بالمسلمين ما حلّ، ذلك أن رسول الله ﷺ نزل الشعب من أُحد في سبعمئة رجل، وأمّر عبد الله بن جبير ـ أحد بني عمرو بن عوف ـ على الرماة، وكان عددهم خمسين رجلاً، فقال ﷺ: «**أقيموا بأصل الجبل، وانضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، وإن كانت لنا أو علينا فلا تبرحوا مكانكم؛ فإنا لن نزال غالبين ما ثبتّم مكانكم**».

فجاءت قريش وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل، فحمل النبي ﷺ وأصحابه على المشركين فهزموهم، وقتل أمير المؤمنين عليه السلام طلحة بن أبي طلحة، وهو يحمل لواء المشركين، وأنزل الله نصره على المؤمنين، فلمّا رأى الرماة ما حلّ بالمشركين تركوا أماكنهم مخالفين أمر رسول الله ﷺ وأمر قائدهم عبد الله بن جبير، فانهزم المسلمون [1].

على أية حال أتى الحارث عبد الله المجذر بن زياد من خلفه فضرب عنقه،

---

(١) عين العبرة: ٥٧ ـ ٥٨، تاريخ ابن خلدون ج ٢ ق٢: ٢٤ ـ ٢٥، إمتاع الأسماع ٩: ٢٢٨، السيرة النبويّة (ابن كثير) ٢: ٢٠٩.

ورجع وكأنه لم يفعل شيئاً، فلمّا رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وخرج بعدها إلى حمراء الأسد، ثم رجع أتاه جبرئيل عليه السلام، فأخبره بما فعل الحارث بن سويد من قتله المجذر بن زياد غيلة، وأمره بقتله.

فركب رسول الله ﷺ إلى قباء، وكان من أمره أن يخرج إليه في أوقات معلومة، لكنه خرج هذه المرّة على غير عادته، فتعجّب المسلمون، فدعا عويم بن ساعدة وقال له: «**قدّم الحارث بن سويد إلى باب المسجد فاضرب عنقه بالمجذر بن زياد؛ فإنه قتله يوم أُحد غيلة**».

فأخذه عويم، فقال الحارث: دعني أُكلّم رسول الله ﷺ، فأبى عليه عويم، ونهض رسول الله ﷺ يريد أن يركب، فجعل الحارث يقول: قد والله قتلته يا رسول الله، وما كان قتلي إيّاه رجوعاً عن الإسلام، ولا ارتياباً فيه، ولكنها حمية الشيطان، وأمْر وُكلت فيه إلى نفسي، وإني أتوب إلى الله عزّ وجلّ وإلى رسول الله ﷺ، وأُخرج ديته، وأصوم شهرين متتابعين، وأُعتق رقبة، وأُطعم ستّين مسكيناً. وجعل يمسك بركاب رسول الله ﷺ وبنو المجذّر حضور لا يقول لهم رسول الله ﷺ شيئاً، حتى إذا استوعب الحارث كلامه وأتمّه، قال ﷺ لعويم: «**قدمه يا عويم فاضرب عنقه**». فقدّمه وضرب عنقه [١].

وهكذا فإن البعض بعد أن رفعوا شعار (يا منصور أمت) [٢] يعاود أحدهم إلى فعل الجاهليّة، بل هذا في نفسه جاهلية رعناء. والمصيبة أن العصبية والجاهلية أمران لا يجتمعان مع الإسلام إطلاقاً؛ فالإسلام دين أُممي، ولهذا فإن الآية الكريمة تقول: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**﴾.

---

(١) السنن الكبرى (البيهقي) ٨: ٥٧، تصحيفات المحدّثين ٢: ٦٩٩ ـ ٧٠٠.

(٢) الكافي ٥: ٤٧ / ٢، الاستيعاب ٢: ٦٥٦ / ١٠٦٧.

الدوافع الذاتيّة للزواج

إذن فالله جل وعلا قد أصلح الأرض بالإنسان وأصلح الإنسان بالعقود، وهو تعالى حينما خلق الإنسان ذكراً وأُنثى، وجعل هناك تجاذباً بين الجنسين أراد من ذلك إدامة المجتمع ومدّه وإمداده بالأجيال كي يستمر ويعيش ولا ينقرض لكن لا على وجه المشاع، فالله تعالى أراد لهذه الأجيال أن تكون أجيالاً نظيفة، وهي لا تكون كذلك إلّا إذا كانت آتية عن طريقها المشروع وهو الزواج المتمثّل بالعلاقة المبتنية على عقد صحيح شرعاً بين الرجل والمرأة.

فبهذه العملية الطبيعية (الزواج) تتم الولادة الشرعية النظيفة التي تبني مجتمعاً نظيفاً سليماً صالحاً، باعتبار أن ما يتولد من الرجل والمرأة يعد النواة الأساس والأُولى لبناء المجتمع، وما لم تكن هذه النواة مترتبة على عقد شرعي صحيح فإن طهارة المجتمع حينئذٍ سوف تخدش ولن تكون ولن تتم. فالطفولة هي التي تمد المجتمع بما يحتاجه من أجيال، وإذا أردنا للمجتمع أن يكون صالحاً فلابد من إصلاح الطفولة والبذرة التي أُنشئت منها، وبخلاف هذه فإن المجتمع سوف يكون مجتمعاً غير صحيح وغير سليم، بل مجتمعاً فاسداً لا يستطيع أن يوجد الهدف الذي من أجله أوجد الله سبحانه وتعالى الإنسان على الأرض.

الثاني: الغريزة الاجتماعية

ثم إن الإنسان بطبيعة حاله يحتاج إلى حياة أُسرية، أي أن الإنسان بما أنه كائن اجتماعي فإنه لا يتمكن من أن يعيش وحيداً بل لابدّ من أن يكوّن بدافع فطرته أُسرة له. وهذه الأُسرة لابدّ أن تكون أُسرة كريمة، والأُسرة الكريمة لا تأتي إلّا عن طريق الزواج الديني؛ ذلك أن الزوجة سوف تعرف حينئذٍ أنها مرتبطة بالزوج، كما

أن الزوج سوف يعرف حينئذٍ أنه مرتبط بالزوجة، وكلاهما يكمل الآخر، فينجبان الأولاد الذين سوف يكونون عناصر أساس سليمة في بناء المجتمع.

الثالث: فرض الشعور بالمسؤولية

ومن ناحية أُخرى فإن وجود الأُسرة أمر ضروري في حياة الإنسان؛ لأن الرجل لا يشعر بأنه مرتبط بمسؤولية تجاه المرأة، والمرأة لا تشعر بأنها مرتبطة بمسؤولية تجاه الرجل كذلك؛ فيما لو احتاج أحدهما الآخر في مرض أو فقر أو فاقة أو أي حاجة أُخرى إلّا إذا تحقّق رباط الزوجية. فالزوجة تسهر مع زوجها حينما يمرض، والزوج يفعل الشيء عينه حينما تمرض زوجته، أو حينما يقع أحدهما في مشكلة.

فهذه الأُمور (التلاحم والتعاون والتكامل) المأخوذة في بناء الحياة لا يمكن أن تكون أو تُحقّق إلّا إذا كان هناك زواج، وكان هذا الزواج شرعيّاً تقرّه الأديان السماوية، ويقرّه العقل والعرف الناضج. وبهذا الشكل فإننا نجد أن هناك ضمانة لحقوق الأزواج، وصيانة لنظام الأُسرة في التخطيط الإلهي لبناء المجتمع. وهذه هي العلاقة الشرعية الطبيعية التي يجب أن تكون، والتي يجب أن تربط بين الزوجين: الذكر والأُنثى.

أنماط الزواج

وهذا الأمر لا يختلف باختلاف أنماط الزواج ما دامت هذه الأنماط مشروعة وداخلة ضمن الدائرة الشرعية للأديان السماوية، كأن تكون هنالك زوجة لزوج، أو هنالك عدة زوجات لزوج واحد. وهذا بطبيعة الحال لا يشمل ما هو شائع عند بعض الشعوب كبعض شعوب أُستراليا والهند وإفريقيا، وهو أن هنالك زوجة

واحدة لعدّة أزواج، فمثل هذا خارج نطاق الإنسانية قبل أن يكون خارجاً عن نطاق الشرائع الإلهية.

تعدد الزوجات في الإسلام

ثم إن تعدد الزوجات لزوج واحد يجب ألّا يتعدى العدد الشرعي للزوجات، فالعدد الشرعي كما هو معلوم في الكتاب والسنة يجب ألّا يزيد على أربع. وقد واجه بعض المسلمين مثل هذه المشكلة بعد نزول هذا التشريع؛ ذلك أن بعضهم كان في الجاهلية متزوجاً من أكثر من أربع زوجات، حتى إن بعضهم وصل به الأمر إلى أنه كان متزوجاً من اثنتي عشرة امرأة، وهنا ـ بعد نزول تشريع تقييد الزوجات بالأربع ـ خيّرهم النبي الأكرم ﷺ في أن يختاروا منهنَّ أربعاً، وأن يطلقوا الباقيات.

ثم إن هناك نمطاً آخر هو النمط المشاع من الزواج، وهذا النمط والنمط الذي ذكرنا ـ من أنه هنالك زوجة لأكثر من زوج ـ نمطان تمجّهما الطبيعة البشرية، كما أنهما لا يحققان السعادة ولا الاستقرار للأُسرة والمجتمع. وهذا بخلاف النمطين الأول والثاني، وهما أن تكون هناك زوجة واحدة لزوج واحد أو أن تكون هنالك أربع زوجات فما قل عنهن لزوج واحد أيضاً؛ لأن هذا يؤدي إلى حفظ الماء والأنساب وعدم اختلاطها، وبالتالي عدم وقوع المحذور كما هو معلوم.

إننا نعرف أن هناك بلداناً قد اجتاحتها الحروب، وهذا يعني أن عدد الرجال فيها قد تناقص، وبالتالي حصول ارتفاع في نسبة عدد الإناث إلى عدد الذكور. وهذا يعني أنه ما لم يكن هناك تشريع بتعدّد الزوجات ضمن الإطار الشرعي فإن الكثير من النساء سوف يبقين بدون زواج.

إذن فتعدّد الزوجات ضمن الشريعة هو تشريع اجتماعي يُهدف من ورائه إلى

إيجاد التوازن البشري بين النساء والرجال في حالات الزواج؛ لأن جنس الرجال ـ كما أسلفنا ـ قد يتعرض للإبادة بالحروب أو الأمراض وما إلى ذلك. وهذا ما نجده موجوداً فعلاً في الكثير من البلدان حيث إننا نجد أن عدد النساء يربو على عدد الرجال بأربع مرات أو أكثر.

فما لم يكن هنالك تشريع بتعدّد الزوجات فإننا حينئذٍ سوف نجني على هؤلاء النساء، وندفع بهنَّ إلى حافة الجريمة، وإلى هاوية الضياع ومستنقع الرذيلة.. ندفع بهنَّ إلى أن يفقدن كرامتهن.. هذه الكرامة التي لا يمكن لأحد أن يحافظ عليها إلّا إذا استثمرها ضمن نطاق التشريع الإلهي، وهو اللجوء إلى ضرورة تعدّد الزوجات؛ لأن الظرف الحالي أو الضرورة المعاشة تملي على المجتمع اللجوء إلى تطبيق هذا التشريع. وهذا ليس فيه شيء معيب؛ لأنه يبقى ضمن نطاق البناء السليم للأُسرة.

فالإسلام إذن قد وضع هذه الرخصة لظروف ثانوية نحن لا نقدرها، والإنسان يستغل عادة الرخص إلى أبعد مداها دون أن يعرف أسرارها، والله تعالى قد أصلح الدنيا بأن أوجد فيها عقوداً شرعية، أي أن الرجل يعقد على المرأة وهذا العقد لا يقصد منه اللفظ فقط، بل يجب أن يكون هناك قصد وراءه حتى يصبح هذا العقد سبباً موجباً لتحقّق الهدف الذي من أجله وضعت السماء هذا التشريع. فالأمر إذن لايمكن أن يقتصر على كلمة «نعم»؛ لأن حالات الزنا ـ والعياذ بالله ـ بشكل عام لايكون فيها إجبار من الرجل للمرأة، بل إن المرأة غالباً تكون في حالة موافَقة وغير مكرهة على ممارسة هذه الرذيلة.

لكن هل يمكن أن يقال: إن كلمة «نعم» من المرأة هنا تعدّ منجزة، وتعدّ مصححة لهذه العملية الجنسية التي تربط بين الرجل والمرأة؟ والجواب بطبيعة

الحال هو النفي؛ لأن هذه الكلمة ما دامت خارج نطاق القواعد الشرعية فإنها ليست ذات أثر ولا ذات قيمة حينئذٍ.

إذن فالعقد لابدّ أن يُجرى بصيغته، ولابد أن يكون القصد فيه إليه موجوداً. ووظيفة هذا العقد هو دعم الالتزام؛ لأنه معرب عن الالتزام الذي يلتزمه الرجل تجاه المرأة، والذي تلتزمه المرأة تجاه الرجل كذلك، وبهذا يصبح كل من الرجل والمرأة مسؤولاً أمام الله وأمام الناس عن شريك حياته، وعن ثمرات هذا الزواج التي سوف تلج الدنيا كنتيجة طبيعية له؛ ولذا فإن الطفل الذي يولد من غير عقد شرعي يسميه المجتمع ابن زنا.

وهذا الطفل عندما يفتح عينيه ويرى أن الأطفال الآخرين يتمتعون بما وهبته إياهم الشريعة من آباء شرعيين ـ وهو الشكل والنمط الطبيعيّان للحياة ـ ويرى أنه يفتقد هذه الخاصية ويفتقد هذه النعمة، وأن هؤلاء عندهم آباء يشبعونهم حناناً ورحمة ومودة وأنه يفتقد كل هذه الصفات الدّالة على العطف والشفقة، فإنه سوف ينظر إلى المجتمع بنظرة حقد قد لا تضاهيها نظرة؛ لأنه إضافة إلى أنه يرى نفسه أو يرى شخصه مفتقداً لتلك العواطف وذلك الحنان والإشفاق، فإنه يرى المجتمع يشير إليه قادحاً فيه على أنه ابن زنا.

وبهذا فإنه يمتلئ حقداً على المجتمع بشكل مروع، وإذا لاحت له فرصة فإنه لا يتردّد ولا يتوانى عن إلحاق الضرر بالمجتمع كله؛ لأنه يرى أن هذا المجتمع قد اعتدى عليه في شخص أبيه. وهذا يعني أن النموذج السليم والصحيح الممثل للمجتمع في نظره هو الأبوان، فهما الوسيلة الأُولى التي يتفاعل مع المجتمع عن طريقهما. فإذا حوّله الأبوان إلى كائن غير مرغوب فيه، وإذا نبذاه دون أن يهتمّا به أو يرعياه فإنه بالنتيجة سوف لن يتعامل مع المجتمع عن طريقهما كما أسلفنا،

لأنهما قد حولاه إلى لقيط يشتمه المجتمع، ويشير إليه على أنه عنصر مَرَضي وغير طبيعي داخل جسد المجتمع، وبهذا فإنه حتماً سوف يحقد على هذا المجتمع حقداً أسود.

ولهذا كله فإننا نقول: إن الله جل وعلا قد أصلح الأنساب بالعقود، فالطفل يعرف أن له أباً يلتزم بتربيته، ويعرف أن عنده أُمّاً تقوم على شؤونه ورعايته وتغذيته وما إلى ذلك. فإذا كان ابن زنا فإنه يفقد الأب الذي يلتزم بتربيته، ويفقد الأُم التي تعنى بشؤونه وتغذيته، وهذا ينشأ عنه بالنتيجة تفسّخ الروابط داخل المجتمع.

الآثار الاجتماعيّة للزواج

وخلاصة القول: إنه إذا لم يكن هنالك عقد شرعي فإن الأُسرة حتماً سوف تؤول إلى الانهدام؛ وبهذا فإن الزواج يمكن أن يحقّق الأُمور التالية:

الأول: الرغبة في الإنجاب

ثم إن المرأة سوف لن تكون مستعدّة لأن تنجب أطفالاً وتترهّل وتفقد جمالها ورشاقتها وأناقتها حينئذٍ لولا العقد الشرعي الذي يربطها بالزوج؛ لأن الطفل سوف يذهب بذلك كلّه منها، وما لم يكن هنالك رباط يربطها مع أبي هذا الطفل فإنها سوف لن تخاطر بجمالها من أجل طفل مترتب على علاقة غير مستقرة أو متزلزلة.

الثاني: الالتزام الأخلاقي

ومن ناحية أُخرى فإن الزوج طالما كان قوياً وعنده طاقة وقوة فإن المرأة من الممكن أن تقبل به، والحال معه هو كذلك، فهو من الممكن أن يقبل بالمرأة طالما

كانت نشطة جميلة فتية وتتمتع بصفات الأُنوثة، لكن حينما يكبر الرجل أو تكبر المرأة فإن أحدهما سوف يترك الآخر؛ لأن الرجل يفقد رغبته بالمرأة إذا فقدت جمالها وأناقتها، والمرأة لا تريد الرجل إذا فقد رجولته وقوته ونشاطه. إذن فما لم تكن هنالك روابط قوية تربطهما مع بعض ـ وهي روابط الأُسرة الشرعية والعقد والزواج الشرعيين ـ فإنهما حينئذٍ سوف يتخلى بعضهما عن بعض، وسوف يعيشان الوحدة القاتلة. بل إنهما ربما يرمى بهما في بعض الحالات إلى دور العجزة، حيث يقضيان ما تبقّى من أعمارهما بين جدران أربعة.

فالأُسرة إذن تنقذ الرجل والمرأة من كل هذا المصير الأسود، ومن كل هذه النهاية المؤلمة، حيث يبقى الرجل قرب زوجته وتبقى الزوجة قرب زوجها وإن ولّى بهما أو بأحدهما الزمن؛ لأنهما يشعران بأن هناك رباطاً وثيقاً شرعياً مقدساً يربط بينهما دون أن يكون هو مستعداً لأن يتخلّى عنها، أو تكون هي مستعدة لأن تتخلى عنه، أو أن يستبدل بعضهما بعضاً بأشخاص أُخر أكثر حيوية وفتوّة وجمالاً ونشاطاً.

إن العمل بخلاف هذا الفعل يعني تهدم الأُسرة على أهلها، أما الأُنموذج الإلهي الذي شرعه للأُسرة فإنه أُنموذج اجتماعي سليم يحافظ على تراصّ الأُسرة وتماسك أبنائها؛ وبالنتيجة تراصّ وتماسك المجتمع نفسه. فبانهدام الأُسرة ينهدم المجتمع، وبسلامتها وتماسكها يتماسك المجتمع ويبقى قويّاً قائماً متيناً تربطه علاقات جيدة دون أن يكون هناك ما يفسد هذه العلاقات بين أفراده.

لا معاطاة في الأنكحة

إذن فالإسلام إنما أكد على العقد ليس لأنه مجرد كلمة تقولها الزوجة ويقبل بها الرجل، بل لأنه وسيلة التزام، ووسيلة ضمان وتضامن بين الزوجين وبين أفراد

الأُسرة ككل فيما لو أثمر ذلك الزواج. وهنا أود أن أُلفت النظر إلى أن الفقهاء يقولون: بأن كل العقود يجوز أن تتمّ عن طريق المعاطاة ـ وهي الاتفاق بين الطرف الأول والطرف الثاني ـ حتى دون إجراء صيغة العقد إلّا في الزواج؛ فإنه لا معاطاة فيه، بل إنه لابدّ من إجراء الصيغة الشرعية للعقد حتى يصبح الزواج شرعياً ومعترفاً به من السماء ومن المجتمع.

وعليه فالمعاطاة تجوز في كلّ شيء عدا الزواج، فلو أن شخصاً أتى إلى بَزّاز وأعطاه مبلغاً من المال وأخذ منه بضعة أمتار من القماش فإن هذه المعاملة تعتبر صحيحة بناء على القول بالمعاطاة. وهي في الصحة كما لو أن البزاز قال له: بعتك هذه الأمتار الكذائية من القماش بمبلغ كذا من المال، وقال له المشتري: قبلت، أو اشتريت. فالعقود المعاملاتيّة في مجتمعاتنا الحالية أصبحت غير واجبة بحكم الطبيعة الاجتماعية والتعامل مع اللغة.

وكذلك من يشتري طعاماً من بعض الأسواق التي تستعمل آلية الدفع فإنه يطرح المبلغ الذي يناسب البضاعة التي سوف يأخذها، ثم يأخذ البضاعة دون أن يكون هناك قبض وإقباض بين صاحب البضاعة وبينه كما هو معمول به في بعض الدول. فهذه المعاملة تعتبر معاملة صحيحة وفق القول بالمعاطاة.

وبهذا فإن كل العقود يجوّز فيها الفقهاء أن تكون بالمعاطاة، أما مسألة الزواج فلا تصحّ بالمعاطاة أبداً، بل لابدّ فيها من العقد الشرعي الذي يشتمل على الإيجاب والقبول من الرجل والمرأة أو من وكيليهما؛ ذلك أن ثمرات الزواج ثمرات ضخمة فهي نوىً تمدّ المجتمع بأجيال بناءة وليست ثمرة مبايعة بضعة أمتار من القماش أو بضعة مكاييل من الطعام. فالزواج ينتج عنه طفولة تمد المجتمع والأجيال بالأفراد الذين سوف يسدّون مسدّ آبائهم بعد رحيلهم عن

الدنيا. وما دام الأمر كذلك فإن هذه الثمرة الضخمة تحتاج إلى سبب واضح وضخم، ومجوّز شرعي ثابت حتى تصبح بهذه المنزلة.

وهذا الأمر بطبيعة الحال لا يكون إلّا عن طريق الزواج، فالعلاقة الزوجية ليست مجرد علاقة حيوانية: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[1].

وبهذا يتّضح أنها مسألة معقدة بحاجة إلى توجيه خاصّ وإلى تشريع خاصّ مستقلّ عن بقية التشريعات الأُخرى، كونه عقداً معرباً عن الالتزام من الطرفين لتحقيق معنى الأُسرة السعيدة، ولتحقيق معنى الزواج المتكامل، ولتحقيق الرسالة التي أراد لها الله جلّ وعلا أن تكون في الأرض؛ لأن الثمرة المترتّبة عليه ـ وهي الأطفال ـ تمثل الاستقرار العائلي، وبالتالي استقرار المجتمع وصلاحه. وهذا لا يكون إلّا بالأُسرة السليمة.

وهو أمر يتّضح منه أننا بممارساتنا خلافه نكون قد أفسدنا الأنساب بالزنا فإننا نكون قد أفسدنا المجتمع، ودفعنا به إلى حافة الهاوية وإلى منحدر الرذيلة ومستنقع الخطيئة، ولهذا فإن المسلمين جميعاً مدعوون إلى تهذيب مجتمعهم وتشذيبه وتخليصه من بعض المظاهر الهدّامة والفاسدة التي تعطى صبغة حضارية وصفة حديثة، كأن يتم زواج أحدهم في أحد الفنادق الراقية التي تخصّص قاعات كبيرة للرقص يختلط فيها الرجال مع النساء. ومن الممكن أن يحدث منه تعاطف بين بعض الشباب والفتيات بحكم السن والدور والمرحلة التي هم فيها، وهو ممّا يمكن أن يؤدي إلى ما لا تحمد عواقبه، وإلى نتائج سلبية لا نحبّذ أن نذكرها من على المنبر.

---

(١) الروم: ٢١.

إننا بهذا الفعل نكون قد شجعنا على الرذيلة، وعلى النزول بالمجتمع إلى مستنقعها، ولكننا حينذلك عندما تحصل مثل هذه الرذيلة فإننا نلقي باللوم على المجتمع وعلى الآخرين وكأننا لا يد لنا في هذا الأمر، فنصف الآخرين بالفساد، ونصف المجتمع به أيضاً دون أن نلوم أنفسنا؛ سواء كنا واقفين موقف المتفرج من هذا فلا نأمر بمعروف ولا ننهى عن منكر، أو كنا ممن يفعل هذه الأُمور ويمشي في الطريق الذي سار فيه أولئك.

إننا يجب أن نربأ بأنفسنا عن أن نسير في مثل هذا الطريق؛ لأنه طريق مهلك، وهو طريق يوصل إلى نهاية سوداء مظلمة يترتّب عليها فساد مجتمع وانهياره، وتقلص مسؤوليته وانعدام رسالته التي ينبغي عليه أن يحافظ عليها.

إن بعض المظاهر الهدّامة المستوردة والتي تصبغ بصبغة حضارية كما قلنا هي مظاهر فاسدة تجب محاربتها بشدة، ونبذها وإبعادها عن طريق المجتمع، فهي ليست سلماً للرقي كما عبر عنها أصحابها الذين جاؤوا بها أو الذين أوجدوها في مجتمعاتنا كي يدفعوا بها إلى حضيض الهاوية. إنها في حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون وسيلة للهدم؛ لأنها حتماً سوف تؤدي إلى حدوث خطيئة الزنا والعياذ بالله؛ لأنها تدفع بوقودها وهم الشباب إلى هذا الأمر دفعاً بحكم ما تهيّئ لهم من مغريات ومن أسباب تدفعهم إلى ولوج هذا الطريق.

مردودان خطران للصيغ الحضاريّة المستوردة

فكل الصيغ الحضارية المستوردة التي من هذا القبيل مثل تهيئة أسباب الاختلاط بشكل أو بآخر بين الجنسين مع عدم تحصين الجنسين ضد هذا المرض وضعف الرادع النفسي والوازع الديني تمثّل عنصر خطرٍ على المجتمع الإسلامي،

وبالتالي يجب محاربتها بشدّة والوقوف بوجهها بكلّ ما أُوتي المسلم من قوّة وطاقة. إن تهيئة أسباب الاختلاط بشكل أو بآخر بين أبناء الجنسين خطر كبير يتمثّل بأحد أمرين:

الأول: عدم تحصن أبناء الجنسين ضدّ هذا المرض.

الثاني: ضعف الرادع النفسي، والوازع الديني عندهم.

ولهذا فإنها ممّا يجب أن يحارب وأن ينبذ من المجتمع؛ لأنه ليس كلّ رجل تتوفّر عنده تلك المناعة التي يحصل عليها بسبب تربيته الدينية، وليست كل امرأة كذلك. وبهذا الشكل فإن الرجل والمرأة سوف يندفعان إلى فعل المحرم، وهو ما لا ترتضيه الشرائع السماوية، والطبائع البشرية السليمة، والذوق الصحيح.

ضرورة المنبر

إننا نفتقر إلى غلغلة المفاهيم الدينية في أنفس أبنائنا، وهذه الغلغلة تحتاج إلى مجالس خاصّة، وإلى ندوات خاصّة يعقدها ذوو الحل والعقد، والمتصدّون لتوعية الشباب ولتفهيمهم ولتحصينهم ضدّ الأمراض الأخلاقية الحديثة التي يستوردها البعض، أو التي يعمد الغرب إلى تصديرها إلى بلادنا.

إن فرق المسلمين الأُخرى عندها مناسبات كثيرة يمكن لها من خلالها أن تنشر مفاهيمها حتى عبر وسائل الإعلام؛ لأنها تابعة للدولة، والدولة تهيّئ لهم تلك الوسائل؛ ولذا فإن من السهل عليها أن تقوم بإيصال أفكارها ومفاهيمها عبرها في خطب الجمع، وعبر المناسبات الدينية التي تحييها والتي تتصدى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة إلى نقلها ونشرها في أنحاء المعمورة كافة؛ ولهذا فإننا نجد أن أيديهم موجودة في كل مكان، وفي كل مجتمع.. نجد أن هناك طبقة

مثقفة تقوم بهذا الدور.

وهذا الفعل بخلاف ما نحن عليه حيث إننا ليس عندنا مجال نقوم بنشر مفاهيمنا عبره سوى هذا المنبر الشريف، فلسنا من أصحاب السلطات أو أتباعها التي تهيّئ وتسخّر لنا وسائل إعلامها؛ كي تنشر آراءنا ومفاهيمنا، ولسنا من الذين يسمح لهم بإقامة شعائرهم بشكل علني وبكامل الحرية؛ كالمراسم العاشورية، أو خطب الجمع وصلواتها والعيدين، وما إلى ذلك، حتى نتمكن من نشر مفاهيمنا. وعليه فإننا لم يبقَ لنا سوى هذا المنبر الشريف الذي نتخذه منارة لنشر أفكارنا وآرائنا، وإيصال معتقداتنا ونظرياتنا في الحياة والمجتمع والسياسة والدين إلى العالم أجمع.

وظيفة المنبر الحسيني

والمصيبة الأدهى أننا نجد أن هناك نمطاً من الناس مع ما نحن فيه من حالة من الحصار الإعلامي والسياسي يريدون أن يكلّفوا المنبر ما ليس من تخصصه، فيطرحوا من خلاله أشياء بعيدة عن المجال الذي رسم له والذي وضع من أجله. إنني أسمع وأرى وفي بعض الأحيان تصلني انطباعات عن طبقة معينة تحاول أن تجعل من المنبر وسيلة لاجترار مفاهيم مكتوبة أو منشورة في الصحف أو المجلات، من غير أن يكون هنالك حالة من الفهم أو الهضم لها، فليس شيئاً معجزاً ولا عظيماً أن يعطي أحد مفهوماً من على المنبر، لكن المهم هو أن يكون قد هضم هذا المفهوم وعرفه، وعرف مداه العلمي، ومدى صحّته في الوقت نفسه.

وبهذا فإن البعض مثلاً يحاول أن يبرز نفسه من خلال هذا المنبر فيحوّل المحاضرة إلى محاضرة فلكية تتناول الكواكب والنجوم والمجرات والأبعاد التي

تفصلها، وما إلى ذلك دون أن يعرف الديناميكية مثلاً لحركة الكواكب وكيفية نشأتها وما إلى ذلك. أو أن يذكر أن فلاناً صنع الصاروخ الفلاني أو أن الدولة الفلانية صنعت السلاح الفلاني دون أن يكون ذا معرفة بهذا الصاروخ أو بذلك السلاح أو بآلية تركيبه وآلية انطلاقه وآلية تدميره.

ومثل هذا مثل حائك يريد أن يكتب قصيدةً: (والذرّة يابن الزچيّة). ومن أمثال هذا الكلام الشيء الكثير الذي لا يمكن أن نعدّه أو أن نحسبه على المنبر؛ لأن المنبر الإسلامي وظيفته ومهمته تعميق الفكر الإسلامي وتعميق الروح الثقافية، وخلق الخلفية العلمية لدى الإنسان المسلم، وجعله إنساناً مثقفاً واعياً، وليس هو عبارة عن بضعة كلمات تافهة تمرّر من خلاله على أناس أمّيين، بل هي تصدر من أناس أمّيين أيضاً.

ثم إن المنبر الحسيني ليست مهمته التهريج كما يحاول البعض أن يفعل فيربطه بجانب اليمين أو اليسار من السياسة، لكنّنا غير مستعدين أبداً للإطاحة بهذا المنبر الشريف، فنحن نريد منه أن يبقى تلك الشعلة التي تحمل رسالتها الإسلامية في نشر الفكر الإسلامي، وتعميق الوعي الإسلامي بين المجتمع وفيه. ومن يرد غير هذا فعليه اللجوء إلى سراديبه التي يستطيع أن يعمل من خلالها على نشر ما يريد، لكن على ألّا يتخذ من المنبر الشريف وسيلة لذلك التهريج أو لتلك الأُمور التي لا يمكن بحال من الأحوال أن تُحسب عليه، أو أن تكون من ضمن رسالة هذا المنبر الشريف.

الإساءة إلى المنبر

إننا نريد لهذا المنبر أن يكون سراجاً وهّاجاً منيراً يحمل الدعوة الصادقة لإرساء تعاليم هذا الدين الحنيف وأفكاره الصحيحة بعد أن حاول الكثير تشويه

هذه التعاليم وتحريفها وتغييرها عن مسارها. والحال أننا نرى أن البعض ـ ولا أود أن أصف بصفات لا تناسب قدسيّة هذا المنبر، ومع أنها صفات تناسبهم ـ يحاولون أن يلوذوا وراء هذا المنبر الشريف ليمرّروا من خلاله أهواءهم في الشتم والسباب وما إلى ذلك.

ولهذا فيجب أن نلتفت إلى أن رسالة المنبر رسالة مقدسة؛ فهي تنشر الوعي في المجتمع، وتخلق المواطن الصالح، وتغلغل القيم والمفاهيم الصحيحة في أعضائه، وهم الأفراد الذين يعتبرون اللبنة الأساس في تشكيله، وأن تقال كلمة الحق في سبيل الدين مهما كلّف الأمر ذلك [١]. وحينما نخرجه عن حدود اختصاصه فإننا حينئذٍ نبدأ بالتخبط والاضطراب، والضرب على غير الاستواء.

إننا لا نؤمن بفكرة إخراج المنبر عن مساره الصحيح واستخدامه وسيلة لتمرير الآراء الشخصية والأهواء بعيداً عن الرسالة الحقيقية له. كما أننا يجب أن نتساءل عن السبب الذي جعل المنبر غير قادر على أن يخلق لنا ناشئة تستند في تصرفاتها إلى مفاهيم الإسلام، مع كثرة هذه المنابر، ومع تطور بعض وسائل الاستعمال عندها.

إن هذا الأمر يرجع بطبيعة الحال إلى ما ذكرنا من محاولة تسفيه دور المنبر، وكذلك إلى أن بعض ممّن يرتقي المنبر هم من ذوي أفكار ساذجة لا يجيدون استعمال هذه الوسيلة الوحيدة المتبقية لنا لنشر تعاليم هذا الدين الحنيف ومفاهيم أهل البيت عليهم السلام. إن القليل جداً من أُولئك هم الذين يتمتعون بآفاق عميقة، وبأفكار أعمق ممن يستخدمون هذا المنبر الشريف، وكما قيل: إن الدنيا لا تخلو، فهنالك

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله». أحكام القرآن ٢: ٤٣، تفسير السمعاني ٤: ٢٣٣.

مجموعة من الشباب نحن في الواقع نفتخر بهم؛ لأنهم قدوة لغيرهم، ولأنهم سوف يحلّون محل من سبقهم ممّن أرادوا إيصال رسالة هذا المنبر الشريف إلى الدنيا. إن الذي نريده هو أن تحمل هذه القاعدة الشعبية العريضة فكر القرآن وأدب القرآن وخلق القرآن لتستثمر كل ذلك عمليّاً في ممارستها وتطبيقاتها بجعله دستوراً عامّاً لها.

وكما هو واضح فإن هذا لا يتمّ إلّا إذا استخدمنا المنبر استخداماً صحيحاً، وإلّا إذا كان على هذا المنبر من ذوي الاطلاع الواسع، والثقافة العالية، والفكر العميق، والإخلاص لهذا المنبر ولصاحب هذا المنبر، وللرسالة التي من أجلها استشهد.. الذين يربؤون به عن كل ما ينافي ذلك من تهريج وما إلى ذلك.

إن لي عتباً على بعض الإخوة من أهل الكويت، إنني أفتخر بأن لي تسعاً وعشرين سنة قضيتها في التبليغ في مواسمه في الكويت، كما أنني قد ربيت هنا جيلاً حيث نشرت الوعي بينهم، وهذا ليس موضع افتخار عليهم وإنما هو موضع افتخار بهم وبالنفس لأنها كانت في مسار الإسلام. إنني مسلم أحمل الإسلام على يدي شعاراً وعلى فكري، ووظيفتي التي خلقني الله من أجلها[1] هي نشر فكر أهل البيت عليهم السلام، ومبادئهم البناءة التي تؤدّي إلى بناء مجتمع سليم. كما أن وظيفتي أيضاً هي ترسيخ علوم أهل بيت النبوة ومختلف الملائكة ومنتهى العلم ومهبط الوحي والتنزيل في نفوس الناس.

وهذه الوظيفة في حقيقة الأمر وواقعه هي الوظيفة الأساسية للمنبر ولمن يرتقي هذا المنبر ليخاطب الجماهير، أو يخاطب القاعدة الشعبية العريضة. فأنا لا أُحب أن أُطوّح بالمنبر يميناً وشمالاً، بل أُريد له أن يأخذ رسالته السامية، وأن يؤدّي

---

(١) كل مخلوق ميسّر لما خلق له.

دوره الشريف في إحياء مفاهيم الإسلام.

رجع: صور الزنا وأساليبه

إذن فالله جل وعلا أصلح الدنيا بالإنسان، وعلى الإنسان ألّا يفسدها بالزنا. وإفسادها بالزنا يكون عبر طريقين:

الأول: عن طريق الولوج في هذه الرذيلة ومباشرتها.

الثاني: عن طريق خلق قيم وأخلاقيّات منحطّة تُبذر بين المجتمع، ممّا يمكن لها أن تؤدّي بالنتيجة إلى هذه الجريمة. وهذا الأمر يمكن أن يمرّر عبر صفات وصيغ كثيرة منها الصيغة الحضارية كما ذكرنا.

إن الكثير من هذه الصيغ الحضارية تؤدي إلى الزنا بما تدعو إليه من اختلاط بين الجنسين، وما تدعو إليه من نبذ الحجاب، والكشف عن مفاتن الجسد، وما إلى ذلك. وحينما تقع الكارثة فإننا نبدأ بلعن الدنيا ومن فيها.

إننا نحن الذين ساهمنا في إفساد الدنيا، ونحن من حوّلها إلى مستنقع بما نضع من قوانين، وبما نمارس من أفعال تؤدّي في نتائجها إلى الوقوع في الخطأ والخطيئة والرذيلة، وإلا فإن الدنيا واضحة، وكلّها نقاء. والله جلّ وعلا حينما خلق الدنيا خلقها نقية، لكننا بما نفعل وبما نفكر حولناها إلى مستنقع للخطايا، والى بؤرة للرذيلة.

النحو الثاني: دور العقل في عمليّة الإصلاح

وكما أصلح الله الدنيا بالإنسان، فقد جعل من لوازم ذلك إصلاحها بالعقول، فالله تعالى حينما منح الإنسان العقل فإنما منحه إياه على أساس أن هذا العقل هو الجهة الحكيمة المدبرة التي تدير دفة المدرَكات عنده. وعليه فيجب ألّا

يقصيه الإنسان ويميل إلى أن يتعامل بالغريزة؛ لأن الغريزة إنما هي دافع فطري، في حين أن العقل هو قوّة منظّمة.. قوة مدبّرة تعمد إلى تنظيم دوافع الغريزة عند الإنسان.

ومثال هذا أن الإنسان حينما يجوع فإن معدته تدفعه بفعل الغريزة إلى طلب الطعام، لكن العقل حينئذٍ يرتّب له هذا الدفع الذي تدفعه الغريزة إليه، ويقول له: إن أردت الطعام، وأردت أن تشبع معدتك فعليك باتّباع منهج معين شرعه الله لك وهو اكتساب هذا الطعام من حل، وليس من الحرام. فالعقل هنا ينظم الكيفية التي يطلب فيها الإنسان طعامه، والجهة التي يأخذه منها، والطريق الذي يسلكه في الحصول على ذلك الطعام، مبيناً له حرمة بعض الطرق، وحليّة بعضها الآخر.

وعليه فإننا نقول بأن العقل هو عبارة عن الجهاز المنظم لسلوك الإنسان، وهو الذي يدير دقّة المدرَكات له. وبهذا الاعتبار فإننا نذعن بأن الله جل وعلا قد أصلح الدنيا بالعقل، أو أنه قد جعل العقل وسيلة من وسائل إصلاح الدنيا؛ لأنه الوسيلة التي تدير شؤون المجتمع، وتنظّم العلاقات، وتبيّن ما هو الصالح وماهو الطالح، وماهو الضارّ وماهو النافع في كل مسلك يسلكه المجتمع، أو أفراد المجتمع.

وبهذا فإننا نرى ضرورة أن يتعامل الإنسان مع أخيه الإنسان بالعقل، بل حتى في تعامله مع الحياة ومع التاريخ ومع الكون كله؛ فنحن ندرس التاريخ لنأخذ العظة والعبرة، وهذا الأخذ لا يكون إلّا عن طريق العقل. وكذلك حال من يقرأ كتاباً، فإنه إنما يتّعظ ويعتبر ويستفيد منه بفعل العقل. وعليه فنحن في كلّ تعاملنا مع الكون أجمع إنما نستخدم العقل وسيلةً لفهم هذا الكون، ولاستنباط العبر والمواعظ منه ومن كل ما يواجه الإنسان في مسيرته الحياتية.

الإنسان وإفساد العقل

لكن هنا يأتي دور الإنسان في الإفساد، فهو كما يفسد المجتمع بالزنا فإنه يفسد العقل أيضاً بأشياء تحجبه، وتحُول دون ممارسته لوظيفته التي جعلها الله له. فالإنسان عادة حينما يقدم على شيء يجب عليه أن يجعل العقل حاكماً في هذا الشيء الذي يريد أن يقدم عليه، لكنه حينما يقوم بفعل ما يغير هذا العقل فإنه حينئذٍ يكون قد قضى على ثمرة مهمّة من الثمار التي وهبها الله جلّ وعلا له، وعلى جوهرة غالية من الجواهر التي منحها الله إياها.

وما نقصده بهذا هو شرب الخمر، حيث إن الإنسان بعد أن منحه الله هذه الدرة الثمينة ليدير بها أمره وشؤونه، وليحيط بها بالكون، وليستفيد منها وليستفيد من الحياة عن طريقها، نجده مع كل هذا يعمد إلى شرب الخمر، فيغيّب العقل، ويمنعه عن أداء وظيفته. وهذا إفساد للعقل في واقع الأمر؛ لأننا نجد أن الإنسان العاقل الناضج صاحب الثقافة العالية، وربما صاحب الشهادات العالية ما إن يشرب الخمر حتى نجده يقوم بحركات صبيانية تافهة.

يقول المفسرون: جاء في الرواية أن آدم أو نوحاً عليهما السلام لمّا غرس الكرمة جاء إبليس فذبح عليها طاووساً فشربت دمه، فلمّا طلعت أوراقها ذبح عليها قرداً فشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه، فلمّا انتهت ثمرتها ذبح عليها حيّة فشربت دمها؛ فلهذا نرى أن شارب الخمر تعتريه هذه الأوصاف الأربعة: وذلك أنه أول ما يشربها وتدبّ في أعضائه يزهو لونه، ويحسن كما يحسن الطاووس، فيرى أن الحياة قد تحوّلت إلى شكل آخر، وأنها قد أضحت نعيماً، وإذا جاء السكر لعب وصفّق ورقص كما يفعل القرد، وإذا قوي سكره جاء بصفة الأسد، فيعبث بما لا فائدة فيه، فيشتم ويعتدي، ثم بعد أن ينتهي مفعول

الخمرة ينزوي في بيته كما تنزوي الحيّة ويطلب النوم، وقد انحلّ عـزمه وغـرم قوّته [١].

وربما يجد القارئ في هذه الرواية عنصر أسطورة، لكنها في الواقع تعبّر تعبيراً صادقاً وواقعياً عن نتيجة شرب الخمر، وفعله في عقل الإنسان.

إن الإنسان ليس عنده شيء أثمن من العقل؛ لأنه ـ كما ذكرنا ـ هو الذي يدير له شؤونه وهو الذي ينظّم له أُموره وعلاقاته، ومع ذلك فإننا نجد هذا الإنسان يقصد إلى أن يفعل ما يُذهب به هذا العقل، ويحجبه عنه، ويغيّبه عن أداء وظيفته التـي خلقه الله من أجلها. إننا نعيش اليوم بثمار العقول، فكلّ مـا تـوصل إليـه العـلم الحديث من اكتشافات وابتكارات واختراعات هو من ثمرة العقل وتفكيره، وكل وسائل العلم والتطوّر العلمي والتكنولوجي في مجال الزراعة والصناعة والفـلك وما إلى ذلك من وسائل أُخرى كالاتصالات كلها نتيجة إعمال العقل والإفادة منه واستثماره في خدمة هذا الإنسان، فلماذا إذن يعمد الإنسان إلى أن يـبيع هـذه الجوهرة بثمن بخس من أجل أن يشرب كأساً من الخمر؟

وكل ما يعتذر به شاربو الخمر لا يعدو أن يكـون فـلسفات تـافهة يـحاولون عن طريقها تبرير أخـطائهم التـي يـرتكبونها. ومـن هـذا أنـهم مـثلاً يـتعلّلون بضغط الحياة وقساوتها، وما تسبّبه للإنسان مـن إرهـاق جسـدي أو روحـي، وما إلى ذلك مما يؤدّي إلى إتعاب العقل، وبـالتالي فـإنهم يـلجؤون إلى تـغييبه عن طريق شرب الخمر. بمعنى أنهم يعطون العقل إجـازة مـؤقّتة للـتخلص مـن ضغوطات الحياة.

---

(١) نور البراهين ١: ٣٣٩ ـ ٣٤٠، مجمع البـحرين ٣: ٦٩، وفـيهما: «خـنزير» بـدلاً مـن «حيّة».

إننا في واقع الأمر لا يمكن أن نجد جريمة ليس من ورائها مبرر يهيّئه من يرتكبها؛ فالقاتل دائماً يبيّن أن له مبرراً وراء القتل، وكذلك السارق والمرابي وما إلى ذلك، لكن هل إن هذه المبررات صحيحة؟ إن هذا مما لا يحتاج إلى الإجابة؛ لأن العقل نفسه لا يقول بهذه المبرّرات ولا يقرها.

العلاج السلبي

ثم لنا أن نتساءل عن الغاية من تغييب العقل لفترة معينة أو لبرهة وجيزة، وهل إنها فعلاً يمكن أن تذهب المشاكل عن صاحبها؟ والجواب طبعاً هو النفي، بل إن الذي يحصل هو العكس وليس مجرّد النفي فقط. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن الله جل وعلا قد أعطى الإنسان العقل ليواجه به الحياة ومشاكلها، لا أن يختبئ وراء جدار الخمرة عن مجابهة هذه المشاكل. فالإنسان عادة يحل مشاكله بهذا اللون من التفكير العقلاني، وبالتفكير بتروٍّ، فيمشي بالحياة مشياً وئيداً مستنيراً بالعقل، لا أن يفسد هذا العقل ويغيّبه بحجة أنه يريد أن يهرب من مشاكل الحياة.

إن الإنسان بهذا لا يكون قد غيّب العقل وحده، بل إنه قد غيب الوظيفة التي من أجلها وجد العقل، وهي مواجهة مشاكل الحياة ومجابهة قساوتها وصعوباتها، وإيجاد الحلول لها. وهذا ـ كما هو معلوم ـ لا يكون إلّا عن طريق استخدام العقل، وليس عن طريق تغييبه.

إذن فالله جل وعلا قد وضع كلّ شيء لنا فيما يخصّ تنظيم حياتنا، ونحن من يحاول أن يفسد كلّ ذلك من غير أن يكون هناك تفكير في عواقب هذه المخالفات التي نقوم بها لقوانين الله جل وعلا. فهو تعالى قد جعل الأموال لنا وسيلة للتبادل، ووضع لنا قواعد لتنظيم هذا التبادل، فنستخدم النقد لشراء ما نحتاجه من غذاء

ولباس وحاجات أساسية. وهذا يعني أن النقد يدير شؤون العالم، وأن التبادل مشروع لكن وفق الضوابط التي وضعها الله جل وعلا لنا، والتي يجب أن نسعى معها إلى تحقيق ذلك التبادل بالصور المشروعة، وعن طريق العقود، وأن نبتعد في سبل تحقيقه عن الوسائل المحرّمة.

كما أن الله جل وعلا قد أصلح الأرض بالمعادلات عن طريق العقود، لكن الإنسان يأتي ليفسدها عن طريق السرقة والنهب والسلب، أو الابتزاز والربا، وما إلى ذلك من النواقل غير الشرعية التي يتّبعها البعض أو تتبّعها بعض المجتمعات. بل إن البعض يعمد إلى السرقة بأُسلوب حديث وحضاري، فكما أن هناك سرقة تقليدية نجد أن هناك من يسرق سرقة مقنّعة، فهو يستخدم الفكر ويستخدم الوطنية أو يستخدم الدين واسمه أو الأخلاق للسرقة من الآخرين. وهذه كلها أنماط لسرقة مقنعة، ولا تخرج عن طريق الغاب، وهي سرقة تستهدف إفساد الأرض؛ ولذا فإن الله جل وعلا قد حرّمها بصورها كافّة.

التشكيك بالدين نمط من أنماط الإفساد

وهذا أيضاً لا يعدو أن يكون نمطاً من أنماط إفساد الأرض الذي يسعى الإنسان جاهداً إلى تحقيقه بعد أن أصلحها الله تعالى بالأديان. فالإنسان بدلاً من أن يأخذ بالأديان ويتأدب بآدابها يعمد إلى الدنيا فيفسدها بالشكوك، كأن يطرح شكوكاً أو مسائل تشكّك بالأديان وبضرورة اتّباعها كأن يقال: ليس هناك من داعٍ إلى التمسّك بدين مضى عليه أربعة عشر قرناً، فنحن نستبدل بين فترة وأُخرى الثوب والبيت والسيارة وما إلى ذلك؛ لأنها تصبح غير مناسبة للزمان الذي نعيشه. وعليه فوصفة عمرها أربعة عشر قرناً لا يمكن لها أن تفي بحاجاتنا، أو أن تسدّ متطلباتنا، وأن تصلح لنا في هذا الزمان الذي تطوّرت فيه العلوم، وتطوّرت فيه

الحياة وتطورت فيه الدنيا. وثم إن الإنسان قد ولج ميادين لم تكن معروفة آنذاك حينما نزل هذا الدين، فقد ولج ميدان الذرة، وميدان العلم، وميدان الحياة المجهرية والكون، وما إلى ذلك، وكل هذا يقتضي عدم اتّساع الدين لاحتواء كل هذا التطوّر.

الدين مشروع التجدّد

والحقيقة أن هذا الإشكال لا يصدر إلّا عن مغفل لا يعقل من أمره شيئاً؛ فهو إما جاهل، أو أنه يهدف إلى شيء سيّئ يريد من خلاله أن يبرز حقيقة، أو القضاء على الدين؛ لأنه يجد أن الدين يتعارض أو يتقاطع مع أهدافه ومع نفعياته؛ ولهذا فإنه يقول: إن هذه الوصفة جامدة على ذلك الزمان الذي نزلت فيه وصالحة له فقط، وإنها لا يمكن أن تصلح لهذا الزمان لأنها غير متجددة.

مع أن الواقع خلاف ذلك، فالوصفة الإسلامية هي وصفة متجددة سيالة تستحدث وتتغير بتغير الزمان ومستجداته، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**[1]، وكذلك قوله تعالى: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾**[2].

فهذه الصيغ المرنة المتواضعة المتمثّلة في هاتين الآيتين، ومنها قوله تعالى: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾** لا يمكن أن يحدها زمن؛ دون زمن لأن البر ينطبق على مصاديق عدة كبناء دار للأيتام مثلاً، فهذا برّ، والمجتمع في كل زمان ومكان يقرّه على أنه برّ.

---

(١) النحل: ٩٠. (٢) المائدة: ٢.

وبهذا فإن الإسلام قد تماشى في هذه الجنبة مع كلّ الأزمنة، ومع كل الأمكنة؛ لأنه يأمر بالبر. وكذلك لو أن شخصاً أراد أن ينشئ جمعية استهلاكية تقدم السلعة للمستهلكين دون وسيط؛ لأن الوسيط يعمل على تأخير السلعة إلى المستهلك، وكذلك رفع ثمنها عليه؛ فإن المجتمع حينئذٍ يقرّر أنّ هذا أمر حسن وجيّد؛ لأنه من باب التعاون على البر والتقوى.

ما لا يتجدّد في الدين

إذن فالدين الحنيف يعطينا صيغة متطوّرة مفتوحة وسيالة يمكن تمريرها على كل الأزمان والأماكن. وكل صيغ الدين متطورة ومتجددة إلّا في الحقائق الثابتة فإنها غير قابلة لهذا التطور؛ ذلك أن التطور يشمل المتغيّرات فقط، أما الثوابت فلا يمكن لها أن تتغير؛ لأننا حينما نريدها أن تتغير فإننا نكون قد مسخنا هوية الدين وطابع الدين، ومن ذلك برّ الوالدين، فإن الدين لن يأتي في يوم من الأيام ليطلب من أحد أن يعقّ أباه أو أن يعقّ أمه، ويخبره بأن بهذا العقوق سوف تصبح الدنيا مكاناً تملؤه السعادة والخير والراحة والاطمئنان، مطلقاً.

فهذه الصيغة ثابتة لا تتغير؛ لأن الثوابت لا يمكن لها أن تتغير؛ إذ بتغيرها ـ كما ذكرنا ـ مسخ لحقيقة الدين وهويته وطابعه ووجوده. فالذي يتغير هو طريقة البر بالوالدين وفق تطوّر الزمان والمكان، فلكل زمان آلاته وآليّاته، وأجهزته ووسائله واستعمالاته، وهذه الأشياء يمكن أن نبرّ بها والدينا لا أن نجمد على وسائل برّ الوالدين التي كانت معمولاً بها مثلاً قبل أربعة عشر قرناً، أو ما إلى ذلك. فالبرّ برّ لا يتغير، لكن الذي يتغير هو وسيلة تحقيق هذا البرّ في الخارج، وطرق التعبير عنه.

المبحث الثاني: في المراد من الخوف والطمع

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾، وللمفسّرين في هذا المقطع الشريف آراء عدة:

الأول: أنه خوف من الله وطمع في إجابته

يرى بعض المفسرين أن متعلّق كلمة ﴿خَوْفاً﴾ هو ربّ الدعاء، ومتعلّق ﴿طمعاً﴾ هو استجابة الدعاء عنده؛ ذلك أن بعض الأدعية محكوم عليها بالردّ مقدماً، كأن يدخل أحدنا إلى أحد المشاهد المشرّفة ومواطن استجابة الدعاء -كضريح الإمام الحسين‍ - ثم يرفع رأسه إلى السماء ويقول: أي رب ادفع عني البلاء. في حين أن بطنه مليء بالحرام، ولباسه مكتسب من الحرام ولحمه مبني من الحرام.

إن مثل هذا لا يمكن له أن يطلب من الله أن يدفع عنه البلاء؛ لأنه لم يحقق شروط استجابة الدعاء التي من جملتها ألّا تكون هناك ذنوب تحول دون هذه الاستجابة[1]. فالبطن حينما تكون مملوءة حراماً فإنها حتماً سوف لن يستجاب دعاء صاحبها؛ لأنه كان قد فعل تلك الذنوب التي حبست دعاءه.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن هناك دعاء محكوماً عليه بالردّ؛ لأنه لم يحقق ركائز استجابته، أو مقدمات استجابته كأن يطلب أحدنا من الله جل وعلا أن يرزقه دون أن يتحرك لإيجاد مقدّمات تحصيل الرزق أو ركائز تحصيل الرزق، بل إنه يريد من الله جل وعلا أن يرزقه وهو جالس في بيته.

---

(١) وقد ورد في الدعاء الشريف: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء». مصباح المتهجّد: ٥٧٢ / ٦٨١.

فمثل هذا أيضاً لا يمكن أن يستجاب دعاؤه ولا أن يتحقّق طلبه؛ لأنه عضو من أعضاء المجتمع، ويجب أن يكون عضواً فاعلاً ما دام يمتلك مقوّمات تلك الفاعلية. فإذا كان عنده القابلية على العمل، فيجب عليه أن يخرج من بيته، وأن يشقّ طريقه ليكسب رزقه من كدّ يده، ثم بعد ذلك يأتي دور الدعاء، فيدعو الله تعالى في أن يوفقه الله لإيجاد عمل، وإذا وجد عملاً يأتي الدعاء كذلك في أن يوفقه الله فيه وأن يبارك له فيما يكتسبه من هذا العمل.

فكل شخص في المجتمع يجب عليه أن يعمل، وألّا يتّكل على الله اتّكالاً كاملاً دون أن يوفّر مقدمات ذلك الاتكال وركائزه[1]، جاء رجل إلى النبي ﷺ، فشكا إليه الفاقة، وقال له: يا رسول الله، قد تركت أطفالي خلفي يتصارخون من الجوع مثل الذئاب. فقال ﷺ له: «**انطلق حتى تجد من شيء**».

فانطلق الرجل، ثم جاء بعد حين وبيده حلس وقدح، فباعهما له رسول الله ﷺ، وقال له: «**اشترِ بدرهم فأساً وبدرهم طعاماً لأهلك، وانطلق إلى هذا الوادي فلا تدع شوكاً ولا حطباً، ولا تأتني إلّا بعد خمسة عشر يوماً**». فانطلق فأصاب عشرة، فعاد إليه فقال له: «**فانطلق فاشترِ بخمسة طعاماً لأهلك**». فقال: يا رسول الله، لقد بارك الله لي فيما أمرتني. فقال ﷺ: «**هذا خير من أن تجيء يوم القيامة وفي وجهك نكتة المسألة. إن المسألة لا تصلح إلّا لثلاثة: لذي دم موجع، أو غرم مفظع، أو فقر مدقع**»[2].

فالرسول الأكرم ﷺ يقول لهذا: اذهب واعمل وانتج؛ فإن هذا الأمر لابدّ أن يقوم به من له القابلية عليه، وأنت من ذوي القابلية عليه.

---

(١) وقدر مرّ البحث عن هذا الموضوع في محاضرة (التوكّل الواعي) في ج ٣ من كتابنا هذا.
(٢) بحار الأنوار ١٠٠: ١٠، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٢٥.

دور رأس الدولة في توفير وسائل الإنتاج للأفراد

ويستدل الاقتصاديون الإسلاميون من هذه الرواية على أن رأس الدولة يجب عليه أن يوفر وسيلة الإنتاج؛ ذلك أنه إذا توفرت وسيلة الإنتاج، وكان هناك مواطن يستطيع أن يعمل عليها فإنه حينئذٍ يكون قد وفّر طاقة وحفظها من أن تضيع. فهذا المواطن الذي يملك الطاقة على استعمال وسيلة الإنتاج هذه سوف يعمل فيها ويشغّلها بجسده وطاقته الذهنية، ثم ينفع نفسه فيأكل منها، وينفع المجتمع لأنه يكون حينئذٍ قد أنتج وساهم في بناء هذا المجتمع وفي فعالياته.

الرأي الثاني: أنه خوف من العقاب وطمع في الثواب

الرأي الثالث: أنه الخوف من تغير الأحوال والطمع في استقامتها

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الإنسان يجب عليه أن يدعو الله وهو في حال يجب أن يكون فيها خائفاً من تغير الأحوال عليه، فإذا كان مثلاً يملك مالاً فعليه أن يدعو الله ألّا يُسلَب ماله؛ لأن هذه الأحوال يمكن أن تتغير فيضيع ماله. وكذلك يدعوه طمعاً في استمرار هذه الأحوال التي هو عليها؛ لأن من الممكن أن يأتي وقت تضيع فيه هذه الأموال ولا يبقى حاله على تلك الحال. فالليالي حبلى، ولا يعرف ما الذي تخبّئ للإنسان، فكم من شخص يبيت عليه الليل وهو بخير ثم يصبح الصباح وإذا بصوت صراخه يعلن أنه لم يبقَ عنده شيء.

وبناء على هذا الرأي فإن على الإنسان أن يستعين بالله جلّ وعلا، وأن يتعلّق بحبال الأمل والرجاء عنده، وأن يطلب منه تعالى أن يدرأ عنه المكاره والشرور، وأن ينجيه من آفات الدنيا. ولهذا فإننا نجد في الروايات أن النبي الأكرم ﷺ كان إذا قصد فراشه يدعو بجملة أدعية منها قوله ﷺ: **«اللهم اكفني شرّ الأشرار، وكيد**

الفجّار، وطوارق الليل والنهار»[1].

فالحوادث تطرق الإنسان بأي وقت وفي أي مكان دون علم منه ودون إرادة، والدعاء يمثل دوره المهم في رد هذه الحوادث إذا كان بإخلاص، وإذا كان قد توفر على شرائط صحّته التي ينبغي أن تتوفر حتى يستجاب الدعاء بالإضافة إلى شرائط الكمال. ولأهمية الدعاء نجد أن القرآن الكريم يقول: **﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾**[2].

ولأهميته أيضاً نجد أن الإمام الحسين عليه السلام قد استعمله كوسيلة للحفاظ على علي الأكبر عليه السلام حينما برز إلى القتال، فقد بادرت ليلى إلى الحسين عليه السلام، حينما رأت وجهه الشريف قد تغير، وسألته عن سبب ذلك وقالت: أبا عبد الله أرى وجهك قد تغيّر، فهل أُصيب ولدي بشيء؟ فقال عليه السلام: **«لا، ولكن برز إليه من يُخاف منه عليه، ادعي لولدك»**. فرجعت إلى المخيم وجرّدت خمارها ورفعت إلى السماء رأسها وقالت: إلهي بصبر أبي عبد اللّه، إلهي بغربة أبي عبد اللّه، ياراادّ يوسف على يعقوب اردد عليّ ولدي:

طبّت الخيمته الغريبه	**تبچي وعلى ابنيها بريبه**
وتوسّلت للّه بحبيبه	**بالحسين وشمابيه مصيبه**
يا راد يوسف من مغيبه	**ليعگوب ومسچّن نحيبه**

أريدك علي سالم تجيبه

* * *

أعيدي دعاء الأمّ ياليل إنني	**أرى ابنك في أعداه يغتنم النصرا**

---

(١) المصباح (الكفعمي): ٢٢٥. (٢) الفرقان: ٧٧.

فأرخت على الوجه المصون أنينها وطرف أبيه السبط من طرفها أجرى

ثم رجع الأكبر إلى أبيه عليه السلام، وقد أصابته جراحات كثيرة، فقال: يا بن رسول الله، العطش قد قتلني، وثقل الحديد أجهدني، فهل إلى شربة ماء من سبيل أتقوى بها على الأعداء؟ فبكى الإمام الحسين عليه السلام وقال: **«يا بني، يعزّ على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى علي بن أبي طالب عليه السلام وعليَّ أن تدعوهم فلا يجيبوك، وتستغيث بهم فلا يغيثوك. يا بني هات لسانك»**. فأخذ لسانه ووضعه على لسان أبيه فإذا هو كالخشبة.

ثم أمره عليه السلام بالتعجيل إلى أُمّه قبل أن تموت، فبادر إليها وأخذ برأسها ووضعه في حجره..نضحها بدموع عينه، ففتحت عينيها واعتنقته، لكنه خرج مرّة أُخرى وعينا الإمام الحسين عليه السلام تلاحقانه، ودعاؤه له يرافقه: **«ارجع إلى قتال عدوّك، فإني أرجو أنك لا تمسي حتى يسقيك جدّك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبداً»**.

واحتضنته مرة أخرى وذلك عندما رأته مقطّعاً إرباً إرباً:

السبط شاف النبل نابت على ايراح صفق راحٍ بطل حيلي على راح

صاح بصوت يازينب علِي راح يبويه اظلمّت الدنيا عليّه

* * *

ومحا الردى يا قاتل الله الردىٰ منه هلال دجىً وغرة فرقدِ

يا نجعة الحيّين هاشم والندىٰ وحمى الذمارين العُلا والسؤددِ



﴿١٩٨﴾

أهداف البيعة في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: معنى البيعة

البيعة هي العلاقة التي تربط الحاكم والمحكوم، أو بمعنى آخر هي العقد الاجتماعي. وقد أسماها المشرع الإسلامي بيعة لأن فيها نوعاً من المعاوضة؛ ذلك أننا نعرف أن البيع هو عملية معاوضة بين البائع والمشتري، فيعاوض كل منهما ما عند الثاني بما عنده؛ فالبائع يعاوض الثمن بالمثمن، والمشتري يعاوض المثمن بالثمن. والبيعة لا تخرج عن هذا الإطار فهي عملية تتوفر على المعاوضة؛ فالإنسان المحكوم يعطي الطاعة للخليفة أو الحاكم أو الإمام، الذي في مقابلها يعطيه الحقوق الاجتماعية والسياسية الأُخرى ويوفّرها له.

وهذا يعني أن هناك التزاماً ينشأ من خلال هذه البيعة بين الطرفين، فيوفّر الطرف الأول ـ وهو الحاكم ـ حقوق المحكومين وحمايتهم شريطة أن يلتزموا له

---

(١) الفتح: ١٠.

بالطاعة والولاء والمعونة متى طلبها منهم. وفي ضوء هذا كل إنسان له الحق في الحياة والحرية والاستقرار والأمان، وهذه الحقوق له الحقّ في أن يطالب الحاكم بتوفيرها له، لكنه حينما يفعل ذلك فإن الحاكم بالمقابل له الحق في أن يطالبه والمحكومين الآخرين بحق الطاعة. وحينئذٍ فإنها ترجع إلى أصل التبادل والتعاوض.

وربما يعترض معترض هنا فيقول: ما حاجة النبي إلى الناس حتى يطلب منهم المبايعة إن كانت بهذا المعنى المعاوضي أو التبادلي؟ يقول أحد الكتاب الإسلاميين: إن البيعة مظهر من مظاهر الشورى. ثم يقول: ومن جملة الأدلة على الشورى مسألة البيعة؛ حيث إن المبايعين يختارون ويعبرون عن رأيهم عن طريق ممارسة هذا النمط، وهو البيعة.

لكن لنا أن نسأل في هذا المقام فنقول: هل إن النبوة مما يمكن أن تتمّ بالاختيار؟ وعندما يبعث الله نبياً فهل إنه تعالى يجعل شرعية هذا النبي وطاعته نابعتين من البيعة، أم إن الجميع مجبورون على طاعة الله وطاعة رسله وأنبيائه كما عليه التعاليم الحقة النابعة من أديان السماء؟ إن طاعة الله وطاعة النبي مفروضة؛ سواء كان هناك بيعة أو لم تكن، فالله جلّ وعلا خلقنا وهو يعرف حاجتنا إلى الصلاح، ويعرف نواقصنا، فيرسل إلينا الأنبياء، ويبيّن لنا أن وظيفته مساعدة العقل الإنساني في توجيه الإنسان إلى الوجهة الصحيحة؛ لأن عقل الإنسان قاصر لوحده عن إدراك ذلك.

وبهذا الاعتبار فإننا نجد أن المتكلمين والفلاسفة يقولون: إن العقل نبي داخلي، والنبي المرسل عقل خارجي؛ لأنه يوجّه العقل الداخلي ويسدّده.

وبهذا فإنه يمكن القول بأن دعوى أن العقل وحده قادر على أن يحقق السعادة

والرفاهية للمجتمع هي دعوى غير صحيحة وباطلة؛ فالقوانين المستمدّة من العقل وإن كان البعض يظن أنها ناجحة، كادّعائه ذلك في أوروبّا مثلاً، أو في العالم المتحضر، أو في بعض الدول التي ليس فيها أديان سماوية لا يمكن لوحدها أن تحقق سعادة الإنسان. ودليل هذا ما نلاحظه من الأمراض المنتشرة والحروب والتقتيل والتنكيل وما إلى ذلك مما يحدث في هذه الدول.

وعليه فلو أن العقل وحده كان قادراً على إيجاد مادّة السعادة للإنسانية، فإننا سوف لن نجد مثل هذه الأُمور المخلّة بالقوانين والمخلّة بالسعادة الإنسانية طاغية في تلك المجتمعات. وعليه فإن العقل ما لم يسانده أمر خارجي وهو النبوة، فإنه لا يتمكن من إيجاد تلك السعادة. ففي تلك المجتمعات نجد هنالك الفقير فقراً مدقعاً والغني غنى فاحشاً، وهذا نتيجة قوانين العقل لوحدها.

ولا يظنن البعض أن ذلك غير موجود في الدول الإسلامية، فهو موجود لأنها لا تعتمد قوانين السماء في تشريعاتها إلّا بشكل صوري.

إذن فالعقل وحده غير قادر على توفير السعادة النفسية، وكل ما يشاع حول ذلك هو هراء وخيالات وأوهام؛ لأن الفرد لايمكن أن يشعر بشيء من السعادة والراحة والأمن والاستقرار في ذلك المجال بعيداً عن قوانين السماء؛ وإن كانت هنالك تصورات حول تلك القوانين توحي للآخرين بأنها تمثل الجنة التي وُعد بها الإنسان. فالحقيقة أن السعادة هي ما رسمتها السماء، والله جلّ وعلا هو الذي خلق الخلق وهو أعرف بما يصلحهم ويصلح لهم، وما يفسدهم ولا يصلح لهم.

ولهذا السبب فإننا نقول بأنه تعالى هو الوحيد القادر على سن قوانين يمكن أن توفر للإنسان السعادة، في حين أن العقل الإنساني قاصر عن إيجاد ذلك؛ لأنه أساساً قاصر عن فهمه، بل إنه يتأثّر بمؤثرات بسيطة جداً حيث إن الإنسان ما إن يفقد أعصابه لسبب أو لغيره حتى نجده يغيّب عقله عن تصرفاته، ويتحوّل إلى

كائن بهيمي، وبالنتيجة فإنه سوف لن يكون ذا قابلية على إيجاد القوانين الصحيحة التي تخدم البشرية [(١)].

إذن فالله جل وعلا أرسل الأنبياء وفرض علينا طاعتهم بغض النظر عن كون هذه الطاعة جاءت بعد بيعة أو من غير بيعة؛ ذلك أن النبي ﷺ لا يحتاج إلى أن يبايعه أحد حتى تثبت نبوته لأن النبوات أمر فرضه الله جل وعلا وهذا ما يجب الطاعة فيه سواء كانت هنالك بيعة أو لم تكن.

المبحث الثاني: في شرعية الإمامة

إن المسلمين اختلفوا فيما بينهم حول الشرعية التي يستمدّ منها الإمام المعصوم أو الخليفة بعد النبي ﷺ سلطتهما، فهم في هذا على قسمين:

الأول: أنها تُستمدّ من الأمّة

إن أصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن المشروعية التي تمنح الإمام سلطته ورئاسته على الأُمة هي مشروعية مستمدة من الانتخاب أو من الشورى. وهؤلاء هم المذاهب الإسلامية من غير الإمامية والزيدية.

الثاني: أنها مستمدّة من السماء

وهؤلاء هم الإمامية والزيدية، فهم يقولون بأن الإمام أو الخليفة الشرعي المنصّب لرئاسة الدين والدنيا يجب أن يكون مستمداً شرعيته من الرسول ﷺ،

---

(١) وهذا ما يسمى بأخذ العامل النفسي أو الذاتي في عملية التشريع، ذلك أن الإنسان حينما يتصدى بنفسه للتشريع وسن القوانين فإنه لا يمكن أن يسنها بعيداً عن رغباته النفسية وعن إرادته وعن مشتهياته وعمّا يرغب فيه؛ فمن غير الممكن أن يسنّ إنسان قد اعتاد القتل قانوناً يحاسب على جريمة القتل، ومن غير الممكن أن يسنّ إنسان قد اعتاد الربا قانوناً يجرّم الآخرين الذين يمارسون عملية الربا ويحرّم ذلك عليهم. وكذلك في غيرهما من القوانين الخاصّة بالنساء والخاصة بالبيوع وما إلى ذلك.

أي بنصّ من الله جل وعلا، ومن رسوله ﷺ بشخصه فيقول: فلان خليفة من بعدي، وإمام من بعدي.

ومن هنا فإنه يستمد شرعيته في قيادة هذه الأمة ورئاستها وحكمها من السماء ذات السلطة المطلقة، والصلاحية المتفرّدة.

ويجب أن نلاحظ هنا أن الإمامة والنبوة أمران يشتركان في طبيعة واحدة؛ ذلك أن الإمام لا ينصّب إلّا بعد ارتحال النبي؛ حتى لا تبقى الأرض خالية من حجة على الناس؛ ولذا فإن النبي ﷺ ينصّب عوضاً عنه أو نيابة عنه إماماً من بعده، أو خليفة له من الأشخاص الذين تتوفر فيهم الصفات المناسبة لقيادة الأمة كافّة.

وهناك مِن الناس مَن يذهب إلى أن القرآن الكريم يمكن أن يقوم مقام النبوة. وهذا خطأ واضح؛ لأنه لو كان صحيحاً لانتفت الفائدة من وجود النبي ﷺ ذلك أن القرآن كان موجوداً والنبي كان موجوداً معه، فلو كان فيه كفاية لكان وجود النبي ﷺ عبثاً، والله تعالى منزّه عن العبث، والنبي ﷺ وجوده ضرورة حتمية تفرضها العقول ويفرضها الواقع.

إن النبي ﷺ يطبق القرآن ويبلّغ تعاليمه، ويشرف على تطبيقه، ويتابع ممارسة الأُمور الدينية والدنيوية. وكذلك الأمر بالنسبة للإمامة؛ لأنها امتداد طبيعي للنبوة، وحينئذٍ فإننا سوف لن نحتاج إلى مسألة الشورى.

المبحث الثالث: في المبايعة لله ولرسوله ﷺ

تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾، إن الله تعالى قد فرض على الناس طاعة النبي ﷺ سواءً بايعوه أو لم يبايعوه؛ ذلك أنه جل وعلا قد نصبه في هذا المنصب، وقد جعله في هذه الوظيفة الإلهية السماوية. وعليه فإن البيعة ليس لها تأثير من قريب أو من بعيد في مشروعيّة

النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله والنبوة، ولا في مصداقيتهما.

والدليل على هذا أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله نبي وإن لم يبايعه الناس كما حصل مع الكثير من الأنبياء عليهم‌السلام الذين حدّثنا عنهم القرآن ممّن لم يؤمن بهم قومهم أو آمن بهم منهم رهط قليل جدّاً.

وبناء على هذا فما فائدة البيعة؟ إن البيعة ما هي إلّا وسيلة من وسائل إظهار الطاعة، وليست وسيلة من وسائل تنصيب النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله الذي نصبته السماء سلفاً؛ ولذا فإن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله استدعى المسلمين في بدء الإسلام ليبايعوه ذكوراً وإناثاً؛ الذكور بالمصافحة المباشِرة، والإناث بصورة غير مباشرة، وذلك بأن وضع النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله لهنَّ طستاً فيه ماء، ووضع يده الشريفة فيه، ثم تأتي المرأة وتضع يدها فيه وتبايع. وبهذه الصورة تمّت البيعة للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله حرصاً على عدم الملامسة بين الرجل والمرأة.

وكانت بيعة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في حقيقتها بيعة لله جل وعلا، كما نصّت عليه آية المقام، وهذا يعني أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله مجرّد نبي حامل لشريعة السماء، وأن المقصود في الأصل بالطاعة والبيعة هنا هو الله جلّ وعلا. ولتوضيح هذا الأمر نقول: إن النبي هل يستطيع أن يجتهد في بعض القضايا أم لا؟ فالقرآن مثلاً عالج قضايا اقتصادية وأُخرى اجتماعية وغيرهما سياسية، لكنه لم يعالج جميع القضايا المطروحة بالساحة أو التي سوف تطرح وتأتي، ولم يتطرق إلى ذكرها أو ذكر علاجها، ومنها قضايا عالقة تشغل بالَ الكثير من المفكرين والمختصين. كما أن القرآن الكريم ليس فيه أحاديث مروية.

مناطق الفراغ في التشريع

وتأسيساً على هذا لنا أن نسأل: هل إن للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله الحق في أن يجتهد فيها

أم لا؟ إن بعض العلماء يقولون: إن للنبي ﷺ أن يجتهد في أُمور لا نصّ فيها. أما نحن فنقول: ليس هناك من شيء لا نصّ فيه، بمعنى أن هذه الأُمور التي لم يتطرق القرآن إلى ذكرها فإنها يمكن إدخالها تحت عمومات أُخرى وقواعد أخرى لتندرج تحتها؛ وبالتالي فإننا نوجد لها الحكم الشرعي المناسب. فهناك مناطق تسمى مناطق الفراغ وهي المناطق التي وردت فيها نصوص لكن النبي أو الإمام عليهما السلام لم يستعملاها ولم يطبقاها؛ لعدم الحاجة إليها، ومن ذلك أنه مثلاً في القرن العشرين قد استحدثت الكثير من الوسائل المعاملية على صعيد النظام الاقتصادي فهناك البنوك وهناك النظام المصرفي وهناك الحوالات والسندات والأسهم وما إلى ذلك، وهذه كلّها لم تكن موجودة في زمن النبي ﷺ، فهل يعني أننا نتوقف عن هذه المعاملة لأنها لم تكن موجودة في زمنه ﷺ؟

والجواب طبعاً لا؛ لأن هذا النمط من التفكير يشلّ الحياة ويوقفها، مقيّداً إياها عن أن تتحرّك، أو أن تتطور في حال أنها متطورة ومتغيرة، فإن جمدنا على ما كان موجوداً أو معروفاً في زمن النبي ﷺ فإننا حينئذٍ سوف نجعل من الحياة وحدة جامدة غير قابلة للتحرك وغير قابلة للتطوّر مع أنها متطوّرة.

كما أن الإسلام لا يريد أن يكون عقبة في طريق تقدمهم وتطورهم، بل إنه جاء ليدفع الناس نحو التقدم والتطور، واستيعاب ما يستجدّ في الحياة وما يحدث فيها من اكتشافات، وما إلى ذلك.

وعليه ففي مثل هذه الحالة ما الذي يمكن لنا أن نفعله؟ وكيف نستدل على أن هذه المعاملة مما يجب أن يترك أو مما يجوز أن يفعل أو يجب ألّا يفعل؟ إن الدليل الذي نتبعه أو نتوسّل به في الوصول إلى هذه النتيجة، وإلى كون هذه المعاملة مباحة أو غير مباحة هو أن ننظر إليها من زاوية أخرى، فنقول: هل إن في هذه

المعاملة ربا أم لا؟ وهل فيها غرر ـ أي جهالة ـ أم لا؟ وحينئذٍ نحكم؛ فإن كان في المعاملة ربا فإننا سوف نحكم بحرمتها؛ ذلك أن الله جلّ وعلا يقول في محكم كتابه الكريم: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[1]، فكل معاملة ربوية هي معاملة محرمة، وبالتالي فإن هذه المعاملة المصرفيّة أو البنكية سوف نحكم بحرمتها؛ لأن النصّ يشملها بلحاظ وجود الربا فيها، وإن لم يكن فيها ربا أو عائق شرعي آخر فإننا سوف نحكم بصحتها لدخولها تحت عموم الأدلة كما أننا نلاحظها من جانب آخر أيضاً، وهو وجود الغرر فيها، فإن كان فيها غرر فإن المعاملة باطلة؛ لأن عندنا أن من شروط صحة المعاملة: المعلومية، أي أن يكون المثمن معلوماً، فلو قال أحد لشخص آخر: بعتك الشيء الفلاني، وقال له الثاني: قبلت، ولم يكن يعلم بصفات ذلك الشيء وخصائصه فإن هذه المعاملة حينئذٍ تعتبر باطلة في حكم الشارع المقدس؛ لأن فيها غرراً أو جهالة كما ذكرنا؛ إذ لابدّ من معلومية المبيع؛ من حيث صفاته، ومن حيث هيئته وكيفياته، وما إلى ذلك.

البراءة العقلية

وعليه فإن المعاملة ما لم يكن فيها غرر أو ربا أو أي مانع آخر من الموانع الشرعية التي تحكم ببطلان المعاملة فإنها حينئذٍ تكون صحيحة وشرعية؛ ذلك أن الله جل وعلا يقول في محكم كتابه الكريم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[2]، أي أن كلّ شيء لنا حلال ومباح حتى يثبت أنه حرام بالدليل الشرعي. وهذا ما يسمى بالبراءة العقلية وهي أن العقل يحكم بقبح أن الله يعاقب الإنسان على شيء دون أن يبين له حرمة ذلك الشيء أو محظوريته، أي أنه لابدّ

---

(١) البقرة: ٢٧٥.
(٢) الإسراء: ١٥.

أن يبين الله جل وعلا محظورية هذا الشيء، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة العقوبة عليها، وما لم يكن هناك بيان فليس هناك من عقوبة؛ لأنه يقبح العقاب بلا بيان.

رجع

إذن فإن الله جل وعلا يقول للنبي ﷺ: إنك حامل رسالة السماء، وإن المسلمين حينما يبايعونك فإنما يبايعونك لأجل هذا؛ لا لأنك لحم ودم، وإنك إنما أصبحت عظيماً في نظرهم ونظر السماء لأنك رسول الله، ولأنك الوسيط بين الله وبين الناس والوسيلة لهم إليّ. والإمامة لها عين هذا المفهوم وتمامه؛ لأنها الامتداد الطبيعي والشرعي للنبوة، وحينئذٍ فإننا سوف لن نحتاج لانتخاب أو بيعة أو ما إلى ذلك إلّا إذا أراد الفرد المسلم أن يظهر الطاعة إلى الإمام أو النبي.

نظرية العقد الاجتماعي ومستلزماتها

وهنا نقطة أود أن أذكرها حول البيعة وهي أن البيعة عبارة عن عقد اجتماعي، ويعبر عنه جان جاك روسو المفكر الفرنسي بقوله: كل حاكم بينه وبين المحكومين عقد اجتماعي، فحين يرضون به حاكماً يرضى بهم أناساً عندهم حقوق عليه أن يوفرها لهم، فإذا انفصم العقد اختلّت البيعة. وعلى ضوء هذا التقرير نقول: إن على الحاكم أن يؤدي جميع حقوق الناس المالية في الحريات والأمن، وتوفير وسائل العمل وما إلى ذلك، وأن يحافظ على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، وأن يضمن لهم حقوقهم المالية جميعاً بالتساوي. اعترض جماعة على أمير المؤمنين عليه السلام في خصوص توزيعه الثروة بين المسلمين ومساواته بين السيّد والعبد، فقال عليه السلام: **«لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله تعالى»**[1].

---

(١) نهج البلاغة /الكلام: ١٢٦.

فهو عليه السلام يريد أن يبيّن لهم أنّ المسألة المالية تخصُّ المسلمين جميعاً وليست لمجموعة دون أخرى، وعليه فلابد من توزيعها بالعدل والسوية بينهم.

إذن فالبيعة هي عملية يتم بها التبادل والمعاوضة بين الطاعة وحقوق المجتمع، وقد ذهب الأئمة عليهم السلام ممّن تسنّم دفّة الحكم إلى تطبيق هذا المعنى وإن حنث بعض رعيّتهم ببيعته، حيث إن أمير المؤمنين عليه السلام حينما جاء إلى الحكم وجاء الناس ليبايعوه كان فيهم طلحة بن أبي عبد الله الذي يقول عنه المؤرخون: إن أول يد بايعته هي يد طلحة، وكانت يد طلحة شلّاء، أي مقطوعاً أحد أصابعها، فلمّا بايعه رآه قبيصة بن ذؤيب الأسدي ـ وكان واقفاً ـ فقال: والله، لا تتم هذه البيعة؛ فإن أول يد بايعته هي يد شلّاء[1].

وهذا كلام لا أثر له بل هو مبني على التطيّر المنهي عنه في الإسلام، لكن حدث أن اتّفق أنّ الذي كان أول المبايعين له كان أول الناكثين بيعته. ولهذا فإن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في واقعة الجمل أرسل ابن عبّاس إلى الزبير، فقال له: أرسلني ابن خالك، وهو يقول لك: «**ما عدا ممّا بدا؟ عرفتني بالمدينة وأنكرتني بالبصرة، ألم تبايعني طائعاً غير مكره؟ فما الذي رابك مني فاستحللت به قتالي؟**». فجعل الزبير ينقر بالمروحة في الأرض[2].

المبحث الرابع: تأويل ولا تجسيم

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾، وهنا نقطة أود أن أُلفت النظر إليها، وهي أن البعض يتّهمنا بأننا نأوّل القرآن ولا نأخذه على ظاهره، ونحن

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٨.

(٢) حديث مصعب ١: ٣٦ ـ ٣٧ / ١١، شرح نهج البلاغة ٩: ٣١٧، الشافي ٤: ٣٢٤.

نقول: نعم هذا صحيح؛ لأننا مضطرون لأن نعمد إلى التأويل وأن نترك التفسير الذي يأخذنا إلى ما يخالف العقائد الحقّة في بعض الحالات.

ضرورة تأويل آية المقام

ومن ذلك آية المقام، فحينما تقول الآية الكريمة: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، فهذا يقتضي أن تأوّل هذه الآية الكريمة؛ لأن عدم التأويل يستلزم أُموراً عديدة كلّها تبتعد عن روح الإسلام وأُسسه ومفاهيمه، ومنها:

الأول: التجسيم

فالقول بأن له تعالى يداً حقيقية مادية جارحة، يعني أنه تعالى جسم، وإذا كان كذلك فهذا يعني أن له رجلاً ولساناً وشفة وعيناً وما إلى ذلك.

ومعلوم أن جميع هذه الأُمور تعني أن الله جلّ وعلا محدود، وأنه جسم من الأجسام، وبما أنه كذلك فلابدّ من أنه يحتاج إلى مكان يحلّ به، ويحتاج إلى هواء يحيط به.

الثاني: المغايرة والتركيب والتلاشي

كما أن إثبات التجسيم له تعالى يعني أن له جهتين، والجزء الأيمن من كلّ جسم هو غير الجزء الأيسر منه، وهذا يعني أنه تعالى قد أصبح مركّباً، والمركب يضمحلّ ويتلاشى. وحينئذٍ لا يمكن أن يكون إلهاً؛ لأن الإله لا تعتريه ما تعتري بني البشر أو الفانيات من عوارض وما إلى ذلك من صفات تلحقها.

ومن هنا فإننا مضطرون إلى أن نأوّل بعض الآيات؛ حتى نبتعد عن بعض التفسيرات السطحية التي تؤول إلى الكفر، وهذا يعني إرجاع المتشابه من الآيات إلى المحكم منها، والمحكم في خصوص المقام هو قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ

وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[٢]، فإذاكان له تعالى يد ظاهرة أدركتها الأبصار وهذا ينافي محكم الكتاب.

وكذلك الأمر حينما نأتي إلى قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[٣]، فإننا ملزمون بأن نأوّل؛ لأن الله جل وعلا لا يمكن أن ينسى؛ ذلك أن نسيانه تعالى يعني تدهور العالم وصيرورته إلى الخراب والدمار والتفكك. كما أنه يناقض أو ينافي ما هو معلوم من صفاته جلّ وعلا، وهي أنه تعالى لا يغفل ولا ينسى، وأنه عالم مطلقاً.

إذن لابدّ لنا على ضوء هذه المعطيات أن نأوّل هذه الآيات لا أن نفسرها على ظاهرها، وأن نقول: إنها من متشابه الكتاب الذي لابدّ أن يرجع إلى محكمه، كما نصّ على ذلك القرآن الكريم[٤].

ويمكن أن نسند هذا القول بما يروى من أن السيد الحكيم لما ذهب إلى الحجّ كان هناك شخص بصير من علماء أهل السنة، فجاء إلى زيارة السيد، وبعد أن استقبله ورحب به: قال له مهما كان من خلاف بيننا في الفروع فإن الخلاف يبقى علمياً وطبيعياً. فأجابه الرجل الضرير بقوله: لا ليس الكلام علىٰ هذه الشاكلة؛ ذلك أن عندنا أشياء رئيسة وفي الأصول نختلف فيها معكم. فقال له السيد: مثل ماذا؟ فقال له الرجل: أنتم مثلاً تؤوّلون القرآن. فقال له السيد: نحن مضطرون إلى

---

(١) الأنعام: ١٠٣. (٢) الشورى: ١١.

(٣) التوبة: ٦٧.

(٤) قال تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُو الأَلْبَابِ ﴾ آل عمران: ٧.

ذلك وإذا لم نؤوّله فإننا حينئذٍ سوف نقع في مشاكل نحن في غنى عنها ولا حصر لها. فقال له الشيخ الضرير: ليس هنالك من مشكلة، ولا داعي حينئذٍ إلى تأويل القرآن. فقال له السيد: ألم تقرأ القرآن؟ قال: نعم. فقال له السيد الحكيم: وهل قرأت قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1]؟ فسكت الرجل محرجاً وقد أفحمته الآية والحجّة.

ذلك أن الأعمى في هذه الآية قطعاً لم يقصد به فاقد البصر، وإنما هي مأوّلة بمعنى عمى القلوب[2].

وعليه فإننا يجب ألّا نحمل ألفاظ القرآن على ظاهرها في كلّ حال وفي كل مقام؛ لأن منها ما يأخذ بأعناقنا ويلجئنا إلى أن نأوّله حتى يتناسب مع العقائد الصحيحة ومع الآيات الأُخرى المحكمة التي أمرنا بردّ المتشابه إليها. وعليه فحينما تنص الآية الكريمة فتقول: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فإننا حينئذٍ نكون مضطرين إلى تأويلها بما يخالف ظاهرها، وهذا التأويل هو أن المقصود بيد الله جل وعلا هنا قوته وسيطرته وسلطنته على كل الموجودات، بمعنى أن قوة الله تعالى فوق قوة الناس جميعاً لأن اليد (بمعنى القوة) الخالقة والبارئة والمعطية هي يد الله جلّ وعلا.

المبحث الخامس: شروط البيعة

يذكر الفقهاء والعلماء أن البيعة هي عبارة عن عقد من العقود كما ذكرنا، ووفق التشريع الإسلامي فإن العقد لا يصح إلّا من بالغين، بمعنى أنه لا يجوز أن يعقد الصبي عقداً من العقود فيما لو كان عمره أقلّ من العمر الشرعي وهو عمر التكليف.

---

(١) الإسراء: ٧٢.

(٢) قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج: ٤٦.

والمراد بالبلوغ هنا هو البلوغ العقلي وليس البلوغ البايولوجي (القدرة على الإنجاب)[١] أي أن الإنسان إذا بلغ سن التكليف وهو عاقل غير سفيه فإنه حينئذٍ يصح منه العقد؛ لأن تصرفاته حينئذٍ سوف تكون خاضعة لميزان العقل فلا ينخدع ولا يمكن أن يغشّ في المعاملة، كما أنه يمكن أن يضع الأشياء مواضعها، أما إذا بلغ وهو سفيه أو مجنون فإنه حينئذٍ لا يعتبر بالغاً يصح منه العقد.

وبهذا فإن المعاملة والمعاقدة لا تتم إلّا إذا كان الشخصان المتعاقدان يتصفان بأنهما ذوَي بلوغ عقلي أو نضوج عقلي. والدليل على هذا صحة البيعة التي وقعت من الحسنين عليهما السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهما كانا صغيرين حينما توفي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقد كان عمر الإمام الحسن عليه السلام سبع سنين، وكان عمر الإمام الحسين عليه السلام ست سنين، وقد بايعا جدّهما الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كما بايعه أصحابه. وهذه المسألة يذكرها أغلب المسلمين، ولولا أن النضج البايلوجي لا مدخلية له في الأمر لما قبلت بيعة الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام.

وبهذا فإننا نرى أن المقصود بالبلوغ هو البلوغ العقلي، وهذا يعني أنهما عليهما السلام لم يكونا بالصغيرين من الجهة العقلية. وهكذا فإننا نصل إلى نتيجة هي أن الصغر والكبر عندهما عليهما السلام لا يضيرهما بشيء؛ فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم عاملهما معاملة البالغ الراشد، وهذا طبعاً يدلّ على وجود ميزة لهما.

وكان الإمام الحسين عليه السلام من ضمن الثلاثة الذين كتب يزيد بن معاوية إلى عامله على المدينة الوليد بن عتبة أن يحضرهم ليأخذ البيعة منهم، وهم: الإمام الحسين عليه السلام، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير. وقد سبقه أبوه معاوية إلى ذلك حيث إنه جاء في إحدى السنوات حاجّاً فاستقبله الناس باعتباره الحاكم، ولمّا لم

---

(١) كما سبق أن نوّه المحاضر إلى ذلك في أكثر من محاضرة.

يجد هؤلاء الثلاثة بين المستقبلين وجّه إليهم مَن يحضرهم، وقد أمر خلال ذلك ثلاثة من رجاله ووضع في أيديهم السيوف، وأمرهم أن يقف كل واحد منهم خلف واحد من هؤلاء الثلاثة، وأن يضربوا عنق كل من يعارض كلامه، أو يقاطعه، أو ينفي، أو يهز رأسه منهم نافياً ما يقوله معاوية. ثم صعد المنبر فخطب الناس وقال: قد علمتم سيرتي فيكم، وصلتي لأرحامكم، وحملي ما كان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمّكم، وأردت أن تقدّموه باسم الخلافة، وقد بايع هؤلاء الثلاثة، فما ترون؟ فسكتوا فقال: ألا تجيبون؟ مرّتين [1].

غير أن اللعبة انكشفت بعد ذلك ولم تنطوِ على الناس؛ حيث إنهم قد عرفوا أن عبد الله بن عمر لم يكن راضياً عن هذه البيعة ولا عبد الله بن الزبير ولا الإمام الحسين عليه السلام، وأنه لم تكن هنالك بيعة منهم إطلاقاً. وهنا بدأ الناس بالتحدث بهذا الموضوع.

هذا حال البيعة التي حاول الأُمويّون أخذها لأنفسهم، وإذا لم يكن في البيعة اختيار فما قيمة هذه البيعة؟ نحن ذكرنا في صدر المحاضرة أنّ البيعة هي عبارة عن مبايعة ومعاقدة واتفاق بين الطرفين: الحاكم والمحكوم، لكن الأُمويّين أرادوا أن يجعلوها بيعة قسرية غير مستندة إلى رضا أحد الطرفين. فلمّا أن توفي معاوية أرسل يزيد ـ كما ذكرنا ـ كتاباً إلى واليه الوليد بن عتبة وأمره بإحضار هؤلاء الثلاثة وأخذ البيعة منهم، كما أمره بأن يضرب عنق كل من يرفض المبايعة وخاصة الإمام الحسين عليه السلام وقال له: إن امتنع عليك فاضرب عنقه وابعث برأسه إليّ.

فأحضر الكتاب إلى مروان بن الحكم وأخذ رأيه فأشار بإحضار الإمام

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٥١٠.

الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن مطيع وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأخذ بيعتهم وقال له: فإن أجابوا، وإلّا فاضرب أعناقهم. فقال الوليد: ليتني لم أكُ شيئاً مذكوراً، لقد أمرتني بأمر عظيم، وما كنت لأفعل.

ثم بعث الوليدُ عبد الله بن عمرو بن عثمان خلف هؤلاء، وكانوا مجتمعين في المسجد، فلما حضر رسوله قال الحسين عليه السلام للجماعة: «**أظن أن طاغيتهم هلك؛ رأيت البارحة أن منبر معاوية منكوس، وداره تشتعل بالنيران**».

فدعاهم الرسول إلى الوليد فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «**اسبقني وسألحق بك**». فلمّا ذهب الرسول جمع الإمام عليه السلام أهل بيته وأحضرهم معه وأمرهم بأن يقبضوا على سيوفهم وينتظروا؛ فإن خرج رجعوا معه، وإن سمعوا صوته عليه السلام قد علا على الوليد، فليدخلوا ليمنعوه منه عليه السلام.

فلمّا دخل عليه السلام عليه نعى إليه معاوية، وأخبره أن الخلافة تمّت ليزيد، وأمره بالبيعة له، فقال الإمام الحسين عليه السلام: «**نحن أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ويزيد فاسق، شارب الخمر، وقاتل النفس، ومثلي لا يبايع لمثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أينا أحقّ بالخلافة والبيعة**».

وحق للإمام عليه السلام أن يقول فيه مثل ذلك؛ فإنه حقاً شارب خمر، وفاسق، وقاتل للنفس المحترمة، وقد ترجم هذا المعنى الآلوسي ـ مع أنه الأكثر تعصّباً من أبناء جلدته ـ حيث يؤيّد قول معاصره الشاعر إذ يقول:

يزيد على لعني عريض جنابه ... فأغدو به من لعنه ألعن اللعنا

إن المؤمن غير لعان ولا سباب [1]، فكلّ ذلك لا داعي له، لكن في بعض

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس المؤمن بطعّان ولا بلعّان ولا الفاحش البذيء». مسند أحمد ١: ٤٠٥.

الحالات نجد أن الواقع يفرض نفسه في مثل هذه الأُمور، وهي أُمور تلجئ إلى أن يسب أحد الناس أو يلعن بما يفعل ويرتكب من معاصٍ. ومن هذا ما يفعله يزيد وهو على منبر المسلمين.. يزيد الذي يروي الجميع عنه أنه كان يرقى منبر المسلمين ويقول:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنّمُ

خذوا بنصيب من نعيم ولذّة ... فكلٌّ وإن طال المدى يتصرّمُ[1]

فهذا المنبر هو في حقيقته منبر رسول الله ﷺ؛ لأنه امتداد لذلك المنبر الذي شرّفه ﷺ بالجلوس عليه، وعليه فإن من يصعد عليه يجب أن يكون إنساناً واعياً مؤمناً ملتزماً، وليس إنساناً منحلاً تحرّكه الخمر يميناً وشمالاً. فمثل هذا في حقيقة أمره لا يعدو كونه مأساة حلّت بالمسلمين ولذا فإن الإمام الحسين قال للوليد: **«ومثلي لا يبايع لمثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أينا أحقّ بالخلافة والبيعة»**.

وكان الوليد من عقلاء الأُمويّين، وكان بعيد الغور والفكر، وممّا يذكر له أنه كان قد نهى عبيد الله بن زياد عن الاقتراب من الإمام الحسين عليه السلام وإلحاق الأذى به، وحذّره بأنه سوف يوقع نفسه بذلك في مشاكل جمّة لا حصر لها؛ لأن دم الحسين عليه السلام لا يبقى معه بناء، وسيهدم الحكم من أساسه ولكن هذا الأخير لم يطع أمره.

وهنا قال له الوليد: انصرف يا أبا عبد الله مصاحباً على اسم الله وعونه حتى تغدو عليّ. وكان مروان قد أسرّ إلى الوليد أن اضرب رقبته، ثم قال جهراً: لا تقبل عذره واضرب رقبته، فغضب الحسين عليه السلام وقال: **«ويلي عليك يابن الزرقاء، أنت**

---

(١) جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٣٠١.

تأمر بضرب عنقي؟ كذبت ولؤمت؛ من الذي يقتلني؛ أنت أم هو؟».

ثم خرج الإمام، فلمّا ابتعد قال مروان بن الحكم للوليد: والله لئن فارقك اليوم لا قدرتم عليه حتى تكثروا القتلى، وسترى ما يصير أمره إليه. فقال: ويحك إنك أشرت إليّ بذهاب ديني ودنياي، والله ما أُحبّ أن ملك الدنيا لي وأني قتلت حسيناً، والله ما أظن أن أحداً يلقى الله بدمه إلّا هو خفيف الميزان.

وبقيت هذه المسألة في نفس مروان إلى أن رأى الإمام الحسين بعد يومين من هذا الحوار خارجاً من المدينة، فقصده وقال له: أبا عبد الله أطعني ترشد. فقال: «**قل**». قال: بايع أمير المؤمنين يزيد؛ فهو خير لك في الدارين. فقال الإمام الحسين: «**وعلى الإسلام السلام؛ إذ قد بليت الأمة براعٍ مثل يزيد. ولقد سمعت جدي يقول: الخلافة محرمة على آل أبي سفيان**»(١).

وانصرف الإمام الحسين إلى مقصده وانصرف مروان وهو حانق، وقد كتم ذلك وحفظها، إلى أن جيء برأسه الشريف إليه وهو في المدينة، ذلك أن يزيد أمر بإرسال الرأس إلى المدينة وإلى واليه عليها عمر بن سعيد الأشدق، وقال له: نفّس عن روحك؛ فإن هذا ابن الذي قتلكم في واقعة بدر، فأدرك ثأرك.

فأخذ الرأس ووقف أمام قبر النبي وقال: يا محمد ثار بثارات بدر. ولما سمع النوح والبكاء في بيت بني هاشم أنشد بيته المعروف:

عجّت نساءُ بني زياد عَجةً كعجيجِ نِسوَتِنا غداةَ الأرنبِ(٢)

حيث خرجت أم لقمان بنت عقيل وهي ضاربة بيدها على رأسها ومعها أخواتها

---

(١) انظر في كل ذلك: مثير الأحزان: ١٣ ـ ١٥، الأخبار الطوال: ٢٢٧ ـ ٢٢٨، تاريخ الطبري ٤: ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٢) الإرشاد ٢: ١٢٣، شرح الأخبار ٣: ١٥٩، تاريخ الطبري ٤: ٣٥٧، الكامل في التاريخ ٤: ٨٩.

وهي تقول:

ماذا تقولون لو قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأممِ

بعِترتي أهلِ بيتي بعد مفتَقَدِي ... منهم أُسَارَى ومنهُم ضُرِّجوا بِدَمِ[1]

فلما سمع بكاء العلويات ونوحهنَّ اطمأن وبعث ذلك في نفسه شيئاً من الراحة والفرح ومن التشفي. وهكذا نجد أن هؤلاء اللئام قد أبكوا النساء، وطبعوا بيوت الهاشميين بطابع اليأس والأسى واللوعة والنحيب، وجعلوا منها بيوتاً يغلب عليها الشجا والأنين، وخصوصاً بيت الحسين بن علي عليه السلام التي كانت تدور فيه عقيلة الطالبيين وهي تقول:

منازل كانت نيّرات بأهلها ... تولّىٰ عليها غبرة وقتامُ

ألا لا تزان الدار إلّا بأهلها ... على الدار من بعد الحسين سلامُ

* * *

يناعي اشبعد تدري اشغدالي ... شفت ونّتي وهضمة عيالي

على حي أهل المعالي ... عجب نزَلهم صوت عالي

اخذ معصبي وانخة بدالي ... بيت وبگى من الزلم خالي

* * *

تلك الديار العامرات بأهلها

(١) الإرشاد ٢: ١٢٤، تاريخ الطبري ٤: ٣٩٤، تهذيب الكمال ٦: ٤٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٥، الكامل في التاريخ ٤: ٨٩، البداية والنهاية ٦: ٢٦١، ٨: ٢١٥.

﴿١٩٩﴾

مبدأ المساواة في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: مشكلة التمايز العرقي

نزلت هذه الآية الكريمة ـ كما يذكر المفسرون عند تطرقهم إلى سبب نزولها ـ لتعالج مسألة نظرة المجتمع إلى الأبيض والأسود، وسيمر علينا ـ إن شاء الله خلال المبحث الأول حول أسباب النزول ـ سبب نزول هذه الآية وموجبها.

إننا بالرجوع إلى التاريخ والواقع نجد أن مشكلة التمايز العرقي قد برزت منذ أن خلق الله جل وعلا البشرية، وإن كانت قد وصلت إلى أوسع صورها وأبعد مدياتها في هذا الزمان. والمشكلة العرقية أدّت إلى ازدراء عرقٍ بعضَ أبناء العرق الثاني بحجة أنه أشرف منه أو أنبل. والذي يريد أن يحدّد منبع هذه المشكلة فإنه سوف يجد أنها نابعة من الجهل وانعدام الثقافات. وهنا نِقاط

---

(١) الحجرات: ١٣.

ثلاثة حول هذا الأمر، هي:

الأولى: أن الناس سواسية في أصل المنشأ والخلقة

فالقرآن الكريم يؤكّد دائماً على وحدة المصدر بالنسبة للبشر، وهي من الأُمور الأساسية في واقع الإنسان وفي حياته.

وهذا يعني أنه ليس هناك أي تفاوت في المنشأ والخلقة بين إنسان وآخر، فالأصل في المنشأ والخلقة واحد، وهو الماء والطين، والماء واحد والتراب واحد، أو هو الماء المهين الذي خلقوا منه.

الثانية: أن المصدر واحد وهو الخالق جلّ وعلا

وقد عالج القرآن الكريم هذا الجانب علاجاً علميّاً حيث قال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ**﴾، وهذا يعني أن الخالق واحد وهو الله جلّ وعلا وأن الخلق جميعهم لم يخلقهم غيره. وهذه الآية الكريمة كأنما هي في مقام الرد على إشكال مقدر، فربما يظن البعض أن هناك تفاوتاً في الخالق أو اختلافاً فيه. ونحن نرى أن البعض يعزو سبب الخلق وسبب إيجاده أو عله إيجاده للسبب الطبيعي، فهو مثلاً يظنّ أن ما تنبته الأرض من نبات هو وليد عمليّة طبيعيّة تتمّ بين مرحلة بذر الفلّاح للبذور، وبين التربة والبيئة الطبيعية؛ من الماء، والتراب، والضوء، وما إلى ذلك.

وبهذا اللحاظ فإن هؤلاء يعزون علّة وجود الولد إلى الأبوين، أي أنه بمفهومهم معلول لاجتماع الأبوين، وهذا يعني أن هناك خالقاً متعدّداً. ولذا فإن القرآن الكريم تناول هذه المسألة ليقضي على أسباب الظن تلك عند الناس، وهي الأسباب التي تؤدّي إلى حصوله، وهو الظنّ المؤدّي إلى الاعتقاد بأن هناك تفاوتاً في الخالق، وهدمها من أساسها. ثم بعد ذلك عمدت هذه الآية الكريمة إلى أن

تبيّن لهم أن الخالق واحد هو الله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾، أي أن كلّ فرد من نسل آدم مخلوق لله جل وعلا.

الثالثة: اشتراك الزوجين في عملية الإنجاب

ولذا فإننا نجد أن الآية الكريمة تقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ وهذا يعني أن كل مخلوق ليس معلولاً للسبب الطبيعي بل بوساطة السبب الطبيعي، أي أنه معلول لله جل وعلا بواسطة السبب الطبيعي الذي هو الأب والأُم معاً، وليس من الأب وحده، أو من الأم وحدها.

وعليه فكلّ إنسان مخلوق من أبوين، وهذه الظاهرة هي ظاهرة عرفية أساسية؛ لأنها تكون في مواجهة بعض الظواهر العرفية التي تحكم المجتمع من قبيل المنزلة والجاه والمركز الاجتماعي وما إلى ذلك، فكل هذه الأُمور تندكّ أمام الواقع الذي يقول: أن كل إنسان مخلوق من أبوين لا فرق في ذلك بين أحد وآخر، وإنهم جميعهم أصلهم تراب [١].

وممّا يروى في هذا المجال أن الإسكندر كان في جيشه يوماً، فأعجبته نفسه وما هو فيه من حال؛ إذ إنه رأى وراءه جيشاً ضخماً جرّاراً، فشعر بشيء من الاعتزاز والزهو، وفي هذه الأثناء مرَّ بشخص جالس عند القبور ينبش فيها، فقال له الإسكندر: ما تصنع؟ قال: أنا أنبش القبور في هذه المقبرة منذ فترة؛ لأرى إن كانت العظام المتبقّية فيها تتميّز عن بعضها أو لا. ففي هذه المقبرة عظام متنوّعة لعظماء وعباقرة وملوك وفلاسفة وأُناس بسطاء كلّهم ماتوا ودفنوا هنا، فأردت أن

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ المؤمنون: ١٢، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلّكم لآدم وآدم من تراب». تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

أُميّز بين عظام هؤلاء وعظام هؤلاء، فرأيت أنها لا تختلف.

وهنا رأى الإسكندر أن لهذا الرجل عقلاً راجحاً، فأحبّ أن ينتفع به، فقال له: فهل لك أن تتبعني؛ فأُورثك شرف آبائك وأجدادك إن كانت لك همّة؟ قال: إن همّتي لعظيمة إن كانت بغيتي عندك. قال: وما بغيتك؟ قال حياة لا موت فيها، وشباب لا هرم معه، وغنى لا فقر فيه، وسرور بغير مكروه. فقال: لا. قال: فامضِ لشأنك ودعني أطلب ذلك ممن هو عنده عز وجلّ ويملكه. فقال الإسكندر: هذا أحكم منا[١].

وهذا المعنى طلب أحد الأعراب أن يكتبوه على قبره:

ياواقفينَ ألم تكونوا تعلموا	أن الحِمام بكم علينا قادمُ
لو تنزلون بشِعبنا لعرفتُمُ	أن المفرّطَ في التزوّدِ نادمُ
لا تستعزّوا بالحياةِ فإنكم	تبنون والموتُ المفرّقُ هادمُ
ساوى الردى ما بيننا في حفرة	حيث المخدَّمُ واحد والخادمُ[٢]

المعالجة القرآنيّة

وهنا يبرز سؤال هو هل إن القرآن الكريم كان يعالج مشكلة آنية، أم إن هذه الآية الكريمة ناظرة إلى شعور إنساني؟ ولتوضيح هذا التساؤل نقول: إن الأرض فيها تيارات كثيرة من التفكير والتجارب، ومحاولة تحليل الأُمور وإيجاد المبرّرات لها، ومن ذلك مثلاً أن الغني يقولون عنه بأنه ما صار غنياً وما أصبح غنياً إلّا لأن الله جل وعلا يحبّه وينزله منزلة عنده؛ ولذا فإنه أغناه وجعله يتنعمّ

---

(١) العاقبة في ذكر الموت ١: ١٩٤، تسلية أهل المصائب ١: ١٩٣ ـ ١٩٤، محاضرات الأُدباء ١: ٥١١، تاريخ مدينة دمشق ١٧: ٣٥٥.

(٢) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٥٩٩.

بهذا النعيم دون غيره الذين يعيشون الفقر المدقع أو آلام الفقر والجوع والعري وما إلى ذلك.

وهذا اللون من التفكير أو هذا النوع من النظريات الاجتماعية السائدة بين الناس والتي كانت تسيطر عليهم سعى الإسلام جاهداً إلى القضاء عليها؛ لأنها نظريات ناشئة عن وهم وليست عن حقيقة. وهي نظريات موجودة عند العوام، وهذا ما يؤكّد كونها ناشئة عن الوهم وليست عن العقل والحقيقة. وهنا يأتي دور القرآن الكريم ليلغي هذا التيار، وليشعر بأن الرزق الحلال هو رزق الله جلّ وعلا: **﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾**[١]، فيا أيها الإنسان لا تأكل من رزق يأتي من مصدر آخر[٢].

وعليه فهناك تيارات كثيرة من هذا النوع، وتفسيرات أو تبريرات مختلفة منشؤها الجهل الذي يسيطر على الطبقة العامّة، أو المواضعات العرفية الباطلة التي تتحكم بأذهان الناس وعقولهم، والتي جاء الدين ليعالجها وليقضي عليها بأن عالجها معالجة جذرية.

الآثار الوضعيّة السلبيّة للتمييز العرقي

ومن جملة هذه التيارات الباطلة والظواهر العرفية الاجتماعية الفاسدة التي عالجها القرآن الكريم وقضى عليها مسألة تفاوت الناس؛ لأن البعض يظن أن فلاناً ذو أصل عالٍ، وغيره ذو أصل متسافل ودانٍ، وأن هذا من طبقة راقية عليا، وهذا من طبقة فقيرة مسحوقة. وهذه التيارات لا تزال تعيش بيننا إلى الآن وهو

---

(١) البقرة: ٥٧، ١٧٣، الأعراف: ١٦٠، طه: ٨١.

(٢) أي مصادر الرزق غير المباحة، والتي لا تكون من الله كالربا والسرقة وما إلى ذلك.

أمر تترتب عليه مشاكل كثيرة وكبيرة، وربما بلاء عظيم، ومن ذلك ما لاحظناه من الاستعمار الذي سيطرت فيه الدول الكبرى على الدول الصغيرة، وعاثت فيها فساداً، وعبثت في ثرواتها ومقدّراتها وطاقاتها التي منحها الله إياها، وكذلك تفرض عليها وصاية لأسباب متعدّدة كلّها ترجع إلى سبب حقيقي واحد هو الشعور العرقي؛ ذلك أنهم (أصحاب الدول المستكبرة) يرون أن هذه الدول المستضعفة هي دول لا تملك حق إدارة نفسها؛ لأنها من عرق أدنى؛ وبالتالي فإن على الدول الاستعمارية أن تضع لها قوانينها، وأن تفرض عليها وصايتها.

والحقيقة أن هناك تخطيطاً جذرياً لحلّ هذه المشاكل، مع أنه عند هذه الدول المستعمرة لاسيّما في أوروبا وأمريكا مجرّد شعارات برّاقة يهدف من ورائها إلى الوصول إلى الغاية التي ترجوها تلك الدول من وراء رفع هذه الشعارات، من قبيل شعار الأُخوّة الواحدة، والإنسانية الواحدة، وأن ليس هناك من فرق بين إنسان وآخر، وما إلى ذلك من الكلام المعسول الذي يهدف من ورائه نفث السم في نفوس أبناء هذه الشعوب؛ ذلك أننا حينما ننظر إلى المعاملات الواقعية وإلى التيار الشعبي والممارسات الفكرية والدراسات الحضارية؛ فإننا نجدها تختلف اختلافاً كبيراً وكاملاً عن تلك الشعارات المرفوعة والتي إن هي إلّا شعارات للاستهلاك.

فالواقع غير هذا تماماً، فأبناء الشعوب الأوربيّة مثلاً يحتقرون السود ويعاملونهم معاملة خاصة بل حتى مع الملوّنين الآخرين، ومن ذلك أنني كنت قبل فترة من الزمن هناك لأُجريَ بعض الفحوصات الطبية، فجاء شخص وجلس قربنا، ثم التفت إلينا وقال: أنا أُحبّ الملوّنين.

والشاهد أن هذا الواقع ـ وهو النظرة إلى الملونين حتى من غير السود نظرة

خاصّة ـ لا زال يعيش في أذهانهم، فهم لا يستطيعون أن يتخلّصوا من فكرة أنهم من عرق، وأن الملونين من عرق آخر. بل إن هذا الذي خاطبنا بهذا الخطاب يظن نفسه أنه متفضّل على الآخرين؛ لأنهم ملوّنون ومع ذلك فهو يحبهم. فهو لم يستطع أن ينسى تلك النزعة التي تسود المجتمع الأوروبي، وهو أنه من عرق وأن الملونين من عرق آخر أدنى منه.

وهذا اللون من الفكر الضحل والتفكير الساذج موجود يعيش على الساحة الواقعية أو العملية لتلك المجتمعات وتفرز عنه قضايا مروّعة. والسر في ذلك أن الممارسات الفعلية أو الواقعية أو العملية عندهم غير قائمة على دين أو على عقيدة، وإنما تتّكئ على مواضعات إنسانية مخطوءة، وهي مواضعات اقتضتها طبيعة التفكير لتلك الشعوب، وطبيعة تعاملهم مع الشعوب الأُخرى، وواقعهم الذي انطلقوا منه كونهم مثلاً دولاً متطوّرة.

مشكلة الشعور العرقي ومعالجة الإسلام لها

من هنا فإننا نجد أن الإسلام قد جاء وخطّط للقضاء على هذا اللون من التفكير. والتخطيط الإسلامي لمعالجة هذه المشكلة كان ينفتح على مسارين:

الأول: الطريق النظري

وهو طريق اعتمد على أشكال ثلاثة من المعالجات، وقد مرّ الحديث عنها مفصّلاً في صدر هذا المبحث، وهي:

الأولى: أن الخالق جل وعلا واحد

فالإسلام عالج هذه المشكلة أولاً ببيان أن الخالق واحد، وإذا كان الخالق واحد فالمخلوقون متساوون، لا يفضل بعضهم بعضاً إلّا بما فضّلهم به الخالق

نفسه[1] دون وسائل التفضيل الاجتماعية، والمواضعات العرفية الباطلة التي اختطّها الناس واستنّوها ومشوا على هديها.

الثانية: أن كل إنسان مخلوق من ذكر وأُنثى

إن الإسلام عالج هذا الجانب نظرياً كذلك ببيان أن كل مخلوق هو من ذكر وأُنثى، وما داموا من أصل متشابه؛ فهم إذن متساوون، وليس هناك من فرق بين أحد وآخر.

الثالثة: أن الأصل للإنسان واحد

أي أنهم مخلوقون من أصل واحد هو الماء والتراب، أو من الماء المهين نفسه، ومن هنا فلا فرق بين أعجمي وعربي، وأبيض وأسود من هذه الناحية؛ لأنهم جميعاً متكوّنون من ماء واحد. بل وفوق هذا نجد أن الحيوانات والسمك كذلك تشارك الإنسان بأنها قد تكوّنت من هذا الماء. فمثلاً المادّة البروتوبلازمية التي تتكوّن منها جميع الكائنات الحية، بل حتى النبات هي عينها تلك المادّة الموجودة في الإنسان سوى بعض الخصائص التي تميّز مثلاً البروتوبلازم الحيواني عن النباتي، أو النباتي عن الحيواني وما إلى ذلك. وإلّا فيما عدا ذلك فإن الكتلة البروتوبلازمية التي تتكون منها المخلوقات الحية هي متشابهة في أغلب صورها، وفي أغلب مركباتها ومكوناتها.

وهذا الأمر يعني أن بين الإنسان وبين الكائنات الحية الأخرى قرابة، وأنهم جميعهم من مصدر واحد وهو هذا الماء الذي أنتج لنا هذه الموجودات بعد التقارب بين الذكر والأُنثى؛ ولهذا فإنه تعالى يقول: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾**.

---

(١) فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات: ١٣.

فهذه المعالجة النظرية هي معالجة قائمة على أساس أن هناك الكثير من المواضعات العرفية والآراء والتيارات والنظريات الاجتماعية التي عالجها الإسلام كما ذكرنا، والتي كانت فاسدة وقائمة على أساس مخطوء، ثم جاء الإسلام وعالجها.

التعليلات المادّيّة للعامل العرقي

ولذا فإننا حينما ننظر إلى الواقع عند الأُمم التي تجعل من نفسها وصية على غيرها، والتي ترى نفسها أنها العرق الأفضل والأعلى من بين الأعراق الموجودة على الأرض نجدهم مثلاً يفسّرون تقدّم الحضارات، ويعلّلون التطوّر التاريخي بتعليلات مختلفة تبتعد جملة وتفصيلاً عن روح الإسلام وروح الأديان بشكل عام. ومن هذا مثلاً ما نلاحظه من بعض علمائهم ومفكّريهم، كفرويد الذي يحاول أن يربط ويعلّل التاريخ تعليلاً كاملاً بالعامل الجنسي، ونجد أن ماركس مثلاً يحاول أن يعلّل التاريخ بتعليل اقتصادي، ويأتي آخر ليعلّله وليعلل الحضارات عامّة وسيادة بعضها دون بعض بعامل الأجناس، وهكذا.

ولا يعني هذا إلّا أن هناك عرقاً شرقياً، وآخر غربياً، وأن هناك جنساً أشقر وآخر أسود أو أبيض. وهذا هو السبب الذي من أجله يدّعي أنّ الحضارات جميعها مدينة للحيوان الأشقر ـ الألمان ـ وهو ما يسمى بالجنس الآري، وما اشتق من فصائلهم. فهؤلاء لهم الحق بالتصرّف بالأجناس الأُخرى؛ لأنهم يظنّون أنفسهم أنهم الجنس الأفضل. بل إن هذه النظرية تعطي هذه الشعوب وهذه الحضارات خصائص تجعل منها أصل الحضارات في العالم، والحضارات الأفضل، والأعلى مرتبة؛ لأنها حضارة الجنس الأشقر.

وهذه مغالطة صريحة وكبيرة، بل وكفر بالإنسانية؛ ذلك أن هـذه الحـضارات التي يتكلمون عنها ربما تكون قد تهيّأت لها أسباب النشأة هناك فانتعشت أكثر وعاشت مدة أطول، لكن الواقع ليس كذلك؛ فالشعوب الشرقية مثلاً سادتْها الكثير من الحضارات التي خلدت والتي بنت والتي أعطت، كالحضارات التي عاشت في الجزيرة العربية، والتي حملت في تاريخها صوراً مـن تـلك الحـضارات، ومـن سيادتها خصوصاً في الجانب الإنساني المتأصّل، وكذلك الحضارات التي عاشت في مناطق أُخرى من العالم.. في الجزء الشرقي منه.

إذن فالإسلام حاول أن يعالج هذا بأن يقول: ليس هناك حضارة أفـضل مـن حضارة أخرى بسبب عرقها؛ بل إنها ربما تكون أفضل مـنها بسـبب التـقوى أو الإيمان أو العلم أو ما تقدمه للبشرية لا بسبب العرق أو اللون وما إلى ذلك.

الثاني: التخطيط العملي

وهو أسلوب اتّبع الإسلام به الأُسلوب النظري، أو التخطيط النظري، وذلك بأن عمد إلى دمج جميع الأجناس في تيار واحد، وجعلهم في مستوى واحد لا يفضل بعضهم بعضاً إلّا بأُمور التقوى، فقضى على فكرة أن الأبيض أفضل من الأسود بأن جوز وشرّع أن يتزوج الأبيض من الأسود والأسود من الأبيض. وقد تمثّل هذا الجانب بصور عدّة، منها:

الأولى: الأمر بالزواج من الإماء والعبيد

إننا بالرجوع إلى تاريخ المسلمين نجد أن هذا الأمر لم يكن ليثير حسـاسية واضحة المعالم عند المسلمين إلّا أولئك الذين كانت الجـاهلية العـمياء لا تـزال تعيش في نفوسهم، وإلّا فإن المسلم الذي يؤمن بالله وبرسوله وكتبه يقتدي بسيرة المصطفى ﷺ حينما طلب من بني بياضة أن يزوجوا جويبراً الأسود من إحدى

بناتهم، حيث قال له: **«انطلق يا جويبر إلى زياد بن لبيد؛ فإنه من أشرف بني بياضة حسباً فيهم، فقل له: إني رسول رسول الله إليك، وهو يقول لك: زوج جويبراً من ابنتك الذلفاء»**.

فانطلق جويبر برسالة رسول الله ﷺ فقال له زياد: أرسول الله أرسلك إلي بهذا يا جويبر؟ فقال له: نعم، ما كنت لأكذب على رسول الله ﷺ. فقال له زياد: إنا لا نزوّج فتياتنا إلّا أكفاءنا من الأنصار، فانصرف يا جويبر حتى ألقى رسول الله ﷺ، فأُخبره بعذري. فانصرف جويبر ثم بعث زياد رسولاً فلحق به فقال له زياد: يا جويبر مرحباً بك، اطمئن حتى أعود إليك. ثم انطلق زياد إلى رسول الله ﷺ، فقال له: بأبي أنت وأُمّي، إن جويبراً أتاني برسالتك، فرأيت لقاءك، ونحن لا نزوّج إلّا أكفاءنا من الأنصار. فقال له رسول الله ﷺ: **«يا زياد، جويبر مؤمن، والمؤمن كفءٌ للمؤمنة، والمسلم كفءٌ للمسلمة، فزوّجه يا زياد ولا ترغب عنه»**.

فرجع زياد إلى منزله، ودخل على ابنته فقال لها ما سمعه من رسول الله ﷺ، فقالت له: إنك إن عصيت رسول الله ﷺ كفرت. فزوّج جويبراً من ابنته [١].

ولذا فإن الرسول الأكرم باعتباره الواجهة لهذا الدين وتعاليم السماء كان أول من شرع لكسر هذا الحاجز بأن زوّج ابنة عمته من زيد بن حارثة التي قالت له: طاعة لله ولرسوله أتزوجك.

الرسالة الإسلامية في زيجات أمير المؤمنين عليه السلام

كما أنه ﷺ نفسه تزوّج من إماء أو مسبيات، كما تزوج من صفية بنت حيي

---

(١) الكافي ٥: ٢٤١ / ١، بحار الأنوار ٢٢: ١١٨.

ابن أخطب حيث أسلمت ثم تزوجها، وكذلك تزوج من مارية القبطية وهي جارية. وكذلك فعل الإمام علي عليه السلام والأئمة عليهم السلام من بعده حيث إنهم تزوّجوا من الجواري والإماء مع أنهن من أجناس أُخرى ومن أعراق أُخرى دون أن يلحظوا هذه الأُمور التي ما هي إلّا وليدة المواضعات الاجتماعية التي نهى الإسلام عنها.

ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر نقول: إن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علياً عليه السلام حينما عمدا إلى هذا الفعل كانا على صدد المسار العملي للقضاء على نظرية التفريق بين الأجناس والأعراق والألوان، والدعوة بشكل عملي إلى المساواة بينهم، لكننا نجد أن هذا قد انقلب سلباً على أمير المؤمنين عليه السلام حيث إن هناك الكثير من الناس ممن يضع تصورات هي وليدة فكره وذهنه وعقله الظلماتي في هذا المجال حينما يحاول أن يفسر زيجات الإمام علي عليه السلام تلك على أنها وليدة أنه عليه السلام يتمتّع بقوّة وعنفوان يمكّنانه من الزواج من هذا العدد حينما تزوّج عشراً من غير الحرائر من الإماء والسراري.

فالبعض منهم يعطيها بعداً منقبياً، ويظنّها أو يعتبرها منقبة لأمير المؤمنين عليه السلام، أما البعض الآخر فيعطيها بعداً آخر يحاول من خلاله أن يقدح في شخصية الإمام عليه السلام وأن يظهره على أنه ممن يتسرّى [1]. كما أنهم بهذه المحاولة يريدون أن يبرروا ما كان عليه الخلفاء العباسيّون والأُمويّون من كثرة اقتناء الجواري والقيان، حتى إن هارون الرشيد ـ كما تقول الروايات ـ كان عنده ألف جارية،

---

(١) فهم في هذا قد فعلوا في الإسلام وضدّه ما يفعله المستشرقون الآن به؛ حيث إننا نجد أنه الفعل عينه الذي حاول المستشرقون أن ينسبوه إلى الرسول حينما صوروه على أنه صلى الله عليه وآله وسلم أكول، ورجل شره جنسياً جل صلى الله عليه وآله وسلم وتنزّه عن ذلك.

وكان للمتوكل أربعة آلاف سرية، وكان سليمان بن عبد الملك يبكي كالأمة الوكعاء على جارية له ماتت ورفض أن يدفنها أيام طويلة تاركاً دينه وعبادته، وتاركاً أهل مملكته وسلطانه دون أن ينظر إلى حالهم، بل إنه كان كل همه وفكره منصبّاً على جاريته تلك التي توفاها الله.

وعلى أية حال فلا هؤلاء ولا هؤلاء ملتفتون إلى البعد الحقيقي والأساسي الذي جعل من الإمام علي عليه السلام يفعل هذا الفعل، مع أن هذه المسألة كانت في أيام أمير المؤمنين عليه السلام مسألة طبيعية عند أغلب المسلمين الذين كانوا يتزوّجون الإماء، بالإضافة إلى الحرائر.

فالمسألة إذن تكمن في الإقدام على الزواج من الإماء والاندماج معهن؛ لأنها مسألة حسّاسة، ولم تكن موضع قبول عند الكثير من العرب آنذاك؛ ولذا فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما ذكرنا قبل قليل ـ قد زوج ابنة عمته من مملوك وتزوج هو من الإماء معتبراً أن هذا نهراً إنسانياً تصبّ فيه كل الروافد من غير فرق إطلاقاً بين رافد ورافد.. بين كائن إنساني وكائن إنساني آخر. وهذا هو المنبع الإنساني الأصيل الذي درج عليه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وخيرة صحابته من بعده.

الثاني: حسن معاملتهم

ومن ناحية أُخرى، وكشعار عملي للمساواة بين الأجناس والأعراق في الإسلام فإننا نجده يأمر بحسن معاملة المماليك، فلم يجز الإساءة إليهم بقول أو بفعل، في حين أن التاريخ مثلاً يحدثنا عن الرومان أنهم كانت لديهم ملاعب خاصة يضعون فيها العبيد، ويعطونهم الأسلحة ليقتل بعضهم بعضاً، وهم يتضاحكون على الدماء التي تجري من تحتهم، وكأن هؤلاء لم يكونوا من البشر أو من بني جنسهم.

منشأ العبودية في الإسلام

وهنا أود أن أُشير إلى أن العبودية في الإسلام مصدرها الحرب، أي إذا قاتل المسلمون أحداً أو قاتلهم أحد ثم جاؤوا بأسارى منهم فإن للمسلمين أن يسترقّوهم مدة من الزمن، ثم بعد ذلك يفتح لهم الإسلام ألف باب للعلاج، أي لعلاج قضية الرقّ عندهم ولإعتاقهم. أما في فترة الرقّ فحالهم كما يقول الرسول الأكرم ﷺ: **«لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، ولكن ليقل: فتاي وفتاتي»**[١].

وقال ﷺ: **«ألبسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تأكلون»**[٢].

كما أن الإسلام شرّع أن السيد إذا أساء معاملة عبده وضربه فإنه يتعين عليه عتقه، فلا يحق للمالك ضرب العبد إلّا في حالات معينة يضرب بها الحر نفسه وهي موارد معصية الله جلّ وعلا، أو بعض الموارد الخاصة التي يعصي فيها العبد سيده.

فهذا علاج الإسلام لقضية الرق التي لم يعالجه أحد فيها مثله [٣]، وقد عالجت هذه الفكرة في إحدى قصائدي حيث قلت:

سدنا فما ساد الشعوب حضارة	أسمى ولا خلق أعفّ وأورعُ
قدنا الفتوح فما تشكّى وطأنا	فكر ولا دين ولا من يتبعُ
حتى الرقيق تواضعت أحسابنا	كرماً فأوليناه ما لا يطمعُ [٤]

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٣١٦، مسند أبي يعلى ١١: ٤٠٥ / ٦٥٢٩.

(٢) روضة الواعظين: ١٠٧.

(٣) عن ابن مسعود أنه قال: كنت أضرب عبدي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي، وإذا هو رسول الله ﷺ يقول: «اعلم أبا مسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام». فقلت: يا رسول الله، هو حرّ لوجه الله. فقال ﷺ: «أما لو لم تفعل للفحتك النار». مسند أحمد ٥: ٢٧٣ ـ ٢٧٤، صحيح مسلم ٥: ٩١ ـ ٩٢، مسند أبي داود ٢: ٥٠١ / ٥١٥٩.

(٤) ديوان المحاضر ١: ٤٩، قصيدة (معلّقة بغداد).

وهكذا فإن النبي ﷺ قد تزوج من الرقيق، وزوج بعض قريباته منهم، وأمر المسلمين بأن يفعلوا ذلك. فعليه ليس هناك من مسلم يؤمن بالله وبرسوله وهو يسيء إلى أهل لون أو عرق آخر من أجل حالة اجتماعية طارئة، وكما ورد في الحديث الشريف: «**المسلمون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، ويردّ على أقصاهم**»[1].

ضمانات الرقيق في الإسلام

وعند الاطّلاع على الضمانات التي وضعها الإسلام لما يسمى بطبقة العبيد، فإننا سوف نلحظ تلك الروح السمحة الكبيرة التي يتميز بها الإسلام عن باقي الأديان والطوائف والأنظمة الوضعية الأخرى، ومنها:

الأولى: علاج مشكلة الرق

فمن ناحية أنه جاء ولم يشرّع الرقّ بل إنه وجد الرقّ مشكلة قائمة فعمد إليها وعالجها علاجاً لم يكن معروفاً للآخرين، فهو علاج ناجع وغريب في بابه حتى إنه أوصل الحالة إلى أن قضى على هذه المشكلة من جذورها.

الثانية: الحقوق المالية والاجتماعية

ومن ناحية ثانية فإننا نجد أن أبناء العرق الأسود كانت لهم امتيازات وضمانات كفلت لهم حياة حرة كريمة في ظل دولة الإسلام ونظامه الإلهي. ولو أخذنا أُنموذجاً من هذه وهو بلال الحبشي (رضوان الله تعالى عليه)، فهو مؤذن النبي ﷺ، وكان من الرواد الأوائل في الإسلام، وممن بادر إلى غرس بذرة

---

(١) دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجة ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ ـ ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١.

الإسلام وسقيها، وتحمّل دونها الآلام والمآسي من أجل أن تنمو وتكبر، ومن أجل أن يترعرع الإسلام.

وقد كان من المعذبين بالله، حيث إن أُمية بن خلف كان يخرجه إلى الصحراء ويطرحه على الرمل وقت الهاجرة في حر الصيف، ثم يأتي بصخرة حارة كبيرة ويضعها على صدره حتى يوشك نفسه أن ينقطع وهو يقول له: قل: أشهد أن اللات والعزى حقّ. فكان (رضوان الله تعالى عليه) يردّ عليهم بقول: أحد أحد، فرد أحد، لم يلد ولم يولد. حتى يئسوا منه، فسلطوا عليه السياط التي كانت تأخذ معها من لحمه، وهو يأبى أن يقول في آلهتهم خيراً كما طلبوا منه، ولم يكن يردّد سوى ما ذكرنا، وهي عبارة أحد أحد، فرد أحد، لم يلد ولم يولد[1]. وقد بقي على هذا الأمر منوالاً طويلاً حتى نال أشدّ العقاب، وحتى يئست منه الهمجيّة القرشيّة.

وكان بلال؟ يأتي مع جملة من الصحابة الأوائل الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن الإسلام إلى رسول الله ﷺ، ويطلبون منه أن يأذن لهم في اغتيال بعض رجال قريش، أو أن يقاتلوهم، فكان رسول الله ﷺ يرفض ذلك مجيباً إيّاهم بأن هذه المرحلة ليست مرحلة قتال، وليس هناك أمر به من الله جل وعلا؛ لأنه ربما أدّى قتل واحد من قريش إلى إبادة مجموعة ممّن عرفوا بأنهم على دين الإسلام.

وبقي ﷺ يجيبهم بهذا الجواب، حتى نزل قوله تعالى: **﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾**[2]، وحينها فقط أذنَ لهم الرسول ﷺ بالقتال، لكن قبل هذا أمرهم بأن يهاجروا إلى المدينة؛ لأنه ليس هناك من ملجأ

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ١٥٣، أُسد الغابة ١: ٢٠٧، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٣٨.
(٢) الحج: ٣٩.

أو مكان ينطلقون منه في مكة.

وفعلاً هاجر الرسول الأكرم ﷺ وهاجر بلال معه ـ أي بعد ذلك ـ وكان ممّن تكبّد الآلام، وقاتل مع النبي ﷺ.

تشريع الأذان ومدركه

وكان ﷺ هو من يرفع الأذان وقت الصلاة حينما نزل تشريعها عليه ﷺ؛ حيث يذكر المؤرّخون أنّ النبي ﷺ حينما نزلت فريضة الصلاة عليه تذاكر المسلمون فيما بينهم حول الطريقة الصحيحة التي يمكن أن يجتمعوا بها وقت الصلاة، واختلفوا في تحديدها على ثلاثة أقسام:

الأول: طريقة ضرب الناقوس

فقد قال بعضهم: يجب أن نضرب ناقوساً كالنصارى؛ حتى ينتبه الناس إلى الصلاة، ويأتوا إليها.

الثاني: إيقاد النار

وقال غيرهم: نوقد ناراً؛ ليجتمع المسلمون إلى الصلاة إذا ما رأوها.

وهي طريقة مستنبطة من فعل العرب الذين كانت عندهم نيران متعدّدة، منها نار الاجتماع؛ حيث إنهم كانوا حينما ينزل بهم شيء، يجتمعون ويتداولون بأمر هذا الشيء، بعد أن يروا النار من بعيد فيجتمعوا إليها من المغرب والمشرق. وهذا ما أراده هذا البعض حول رسم طريقة التنبيه إلى الصلاة.

الثالث: إرسال من ينبّه الناس إليها

وذهب هؤلاء إلى أن يُبعث منبّهون إلى البيوت القريبة من المساجد؛ كي ينبّهوا الناس إلى حلول وقت الصلاة.

رواية الرؤية

فكل من هؤلاء أعطى وجهة نظره التي يرى أنها صحيحة، وإلى هنا يروي المؤرّخون اتّفاق المسلمين على هذه النقطة. لكن ما بعد هذه المرحلة كان فيه اختلاف وخلاف بين المسلمين؛ حيث إن المذاهب الإسلاميّة تذكر أن أحد المسلمين الصحابة رأى في عالم المنام أن شخصاً قد أتاه وعلّمه صيغة الأذان المعروفة، ولما طرحها هذا الرائي أمام الرسول الأكرم ﷺ قبلها، وأمر بأن يؤذّن على المنائر بناءً عليها.

نقد رواية الرؤيا

وهذا الرأي طبعاً لا يمكن قبوله والأخذ به؛ لأننا لا نتعبد بالرأي والأحلام وإن كان الأذان مستحبّاً كما سيمرّ علينا؛ ولذا فإن الزيادة فيه لا على نحو الجزئية أمر لا يقدح في صحته. ومن ذلك ما يروى أن الخليفة الثاني حينما سمع أحد المؤذنين يقول: الصلاة خير من النوم، أقرها وقال: هذه زيادة لا بأس بها. وبهذا اللحاظ فإننا حينما نضيف (أشهد أن عليّاً ولي الله) فإنه لا يقدح في صحّة الأذان؛ لأنها إضافة مستحبة والأذان كله مستحب، ونحن لا نأتي بها على نحو الجزئية.

وربما يذهب الوهم ببعض الناس إلى حد يصور له أن الأذان واجب، وهذا ـ كما قلنا ـ من تصوّرات الوهم وتهيّؤاته. والدليل على ذلك أن من يصلِّ صلاة من غير أذان أو إقامة فصلاته صحيحة. ومع هذا فإن الأذان وإن كان غير واجب لا يمكن أن يقال بأننا قد أخذناه عن طريق المنام؛ فالأحكام الشرعية لا تؤخذ في حال من الأحوال من المنامات، والأذان في صيغته الحالية قد نزل به جبرائيل الأمين عليه السلام على رسول الله ﷺ، وبناءً على هذا راح المسلمون

يؤذّنون به لصلاتهم.

وكان بلال ﷺ جهوري الصوت، فطلب منه النبي ﷺ أن يؤذن حيث قال له: **«يا بلال أذّن»**، قال: كيف ذلك يا رسول الله؟ فعلمه الرسول الأكرم ﷺ صورة الأذان فشرع يؤذن ويُسمع من في المدينة بأن وقت الصلاة قد حل.

ومما يذكر في هذا الصدد أن بعض المسلمين جاؤوا رسول الله ﷺ وقالوا له: يا رسول الله، لا تسمح لبلال أن يؤذن. قال ﷺ: **«لماذا؟»**. قالوا: لأنه لا يقول: أشهد، بل يقول: أسهد. فقال ﷺ: **«إن سين بلال عند الله شين»**[1].

ونحن نلاحظ أن البعض حينما يريد أن يلفظ **﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾**[2] في الصلاة فإنه يتعامل مع نفسه وكأنه في مصيبة، فيظل محاولاً إخراجها مطيلاً فترة زمنها بما ربما يخرج به عن حد المصلي، مع أن الدين دين يسر وليس دين عسر؛ فقد أمرنا بأن نتصرف على حدود قدرتنا في العمل وفي التعبير[3]. وعليه فإن على الإنسان أن يتصرّف في جميع حالاته وممارساته بحدود القدرة على التعبير.

ثم إن هذا هو في حقيقة الأمر مظهر من مظاهر الصلاة، وعلينا أن نهتم بجوهر الصلاة بأكبر مما نهتم بمظهرها. والحال أننا لا نهتم بجوهرها مطلقاً، بل نهتم بمظهرها، أما الجوهر فلا نأخذه في حساباتنا، ولا نقيم له وزناً أو اعتباراً. وعليه فإن الاهتمام بالجوهر أمر أهمّ وأكثر ضرورة؛ لأنه يمثل روح الصلاة، وروح

---

(١) عدّة الداعي: ٢١، السيرة النبويّة (ابن كثير) ٤: ٦٥٧.

(٢) الفاتحة: ٧.

(٣) قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ البقرة: ١٨٥، وقال عزّ من قائل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦.

الصلاة تعلّمنا العفّة والخير والورع والصدق في المعاملة وفي الكلام والابتعاد عن الشرّ والتقوى وما إلى ذلك. هذه هي روح الصلاة التي ينبغي أن نتمسك بها، لا أن نتكلّف المظهر والقشور دون أن نلج إلى حقيقة الصلاة وإلى فلسفتها وإلى الغرض منها ونحن نؤدي هذه الفريضة [١].

وهكذا فإن على المسلم أن يتمسّك بروح الصلاة لا أن يتمسّك بالشكليات منها فقط، ولهذا السبب نفسه قال رسول الله ﷺ: **«إن سين بلال عند الله شين»**.

وفعلاً بقي بلال مستمرّاً على أدائه الأذان إلى أن توفّي النبي ﷺ حيث آلى بلال حينها على نفسه ألا يؤذّن لأحد، ثم انتقل إلى الشام، وبعد فترة رجع إلى المدينة وكان ذلك قبيل وفاة الزهراء عليها السلام، فلما سمعت به أرسلت إليه وقالت له: **«لقد اشتقت لسماع صوتك يا بلال»**. أي أنها عليها السلام تريد منه أن يرتقي المئذنة ويؤذّن، فقال لها: يا ابنة رسول الله، لقد آليت على نفسي ألّا أرفع الأذان بعد رحيل رسول الله ﷺ. فقالت عليها السلام له: **«لكن أنا بنت النبي»**. فامتثل وصعد ليرفع الأذان، فلمّا سمعته عليها السلام تذكّرت أباها فأُغمي عليها، فقطع بلال أذانه ونزل.

وموضع الشاهد هنا أن بلالاً رضي الله عنه من الروّاد الأوائل الذين وضعوا لنا اللبنات الأُولى البنّاءة في تاريخ الإسلام، وقد مثّل دوراً مهما في حياتهم وفي ثبات هذا الدين وانتشاره، ونال حظوة كبيرة من الرسول الأكرم ﷺ ومن ابنته الزهراء عليها السلام مع أنه أسود، فالإسلام يولي المسلم رعاية وعناية كبيرتين بغضّ النظر عن عرقه ولونه وانتمائه.

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت: ٤٥.

المبحث الثاني: سبب نزول الآية

يذكر الواحدي في أسباب النزول حول هذه الآية الكريمة فيقول: مرّ النبي الأكرم ﷺ ذات يوم ببعض الأسواق بالمدينة وإذا غلام أسود قائم ينادي عليه يباع فيمن يزيد، وكان الغلام يقول: من اشتراني فعلى شرط. قيل: ما هو؟ قال: لا يمنعني من الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ. فاشتراه رجل على هذا الشرط، وكان يراه رسول الله ﷺ كل صلاة مكتوبة، ففقده ذات يوم، فقال لصاحبه «**أين الغلام**»؟ فقال: محموم يا رسول الله. فقال لأصحابه: «**قوموا بنا نعُدْه**».

فقاموا معه فعادوه، فلما كان بعد أيام قال لصاحبه: ما حال الغلام؟ فقال: يا رسول الله الغلام قورب به، فقام ودخل عليه وهو في نزعاته، فقبض على تلك الحال، فتولى رسول الله ﷺ غسله وتكفينه ودفنه، فدخل على أصحابه من ذلك أمر عظيم؛ فقال المهاجرون: هجرنا ديارنا وأموالنا وأهلينا، فلم يرَ أحد منا في حياته ومرضه وموته ما لقي هذا الغلام. وقالت الأنصار: آويناه ونصرناه وواسيناه بأموالنا، فآثر علينا عبداً حبشياً.

فأطرق النبي ﷺ، ونزلت هذه الآية التي تخاطبهم قائلة لهم: يعني أنكم كلكم بنو أب واحد وامرأة واحدة، وأراهم فضل التقوى بقوله تعالى: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾**...[1]؛ لترفع عن نفوسهم هذا الشعور العرقي، ولتبين لهم أنكم كلّكم من منشأ واحد، ولتحذرهم من هذه الروح الكافرة.. الكافرة بالإنسانية وليس فقط بقيم الدين.

---

(١) أسباب نزول الآيات: ٢٦٥.

فهؤلاء في الواقع من الرواد الذين مثّلوا دوراً كبيراً في تاريخ الإسلام، وقد مارسوا حياتهم الطبيعية في الإسلام كما لو أنهم لم يكونوا ملوّنين أو غير ذلك، فقاتلوا مع المجاهدين، ونصروا الإسلام، وذبّوا عنه على امتداد مسيرته التاريخية.

دور الرفيق في واقعة الطف

ولعل في واقعة الطف أبرز مثال على ذلك فقد كان منهم من اشترك في هذه المعركة مناصراً الحق، ومدافعاً عن الإسلام الذي حاول الأُمويّون تضييعه وإرجاع الناس إلى الجاهلية الأولى، وسوف نذكر هنا أُنموذجين فقط:

الأنموذج الأول: زاهر مولى عمرو

فزاهر هذا هو مولى عمرو بن الحمق الخزاعي (رضوان الله عليه) الذي كان من أصحاب حجر بن عدي الكندي.. الصفوة الصافية من أصحاب أمير المؤمنين، وكان حجر وجماعته قد استشهدوا في سبيل ولائهم لأمير المؤمنين؛ حيث إن معاوية قد قتلهم في مكان قريب من الشام يقال له (مرج عذراء) وقبورهم إلى الآن موجودة في ذلك المرج.

وحينما اشتد الطلب على هذه المجموعة الطاهرة خرج منهم عمرو بن الحمق هارباً إلى الموصل، وكان الطلب يلاحقه وزاهر معه، يقول زاهر: كنا في الطريق، فلما نزلنا الوادي نهشته حيّة في جوف الليل، فأصبح منتفخاً، فناداني وقال لي: يا زاهر، تنحّ عني؛ فإن حبيبي رسول الله قد أخبرني أنه سيشرك في دمي الجن والإنس ـ فعرفت ماذا يعني بقوله: سيشرك في دمي الجن؛ لأن الحيّة تسمى جناً ـ ولابدّ لي من أن أُقتل.

فبينا نحن كذلك إذ رأيت نواصي الخيل في طلبه، فقال: يا زاهر تغيّب، فإذا قُتلت فإنهم سوف يأخذون رأسي، فإذا انصرفوا فاخرج إلى جسدي فغسّله وكفّنه وواره الثرى في قبري. فقال زاهر ـ وكان من الرماة ـ: لا، بل أنثر نبلي ثم أرميهم به، فإذا فنيت نبلي قتلت معك. قال: لا، بل تفعل ما سألتك به، ينفعك الله به؛ فأنا أعرف أن هذا لا يدفع عني شيئاً، كما أني أعرف ماذا قدّر الله لي.

فاختفى زاهر، وأتى القوم فقتلوا عمراً واحتزّوا رأسه، فحملوه، فكان أول رأس حمل في الاسلام ونصب للناس. فلما انصرفوا خرج زاهر فوارى جسده، وفعل به ما أوصاه [١].

وقد بقي زاهر حتى قُتل مع الإمام الحسين عليه السلام في الطف حيث إنه عليه السلام التحق به عليه السلام فقال له: **«ما الذي جاء بك؟»**. فقال له: جاء بي نصرتك. وفعلاً تبع الإمام الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكّة، ومن مكّة إلى العراق لم يفارق رحله حتى استشهد بين يديه (صلوات الله وسلامه عليه). وقد ورد في حقّه في زيارة الناحية [٢]: **«السلام على زاهر مولى عمرو بن الحمق الخزاعي»** [٣].

الأنموذج الثاني: جون مولى أبي ذر رضي الله عنه

وجون هذا قد مثّل دوراً أهمّ وأكثر وأكبر في معركة الطفّ، وقد شغل جانباً كبيراً من تاريخ معركة الحقّ ضدّ الباطل في كربلاء. ومن يمرّ بتاريخ كربلاء فلن يستطيع أن يتجاوز جوناً هذا؛ لأنه كان ذا تاريخ رائع، وكان ذا حياة حافلة

---

(١) شرح الأخبار ٢: ٣١ ـ ٣٢، كنز العمّال ١٣: ٤٩٧ ـ ٤٩٨ / ٣٧٢٩٠.

(٢) وهي الزيارة التي خرجت من الناحية المقدسة سنة (٢٥٢) هـ على يد الشيخ محمد بن غالب الأصفهاني. انظر المصدر اللاحق.

(٣) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٧٩، المزار (الشهيد الأول): ١٥٣.

بالكفاح والالتزام. وحينما نفي أبو ذر إلى الربذة يظهر أن جوناً قد تخلّف عنه، غير أنه من بعد وفاته التحق بأمير المؤمنين وأخلص له الولاء، ثم بعد استشهاد الإمام أمير المؤمنين انتقل ولاؤه إلى الإمام الحسن وبقي معه، وبعد استشهاده أيضاً انتقل ولاؤه إلى الإمام الحسين، حيث إنه خرج معه حينما خرج إلى كربلاء؛ فمن المدينة إلى مكّة، ومن مكّة إلى كربلاء لم يفارقه طرفة عين، حتى في ليلة العاشر من المحرم حيث إنه كان يصلح سيفه كما يقول المؤرّخون، وكان الإمام الحسين يتمثل بهذه الأبيات:

«يادهر أُفٍّ لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل

من صاحب أو طالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديل

وإنما الأمر إلى الجليل ... وكلّ حيّ سالك سبيلي»

وكان جون أثيراً جدّاً عند أهل البيت وقريباً من نفوسهم فلما اشتدّت الأزمة عليه وأُحيط به وعرف أن النتيجة قد حددت ورسمت، وأنه لابدّ من الوصول إلى النهاية، ورأى جوناً في اليوم العاشر من المحرّم قد تهيّأ للنزول إلى ساحة الحرب ناداه وقال له: **«أنت في إذن مني، فإنما تبعتنا طلباً للعافية، فلا تبتلِ بطريقنا»**.

أي إذا كنت خائفاً أو متردّداً فأنت في حلّ من بيعتي؛ لا حرج عليك ولا ذمام. فاشرأبّ إليه بعنقه وقال: يابن رسول الله أنا في الرخاء ألحس قصاعكم، وفي الشدّة أخذلكم، والله إن ريحي لمنتن، وإن حسبي للئيم، ولوني لأسود، فتنفس علي بالجنة، فتطيب ريحي ويشرف حسبي، ويبيض وجهي. لا والله لا أُفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم. فقال له الإمام الحسين: **«جزاك الله خيراً»**. ثم برز للقتال في اليوم العاشر من المحرم وبيده سيفه وهو يرتجز ويقول:

كيف يرى الكفّار ضرب الأسودِ بالسيف ذبّاً عن بني محمد

أذبّ عنهم باللسان واليد أرجو به الجنّة يوم المورد

حتى نكى بالجيش نكاية كبيرة، ثم قاتل حتى قتل، والإمام الحسين عليه السلام يراقبه، فلمّا سقط على الأرض صريعاً شهيداً، أقبل عليه السلام إليه وجلس عند رأسه، ومسح الدم والتراب عنه، ثم رفع رأسه الشريف إلى السماء وقال: **«اللهم بيّض وجهه، وطيّب ريحه، واحشره مع الأبرار، وعرّف بينه وبين محمد وآل محمد»**.

ثم نظر إليه طويلاً وقال عليه السلام: **«لا لقيت هواناً بعد هذا اليوم»**، ثم تركه ونهض.

وروي عن الإمام السجّاد عليه السلام أن الناس كانوا يحضرون المعركة، ويدفنون القتلى، فوجدوا جوناً (رضوان الله عليه) بعد عشرة أيام تفوح منه رائحة المسك [١].

حيث جاءه بنو أسد ووجدوه واقعاً ـ كما قلنا ـ في أطراف المعركة، ووجهه مشرق أيّما إشراق، فاحتفروا له إلى جانب الشهداء وواروه.

ومثل هذه المجموعة التي وقفت بين يدي أبي عبد الله عليه السلام سيد الشهداء، وسيد شباب أهل الجنة هل يستكثر عليهم أن يقف الإمام عليه السلام ليزورهم حيث يقول: **«بأبي أنتم وأمّي طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم وفزتم والله فوزاً عظيماً، فياليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً»** [٢]. ويخاطبهم عليه السلام فيقول: **«السلام عليكم أيها الأرواح التي حلّت بفِناء قبر الحسين وأناخت برحله»** [٣].

وكان من دأب الإمام الحسين عليه السلام أنه إذا سقط أحد من الأنصار أو من الهاشميين شهيداً ذاد عنه الخيل، ومسح عنه التراب، وحمله إلى خيمة الشهداء،

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٢٢ ـ ٢٣. (٢) مصباح المتهجّد: ٧٢٣.

(٣) بحار الأنوار ٦٥: ١٣١ / ٦٢، ٩٨: ١٩٦ / ٣١، بشارة المصطفىٰ: ١٢٥.

ووضعه مع إخوانه، ثم يجلس بينهم تسبقه دموعه:

يـــاشبان بـــالله لا تـــونّون　　　　تصدعون گلبي من تـلوجون

مدري يبـعد اهلـي اشـتريدون

والوحيد الذي حرم من هذا هو الإمام الحسين عليه السلام، إذ لم يصل إليـه أحـد إلّا النساء.. إلّا مجموعة من الأرامل واليتامى:

شعتذر مـنّك مـا لي الســان　　　　فزعنا لك من الخيم نسوان



﴿٢٠٠﴾

القرآن بين الحفظ والتحريف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: نظرية حفظ القرآن

ترتبط هذه الآيات الكريمة بموضوع يعتبر من أخطر المواضيع في حياة المسلمين والتي تمسُّ عقائدهم وأفكارهم، ألا وهو حفظ القرآن الكريم. والقرآن الكريم على الرغم من الكثير مما كتب حوله من أبحاث؛ فإن هناك ثغرات لابدّ من أن تُملأ؛ كيلا يتطرّق الوهم والشكّ من البعض إلى حجّيّته وإلى صحّته. والكتّاب المسلمون مدعوّون جميعاً إلى ملء هذه الثغرات التي يحتاج بعضها إلى بذل جهود كبيرة من أجل تحقيقها وإثباتها.

ونحن حينما نقول: إن الكتّاب المسلمين مدعوون جميعاً إلى ملء هذه الثغرات، فلأننا نرى في كثير من الأحيان أن هناك جهوداً تصرف إلى قضايا

(١) القيامة: ١٦ ـ ١٨.

هامشية غير ضرورية لتدور حولها، في حين أن هناك قضايا صميمية وهامّة لابدّ من أن يتناولها الباحثون والكتّاب المسلمون بحثاً وتفصيلاً واستدلالاً وإثباتاً ونقضاً وإبراماً وما إلى ذلك.

فالقضايا الصميميّة والمصيريّة أولى بهذا الجهد المبذول من تلك القضايا الهامشية التي لا تمتّ إلى حقيقة هذا الدين أو إلى ما يمسّ حياة المسلمين ووجودهم. وعلى هؤلاء الكتّاب أن يعمدوا إلى ملء هذه الثغرات، وأن يعملوا جاهدين على تحقيق ذلك وإن كانت قد ملئت من قبل؛ حيث إن العلماء السابقين قد تناولوها بحثاً ودراسة. لكن العلماء الذين جاؤوا بعدهم من الطبقات الوسطى أو الطبقات المتأخّرة لم يحاولوا أن يملؤوا هذه الثغرات أو يتناولوها بما يناسب عصورهم والأفكار والآراء المطروحة فيها.

يقول المفسرون: كان جبرائيل عليه السلام إذا نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ له شيئاً من القرآن كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لا ينتظر جبرائيل عليه السلام حتى ينتهي من قراءة الآية أو الآيات، وإنما كان يتابعه بقراءتها؛ كيلا يفوته شيء من القرآن، أو لا تفوته آية إلّا ويحفظها. ولذا فإن القرآن الكريم نزل مخاطباً إياه بقوله: **﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾**، أي أن هذا الشيء الذي تخافه وتخشاه سوف لن يحصل معك؛ فالسماء تضمن لك أنك سوف تحفظ القرآن جميعه، وأن تجمعه وأن تصونه، وأن تفهمه الفهم الحقيقي الذي تريده السماء.

ولو أردنا أن ندقق في الأمر الآن لنرى هل إن هذه الأغراض قد تحقّقت أم لم تتحقق، فإننا سوف نصل إلى جملة من النتائج منها:

الأولى: نظريات جمع القرآن

إن عند المسلمين نظريتين حول مسألة جمع القرآن الكريم، يعضد كل نظرية

معسكر، ولكل منهما منهجه الذي يتبعه في الاستدلال عليها وتحقيقها، وهي حفظ القرآن الكريم:

رأي المعسكر الأول: أنه جُمع أيام الخلفاء

وهؤلاء يذهبون إلى أنه حينما وقعت معركة اليمامة التي قتل فيها أربعمئة من حملة القرآن كان المسلمون حينها لم يجمعوا القرآن، بل إنه في بداية الأمر كان مفرّقاً بين صدور حملته، وموزّعاً على بعض الجريد أو العظام أو الرقاق؛ ذلك أنه كانت حينما تنزل آية كانوا يطلبون ممن يعرف القراءة والكتابة كتابتها، فكان هذاالكاتب إما أن يكتبها على رقّ، أو على نسيج، أو على عظم، أو على جريد وما إلى ذلك. وبقي القرآن الكريم على هذه الهيئة إلى أيام الخلفاء؛ فمنهم من يذهب إلى أنه بقي على هذه الهيئة إلى أيام الخليفة أبي بكر، ومنهم من يذهب إلى أنه بقي كذلك إلى أيام الخليفة عمر بن الخطّاب، ومنهم من يذهب إلى أنه بقي كذلك إلى أيام خلافة عثمان بن عفان.

والغرض من نقل هذه المعلومات هو أن نتوصّل إلى رواية المذهب الإمامي حول هذا الأمر، مضافاً إليه ما يرويه أبناء المذاهب الأربعة، لا لأن كتب الشيعة غير موثقة؛ بل لأنني أردت أن يكون المصدر بالإضافة إلى كتبنا كتب المذاهب الأربعة، وإلّا فإن الشيعة من أوثق الناس وأشدّهم في إثبات صحة الرواية وعدمها.

على أية حال، فكما ذكرنا أنّ هناك قسماً يقولون بأن القرآن بقي على هيئته التي كتب عليها في حياة الرسول ﷺ ولم يجمع إلى عهد الخليفة أبي بكر، ويروون في هذا رواية عن سليمان بن أرقم عن زيد بن ثابت أنه قال: أتيت أبا بكر فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال لي: إن القتل قد

استحرّ بالقرّاء يوم اليمامة، وإني أخشى أن يستحرّ القتل في القراء في المواطن كلّها فيذهب كثير من القرآن، وبذهاب القرآن ذهاب الدين؛ لأن في القرآن معالم الدين؛ فأرى أن يجمع القرآن بحال. فقلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح الله له صدري، ورأيت ذلك الذي رآه عمر.

ثم قال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتّهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبّع القرآن واجمعه.

يقول: فوالله لنقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ من الذي أمرني به من جمع القرآن. فرحتُ أجمع من الرقاع واللخاف والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت شيئاً من سورة التوبة وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[1] مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره، فقيل له: هل يشهد معك شاهد أنها من القرآن؟ فقال: لا أدري. فقال عمر: أنا أشهد معه أنها من القرآن الكريم[2].

فهذه هي الطريقة التي جمع بها القرآن الكريم، والروايات أيضاً تختلف فيمن تصدّى لجمع القرآن الكريم؛ فمنها ما يصرّح بأنه زيد بن ثابت، ومنها ما يصرّح بأنه أبو بكر، وقسم ثالث يصرّح بأنه عمر بن الخطاب، وقسم رابع يصرّح بأنه عثمان بن عفان. وقد كتب المسلمون أربعة مصاحف كبيرة وأرسلوها إلى المدن الرئيسة في البلاد الإسلامية، وهي: الكوفة، والبصرة، والشام، والحجاز.

---

(١) التوبة: ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) انظر الفهرست (ابن النديم): ٢٧.

أما الذي نسخ أو أمر بنسخ هذه المصاحف فتقول بعض الروايات إضافة للرواية المارّة التي نصّت على أنه أبو بكر: إنه عمر بن الخطاب، ويقول بعضها: إنه عثمان بن عفان. وتنصُّ الروايات التي تصرّح باسم عثمان بن عفّان أنه حينما جمع المصحف وكتب المصاحف محا قسماً مما جمعه من كان قبله من الصحابة؛ لأنه عندما قابلها على بعضها وجد فيها زيادة، فمحا الزيادة.

وبناءً على هذا فقد حصل هناك خلاف بعد جمع القرآن في تركيبه وتصنيفه.

رأي المعسكر الثاني: أنه جُمع أيام النبي ﷺ

ويذهب أصحاب هذا المعسكر إلى أن القرآن الكريم كان محفوظاً كاملاً في حياة النبي ﷺ عند جماعة من الصحابة منهم معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. وهذه الرواية يرويها الإمام أحمد في مسنده [١]، والبيهقي في (السنن الكبرى) [٢]، والحاكم في (المستدرك) [٣]، والنسائي [٤]، والترمذي [٥]، والبخاري [٦]، في باب القرّاء من أصحاب رسول الله ﷺ، وغيرهم [٧].

ومن أحبَّ أن يطمئنّ إلى هذا فليرجع إلى هذه المصادر، وسيرى فيها صحة ما

---

(١) مسند أحمد ٣: ٢٣٣، ٢٧٧. (٢) السنن الكبرى ٦: ٢١١.

(٣) المستدرك على الصحيحين ١: ٤١٦.

(٤) السنن الكبرى (النسائي) ٥: ٩ / ٨٠٠٠.

(٥) الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٣١ / ٣٨٨١.

(٦) صحيح البخاري ٤: ٢٢٩، ٦: ١٠٣.

(٧) صحيح مسلم ٧: ١٤٩، مسند أبي يعلى ٥: ٢٥٨ ٢٨٧٨، ٤٦٧ / ٣١٩٨، ٦: ٢٢، صحيح ابن حبّان ١٦: ٧٤ / ٧١٢٩، المعجم الكبير ٢: ٢٦١، المعجم الأوسط ٢: ١٥٠ ـ ١٥١، ٦: ٥٤، الاستيعاب ١: ١٩٩، ٢: ٥٣٨ / ٨٤٠، ٣: ١١٣٠ / ١٨٥٥، ١٢١٦ / ١٩٨٣، ١٢٩٣ / ٢١٣٥ باختلاف في أسماء من جمعه، ١٣٦٢ / ٢٣٠٦، كذلك، ٤: ١٦٦٥ / ٢٩٧٧ ـ ٢٩٧٩، وغيرها كثير.

نقوله؛ ذلك أننا في هذه الأيام بدأنا نسمع من يقول: إن الشيعة كذّابون، ويفترون على البخاري وغيره من أئمتنا، وينسبون إليهم ما ليس عندهم، ولذا فأنا حينما أذكر شيئاً أضع يد المتلقّي على مصادره؛ لكي يعرف من هو الكاذب.

النتيجة الثانية: رفض المنهج الأول

وهو المنهج الذي يقول: إن القرآن جُمع بتلك الطريقة المارة التي ذكرناها، والتي ذكرنا فيها رواية سليمان بن أرقم، والاختلاف في جمعه وتركيبه وتصنيفه. فهذا الرأي حول جمع القرآن بهذه الشاكلة لا يمكن قبوله للأسباب التالية:

السبب الأول: أنه منهج لا يبعث على الطمأنينة

فالإنسان بطبيعة الحال معرض للنسيان في كل وقت، وإذا كان الأمر كذلك فمن الممكن أن يكون عند بعض المسلمين شيء من القرآن لكنهم نسوا أن يذكروه. هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية فإنه ربما كان عند من قتل من حملة القرآن في اليمامة وغيرها شيء من القرآن لم يكن عند غيرهم من الأحياء؛ ولذا فإن هذا يعني ضياع شيء من القرآن الكريم.

وبناءً على هذا فإننا قلنا: إن هذه الطريقة لا تبعث على الطمأنينة، بل أكثر من ذلك إنها تسرّب الشك إلى النفس في طريقة جمع القرآن الكريم، بل إلى القرآن الكريم نفسه، خصوصاً مع هذا التضارب الذي ذكرناه عند الكلام على المعسكر الأول.

ولذا فإننا نجد أن الروايات متضاربة في كتب المذاهب الأربعة حول هذا الأمر، ولو رجعنا إلى تفسير القرطبي [1] في الجزء الأول، في باب جمع القرآن،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١: ٤٩ ـ ٥٥.

وإلى البخاري [١] أيضاً في البـاب نـفسه، وإلى عشـرات المـصادر الأُخـرى [٢] غيرهما لوجدنا أن فيها تضارباً كبيراً بين الروايات التي ترويها. ولعل آخر مصدر تطرّق إلى هذا الأمر هو كتاب (البيان في تفسير القرآن) [٣] وهو كمقدمة لتفسير القرآن؛ إذ إنّ فيه بحثاً رائعاً حول هذا الموضوع، وهـو بـحث مـوثّق بـالأرقام ومشار إليه بتخريج آرائه من كتب المذاهب الأربعة. ومن أحب أن يرجـع إليـه فليرجع. وكذلك المصادر الأخرى التي اعتمدها المصنف في كتابه هـذا؛ ولهـذا فإننا قلنا: إن هذه النظرية تسرّب الشّك إلى النفس في طريقة جمع القرآن، وفي القرآن نفسه.

السبب الثاني: التهافت بين الروايات

فالروايات الواردة في الباب متضاربة إلى مدى بعيد، وإلى درجـة لا يـمكن معها الجمع بينها؛ وهذا التضارب بينها حتماً يؤدي إلى تكـذيب بـعضها للـبعض الآخر وبالتالي تساقطها [٤].

---

(١) صحيح البخاري ٦: ٩٨ ـ ١٠٠ / باب جمع القرآن.

(٢) انظر مثلاً: الاستيعاب ١: ١٩٩، ٢: ٥٣٨ / ٨٤٠، ٣: ١١٣٠ / ١٨٥٥، ١٢١٦ / ١٩٨٣، ١٢٩٣ / ٢١٣٥، ١٣٦٢ / ٢٣٠٦، ٤: ١٦٦٥ / ٢٩٧٧ ـ ٢٩٧٩، وغيرها كثير.

(٣) البيان في تفسير القرآن: ٢٤٧ ـ ٢٥٣. وقد اعتمدﷺ في نقضه لهذه النظريّة على محاور ستّة هي:

١ – تناقض أحاديث جمع القرآن.

٢ – تعارض روايات الجمع.

٣ – تعارض أحاديث الجمع مع الكتاب.

٤ – مخالفة أحاديث الجمع لحكم العقل.

٥ – مخالفة أحاديث الجمع للإجماع.

٦ – أحاديث الجمع والتحريف بالزيادة.

(٤) انظر البيان في تفسير القرآن: ٢٤٠ ـ ٢٤٧.

السبب الثالث: أن جبرائيل كان يقرئ النبي القرآن كاملاً كل سنة

إن من الثابت عندنا أن جبرائيل عليه السلام كان ينزل كل سنة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليقرأ له القرآن كاملاً، أي ما نزل منه إلى تلك اللحظة. وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستمع إلى القرآن. وإجماع المسلمين قائم على أن القرآن كامل ومحفوظ في صدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي السنة التي توفي بها (صلوات الله وسلامه عليه) نزل عليه جبرائيل مرتين وأقرأه القرآن كاملاً في مرّة؛ للتأكد من أن القرآن موجود وكامل، ولا يتطرق إليه الشّك، ولا يتسرب إليه الاحتمال أو الوهم من حذف أو سقط أو زيادة أو تغيير، وما إلى ذلك.

السبب الرابع: حديث الثقلين

إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان كثيراً ما يصرّح من على منبره الشريف بقوله: «**إنّي مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي**»[1]، فهو صلى الله عليه وآله وسلم حينما يقول: «**كتاب الله**»، فإن هذا يعني أن الكتاب موجود ومكتوب وكامل، بحيث إنه يشار إليه.

وإن كان الاحتمال ربما يرد بأن الإشارة إلى كتاب الله تعني الإشارة إلى الكتاب الموجود في صدور المسلمين.

لكن للجواب عن هذا أن يقال: إن مثل هذا لا يسمى كتاباً، وإنما يسمى مكتوباً، أما كلمة **(كتاب)** فهي تعني المجموع.

السبب الخامس: الإشكال على طريقة الجمع

وكما مر في رواية سليمان بن أرقم أن جمع القرآن تمَّ بأن كان يأتي أحد المسلمين بآية أو آيتين أو أكثر، ويَشهدُ أو يُشهدُ على أنّها من القرآن، ثم يقبل قوله

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

وتثبت على أنها آية من القرآن الكريم. لكن هذه الطريقة يرفضها منهج المسلمين الذين لا يثبتون بعض القضايا المهمة إلّا بالتواتر، أي أنه ما لم يكن هناك تواتر في هذه المسألة المهمة فإنها لا يمكن قبولها، وعليه لا يتم الأخذ بها بخبر الواحد مثلاً.

والتواتر ـ كما ذكرنا في أكثر من محاضرة ـ هو اتّفاق جماعة وتواطؤهم على شيء بحيث يستحيل معه اجتماعهم على الكذب فيه، كما لو أن مجموعة من الناس أخبروا بوجود مدينة معيّنة مثلاً فإن السامع حينئذٍ سوف يصدّق بوجودها ويعتقد به وإن لم يكن قد رآها؛ لأنه يحكم بأن هؤلاء من أهل الثقة ويستحيل تواطؤهم جميعاً على الكذب.

وهذا التواتر بطبيعة الحال ينتقل من طبقة إلى طبقة، وهو طريق من طرق العلم التي تعبّدنا بها الشارع المقدّس، وجعلها طريقاً شرعياً للوصول إلى الحكم الشرعي. وعليه فنحن لا يمكن لنا أن نقبل القرآن إلّا عن طريق التواتر، وليس عن طريق أخبار الآحاد وما إلى ذلك، وهذا بإجماع المسلمين.

السبب السادس: اشتهار أن القرآن كان مكتوباً أيام النبي ﷺ

إننا نعرف من الأدلة أن القرآن الكريم كان مكتوباً أيام النبي ﷺ، وكذلك نعرف اهتمام المسلمين به وبقراءته والعمل به. وقد كان الرسول الأكرم ﷺ يحثّ على قراءة القرآن في كلّ فرصة تسنح له، ولذا فإنه ﷺ كان حينما يصعد المنبر يقول: **«من قرأ القرآن في المصحف متّع ببصره وخفّف عن والديه وإن كانا كافرين»**[1].

---

(١) الكافي ٢: ٦١٣ / ١، ثواب الأعمال: ١٠٢.

ويقول ﷺ: «**تعلّموا القرآن الكريم فإنه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص**»[1].

وعليه فاهتمام المسلمين في القرآن الكريم هو اهتمام ناشئ من حثّ الرسول ﷺ على ذلك، وتحريضه عليه، وعنايته به، وتأكيده؛ ولذا فإننا نقول: إنه اهتمام ضخم وكبير، ويستحيل معه أن يترك المسلمون القرآن مجزّاً وعرضة للضياع.

وبناءً على هذا فإننا قد خرجنا بنتيجة هي أنه لابدّ أن يكون مجموعاً أيّام النبي ﷺ.

السبب السابع: أن القرآن كان يقوم مقام بعض الجوانب المالية

إننا نعرف أن القرآن قد وصل إلى درجة عند المسلمين بحيث إنه كان يقوم عندهم مقام بعض الجوانب المالية، جاءت امرأة في أحد الأيام إلى رسول الله ﷺ وقالت له: يا رسول الله، لا حياء في الدين، أنا امرأة بحاجة إلى زوج، ثم عرضت نفسها عليه، فقال لها: «**اجلسي بارك اللّه فيك، أما نحن فلا حاجة لنا فيك، ولكن تملّكيننا أمرك؟**». قالت: نعم. فنظر رسول اللّه ﷺ في وجوه القوم، فدعا رجلاً منهم فقال له: «**إني أُريد أن أُزوّجك هذا إن رضيت**». فقالت: ما رضيت لي يا رسول اللّه، فقد رضيت.

ثم قال ﷺ للرجل: «**هل عندك من شيء؟**». قال: لا واللّه يا رسول اللّه.

---

(١) قريب منه في تاريخ مدينة دمشق ١١: ١٦٧، وهو بنصه عن أمير المؤمنين، انظر نهج البلاغة / الخطبة: ١١٠.

قال ﷺ: **«ما تحفظ من القرآن؟»**. قال: سورة البقرة والتي تليها. قال ﷺ: **«قم فعلمها عشرين آية وهي امرأتك»**[١].

مشروع الزواج في الشريعة الإسلامية

وما دمنا قد مررنا بهذه النقطة، فلابدَّ لنا من الإشارة إلى منهج الشريعة الإسلامية في تذليل العقبات والصعاب أمام الزواج، ذلك أننا نلاحظ أن هذا المشروع الإلهي توضع أمامه كل يوم المزيد من العقبات ولاسيما العقبات المالية التي بدأت تخلق مشكلة كبيرة، مع أنه لا داعي إلى مثل هذه المعوّقات، ولاسيما إذا كان الإنسان على كفاية من معيشته، ويستطيع أن يوفّر المتطلبات الضرورية للحياة الزوجية. إن هذا المقدار كافٍ في البدء بمشروع الزواج، وليس من الضروري أن نطالب هذا الإنسان بأنه لابدّ أن يكون عنده رصيد في المصارف، أو سيارة على أحدث طراز، أو بيت من البيوت الراقية؛ لأن هذا الأمر يعني تكليفه بما لا يطيق، وهو ما يؤدي إلى نتائج سلبية وغير طيّبة.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الدين لا يدعو إلى إهمال البنت وإهانتها، وعليه فيجب ألّا تحبس في البيت رجاء أن يتقدّم إليها أو أن يطلب يدها شخص موسر يملك أموالاً طائلة، ولا أن تعطى لمن يتقدّم لخطبتها وإن لم يكن كفئاً لها، وقد ورد في الحديث الشريف: **«ابنتك كريمتك فانظر لمن تُرقّها»**. ويقول: **«من زوّج ابنته شارب الخمر فكأنما قادها إلى الزنا، ومن زوّج ابنته مخالفاً له على دينه فقد قطع رحمها»**[٢].

---

(١) المجموع شرح المهذّب ١٥: ٢٧، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٢٤٢، تلخيص الحبير ١٢: ٣١١، تنوير الحوالك: ٤٢٩ – ٤٢٧ / ١١٠١.

(٢) الفقيه ٤: ٥٨ / ٥٠٩١.

وهذا يعني أن على الأب أن يبحث عن الكفء الكريم لابنته، لا أن يرميها إلى من هبّ ودبّ، أو أن يحبسها رجاء أن يتقدّم إليها ثري موسر. فالإسلام يقول: لا تقف عقبة في طريق الفتاة وزواجها.

مهر الزوجة عند ملوك المسلمين

ومسألة إغلاء المهور وارتفاعها ليست وليدة هذا العصر فقط، بل إننا لو رجعنا إلى تاريخنا لوجدنا أن الخلفاء الأُمويّين والعباسيين منهم من يجعل مهر المرأة خمس أفريقيا يتسلمه أبو البنت، كما حصل مع المأمون حينما تزوج من بوران بنت الحسن بن سهل، فقد كانت معروفة بالجمال والثقافة، فخطبها المأمون وتزوّجها، وفي ليلة عرسه أمر بغرفة الدخول، فأخذوا أبعادها من العرض والطول، ونسجوا على مقدار مساحتها حصيراً من الذهب، وبعثوا إلىٰ أمّهات المدن الإسلامية فجمعوا كلّ حبّة لؤلؤ كبيرة أو حجر كريم كبير، إلىٰ أن جمعوا منه سلاسلَ، فلما دخل المأمون وقف علىٰ حصير الذهب، وأُلقيت سلاسل اللؤلؤ والأحجار الكريمة علىٰ رأسه، فأخذت تتساقط علىٰ الحصير، فتذكّر قصيدة لأبي نواس يقول فيها:

كأن صغرىٰ وكبرىٰ من فواقعها ... حصباء درّ علىٰ أرض من الذهبِ

ومن بعد أن خرج من غرفة الدخول رأىٰ والد البنت، فقال له: حاجتك؟ قال: حاجتي أن تحفظ لي قلبك من السرقة؛ لأن صاحب السلطان كراكب الأسد. قال: لا، بل لك خمس أفريقيا[1].

وحينما تزوج مروان بن الحكم الطريد ابن الطريد بنت الخليفة الثالث بنى له

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٤٣، تاريخ بغداد ٧: ٣٣١، تاريخ اليعقوبي ٢: ٤٠٩.

قصراً بالبقيع بخمسين ألف دينار، مع أن مروان هذا لا يعدل في حقيقته حتى دانقاً واحداً. ولهذا فإننا حينما نرى في تاريخ المسلمين بلاءً كهذا البلاء، ومصائب من هذا النوع فإن علينا أن نقف بوجهه وأن نحاربه، لا أن نقتدي به؛ فالشريعة قبل كل شيء ونحن نتعبد بأوامر الشريعة لا بتصرفات الشاذين عن تعاليم الإسلام، فمثل هؤلاء لا تمّت لنا أي علاقة بهم.

إن عندنا دين الله ومنهج الإسلام، وحسبنا بهما من دين ومنهج. ففي الحين الذي يقرر رسول الله ﷺ أن مهر هذه المرأة سورة من القرآن، نجد من يجعل مهرها خمس أفريقيا وما إلى ذلك.

رجع

إذن فجعل القرآن قائماً مقام الجنبة المالية في الإسلام، وجعل تعليم شيءٍ منه مهراً شرعياً صحيحاً تحلّ به المرأة على زوجها؛ أمرق يعني شيئاً واحداً هو عناية المسلمين بالقرآن الكريم إلى درجة جعل من تعليمه موجباً لأن تحلّ الزوجة على زوجها ويحل الزوج على زوجته.

إذن فالمنهج الأول الذي انتهجه المعسكر الأول حول عملية جمع القرآن لا يمكن القبول به للأسباب الآنفة. ونحن إذ نرفض هذا المنهج نميل إلى قبول المنهج الثاني الذي يرتئيه المعسكر الثاني والذي يقول بأن القرآن قد جمع كله على أيام النبي ﷺ، وهو الذي رواه الترمذي والنسائي والحاكم في مستدركه والبيهقي في سننه وأحمد بن حنبل في مسنده والبخاري في القراء من أصحاب رسول الله ﷺ. وهذا المنهج إنما تقبلناه لأنه منهج صحيح وسليم، ويتماشى مع مقتضيات العقل والدين، وضرورة حفظ القرآن حتى من مجرد احتمال تطرّق الشك له، وتسرّب الريب إليه.

مصحف علي عليه السلام

هذا من ناحية روايات المذاهب الإسلامية الأربعة؛ أما عند الشيعة الإمامية فالاعتقاد قائم على أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام جمع القرآن في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وليس القرآن فقط، وإنما كان عليه السلام يعمد إلى تفسيره أيضاً فيجمعه، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزلت آية استدعى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لكتابتها، ثم يستدنيه ليبين له معانيها وغامضها. وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول له: **«إن الله أمرني أن أُدنيك وأُعلّمك، فأنت الأُذن الواعية لعلمي»** [١].

فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يملي عليه الآية ويكتبها، ثم يملي عليه شرحها ويكتب عليه السلام الشرح فوقها أو تحتها. ومن ذلك أنه حينما نزل قوله تعالى: **﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾** [٢] يسأله أمير المؤمنين عليه السلام عن معنى ذلك فيجيبه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يطلّقها، ثم إذا أراد أن يرجع إليها بعد نفاد عدّتها فإن عليه أن يستأنف الحياة معها بعقد جديد، ثم إذا طلّقها وأراد أن يرجع إليها ثانية بعد نفاد عدّتها فإن عليه أن يستأنف الحياة معها بعقد جديد كذلك، فإن طلّقها الثالثة فإنها لا تحلّ له **﴿بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾** [٣].

وهكذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يثبت شروح الآيات معها كيلا يقع المسلمون في مشكلة، وكيلا تتضارب الآراء حول تفسير شيء من القرآن، ذلك أن الأفهام تختلف في كثير من الأُمور؛ لأنها ليست على شاكلة واحدة أو ذات مستوى واحد. وقد وقع بالفعل اختلاف الأفهام حول هذه الآية نفسها، فالبعض يذهب إلى أن معنى قوله تعالى: **﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾** أنه معناه إذا وقعت ثلاث طلقات

---

(١) أنساب الأشراف (حياة أمير المؤمنين عليه السلام): ١٢١، وانظر فتح القدير ٥: ٢٨٣.

(٢) البقرة: ٢٢٩. (٣) البقرة: ٢٣٠.

في مجلس واحد اعتبرت المرأة طالقاً طلاقاً بائناً. وهذا الرأي عليه أهل المذاهب الإسلامية الأربعة متقدموهم ومتأخروهم إلّا نقراً، وفي مقابله رأي للشيعة الإمامية الذين يقولون بأن هذه الطلقات الثلاث تعتبر طلقة واحدة، وقد ذهب إلى هذا المذهب أيضاً محمد عبده حيث يصرح بهذا ويقول: أنا أعتبر أن هذه الطلقات الثلاث في مجلس واحد طلقة واحدة، كما نصّ عليه أيضاً رشيد رضا في تفسيره (المنار).

وكان أيضاً يقول: أنا حينما أُعطي هذا الرأي لا أقصد منه أن أردّ المفتين أو أردّ القضاة؛ لأن هؤلاء المفتين والقضاة لا يفتون بالقرآن وإنما يفتون بكتب مذاهبهم، فليس الغرض ردَّهم عمّا هم عليه. وهذه كلمة جيدة وجريئة، وهذا أيضاً هو الواقع؛ لأن الكثير من المسلمين الآن إنما يتبعون الآراء التي تجعل بينهم وبين القرآن سدّاً لا يمكن هدمه، أو وادياً لا يمكن ردمه.

ولهذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام كان ما إن يكتب الآية حتى يكتب تفسيرها وشرحها معها بعد أن يشرحها له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا المصحف مع شرحه أصبح كتاباً ضخماً، وهو ما نسميه بمصحف عليٍّ أو بقرآن فاطمة الذي لا زلنا نسمع التهريج علينا حوله إلى اليوم معزّزاً بالافتراءات الكثيرة التي تشيع أن الشيعة عندهم قرآن غير القرآن الموجود عند المسلمين، وأن هذا القرآن موجود في السرداب، وأنه سيخرجه الإمام صاحب الزمان (عجّل الله تعالى فرجه الشريف). وهذا الكلام ـ كما هو واضح ـ ليس كلام علماء، ولا كلام رجال العلم وحملته، فهو لا يصدر إلّا من جهلة لا يعرفون شيئاً عن الآخرين الذين يحاولون أن يشوّهوا سمعتهم بما ليس فيهم وما ليس عندهم. وتتمثّل تلك المحاولات في أُمور عدّة، منها:

الأول: مسألة السرداب

إن الجو في العراق ـ كما هو معروف ـ جو حار، وكان الناس يلجؤون إلى حفر السراديب ليحتموا بها من حرارة الشمس وحرارة الجوّ التي كانت تصل إلى حدّ لا يمكن تحمله، ولاسيما في أوقات الهاجرة. ومسألة حفر السراديب هي مسألة درج عليها أبناء العراق من الأزمان الغابرة حتى الوقت الحاضر. أما أن يكون الإمام مختبئاً في السرداب فهذا كلام فارغ ولا معنى له [١]. وعلى أية حال إن هناك جماعة تعيش على هذا السرداب أو هذا الكلام، ومن يعش على الخرافات لا يمكن أن يُفعل شيء إزاءه.

الثاني: مصحف فاطمة

ثم إن القرآن الذي نقول: إنه أكبر من قرآننا ثلاث مرات والذي يعبّر عنه الإمام الصادق بقوله: **«ما فيه من قرآنكم شيء»** [٢]، يعني أنه كله شرح؛ لأن التفسير يطلق عليه قرآن، وهذا التفسير هو الذي سيحمله صاحب الأمر (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) عندما يظهر. وإلّا فإن القرآن الكريم الذي بين أيدي الناس الآن هو القرآن الصحيح وليس هناك من قرآن غيره.

وهذا رأي أساطين علمائنا كالطوسي [٣] والمفيد [٤] والعلّامة والمرتضى [٥] وغيرهم [٦]. وإذا كان هذا المعاند لا يقبل بآراء هؤلاء فإننا لا نعلم من أين جاء

---

(١) إن الثابت عندنا أن الإمام يعيش بين ظهرانينا، ويكون خروجه من مكّة المكرّمة.

(٢) الكافي ١: ٢٣٩ / ١، بحار الأنوار ٢٦: ٣٩ / ٦٩.

(٣) التبيان ١: ٣.

(٤) المسائل السرويّة: ٩٨ / المسألة: ٩.

(٥) الانتصار: ٢٦.

(٦) الاعتقادات: ٨٣، مشرق الشمسين: ٣٩٣.

بهذا الرأي الذي لا يكاد يكون شيئاً، فهذه كتبنا بين يدي الجميع وهذا تاريخنا مفتوح أمام الجميع، وهذه تفاسيرنا كلّها على شاكلة تفاسير أهل السنة [١].

وعليه فلنا أن نسأل هذا المفتري ونقول له: هل رأيت في المنام رؤيا تنبّئك بأن الشيعة عندهم قرآن غير قرآن المسلمين؟ إن هذا الكلام لا قيمة له ولا أثر، وأصحابه ليسوا طلاب حقيقة بل هم طلاب فتنة وطلاب تفتيت وحدة المسلمين؛ لأنهم لو كانوا طلاب حقيقة لانتهوا من هذا الأمر بعد إقامة الحجة علىٰ بطلان مدّعاهم من أول مرة، لكنهم لا يستطيعون أن ينتهوا عن هذا؛ لأنهم ذوو متاجر يعيشون عليها، وليست بضاعتها إلّا هذه الافتراءات، وليست تجارتهم إلّا هذه الاتّهامات الباطلة التي لا سبيل إلى إثبات صحّتها بل لا وجود لها أصلاً، والتي يتّخذ من بثّ الفرقة بين المسلمين وقوداً لها.

ثم إن هناك أيديَ من وراء هذه الدعوات، مهمّتها أن تضرب وحدة المسلمين. وهذا هدف معروف، وهو هدف تأريخي وتقليدي عمد إليه الاستعمار؛ ليفرق بين المسلمين، وليقضي على وحدتهم. إن هذا القرآن الذي نقرؤه اليوم هو القرآن عينه الذي يوجد بين أيدي المسلمين، وليس هناك قرآن غيره عندنا، وكل كلام خلاف هذا فنحن نضرب به وبقائله عرض الجدار؛ لأنه كلام لا يكون صادراً إلّا من شخص لا قيمة له ولا أثر. وعليه فالقرآن هو هذا الذي يقرؤه المسلمون، وإذا وجدت روايات هنا وهناك فهي روايات لا يعتدّ بها، كما أنها روايات قابلة للتأويل كي تتفق مع هذه العقيدة التي نعتقدها حول القرآن الكريم. وبهذا فالقرآن الكريم كان مجموعاً أيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) والدليل على هذا أن كلّ علمائنا (قدّس الله سرّهم) الذين فسّروا القرآن الكريم إنما فسّروا هذا القدر المعروف بين المسلمين ممّا هو بين الدفّتين دون غيره.

المبحث الثاني: حول استعجال النبي ﷺ بالقرآن الكريم

تقول الآية الكريمة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، أي لا تستعجل بقراءته مع جبرئيل عليه السلام؛ فنحن متكفّلون بتحفيظك القرآن. ولهذا فإننا مقتنعون جداً بأنه كان مجموعاً في عصر النبي ﷺ؛ لأن الله قد جمعهُ وحفظهُ في صدر النبي ﷺ وهو ﷺ قد حفظهُ كُله، كما أنه تعالى قد حفظه لنا بين الدفتين دون أن يتسرب إليه التحريف، ولا يتطرّق إليه الشكّ في زيادة أو نقيصة.

نعم، هناك تلاعب في التفسير حول هذا الأمر، وقد لاحظنا من خلال متابعتنا له أن كلّ مفسّرٍ يحاول أن يفسّر الآية الشريفة على هواه، وهو أمر لا يخفى على أعين النّقاد المتفحّصين، ولا على العلماء من ذوي النباهة والفطنة والمعرفة بالمناهج الصحيحة للتفكير.

الشعبي وحقده على أمير المؤمنين عليه السلام

وللقرآن الكريم حفظة غير رسول الله ﷺ، وهم صحابته الذين ساروا على هداه، وانتهجوا نهجه، واهتدوا بهديه. وكان على رأس هؤلاء أمير المؤمنين عليه السلام حيث كان يكرر قوله: «**سلوني سلوني، فوالله لا تسألونني عن آية من كتاب الله إلّا حدثتكم عنها بمن نزلت، بليل أو بنهار، أو في مقام أو في سهل أو في جبل، وفيمن نزلت؛ أفي مؤمن أو منافق**»[1].

ومع كل هذا يأتي الشعبي ليقول: أحلف بالله لقد دخل علي حفرته وما حفظ القرآن[2].

---

(١) سعد السعود: ١٠٩، وهو عليه السلام القائل: «أيها الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض». نهج البلاغة / الكلام: ١٨٩.

(٢) نقله في البيان: ٥٠٢ ـ ٥٠٣ عن الجامع لأحكام القرآن ١: ١٥٨، ثم قال: قال الصاحبي

والشعبي هذا معروف وغير خافٍ أمره على المحققين؛ ولذا فإننا نقول بأن من يكره هذا الرجل قد تمَّ اختياره وانتقاؤه اختياراً وانتقاءً دقيقين ليتولّى هذه المهمة بدفع من السلطات الحاكمة. والشعبي هذا من صنائع بني أُمية، وهو الذي ذهب إلى مصر يطلب البيعة من أهلها إلى الوليد بن عبد الملك بأمر من عبد الملك بن مروان. ومن يرغب في معرفة تاريخ هذا الرجل وسيرته فليرجع إلى ترجمته في كتاب (الأغاني) وفي كتاب (النجوم الزاهرة). وكما أنه هو الذي تولّى المظالم في المدينة لبشر بن مروان، فكان يرتع في نعم الأُمويّين، ومن بعدهم أصبح من أذناب الزبيريين.

وكشاهد على ما أقول أذكر لك هذه الحادثة التي يرويها صاحب كتاب (الأغاني) فيقول: عن الحسن بن عمرو الفقيمي قال: دخلت على الشعبي، فبينا أنا عنده في غرفته إذ سمعت صوت غناء، فقلت: أهذا في جوارك؟ فأشرف بي على منزله، فإذا بغلام كأنه فلقة قمر يتغنّى، قال إسحاق: وهذا الغناء لابن سريج، وهو:

وقُمَيرٌ بَدَا ابنَ خمسٍ وعشريـ ـــن له قالت الفَتَاتَانِ قُومَا

فقال لي الشعبي: أتعرف هذا؟ قلت: لا. فقال: هذا الذي أُوتي الحكم صبيّاً[1]، هذا ابن سريج[2]، يعني أنه يشبّهه بالنبي يحيى بن زكريّا عليه السلام، أستغفر

☚ في (فقه اللغة): «وهذا كلام شنيع جداً فيمن يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني فما من آية إلّا أعلم بليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل»...». فقه اللغة: ١٧٠.

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ مريم: ١٢.

(٢) الأغاني ١: ٣٠٢. وذكر أيضاً عن عمر بن أبي خليفة قال: كان الشعبي مع أبي في أعلى الدار، فسمعنا تحتنا غناءً حسناً، فقال له أبي: هل ترى شيئاً؟ قال: لا. فنظرنا فإذا غلام حسن الوجه حديث السن يتغنّى:

قَالتْ عُبَيْد تَجَرُّماً في القول فعلَ المازحِ

الله تعالى من هذا.

فهذا الرجل كان من جلسائه ابن سريج المغني.

وفي كتاب (الأغاني) كذلك عن الشعبي نفسه يقول: دخلت المسجد، فإذا أنا بمصعب بن الزبير على سرير، والناس عنده، فسلمت، ثم ذهبت لأنصرف، فقال لي: ادنُ. فدنوت منه حتى وضعت يدي على مرفقه، فقال: لي عندك مهمّة ربما تجدها غريبة وغير مألوفة. فقلت: ما هي؟ قال: لا عليك، إذا قمت فاتبعني.

فجلس قليلاً، ثم نهض فتوجّه نحو دار موسى بن طلحة، فتبعته، فلما طعن في الدار التفت إليّ فقال: ادخل. فدخلت معه، ومضى نحو حجرته، وتبعته، فالتفت لي فقال: ادخل. فدخلت معه، فإذا حجلة وإنها لأول حجلة رأيتها لأمير، فقمت ودخل الحجلة فسمعت حركة، فكرهت الجلوس، ولم يأمرني بالانصراف، فإذا جارية قد خرجت فقالت: يا شعبي إن الأمير يأمرك أن تجلس.

فجلست على وسادة، ورفع سجف الحجلة فإذا أنا بمصعب بن الزبير، ورفع السجف الآخر فإذا أنا بعائشة بنت طلحة، قال: فلم أرَ زوجاً قط كان أجمل منهما، فقال مصعب: يا شعبي، هل تعرف هذه؟ فقلت: نعم، أصلح الله الأمير. قال: ومن هي؟ قلت: سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة. قال: لا، ولكن هذه ليلى التي يقول فيها الشاعر:

ومازِلتُ من ليلى لَدُن طَرّ شاربي ... إلى اليوم أُخْفِي حبَّها وأُداجِنُ

وأَحمِل في ليلى لقومٍ ضَغِينةً ... وتُحمَل في ليلَى عليّ الضغائنُ

☚ فما سمعت غناء كان أحسن منه، فإذا هو ابن عائشة، فجعل الشعبي يتعجّب من غنائه ويقول: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ البقرة: ٢٦٩.
الأغاني ٢: ٢٢١.

ثم قال: إذا شئت فقم. فقمت، فلما كان العشي رحت وإذا هو جالس على سريره في المسجد، فسلّمت، فلما رآني قال لي: ادنُ. فدنوت حتى وضعت يدي على مرفقه، فأصغى إليّ، فقال: هل رأيت مثل ذلك لإنسان قط؟ قلت: لا والله. قال: أفتدري لم أدخلناك؟ قلت: لا. قال: لتحدّث بما رأيت.

ثم التفت إلى عبد الله بن أبي فروة فقال: أعطه عشرة آلاف درهم، وثلاثين ثوباً. فما انصرف يومئذٍ أحد بمثل ما انصرفت به.. بعشرة آلاف درهم، وبمثل كارة القصار ثياباً، وبنظرة من عائشة بنت طلحة[1].

فهذا هو الشعبي، ومثله لا يشرّف علي بن أبي طالبعليه السلام أن يمدحه، بل إن ذمّه له هو الشرف:

وَإذا أتَتْكَ مَذَمَّتي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأنِّي كامِلُ [2]

فأمير المؤمنينعليه السلام علي بن أبي طالب هو القمة التي ناطحت الدنيا فتهالكت الدنيا أمام أعتابها، وبقيت هي شامخة تتحدّى العصور، وستبقى هكذا لا يهمها الدنيا، ولا هذا اللون من ذمّ المنحرفين أذناب السلطة وأتباع المال.

المبحث الثالث: في معنى إتباع القرآن

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، وهنا يقول المفسّرون بصورة عامة: إن معنى ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ يعني إتباع أحكامه، والسير على هديه ومنهاجه. فأحكام القرآن واضحة، ونحن نفهم منها أن النبيصلى الله عليه وآله وسلم قد

---

(١) الأغاني ٢: ٣٧٣.

(٢) البيت للمتنبّي، المثل السائر ٢: ٣٥٣، المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٧٨، صبح الأعشى ٢: ٣٢٨.

أحاط بالقرآن علماً بتعليم السماء النبيَّ ﷺ إياه.

ونحن نستفيد من هذا أن النبي الأكرم ﷺ لا يجوز عليه الاجتهاد بالمفهوم الحديث له للاجتهاد، وإنما هو ﷺ كان يتبع النص.

وربما يسأل سائل فيقول: إن نصوص القرآن محدودة، والدنيا مليئة بالمستجدّات، وعليه فلا يمكن التعامل معها بتلك النصوص القرآنية المحدودة والقديمة.

والجواب أن يقال: إن مثل هذا السؤال في واقع الأمر مغالطة؛ ذلك أن قواعد القرآن الكريم ونظريّاته وقوانينه تتّسع للدنيا بأجمعها مهما تقدمت، ومهما تطورّت، ومهما اتّسعت واتسعت معها المعارف والوسائل والإمكانيات؛ ولذا فإننا نرى أن الله جلّ وعلا يقول لرسوله الكريم في كتابه الشريف: **﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾**.

واتّباعه يجب أن يكون وفق ما تريده السماء، وليس وفق ما تمليه الأهواء. أماكيف يكون اتباعاً للهوى وكيف يمليه الهوى، فإني أروي لك هذه الحادثة، حينما قارب الإمام الحسين عليه السلام الوصول إلى كربلاء أراد عبيد الله بن زياد أن يتلافى الوضع إعلامياً، فبعث خلف شبث بن ربعي وجماعة معه ـ مع أن المفروض أن هؤلاء حملة دين ـ فقال عبيد الله بن زياد لشبث بن ربعي: ما تقول فيمن يخرج على إمام زمانه؟ قال: من يخرج على إمام زمانه فهو باغٍ. فقال ابن زياد: حتّىٰ ولو كان الحسين؟ قال: حتى ولو كان الحسين. فأخرج له كتاباً وقال له: امضِ على هذا الكتاب.

وكان الكتاب عبارة عن شراء الدنيا بالآخرة؛ إذ جاء فيه: إن الحسين عليه السلام قد خرج على إمام زمانه يزيد بن معاوية. فوقّع شبث، ووقع معه جماعته، وراح عبيد

الله بن زياد ينشر هذه الفتوى. ومن الطبيعي أن المقاييس عندما تصل إلى هذه الدرجة من الإسفاف والجهل والعمى والحقد، فإن مثل هذه الفتاوى يمكن أن تصدر عنها، يقول السيد جعفر الحلي:

لم أدرِ أين رجال المسلمين مضوا — وكيف صار يزيد بينهم ملكا
العاصر الخمرَ من لؤم بعنصره — ومن خساسة طبع يعصر الودكا
لئن جرت لفظة التوحيد في فمه — فسيفهُ بسوىٰ التوحيد ما فتكا [1]

وفعلاً فإن يزيد لم يفتك بسيفه إلّا بكلمة «**لا إله إلّا الله**». وأُحب أن أُؤكّد من على هذا المنبر الشريف أن الأُمويّين لم يكن هدفهم من الحسين عليه السلام هذا الجسم والدم واللحم، وإنما كان هدفهم هو أن يخنقوا صوت السماء، وصوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والرسالة بقتل ممثّلها وامتدادها أبي عبد الله الحسين عليه السلام؛ لأن صوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يرعبهم؛ ولذا فإنهم قرّروا ألّا يتركوا أحداً من أهل هذا البيت الطاهر.. بيت الوحي والرسالة ينعم في هذه الحياة[2]. وبهذا اللحاظ كانت واقعة الطفّ، وإذا بهذا البيت الشريف بأجمعه وبكل فروعه يتهاوى [3]، ولا يُرى فيه إلّا أرامل ويتامى.

وكان الإمام زين العابدين عليه السلام إذا مرّ على دور آل عقيل اختنق بعبرته وحينما يسأل عمّا به كان يقول: «**إذا مررت علىٰ دور آل عقيل خنقتني العبرة؛ لأني أراها**

---

(١) الانتصار (العاملي) ٨: ٣٠٦.

(٢) ولذا فإن مناديهم قد نادى يوم الطفّ: اقتلوهم، ولا تبقوا لأهل هذا البيت باقية. الاختصاص ١: ٥٧٨.

(٣) قال السيد حيدر الحلي:

قوّضي يا خيام عليا نزار — فلقد قوّض العماد الرفيعُ

ديوان السيد حيدر الحلي ١: ٣٦.

خالية ليس فيها إلّا أرامل ويتامى»[١].

هذي ديارهُمُ بعد الأنيس غدت

يقول أحد الأعراب: مررت بعد واقعة الطفّ قرب دار أُم سلمة (رضي الله عنها وأرضاها)، فلفت نظري صوت صبيّة تأخذ الدار عرضاً وطولاً، وهي تبكي، فسألت عنها، فقيل لي: هذه فاطمة العليلة ابنة الحسينعليه السلام تندب أباها الليل والنهار:

كلمن الهه غايب يجيهه وانه الوالهه الذبحوا وليهه

* * *

أحبّتنا من للظعائن بعدكم فليت فداكم يا كرامُ الظعائنُ



(١) لم نعثر على الحديث الشريف بنصه، لكن هناك حديث قريب منه في كامل الزيارات (ابن قولويه): ٢١٣ / ٣٠٦.

﴿٢٠١﴾

حقيقة الزهد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: سبب نزول الآية

إن هذه الآية الكريمة قد نزلت لتعالج جملة من القضايا التي تتكرر كل يوم في المجتمع، وهي آية لصيقة بالسلوك الإنساني بصورة مباشرة كما سنرى إن شاء الله تعالى من خلال هذا المبحث. يذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ جلس يوماً، فذكّر الناس، ووصف القيامة، فرقّ الناس وبكوا، واجتمع أمير المؤمنين عليه السلام، وبلال، وعثمان بن مظعون؛ فأما أمير المؤمنين عليه السلام فإنه حلف ألّا ينام بالليل أبداً إلّا ما شاء الله تعالى. وأما بلال، فإنه حلف ألّا يفطر بالنهار أبداً، وأما عثمان بن مظعون، فإنه حلف ألّا ينكح أبداً.

---

(١) المائدة: ٨٧.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتى دار عثمان، فلم يصادفه، فقال لامرأته أم حكيم بنت أبي أمية: **«أحقّ ما بلغني عن زوجك وأصحابه؟»**. فقالت: يا رسول الله إن كان أخبرك عثمان، فقد صدقك. فانصرف رسول الله ﷺ، فلما دخل عثمان، أخبرته بذلك، فأتى رسول الله ﷺ هو وأصحابه، فقال لهم رسول الله: **«ألم أنبّئكم أنكم اتّفقتم على كذا وكذا؟»**. قالوا: بلى يا رسول الله، وما أردنا إلّا الخير. فقال رسول الله ﷺ: **«إني لم أومر بذلك. إن لأنفسكم عليكم حقّاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدسم، وآتي النساء. ومن رغب عن سنّتي، فليس مني»**.

ثم جمع الناس وخطبهم، وقال: **«ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا؟ أما إني لست آمركم أن تكونوا قسّيسين ورهباناً؛ فإنه ليس في ديني ترك اللحم، ولا النساء، ولا اتّخاذ الصوامع. وإن سياحة أُمتي الصوم، ورهبانيتهم الجهاد. اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وحجوا، واعتمروا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا يستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد؛ شدّدوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع»**[1].

فالرسول الأكرم ﷺ يريد أن يبين هنا أنّ هؤلاء الذين شدّدوا على أنفسهم قد شدد الله عليهم، وأولئك بقاياهم في الصوامع والأديرة، وأنه ليس من دينه ﷺ الرهبانية ولا التوحش، ولا الابتعاد عن الناس[2].

---

(١) مجمع البيان ٣: ٤٠٤ ـ ٤٠٥، تفسير الآلوسي ٧: ٨ ـ ٩.

(٢) قال رسولنا الأكرم ﷺ: «لا رهبانية في الإسلام». دعائم الإسلام: ١٩٣ / ٧٠١، تفسير السمعاني ٥: ٣٧٩.

وعليه فقد نزلت هذه الآية الكريمة لهذا السبب.

المبحث الثاني: معالجات الآية الكريمة

ومن خلال المبحث السابق نرى أن هذه الآية الكريمة قد عالجت ثلاث نقاط هي من صميم حياتنا اليومية، ومن الأمور التي ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً في كلّ لحظة من لحظاتها. وهذه النقاط الثلاث في الواقع تعكس لنا شيئاً من واقع الإسلام في حياتنا وصميم وجودنا، والمعالجات الثلاث هي:

المعالجة الأولى: معضلة الغريزة الجنسية

إن هذه الغريزة لا شك هي من ألصق الغرائز بالإنسان وأعنفها عنده، ولذا فإن الإسلام يرى ضرورة إشباعها مع مراعاة أن ذلك الإشباع لابد أن يكون عبر الطرق المشروعة المحلّلة التي رسمها الشارع المقدّس، وليس عبر أي طريق كان. ثم إن البارئ جلّ وعلا حينما خلق هذه الغريزة ووضعها عند الإنسان لم يضعها لشيء فيه لون من العبثية، بل إنه جلّ وعلا وضعها لحكمة يرتئيها، وهي الحكمة عينها التي تفسر لنا اتّصافها بهذه الدرجة البعيدة من العنف.

إن الله جل وعلا إنما جعل فيها هذا العنف كلّه كي يسعى الإنسان إلى إشباعها راغماً، وبالنتيجة فإنه يمدّ الجيل بأبنائه، وبالنويّات التي تحفظ وجوده. فالأطفال هم المنبع الذي يغذّي هذا الجيل ويمدّه بمادته الأساس التي تحفظ له وجوده وعنفوانه، ويضخّ فيه حيويته.

مثبطات الزواج

وعلى الرغم من أن الله جلّ وعلا قد أمر بإشباع هذه الغريزة على ضوء ما شرعته السماء، وسنّته القوانين الإلهية إلّا إننا نجد أن في مجتمعاتنا عوامل كثيرة

تحول دون إشباع هذه الغريزة، وهي كلها عوامل مثبّطة تخضع الإنسان إلى الرغبة في عدم الزواج، بل اللجوء إلى إشباعها عن طرق غير مشروعة أو طرق بهيمية. فتكاليف الزواج الباهظة، والالتزامات الخانقة التي يفرضها الآباء على الأزواج، وما يترتب على ذلك من معاناة كلّها عوامل مثبّطة تمنع الإنسان أو الشاب بالذات من أن يقرب الزواج أو حتى أن يفكر فيه.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار الطرف الثاني من المعادلة وهو ضغط الغريزة عند الإنسان وعنفها عنده نجد أنه طرف يلجئ الإنسان أو هذا الشاب لأن يفكر بالزواج لاغياً كلّ هذه الاعتبارات. وبذلك يضمن هو كما يضمن المجتمع امتداد النوع عبر هذه العملية شريطة أن يكون هذا الإنسان سليم الدين وسليم الأخلاق ومستقيم السيرة بشكل لا يلجأ معه إلى الخطيئة أو إلى الرذيلة. أما في غير ذلك، فإنه لا يفكر في الزواج مطلقاً، بل يلجأ إلى إشباع هذه الغريزة إلى الطرق غير المشروعة.

الضوابط الشرعية لغريزة الجنس

وهذه الغريزة التي وضعها الله جلّ وعلا عند الإنسان، ووسمها بسمة العنف لم يتركها عنده بهذا الشكل الذي ربما يدفع به إلى حافة الرذيلة أو إلى هاوية الخطيئة، بل إن السماء قد وضعت لها ضوابط من ناحية الكثرة والقلة، وإحاطتها بالعناية والرعاية إحاطة كاملة، وعالجت مشاكلها ومثبطاتها وعوامل الصدود عنها معالجة جذرية حتى يتسنى لهذا المجتمع أن يعتمد الطرق الصحيحة والسليمة والدينية في تنفيذ الإرادة الإلهية حول مسألة إمداد المجتمع بالجيل. ومن هذه الضوابط نذكر:

الضابطة الأولى: الحث الشديد على الزواج

لقد حثّ الإسلام حثّاً شديداً على الزواج، وربما يستغرب البعض حينما يرى الكمّ الهائل من الروايات التي تتناول هذا الموضوع، وكذلك الروايات التي تعنّف على من يمتنع عن هذا الزواج كما في رواية المبحث الأول حول نزول آية المقام، أو عن تسهيل اُموره.

أربعة يلعنهم الله تعالى وملائكته

وكذلك في روايات اُخرى ترويها كتب الحديث منها قولهﷺ: «**أربعة لعنهم الله فوق عرشه، وأمّنت عليهم ملائكته: الذي يحصن نفسه عن النساء ولا يتزوّج ولا يتسرّى؛ لئلّا يولد له ولد. والرجل يتشبّه بالنساء وقد خلقه الله ذكراً. والمرأة تتشبّه بالرجال وقد خلقها الله عز وجل اُنثى. ومضلّل المساكين**»[1].

وهنا عندنا أربعة أصناف تطرّق إليهم الحديث الشريف، هم:

الأول: رجل يحصر نفسه عن النساء

فمثل هذا يخاف من إنجاب الأطفال؛ لأنه يرى أن الأطفال بحاجة إلى تربية وعناية، وما يتبع هذه الاُمور من مشاكل ومصاعب ومتاعب كلّها تقتضي توفير الكسوة لهم، وكذلك الطعام، مضافاً إلى تلبية حاجاتهم وما إلى ذلك؛ ولهذا فإنه يعزف عن الزواج.

فالرسول الأكرمﷺ يعنّف على هذا الذي يفكّر بهذا النمط من التفكير، ويحبس نفسه داخل هذا الإطار الضيّق، أو ينحو نحو هذا اللون من التطبيق في

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة ١٤: ١٥٦ / ١٦٣٦٠، المعجم الكبير ٨: ٩٩، كنز العمّال ١٦: ٧٠ ـ ٧١ / ٤٣٩٧٨.

الحياة؛ لأنه يبتعد كثيراً عن عين السماء. إن مثل هذه الدعوة ربما يكون فيها نوع من المصداقية أو الحق، وهي دعاوى كثيرة، لكن المشكلة أنها ليست بإرادتنا حتى نتحكم بها، بل إنها أُمور مفروضة علينا.

ثم إنه حتى مع وجود الوسائل الحديثة لمنع الحمل في هذه الأيام.. الوسائل المتيسّرة منها فإن الإنسان يبقى غير قادر على التحكّم بموضوع النسل. ومن هذا ما حدث لبعض من أعرفهم، فقد بقي ثلاث سنين يلجأ إلى وسائل منع الحمل الحديثة كيلا يحصل لهم حمل ولا يولد له ولد، لكنه في السنة الرابعة رزق بثلاثة توائم دفعة واحدة، وقد عاش هؤلاء الثلاثة كلّهم.

إذن فمسألة النسل ليس لها علاقة إطلاقاً بالإرادة الإنسانية.

وأود أن أُنوّه هنا إلى أنني لا أُريد أن أقول: إننا يجب أن نلغي التنظيم في حياتنا، بل على العكس من ذلك، فالإنسان يستطيع أن ينظم حياته ونسله؛ كي يتمكن من مسايرة مستجدّات الحياة، وكي يعتاد على ظروفها ويستطيع التغلب على أحوالها. فعلى الإنسان العاقل أن يأخذ احتياطاته اللازمة في مثل هذه الأُمور، لكن هذا لا يعني أن هذه الاحتياطات هي علّة تامّة لمنع هذه الحالة الطبيعية؛ فهي ـ كما قلنا ـ أُمور خارجة عن إرادة البشر، وإن الله جل وعلا هو الذي ينسّقها ويرتّبها ويحفظها وفق نظام عامّ هو نظام المخطّط الإلهي الشامل. يقول الشريف الرضي﵀ في إحدى روائعه:

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضرّ منها جانب جفّ جانبُ

فلا تكتحل عيناك منها بعبرة ... على ذاهب منها فإنك ذاهبُ (١)

---

(١) شرح نهج البلاغة ٧: ٢٣٠، تاريخ الإسلام ٢٤: ٢٢٢، الوافي بالوفيات ٨: ٩، وقد اختلفوا في نسبته دون أن ينسباهما إلى الشريف الرضي﵀، وهما في ديوان ابن عبد ربّه

وهذا هو الواقع؛ فهناك جانب مخضرّ يولِد الأطفال، وهناك جانب آخر يجفّ وينضب معينه؛ فيودع في المقابر.

الثاني: رجل تشبّه بامرأة

فهذا الرجل يتشبه بالمرأة مع أن الله جل وعلا قد خلقه ذكراً.. جنساً متميّزاً عن النساء بخصائص الذكورة، كما جعل الإناث جنساً متميّزاً بخصائص الأُنوثة. وحينما يتشبّه الذكر بهن فإنه سوف يمسخ رجولته مع أن في جانب الرجولة هدفاً وراء وجوده، كما أن هناك هدفاً وراء وجود جانب الأُنوثة. والهدفان مختلفان ومتنوعان، وكل منهما يتمم الآخر. لكن حينما يأتي الرجل ليمسخ الهدف الذكوري ويحوله إلى هدف أُنثوي فإنه إنما يكون قد مسح هويته ومسخها، مع أن المفروض أن الله تعالى قد خلقه ذكراً عليه أن يحقّق الهدف الذي من أجله وجد عامل الذكورة عنده.

الثالث: امرأة تتشبه برجل

وكذلك الأمر مع المرأة، فهي حينما تتشبّه بالرجال وقد خلقها الله أُنثى إنما تضيع الهدف الذي من أجله قد أودع الله جل وعلا فيها أُنوثتها. فالأُنثى لها خواصّ ومميزات تميّزها عن الرجل، وعليها ألّا تقع فريسة عقدة كونها امرأة. فالمرأة في ميدانها تستأثر بأهمية أكبر وأكثر من الرجل؛ فالميدان الذي يعمل فيه الرجل ليس بالأهمية نفسها بالنسبة للميدان الذي تعمل هي فيه، فالرجل قد يبذر الحياة أو يبني داراً أو يؤسّس مؤسّسة، أو يصنّع آلة، لكن الأُم المرأة تصنع العقول والأفكار، وتخلق الإنسان السوي.

☚ الأندلسي: ٤٩.

فمن هذا الجنس الأُنثوي ينبثق الإنسان، وفي هذا المعمل الأُنثوي يتمّ تصنيعه سليماً سويّاً كي يخرج إلى الدنيا وهو في حالة نفسيّة سليمة، فإن المجتمع سيكون متوازناً. إن حِجْر المرأة هو المصنع الذي يصنع الأجيال والمجتمعات؛ وبهذا فإن مهمّته مهمّة خطرة وخطيرة في آن، ولهذا فهي تستأثر بهذا الميدان الضخم.

هذا من ناحية، ومن الناحية الثانية إن الرجل يعيش في جوّ جافّ.. جوّ يتعامل بالعقل والبيع والشراء ومزاحمة الناس بمناكبهم، وينزل إلى قلب المجتمع بهذا الصراع من أجل الحياة، ومن أجل توفير لقمة العيش، أما المرأة فهي تعيش هذا الجوّ الشفّاف المليء بالعواطف والمضمّخ بالمشاعر والحنان.. جوّ الأُسرة الذي تملأه الرحمة ويرفرف عليه السكون بأجنحته الرقراقة.

إذن دور المرأة في ميدانها أهمّ من دور الرجل في ميدانه؛ وبناءً على هذا فإن عليها أن تتخلّى عن هذه العقدة التي ربما تراودها، وهي عقدة كونها أُنثى، فهذه العقدة عقدة غريبة علينا، جاءتنا من الغرب، وهي بعيدة عن روح ديننا ومجتمعنا وعاداتنا وأخلاقنا وطبائعنا؛ لأن روح الشرق تستهدف الحنان والعطف والودّ عند المرأة؛ كونها روحاً متأثرة بالنبوّات وتعاليم السماء، في حين أن روح الغرب أنزلت المرأة إلى هذا الميدان الجافّ، وأماتت عندها مشاعر الأُمومة، ودثرت عندها تلك الحساسية الطاهرة وروح القداسة.

فالمرأة على أية حال تحمل الحجر النظيف الذي يربّى فيه الولد، وهذا الحجر النظيف قد قتلته أوروبّا عندما أنزلت المرأة إلى المعمل وجعلتها جزءاً من الآلة، وحجرت على عواطفها، ومنعت مشاعرها من أن تنطلق، وأماتت عندها الروح الكريمة. ولذا فإنه ليس غريباً أن نسمع هذه الأيام أصوات كتّاب وكاتبات من أوروبّا يحذرون المجتمع الشرقي من الانزلاق في متاهات المجتمع الغربي

والركون إلى حضيضه، ويؤكّدون عليهم دائماً أن يتمسّكوا بتقاليدهم وألّا ينساقوا وراء تقاليد الغرب.

الرابع: رجل يضلّل الناس

وهو الذي يهزأ بالناس، ويتعهّد بمساعدة أحدهم ثم يخذله، أو الذي يرشد الناس إلى السبيل غير الصحيح أو المخطوء، فهو يضلّل الآخرين بأن يرشدهم إلى السُّبل غير الصحيحة. ومنه الذي يأخذ بيد الأعمى ليقوده إلى طريقه، لكنه يعدل به عن المحجّة إلى الطريق الخطأ؛ ليهزأ به، وليسخر منه ومن عواطفه، أو يقول له: اتّقِ البئر، اتّقِ الدابة. وليس بين يديه شيء من ذلك. أو أن يقول للمسكين: هلم أُعطك. فإذا جاءه الرجل قال: ليس معي شيء. أو يضلّل الرجل الذي يسأل عن دار القوم، بأن يرشده إلى غيرها.

فهؤلاء هم الأربعة الذين تحدث عنهم الحديث النبوي الشريف، والذي يعنينا منهم في خصوص موضوعنا هو الأول، وهو الذي يمتنع عن الزواج مخافة الإنجاب.

إذن فالشريعة تحثّ الناس كثيراً على موضوع الزواج؛ لكي يتسنّى للمجتمع أن يحافظ على وجوده، ولكي تستمر الحياة ويعيش الدين.

الضابطة الثانية: تذليل عقبات الزواج

ومسألة الخوف من الإنجاب بسبب التخوّف من عدم توفر الجانب المعيشي قد عالجها القرآن الكريم حينما قال: **﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**(١)، ومن مظاهر حثّ الإسلام على الزواج قول الرسول الأكرم ﷺ:

---

(١) النور: ٣٢.

«تزوّجوا السوداء الولود الودود، ولا تتزوّجوا الحسناء الجميلة العاقر؛ فإني أُباهي بكم الأُمم يوم القيامة» [١].

إن على الإنسان أن يلزم نفسه الحدّ الوسط دائماً، فلا يتّجه إلى جهة الإفراط بشكل كلّي بحيث يتبتّل كما نقرأ في العهدين: «إذا أردت الاتّصال بملكوت السماوات، فابتعد عن المرأة» [٢].

وهذا غير ممكن لأن الله جل وعلا لم يخلق الغريزة عبثاً؛ ولهذا فإنه لا يريد للإنسان أن يبتعد عن المرأة، وإلّا فلماذا خلقها الله جنباً إلى جنب مع الرجل؟

كما أن على الإنسان ألّا أن يُغرق نفسه في جانب التفريط فينصاع وراء غريزته ووسائل إشباعها، كما يحدثنا التاريخ عن بعضهم، مثل الوليد بن يزيد حيث يخبرنا أنه قد تزوج اثنتين وستين امرأة، كما يذكر ذلك الراغب الأصفهاني في محاضراته عند تعرّضه إلى ترجمة هذا الرجل، مع أننا لا نسمع من ينكر عليه هذا حينما نمرّ به ولا من ينبزه؛ لأنه الوليد بن يزيد.

وكذلك المتوكل الذي لم يكن له من شغل سوى الطواف على جواريه والخمرة تحمل بين يديه، وإلى جانبه الفتح بن خاقان وهو يترنّح من شدّة السكر. وكانا يثملان معاً حتى لا يعيا من أمرهما شيئاً. وقد حدّثنا التاريخ أنه كان له من السراري أربعة آلاف سُرِّيّة، وهذا ما كتبه عنه أهل السير والتراجم [٣].

ومع كل هذا نجد من يصف المتوكل بأنه محيي السنة [٤]، ونجد من الشعراء من

---

(١) النوادر (الراوندي): ١١٥ ـ ١١٦، السنن الكبرى (النسائي): ٦: ٦٦.
(٢) بمعناه في إنجيل متّىٰ / الإصحاح: ١٩، الآية: ١٢.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٢: ٤٠، وانظر البداية والنهاية ١٠: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ٢٤١.
(٤) انظر البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.

يقول له:

ثــــلاثة أمــــلاك فـــأما مــحمد فــنورٌ له يــهدي إلهك مــن يــهدي

وأمّــــا أبـــــو عـــــبد الإله فــإنه مثيلك بالتقوىٰ ويجدي كما تـجدي

وذو الفضل إبراهيم للناس عصمة تــقيٌّ وفــيٌّ بــالوعيد وبــالوعدِ

فأوّلهـــم نـــورٌ وثــانيهُمْ هــدى وثـــالثهم رشــدٌ وكــلُّهُمْ مــهدي

وأسفاً على هذا الفكر في واقع الأمر وإذ ينزل إلى هذا المنحدر الرهيب من البعد عن الله جل وعلا، وإلى هذه المستويات المنحطّة، فكان في هذا كما قال الشاعر:

نسخوا جلال الحرف إذ تـركوه يــهتف للـبؤرْ

ومن هذا النمط الشيء الكثير، ورحم الله تعالى من يقول:

تــعوّد شــدو الذرا لا كـمن تــعوّد يشــدو بــمستنقعِ

فهذا يقول: إن عندي شدواً يتوخّى الجبال العالية التي هي أهل لأن يشدو بها المرء أو يشدو لها، وهو على النقيض من ذلك الذي يشدو على مستنقع أو لمستنقع. فمثل هذا لا مانع عنده من أن يمرّغ كرامة الأدب والفكر، أو أن يسحق كرامة الشعر في مدح أحد هؤلاء الذين لوّثوا التاريخ، ولطّخوا سمعته، وشوّهوا وجهه، وكانوا وصمة عار في جبينه.

وعليه فإن على الإنسان ألّا يمتنع عن الزواج خوف الذرية وخوف إعالتهم ولا أن يفرّط فيه كما فعل بعض خلفاء بني أمية وبني العباس، فهناك جوانب معقولة بين الحالتين [١].

---

(١) وهو الذي أسماه أفلاطون بالوسط الذهبي.

ولهذا فإننا نجد أن النبي ﷺ يقول لعثمان بن مظعون: «**وآتي النساء. ومن رغب عن سنّتي، فليس مني**».

فمقاربة الأهل من تمام السنّة، وقد نبّه الرسول الأكرم ﷺ إلى أنه يقارب أهله أيضاً، وعليه أن يتأسّى به، ويتّخذ منه قدوة، لا أن يسنّ له سنة لا ترضي الله ولا رسوله، بل تغضبهما.

وبهذا فإننا نلاحظ أن أول نقطة عالجها المشرع الإسلامي في هذا الحديث الشريف عبر هذا المنطلق هي مسألة الغريزة والزواج، وأوضح أنه لابد منها؛ لأنها عملية تؤدي إلى تكوين الأُسرة التي هي الخلية الأساس واللبنة الأُولى في تكوين المجتمع. ونحن لا يمكننا أن نبني مجتمعاً ما لم نكوّن أُسرة؛ لأن المجتمعات التي تبنى على نظام غير النظام الأُسري الإسلامي لهي مجتمعات متهالكة ومنحدرة إلى بؤرة الهلاك والفساد والرذيلة.

وبناءً على هذا فإن خلايا المجتمع السليمة لا تتوالد إلّا من الزواج الشرعي الذي يبقي الإنسان على عفّته وطهارته واستقامته ودينه وأخلاقه؛ ولذا فإن على الإنسان أن يختار الزوجة الصالحة، والمكان الطيب، وأن يكون زواجه وفق أُصول الإسلام وأخلاقياته، وأن يكون إنجابه وفق أُصول محدودة ولاسيما مع وجود الوسائل التي أصبح الإنسان قادراً عبرها على تنظيم حياته ولو بشكل جزئي.

المعالجة الثانية: مسألة الطعام

وهذه النقطة هي المسألة الثانية التي عالجها المشرّع الإسلامي عبر هذا الحديث الشريف، وذلك تأسيساً على قول بلال بأنه سوف يصوم الدهر كله. ولذا فإن الرسول الأكرم ﷺ قال له: «**فإني أصوم وأفطر**». فهو ﷺ يبين له أنّه يعمد

إلى الصيام في مواسم معينة ويفطر في مواسم معينة؛ فهو ﷺ حيث يصوم في أيام معدودة صياماً واجباً، وفي أُخرى غيرها صياماً مستحبّاً، ثم يفطر ما تبقّى من السنة. فليس عنده صيام مستمر من السنة إلى السنة، وعليه ألّا يمتنع عن الطعام والشراب وأن يأكل وفق ما يقرّره القرآن الكريم، وما تقرّره السنة النبوية من جهة الكسب ومن جهة الإنفاق ومن جهة الطعام[1].

ومن هذا نلاحظ أن الصوم على أقسام: فقسم منه واجب وهو صيام رمضان وصيام النذر، وقسم منه مستحبّ وهو صيام الأيام التي وردت الروايات الشريفة والآثار الكريمة في استحباب صيامها، وصوم محرم، وهو صوم بضعة من الأيام كالعيدين مثلاً.

صوم عاشوراء

وبالمناسبة فإنني أود أن أذكر أن هناك إلحاحاً بالسؤال عن مشروعيّة صيام يوم عاشوراء أو عدمها. والحقيقة أن اليهود كانوا يصومون يوم عاشوراء، فلما جاء الإسلام حرم الصوم فيه؛ ولذا فإن الأُمويين عمدوا إلى اختراع روايات في فضل صيام يوم عاشوراء لتغطية هذا الحدث المفجع الذي ارتكبوه في معركة الطف وهي مجزرة كربلاء المقدسة.

ونحن حينما نقرأ مثل هذه الروايات فإننا لا يمكننا أن نتمالك أنفسنا عن الاستخفاف بها لما هي عليه من تهافت. وكدليل على ذلك سوف أُقدّم منها أُنموذجاً هو الترغيب والترهيب، حيث يروون عن سعد بن عباد الصحابي أنه قال:

---

(١) قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾. الأعراف: ٣٢.

بلغني أن الحيوانات تصوم يوم عاشوراء[١].

وهم إذ يرجعون هذه الرواية إلى أحد الصحابة فلأنهم يريدون أن يضفوا عليها لوناً من المشروعية.

وهناك رواية أُخرى عن الفتح بن شخرف يقول فيها: كنت أفتّ للنمل الخبز كلّ يوم، فلما كان يوم عاشوراء لم يأكلوه[٢].

ونحن حينما نقرأ مثل هذا التهافت فإننا سوف يأخذنا العجب بعيداً حول الأسباب التي أدّت بالأمر إلى أن يصل إلى هذا الحد؛ فهذا كتاب إسلامي ويعرض عقلية إسلامية أمام القارئ بشكل عام، سواء كان مسلماً أو غير مسلم، فلماذا نقدم هذا الزاد الموبوء للقارئ؟ ولماذا يُرتكب الجرم من أجل تدعيم نظرية أو فكرة تتبنّاها السلطة؟

وقد صرح الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام بأن هذه الروايات قد اخترعت في أيام الأُمويين للتقرّب منهم بتصوير أن يوم العاشر يستحب صيامه، والحال أن الأمر معكوس بشكل كامل؛ لأن الصوم فيه يكره كراهة شديدة، بل أكثر من هذا أن أحدهم يسأل الإمام الصادق عليه السلام عن صيام عاشوراء فيجيبه قائلاً: «**ذاك يوم قتل فيه الحسين عليه السلام؛ فإن كنت شامتاً فصم. إن آل أُميّة نذروا نذراً إن قتل الحسين عليه السلام أن يتّخذوا ذلك اليوم عيداً لهم يصومون فيه شكراً، ويفرحون أولادهم، فصارت في آل أبي سفيان سنة إلى اليوم؛ فلذلك يصومونه ويدخلون على أهاليهم وعيالاتهم الفرح ذلك اليوم. إن الصوم لا يكون للمصيبة، ولا يكون إلّا شكراً للسلامة، وإن الحسين عليه السلام أُصيب يوم عاشوراء؛ فإن كنت فيمن أُصيب به فلا**

(١) الفوائد المجموعة ١: ٩٨/٣٥، تنزيه الشريعة ٢: ٥٦/٣١.

(٢) الكرم والجود: ٦٦ / ٩٩، بغية الطلب في تاريخ حلب ٦: ٢٦٥٧.

تصم، وإن كنت شامتاً ممّن سرّه سلامة بني أُميّة فصم شكراً لله تعالى»[١].

نعم عندنا روايات حول استحباب الإمساك في هذا اليوم من الصباح إلى ساعة ما بعد الظهر أُسوة بالإمام الحسين عليه السلام الذي أمسك فيها عن الطعام والشراب. وهذه بطبيعة الحال عندما يكون هناك تعمّد في صيام هذا اليوم المفجع، أما أن يكون هناك مسلم يصومه على فطرته وعلى رسله من غير أن يكون شامتاً فإن صومه حينئذٍ لا غبار عليه.

إن هؤلاء الذين يقولون: إن صيام هذا اليوم مستحب يعرفون جيداً أن الحكم الاستحبابي ليس هم مَن يضعه، وإنما هو حكم توقيفي، بمعنى أن السماء هي التي تضعه، وتتوقّف صحته وعدمها على تشريعه وعدمه. فنحن لا يمكن أن نجد حكماً شرعياً يندرج تحت الأحكام التكليفية؛ لأنها توقيفية كلّها، فهي تأتي من الله جلّ وعلا وما علينا إلّا الامتثال لهذه الأحكام.

رجع

إذن فالحديث الشريف يشنع على من يقضي عمره كلّه صائماً؛ لأن الصوم بطبيعة الحال يضعف الطاقة الإنسانية، ولا يترك مجالاً للإنسان لأن يستعيد نشاطه فيبني نفسه ويبني المجتمع. وهذا أحد واجباته تجاه المجتمع؛ إذ إنّ المفترض به أن يعمل ويقضي حاجاته وحاجات أهله وإخوانه[٢].

---

(١) الأمالي (الشيخ الطوسي): ٦٦٧ / ١٣٩٧، وسائل الشيعة ١٠: ٤٦٢ ـ ٤٦٣ / ١٣٨٥٢.
(٢) قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ القصص: ٧٧، وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» الفقيه ٣: ١٥٦، ورواه العامّة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بلفظ: «احرث لدنياك...». النهاية في غريب الحديث ١: ٣٤٦ ـ حرث.

ثم إن الدنيا ليست ميداناً للعبادة فقط، وأخصّ منه أن الصوم أيضاً ليس الميدان الوحيد في العبادة أيضاً؛ فهناك أشكال أُخرى كثيرة من العبادة، فلا داعـي لأن يقتصر على موضوع الصوم حينئذٍ.

ولذا فإن النبي ﷺ أخبره بأنه مع منزلته ومع وظيفته السامية يصوم ويـفطر، وعليه هو ـ أي على بلال الحبشي ـ أن يصوم ويفطر كذلك، مبيناً ﷺ له أن الدنيا ليست صوماً كلها، وإذا كانت الحياة صوماً كلها، فلماذا خلق الله تعالى إذن هذه اللذائذ في الحياة؟

لقد ملأ الله الدنيا بأشياء أراد للإنسان أن يلتذّ بـها وأن يـتمتّع بـها بـالطريق المشروع، فأعطى الإنسان رخصة في أن يستمتع بها وأن يباشر تـلك المـلذّات بالطريقة السليمة الصحيحة. وهذا ترطيب للحياة، وجعلها متناغمة متناسقة مـع الغرائز التي وضعها الله تعالى عند الإنسان. وعليه فليس من الصحيح أن يحوّل الإنسان وجه الحياة إلى سطح جافّ لا اخضرار فيه.

المعالجة الثالثة: قيام الليل كلّه

وذلك عندما أعلن أمير المؤمنين عليه السلام أنه يريد إحياء الليل بالعبادة إلّا ما شـاء الله، فقد أجابه الرسول الأكرم ﷺ بقوله: «**فإني أقوم وأنام**».

والواقع أن هذا كان أسلوب أمير المؤمنين عليه السلام فقد كان (سلام الله عليه) إذا جنّ عليه الليل خرج بعيداً عن الدور والمنازل ـ أي بعيداً عن المدينة ـ ليتمكن من أن يعبد الله خفية دون أن يراه أحد، كما يروي ذلك أبو الدرداء، فعن عروة بن الزبير، قال: كنا جلوساً في مسجد رسول الله ﷺ، فتذاكرنا أعـمال أهـل بـدر وبـيعة الرضوان، فقال أبو الدرداء: يا قوم، ألا أُخبركم بأقلّ القوم مالاً، وأكثرهم ورعاً، وأشدّهم اجتهاداً في العبادة؟ فقال من في المجلس: من؟ قال: علي بن أبي طالب.

قال: فوالله إن كان في جماعة أهل المجلس إلّا معرض عنه بوجهه، ثم انتدب له رجل من الأنصار، فقال له: يا عويمر، لقد تكلمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها. فقال أبو الدرداء: يا قوم، إني قائل ما رأيت، وليقل كلّ قوم منكم ما رأى، شهدت علي بن أبي طالب بشويحطات النجار، وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممن يليه، واستتر بمغيلات النخل، فافتقدته، وبعد عليّ مكانه، فقلت: ألحق بمنزله. فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجيّ وهو يقول: **«إلهي، كم من موبقة حملت عني فقابلتها بنعمتك، وكم من جريرة تكرّمت عن كشفها بكرمك. إلهي إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا مؤمّل غير غفرانك، ولا أنا براجٍ غير رضوانك»**.

فشغلني الصوت واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب بعينه، فاستترت له، وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغابر، ثم فزع إلى الدعاء والبكاء والبثّ والشكوى، فكان مما ناجى به الله أن قال: **«إلهي، أفكّر في عفوك، فتهون عليّ خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم علي بليّتي.. آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها، فتقول: خذوه. فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، يرحمه الملأ إذا أذن فيه بالنداء.. آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوى آه من غمرة من ملهبات لظى»**.

ثم أخذ في البكاء، فلم أسمع له حسّاً ولا حركة، فقلت: غلب عليه النوم لطول السهر، لأُوقظه لصلاة الفجر. فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحركته فلم يتحرك، وزويته فلم ينزوِ، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد مات والله علي بن أبي طالب.

فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم، فقالت فاطمة: **«يا أبا الدرداء، ما كان من شأنه

ومن قصته؟». فأخبرتها الخبر، فقالت: «**هي والله - يا أبا الدرداء - الغشية التي تأخذه من خشية الله تعالى**».

ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه، فأفاق ونظر إلي وأنا أبكي، فقال: «**ممّ بكاؤك يا أبا الدرداء؟**». فقلت: مما أراه تنزله بنفسك. فقال لي: «**يا أبا الدرداء، فكيف لو رأيتني ودعي بي إلى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبّار، قد أسلمني الأحبّاء، ورحمني أهل الدنيا، لكنت أشدّ رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية**».

ثم قال لهم أبو الدرداء: فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ[1].

فأمير المؤمنين ﵇ هو الذي يخاطبه أحد الأُدباء بقوله:

أخو الذكرِ والمحرابِ إنْ جنَّ ليلُهُ ... وصِنوُ القَنا والسَّيفِ إن طَلَع الفجرُ

---

(١) الأمالي (الصدوق): ١٣٧ ـ ١٣٩ / ١٣٦، روضة الواعظين: ١١١ ـ ١١٢، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٩، ٢: ٣٢. وقد أورد المحاضر عوض الدعاء الوارد في الرواية هذا الدعاء: «يا من حاز كل شيء ملكوتاً، وقهر كل شيء جبروتاً، صلِّ على محمد وآل محمّد، وأولج قلبي فرح الإقبال إليك، وألحقني بميدان المطيعين لك. يا من قصده الضالّون فأصابوه مرشداً، وأمّه الخائفون فوجدوه معقلاً، ولجأ إليه العائذون فوجدوه موئلاً. متى راحة من نصب لغيرك بدنه؟ ومتى فرح من قصد سواك بهمّته؟ إلهي قد انقشع الظلام ولم أقضِ من خدمتك وطراً، ولا من حياض مناجاتك صدراً، صلِّ على محمد وآل محمّد، وافعل بي أولى الأمرين بك». والذي يظهر أنه وهم منه ﵀ لأن هذا الدعاء للإمام السجّاد ﵇، وقد دعا به في سفرته إلى الحج، والتي صحبه فيها حماد بن حبيب الكوفي ورأى منه مارأى، انظر: الخرائج والجرائح ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ / ٩، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤، بحار الأنوار ٤٦: ٤٠، ٨٤: ٢٣١. وقد مرّت في ج٦ من كتابنا هذا / محاضرة (الآثار الاجتماعيّة للصلاة).

وفـارسُ مِـضمارِ البَـيانِ بـنَهجِهِ تَلاقىٰ البيانُ الجَـزلُ والفِكَـرُ الغُـرُّ
تزوَّدَ منهُ كُـلُّ عـصرٍ كـما اشـتهىٰ ومـازالَ للـدُّنيا بـمزوده ذخـرُ

فأمير المؤمنينعليه السلام كان هذا دأبه، وهو أن يحيي ليله قـائماً وقـاعداً وراكـعاً وساجداً[١]، ولذا فإن النبيصلى الله عليه وآله وسلم يقول له: إن كان هذا رأيك فإني أريد أن أُبين لك أنّ الليل ليس كله للعبادة ولم يوضع لقيامه بالصلاة وقراءة القرآن فقط وإنما وضع للراحة، فبوسعك أن تريح نفسك وأن تجمع بين هذه الراحة وبين صلاة الليل في الوقت نفسه[٢].

هذا هو سبب نزول الآية الكريمة، وبعد بيان سبب النزول والنقاط الواردة فيه، ننتقل الآن إلى الأحكام التي يمكن أن نستمدّها ونستوحيها من الآية الكريمة كلّاً في مبحث مستقلّ إن شاء الله تعالى.

المبحث الثالث: في معنى النهي في الآية الكريمة

تقول الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ**﴾، وللمفسّرين في معنى النهي في قوله تعالى: ﴿**لَا تُحَرِّمُوا**﴾ رأيان:

الرأي الأوّل: عدم تحريم ما أحلّ الله

أي لا تفتوا في حرمة هذه الأشياء؛ لأنها أشياء أباحها الله عزّ وجل للإنسان؛ وعليه فينبغي ألّا يفتي أحد بحرمتها أو يقول بعدم جواز الاستمتاع بـها. والآيـة

---

(١) وهو بهذا لم يخالف رسولنا الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم، الذي قام ليله كلّه حتى ورمت قدماه من كثرة القيام والعبادة، حيث خاطبه الله تعالى قائلاً: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾. طه: ١ ـ ٢.

(٢) وأمير المؤمنينعليه السلام لم يغفل عن هذا المعنى على نحو الإطلاق؛ ولذا فإنهعليه السلام عقّب قراره هذا بقوله: «إلّا ما شاء الله».

الشريفة بناءً على هذا تشير إلى أن مسألة الحلال والحرام ـ كما ذكرنا قبل قليل حول الحكم الاستحبابي ـ ليست بيد الإنسان، بل إنها بيد الله عز وجل؛ فالإنسان لا يملك الحقّ في أن يفتي في هذه الأشياء التي خلقها الله جلّ وعلا بأنها حلال أو حرام إلّا إذا كان هذا الإفتاء نقلاً لرأي الشارع ولتشريع السماء، وما عدا ذلك فلا يجوز للإنسان في أي حال من الأحوال أن يضع نفسه في موضع المشرّع.

فالحرمة والحلية شأنهما في ذلك شأن بقية الأحكام التكليفيّة الأُخرى التي ذكرنا قبل قليل أنها أحكام توقيفيّة، بمعنى أنها يتوقّف الحكم فيها على رأي الشارع المقدس وإذنه. إن كل وظيفة الإنسان هي عبارة عن استخدام الوسائل المتاحة له للوصول إلى هذه الإحكام الخمسة، لا أن يكون مشرّعاً على ضوئها في قبالة تشريع الله جل وعلا. فالفقيه لا يعدو كونه وسيلة للوصول إلى الحكم الشرعي باستخدام الوسائل التي أناطها الشارع بهذا الأمر وأتاحها، وجعلها طريقاً له للوصول إليها.

وهذا الكلام طبعاً يخصُّ الفقيه الفقيه، أما الفقيه المخرّف فلا مانع عنده من أن يأتي بالأحكام كيف ما يريد، وأن يضعها كيف ما يريد وأينما يرغب، وأن يأوّلها بالشكل الذي يريد. فنراه يضع أحكاماً شرعية غريبة عجيبة في بابها دون أن يكون لها أصل أو أساس في الشرع الإسلامي. وإننا حينما نقرأ بعضاً من هذه الأحكام فإننا نستغرب عقليّة ذلك المفتي الذي أفتى بها.

اجتهادات الفقهاء إزاء النص

ومسألة اصطناع الفقيه مسألة غريبة، ونحن نقرأ في التاريخ أن فلاناً قد اجتهد ففعل كذا، وكأن الاجتهاد مسألة بسيطة يستطيع أي إنسان أن يقوم بها، أو لم تكن

عملية معقدة يبذل فيها الإنسان جهده وطاقته وعمره كي يصل إليها. فالاجتهاد ليس شيئاً بسيطاً البتّة، حتى يقال: إن فلاناً اجتهد ففعل كذا. ومن ذلك ما يروى من أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أراد أن يقيم الحد على خالد بن الوليد حينما بلغه أنه فعل ما فعل بمالك بن نويرة وبزوجته إذ قال له: يا عدوّ نفسه، قتلت امرأً مسلماً، ونزوت على زوجته! واللّه لأرجمنّك بأحجارك. فقال له أبو بكر: لقد تأوّل فأخطأ[1].

فنحن هنا نجد هذه العبارة وهي عبارة (تأوّل فأخطأ)، أي اجتهد. وهي عبارة موجودة في كتب التاريخ، ومبثوثة بين مطاويها؛ لتبرّر كلّ خطأ يرتكبه أحد الصحابة ممن لا يراد أن يقدح فيه.

إن مسألة الاجتهاد في واقع الحال مسألة كانت ولا تزال لا ينالها إلّا أفراد قلائل؛ ذلك أن عملية استنباط الحكم الشرعي ليست عملية بسيطة أبداً. ولذا فإننا نغبط الصحابة الذين عاصروا النبي ﷺ؛ لأنهم كانوا يغترفون من النبع الصافي حيث إن أيديهم كانت توضع مباشرة على النصّ، وعلى المنبع الذي لا ينضب أبداً. فمن كان عنده مشكلة قصد الرسول ﷺ وسأله عنها وعن حلّها، فيجيبه رسول الله ﷺ إن كان الحكم فيها حاضراً وإلّا انتظر وحي السماء حيث ينزل أمرها

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: ٦٨، تاريخ الأُمم والملوك ٣: ٣٨٠، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٥، تاريخ الطبري ٢: ٥٠٣ ـ ٥٠٤، وفيه: وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته، فقال: هيه يا عمر، تأوّل فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد. وودى مالكاً وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل فأخبره خبره فعذره وقبل منه، وعنّفه في التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب من ذلك، الكامل في التاريخ ٢: ٣٥٨ ـ ٣٥٩، أُسد الغابة ٤: ٢٩٥ ـ ٢٩٦، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٠٢ ـ ٢٠٣. تاريخ مدينة دمشق ٦: ٢٥٦، وفي دفع الخليفة دية مالك دلالة واضحة على أنه مؤمن غير مرتدّ.

عليه ليحكم في تلك المسألة.

وكمثال على ذلك ننقل ما يروى من أمر سبب نزول قوله تعالى: **﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾**[1]، فقد استشهد سعد بن الربيع في معركة أُحد، وترك ابنتين وامرأة وأخاً، فأخذ الأخ المال كله، فأتت المرأة لرسول الله ﷺ وقالت له: يا رسول الله: هاتان ابنتا سعد، وإن سعداً قُتل، وإن عمّهما أخذ مالهما بدعوى أنهما لا تحملان السلاح؛ فلا ميراث لهما. فقال ﷺ: **«ارجعي، فلعل الله سيقضي فيه»**.

ثم إنها عادت بعد مدّة وبكت، فنزلت الآية الكريمة المارّة، فدعا رسول الله ﷺ عمّ البنتين، وأمره بإعطائهما حقّهما من ميراث أبيهما، فكان هذا أول ميراث قسم في الإسلام[2].

وهنا فإننا لاحظنا أنه ليس هناك من مشكلة مع وجود المنبع الذي جعلته السماء قناة بينها وبيننا، لكن المشكلة حدثت بعد ذلك، فحينما فتح باب الاجتهاد جاءت الأهواء والرغبات لتتحكم في كل شيء بحجة أنه اجتهاد، وبعنوان أنه بذل جهد في سبيل هذا الاستنباط، يروي الدميري في قصة عن أبي يوسف القاضي أنه أرسلت إليه زبيدة كتاباً جاء فيه: إني مرسلة لك هؤلاء، وعندهم مسألة، وأُحب أن تقضي بينهم بهذه الصورة.

وفعلاً حينما جاء الأمر إليه حكم به كما كانت تريد، وأفتاهم بما تحبّ. فأرسلت إليه بهدية، فداعبه جماعة من الحاضرين وقالوا له: يروى عن

---

(١) النساء: ١١.

(٢) مجمع البيان ٣: ٢٩، تفسير السمعاني ١: ٤٠١، التفسير الكبير ٩: ٢٠٣ ـ ٢٠٤، تفسير ابن كثير ١: ٤٦٨.

النبي ﷺ قوله: **«إذا أُهديت إلى أحدكم هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها»**[١]. فأين قسمنا منها؟ فقال: إنما ذاك في الإقط والتمر والزبيب، ولم تكن الهدايا في ذلك الوقت ما ترون. ثم أمر غلامه بأن يرفع الهدايا إلى خزائنه دون أن يعطيهم منها شيئاً[٢].

وهذا النمط من الناس لا يعدمه أحد في كل زمان وفي كل مكان، فهو نمط وصولي متهالك، يريد الحياة الدنيا فيشتري بها آخرته، ويستبدلها بها؛ لأن أصحابه يضعون علمهم ودينهم وأنفسهم في خدمة الجبابرة. يقول الأديب:

ولم أقضِ حقّ العلم إن كان كلّما ... بدا طمع صيّرتُه ليَ سلّما

إذا قيل لي ذا مطمع قلت قد أرى ... ولكن نفس الحرّ تحتمل الظما

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأُخدما

أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ... إذن فاتّباع الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعظّما

ولكن أهانوه فهان ودنّسوا ... محيّاه بالأطماع حتى تجهّما[٣]

ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر أروي هذه القصّة، وهي أن الحكم بن زياد كان من ولاة معاوية، وقد خرج في غزوة، فعاد منها بغنيمة فيها من الذهب والفضّة الشيء الكثير، فأرسل إليه معاوية أن اعزل لي الذهب والفضّة، فلمّا جاءه رسوله

---

(١) الكافي ٥: ١٤٤/ ١١، مسند عبد بن حميد: ٢٣٤ / ٧٠٥، المعجم الأوسط ٣: ٥٣.

(٢) لم نعثر عليه في كتاب حياة الحيوان الكبرى، انظر البداية والنهاية ١٠: ١٩٥، ولم يذكر أمر زبيدة.

(٣) الأبيات لأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الجزري الشيرازي. انظر: يتيمة الدهر ٤: ٢٥، الوافي بالوفيات ٢١: ١٥٨ / ٣، البداية والنهاية ١١: ٣٨٠، الأمالي الشجرية ١: ٣٦.

بهذا مزّق الحكم الكتاب دون أن يجيبه، فقال له الرسول: أين الجواب؟ فقال هذا جواب كتابه، قل له: يقول لك الحكم: لقد جاءني كتاب قبل كتابك، وهو كتاب الله عزّ وجلّ الذي أمرني بغير هذا، وأنا ممتثل أمره، لا أمرك.

وروي: أنه قد مات أحد الأشخاص في بلد الحكم، وكان معاوية يطلبه، فبعث إليه أن استوفِ لي حقّي من هذا الميت ثم قسِّم باقي التركة بين الغرماء الآخرين. فلما وصل الكتاب إلىٰ الوالي رماه تحت الفراش، فطلب منه الرسول الجواب فقال: اذهب إلىٰ معاوية فقل له: لقد جاءني كتاب قبل كتابك، وهو كتاب الله تعالى الذي أمرني أن أُساوي بين الغرماء.

وهنا فإننا نجد الفرق واضحاً بين هذا اللون المشرّف والنمط الأُنموذجي من الناس، وبين ذلك النمط الأول المخزي الذي يستبدل دنياه بآخرته، ويشتريها بها ممن يضع علمه في خدمة الجبابرة والسلاطين.

الرأي الثاني: ألّا يعامل الحلال معاملة الحرام

وهذا الرأي هو الأقرب إلى الصواب؛ لأن الآية الشريفة تقول: إن هذه الأشياء الثلاثة من المباحات فلا تعاملوها معاملة المحرمات؛ لأن الله جل وعلا حينما خلق هذه المباحات خلقها وهو يريد للإنسان أن يتمتع بها وأن يشبع غرائزه منها عن طريق مشروع، لا أن يمتنع عن ذلك فيعاملها معاملة المحرم. إن الله جل وعلا لم يخلق شيئاً وأباحه لعباده إلّا وهو يريد منهم ألّا يحرِموا أنفسهم من الانتفاع به؛ لأن إباحته لهم معناه أن فيه نفعاً وفائدة لهم. فالله جلّ وعلا لم يخلقها عبثاً.

قبل فترة من الزمن ليست ببعيدة جاءني مجموعة من الطلاب في لندن فقال لي أحدهم: شيخنا ما معنى هذه السلبيات الموجودة في الشريعة الإسلامية، ونعني بها كثرة النواهي حيث إن في الشريعة أن هذا حرام، وهذا حرام، وهذا لا تفعله،

وهذا لا تقربه وما إلى ذلك؟ وهل معنى هذا أننا يجب أن نحوّل الحياة إلى صحراء جافّة قاحلة لا حركة فيها؟

فقلت لهم: إن هذا الكلام غير صحيح البتة، وليس كلاماً موضوعيّاً، وإلّا فأخبروني أي شيء حرّمه الله جلّ وعلا ولم يفتح إزاءه باباً إلى الحلال؟ إن الله جل وعلا حرّم الزنا لأنه لا يريد للمرأة أن تصبح متاعاً رخيصاً، ولا أن ينظر الرجل إليها على أنها لذّة رخيصة يرميها بعد أن يقضي وطره وحاجته منها. ولذا فإنه تعالى فتح إلى جانب هذا الحرام باباً إلى الحلال وهو الزواج الشرعي، حيث تضمن فيه الشريعة كرامة المرأة، بل المرأة نفسها تضمن فيه كرامتها؛ لأنه يحولها إلى مصنع لتربية الأجيال، ويحوّل وظيفتها من كونها لذّة رخيصة عابرة إلى ما يشبه الجهاد في سبيل الله جلّ وعلا.

وإذ حرم الله تعالى الزنا وفتح إلى جانبه باب الزواج، فإنه جلّ وعلا كذلك إذ حرم الربا فتح إلى جانبه باب المضاربة، وإذ حرم بعض الأشربة المسكرة فتح إلى جانبها باباً حلالاً وهو الكثير من العصائر النافعة المغذية والتي لا تسكر أبداً. وبهذا فإن الحياة سوف لن تصبح صحراء جافّة مع وجود هذا الكمّ الهائل من المباحات والمحلّلات التي أمرنا الله جلّ وعلا بالاستمتاع فيها، وبالتعامل معها بعيداً عن المحرمات التي لم يكن الله ليحرمها إلّا وهو يرى فيها باباً واسعاً إلى الضرر والمرض.

إذن فالدنيا بخير ما زالت ضمن إطار ما حلل الله جلّ وعلا، لكن البعض يريد أن يختار ماحرم الله جلّ وعلا انسياقاً وراء لذّاته وشهواته وما إلى ذلك.

وبناءً على هذا فإننا نستقرب هذا الرأي، وهو أن على الإنسان ألّا يعامل المباحات معاملة المحرمات، فعلى الإنسان أن يستمتع بلذة النوم والراحة عند

الليل الذي جعله الله له سكناً وراحة بمقدار لا يتنافى أو يتعارض مع كون العبادة فيه أفضل من غيره.

وعلى الإنسان أيضاً ألّا يمتنع عن الطعام والشراب ما دام الله جل وعلا قد حلل له ذلك الطعام والشراب كما أن عليه ألّا يمتنع عن الزواج أبداً؛ لأن الزواج رسالة إنسانيّة عظيمة. كما أنه سكن يحتاجه كل إنسان ذكراً كان أو أُنثى؛ إذ يسكن عبره بعضهم إلى بعض؛ فيجد عند شريكه العزاء والسلوّ عن كل ما يعانيه من مصائب وآلام تواجهه في حياته وهو يمارس دوره. والتعبير القرآني عن الزواج بأنه سكن [١] لهو تعبير رائع.

وسوف أذكر لك هنا قصة جرت مع أوس بن حارثة بن لأم الطائي لكي نتعرّف على قيمة المرأة وكم لها من مكانة وقدر عند البعض، وكم لها من إسهامات في بناء الأُسرة العظيمة، وهو الأمر الذي حثّ الإسلام عليه. يقول المؤرخون: إن أوساً هذا كان تيّاهاً، والتيّاه هو الإنسان الصلف المختال الذي يتّصف بأن عنده اعتداداً كبيراً بنفسه وثقة عالية بها.

وما كان من أمره هو أن الحرث بن عوف بن أبي حارثة قال لخارجة بن سنان: أُريد أن أخطب، فهل ترى أن أحداً من العرب لا يزوّجني؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لأم الطائي. فقال: لنطرقه ونرَ.

فشدّا الرحال وذهبا إليه ليخطبا إليه ابنته، فلما دخلا عليه رحّب بهما، ثم قال: ما وراءكما؟ قالا: جئنا خاطبين. قال: لمن؟ قال الحرث: لي. قال: لا تصلح؛ فلستَ هناك.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الروم: ٢١.

فقام الحرث غاضباً. فلما خرج، دخل أُوس على زوجته متأثراً، فسألته، فقال لها: إن هذا الرجل استهجنني، وخطب إليّ إحدى بناتي بهذه الشاكلة من الاستعجال وعدم التمهيد للأمر، مع أنه سيّد العرب. فقالت: أنت تنعته بأنه سيّد العرب، فإذا لم تزوّج سيد العرب، فمن تزوّج؟ قال: فما أصنع؟ قالت: اتبعه، وقل له: لقد دخلت عليّ في ساعة غضب؛ ولذا رفضت طلبك، وأنا الآن مجيبك إلى طلبك، فارجع ولك عندي ما تؤمّل وما تبتغي. فقال: والله هذا هو الرأي، ولكن أدخل على بناتي أولاً، لأسألهن ولأعرف ما هي وجهة نظرهن.

فأقبل إلى الكبرى ليسألها رأيها في الزواج منه باعتبار أنها هي التي ستتزوج وليس هو، فقال: بنية، هذا سيّد العرب جاء يخطبك مني، فماذا تقولين؟ وهنا لابدّ من أن نعجب بهذه الروح التي يمتلكها هذا الرجل، حيث يستشير بناته في أمر زواجهن، ويترك لهن الخيار في تقرير أمره وأمرهن، مع أنه يعيش في الصحراء وبين معاطن الإبل، أي أنه لم يستبدّ بهذا الرأي دونهن، فقالت: أبه، إن في طبعي حدة، وفي خلقي رداءة، ولست بابنة عم له فيراعيني، ولا أنت جارٌ له في البلد فيستحي منك، وأخشى أن يطلقني فأكون سبّة عليك. فقال: لقد قلت فأحسنت.

فسأل الثانية، فأجابته مثلها، وأشعرته أنها لا تصلح. فقال لها أيضاً: لقد قلت فأحسنت.

فجاء إلى الصغرى وكان اسمها (هُنَيسة) فقال: ما رأيك؟ قالت: إني لجميلة وجهاً، حسنة خلقاً، صائبة رأياً ـ أي أن المؤهّلات التي يريدها الزوج في المرأة كلها موجودة عندها ـ فإن طلّقني فلا أنعم الله عليه. فقال لها: جزاك الله خيراً. ثم خرج منها، وركب في أثر ضيفيه، فلمّا لحق بهما قال للحرث: زوّجتك ابنتي «هنيسة». ففرح، ورجعا معه، ثم أفرد له خباء وأدخله عليها.

يقول نديمه: فلما أصبح عليه الصباح سألته: هل فرغت من حاجتك؟ قال: لا. قلت: لمَ؟ قال: لما دنوت إليها قالت: مه، أتصنع بي كما يصنع بالسبية؟ لا بد أن تجد فرصة ملائمة أُخرى غير هذه.

يقول: فقطعنا الطريق عائدين، وبتنا ليلة في منتصف الطريق، وقد أفرد خباء له بعيداً عن خبائي، فلما أصبح الصباح سألته: هل فرغت من حاجتك؟ قال: لا، إني لما دنوت منها قالت: مه، فلستُ عابرة سبيل، انتظر حتى تصل إلى أهلك فتنحر الجزر، وتوسع على الفقراء، وتطعم الضعفاء. فقلت: إنـي لأرى عـقلاً، وسأرى خيراً.

فلما وصل إلى أهله نحر الجزر وأطعم الطعام، فلما أصبح الصباح سألته، فقال: لما دنوت منها قالت: أنت تعرس بأهلك. والعرب تتقاتل فيما بينها؟ وكانت هناك حرب بين عبس وذبيان، ثم قـالت له: اذهب وأصـلح بـين القـبائل، وتـحمّل حمالات الدم، وارجع إلى أهلك.

يقول: فخرجنا صباحاً، وأخـذنا ثـلاثة آلاف مـن الإبـل وأطـفأنا الثـائرة، وأصلحنا بين القبيلتين، وأوقفنا إراقة الدماء. فلما عدنا ودخل عليها سألته، فقال: نعم، قضيت حاجتي[١].

الاعتبار بالرواية

ونحن نلمس هنا من هذه القصة أمرين:

الأول: مراعاة المشورة عند أوس

فأوس هذا مع كونه تيّاهاً ومع كونه يعيش في معاطن الإبل في الصـحراء لم

---

(١) المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

يكن ليستبد بالرأي في تزويج بناته؛ ولذا فإنه جاء يستشيرهن باعتبار أنهن هن اللواتي سوف يتزوجن وليس هو. وهذه روح كبيرة فيها لون من الحداثة، وتتماشى مع العصر.

الثاني: أن الصغرى قد حقّقت معنى السكن الزوجي

إننا حينما نأتي إلى هذه الفتاة الصغيرة التي تزوجها الحرث، سنجدها كيف حققت معنى السكن، مع أنها امرأة أعرابية عاشت في الصحراء ولم تتخرج من جامعة، ولم تتعلم في مدرسة، لكنه مع ذلك نجدها قد جعلت من هذا الزواج موضعاً ومباءة للإصلاح بين حيّين أو قبيلتين. فكل ما في الأمر أن التربية والحياة قد أعطتاها هذا اللون من النضوج. وهذا هو معنى السكن الذي يريده الإسلام، وهو التواؤم والتناغم؛ حتى يتاح للجيل القادم أن يكون جيلاً سليماً ومعافى من الأمراض النفسية والاجتماعيّة والسلوكية.

إذن فالحديث الشريف الذي ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة يقرّر أن هناك ثلاثة أشياء هي أُمور لصيقة بالحياة، ويجب على الناس أن يراعوها وألّا يأخذوا فيها طرفي الإفراط أو التفريط، بل عليهم أن يأخذوا فيها النمط الأوسط؛ فلا يُسرَف في الزواج، أو الأكل والشرب، أو النوم، ولا يُمتنَع امتناعاً كاملاً عن كلّ ذلك.

المبحث الرابع: سيرة أهل البيت عليهم السلام على ضوء الآية الشريفة

لقد كان أئمة أهل البيت: مثالاً رائعاً ومثلاً أعلى مقتدىً في هذا المجال؛ فتزوّجوا وحافظوا على علاقاتهم المنزلية، وفي الوقت نفسه كانوا يحيُون لياليهم بالعبادة، كما أنهم صاموا وأفطروا، وصلّوا واستراحوا. وكان هذا دأب جميع أئمة

أهل البيت النبوي المطهر، فليس منهم إلّا وهو مطبّق لأحكام السماء وتعاليم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في إيجاد هذه المعادلة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. ومن ذلك موقف الإمام الحسين عليه السلام في الليلة العاشرة من المحرم الحرام؛ حيث إنه عليه السلام وأصحابه قد قاموا ليلهم في العبادة والصلاة وقراءة القرآن، كما أنهم لم ينسوا عيالاتهم.

وكان الإمام الحسين عليه السلام قد طلب بنفسه إيجاد هذا المعنى في عصر اليوم التاسع من المحرم حينما حاصرت الجيوش المخيم الحسيني، وكان عليه السلام جالساً أمام خبائه، متقلّداً سيفه، فهوّمت عيناه الشريفتان، وإذا بيد أُخته تربت على كتفه، فقال لها: **«أُخيّة زينب!»**. فقالت له: فداؤك زينب يابن أُمّي، جاءك القوم وأنت تسبت نعاساً! أما تسمع الأصوات قد اقتربت؟

فرفع الإمام الحسين عليه السلام رأسه وقال: **«إنا لله وإنا إليه راجعون»**. فقالت له: ممّا استرجعت يابن والدي؟ فقال عليه السلام: **«لقد رأيت كأن كلاباً تنهشني، وكان أشدّها عليّ كلب أبقع، وأنا أظن أن الذي يتولّى قتلي رجل من القوم أبرص. ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله الساعة في المنام، فقال لي: إنك تروح إلينا»**. ثم قال له العباس عليه السلام: يا أخي أتاك القوم. فنهض وقال: **«يا عباس، اركب ـ بنفسي أنت يا أخي ـ حتى تلقاهم وتقول لهم: ما لكم؟ وما بدا لكم؟ وتسألهم عمّا جاء بهم»**.

فأتاهم العباس عليه السلام وقال لهم: ما بدا لكم؟ وما تريدون؟ قالوا: جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو نناجزكم. قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله عليه السلام فأعرض عليه ما ذكرتم. فوقفوا وقالوا: القَه فأعلمه، ثم القَنا بما يقول لك. فانصرف العباس راجعاً إلى الحسين عليه السلام يخبره الخبر، فقال عليه السلام: **«ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى الغدوة وتدفعهم عنّا العشيّة، لعلّنا**

نصلّي لربّنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني أُحبّ الصلاة له، وتلاوة كتابه والدعاء والاستغفار».

فمضى العباس إلى القوم ورجع من عندهم ومعه رسول من قبل عمر بن سعد يقول: إنا قد أجّلناكم إلى غد، فإن استسلمتم سرّحناكم إلى أميرنا عبيد الله بن زياد، وإن أبيتم فلسنا تاركيكم [1].

وهكذا أمهلوهم تلك الليلة، فرجع الإمام الحسين عليه السلام إلى خبائه وبات ومعه أصحابه ولهم دوي كدويّ النحل؛ فهم بين قائم وقاعد، وراكع وساجد. أما الحوراء زينب فلم تكن ترغب في أن تفارق أخاها الحسين عليه السلام؛ لأنها كان قد راودها إحساس بأنها سوف تكون ليلتها الأخيرة معه، وأنها ستفارقه غداً إلى حيث لا تراه ولا يراها بعد أن قضت كل هذا العمر الطويل إلى جانبه. لقد كانت (سلام الله عليها) تحدق في وجه الحسين عليه السلام وهو مشغول بصلاته، فقد كانت تجلس إلى جانب محرابه، يقول الإمام السجاد عليه السلام: **«إني لجالس في تلك العشيّة التي قتل أبي في صبيحتها، وعندي عمّتي زينب تمرّضني، إذ اعتزل أبي في خباء له، وعنده جون مولى أبي ذر الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه، وأبي يقول:**

يادهر أُفٍّ لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيلِ
من صاحب أو طالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديلِ
وإنما الأمر إلى الجليل ... وكلّ حيّ سالك سبيلي

فأعادها مرّتين أو ثلاثاً حتى فهمتها وعرفت ما أراد، فخنقتني العبرة فردّدتها ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل، وأمّا عمّتي فإنها سمعت ما سمعت

---

(١) ستأتي مصادره في آخر الواقعة.

وهي امرأة، ومن شأن النساء الرقّة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أُمّي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي. فنظر إليها الحسين عليه السلام وقال لها: يا أُخية، لا يذهبن بحلمك الشيطان. وترقرقت عيناه بالدموع وقال: ولو ترك القطا لناما.

فقالت: يا ويلتاه، أفتغتصب نفسك اغتصابا؟ فذاك أقرح لقلبي وأشدّ على نفسي. ثم خرّت مغشيّاً عليها، فقام إليها الحسين عليه السلام فصبّ على وجهها الماء وقال لها: يا أُختاه، اتقي الله وتعزّي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، وأن كلّ شيء هالك إلّا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته، ويبعث الخلق ويعودون، وهو فرد وحده. أبي خير منّي، وأُمّي خير منّي، وأخي خير منّي، ولي ولكلّ مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله أُسوة. فعزّاها بهذا ونحوه وقال لها: يا أُخيّة إني أقسمت فأبرّي قسمي، لا تشقّي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت»[1].

ونقول له: سيدي أبا عبد الله، أبيت أن ترى دمعة تجول في عيني أختك زينب الكبرى (سلام الله عليها)، فليتك تراها وقد أغرقتها دموعها وهي تقوم من مصرع وتجلس عند مصرع، وتجول بين مصارع إخوتها وذويها وبين خباء النساء:

لقد سرت أسرى على حالة ... قلّ لها موتك تحت الظُّبا

---

(١) الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، الأمالي (الصدوق): ٢٢١، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ـ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ـ ١٩٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩.

تســـاقط الأدمـــع أجـــفانها | كـالجمر عـن ذوب حشـا ألهـبا
فـــدمعها لو لم يكـــن مـــحرقاً | عـاد بـه وجه الثرى معشبا[١]

* * *

عـبراتـها تـحيي الثرى لولم تكن | زفـراتـها تـدع الريـاض هـمودا
وثـواكـل بـالنوح تسعد مثلها | أرأيت ذا ثكـل يكـون سـعيدا
حـنت فـلم تـرَ مـثلهن نـوائحاً | إذ ليس مـثل فـقيدهن فـقيدا

وهنا أظن أن الكواز ينبه إلى شيء آخر، وهو يقول: إن النكبة قد سلبتها حتى دموعها، وإنما كانت تبكي بالحرقة وبالإيماء:

خضبوا وما شابوا وكان خضابُهم | بـدم مـن الأوداجِ لا الحـنّاءِ
ومـغسّلين ولا مـياهَ لهـم سوى | عـبراتِ ثكـلى حَـرّةِ الأحشـاءِ
أصـواتُـها بُـحّت فـهن نـوائح | يـندبن قـتلاهن بـالإيماءِ[٢]

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلي ١: ٢٨.

(٢) ديوان الشيخ صالح الكواز / العلويات / القصيدة الأُولى في رثاء الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه.



﴿٢٠٢﴾

التفرّق في الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: مذاهب المفسرين في معنى ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا﴾

تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾، وللمفسرين في تحديد مفهوم هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة مذاهب ثلاثة:

الأول: أنهم الوثنيون

وهم الكفرة الذين كانت أديانهم تصل إلى حد السخرية والاستهزاء؛ ذلك أن منهم من ينحت خشبة ليعبدها، ومنهم من ينحت صخرة ليتّخذها إلهاً، وآخر يتّخذ صنماً صغيراً من تمر أو غيره ممّا يؤكل، فإذا جاع أكله، وعلى هذه الشاكلة أشياء كثيرة من هذا القبيل. وهذه لم تكن ديانة، بل إنها مهزلة حقيقية كانت الجاهلية تعيشها في واقع أمرها، ولم يكن هذا الأمر حصراً على قريش وحدها، بل إن هذه

---

(١) الأنعام: ١٥٩.

المهزلة كانت تعيش على مستوى الإنسانية عامّة. ونحن حينما نرجع الآن إلى التاريخ فإنه لا يمكن أن نجد بلداً ليس فيه معبد[1].

لكن المعبد يختلف باختلاف الأديان والأفكار والآفاق مع أن الدافع إلى إيجاده واحد هو تلك الفطرة التي تدفع بالإنسان إلى أن يتوجّه بالعبادة إلى إله معيّن. ففي قرار كلّ إنسان فطرة، وهي عبارة عن البحث عن الأوليات، وبمجرد أن يولد تتوالى على ذهنه الأسئلة، وتتوارد على عقله الكثير من الخواطر من قبيل: من أنا؟ وكيف جئت؟ ومن الذي خلقني؟ وهل ينتهي الأمر بالموت، أم إن هناك بعثاً بعد الموت؟ وغيرها الكثير من الأسئلة الخالدة التي لا تنفك عن عقل الإنسان، ولا ينفكّ عقل الإنسان عنها. ولذا كان لابدّ له أن يبحث عن الجهة التي توفّر له الإجابة عن هذه التساؤلات.

فكرة الإله بين العلم والدين

والإنسان باختلاف مداركه العقلية وباختلاف المستويات العلمية التي مَرَّ بها على مَرِّ العصور يعرف تمام المعرفة أنّ العلم مهما كان ومهما تطوّر لا يمكن أن يوفّر له الإجابة عن هذه الأسئلة؛ لأن مجال العلم محصور بالتجربة وميدان العمل أو المعمل، أما ما عدا ذلك من الأُمور الغيبية أو الميتافيزيقية فهي خارجة عن نطاق سيطرة العلم، أو مجال تفكيره وسلطته.

مغالطات حول موقف العلم من فكرة الإله

وهكذا تظل هذه الأسئلة تعيش في قرارة نفسه ويبقى الإنسان معها يدور

(١) سبق أن نقلنا مقولة عالم الآثار الألماني بلوتارك، وهي: (من الممكن أن تجد مدناً بلا أسوار ولا آداب أو مسارح، ولكن لم يرَ إنسان قط مدينة بلا معبد أو شعباً لا يمارس الصلاة). الإسلام رسالتنا/السنة الثالثة: ١٠.

باحثاً عن جواب شافٍ لها. ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر ينسب إلى أحد العلماء الفيزيائيين قوله: إن الناس احتاجوا إلى فكرة الإله لأنهم كانوا عاجزين عن تفسير بعض الظواهر المخيفة التي يرونها في الكون من الرعد والمطر والبرق والعواصف والأعاصير والزلازل والبراكين، وما إلى ذلك؛ ولهذا فإنهم لجؤوا إلى ابتداع فكرة الإله كي يوجدوا تفسيراً لهذه الظواهر عبره. أما الآن وبعد أن حل العلم جميع هذه الظواهر ووضع لها تفسيراتها العلمية الصحيحة فإننا لا نحتاج بعدها إلى فكرة الإله.

وهذا الكلام لو أنه يلاحظ بنظرة التفحّص فإنه يمكن أن يُكتشف أنه ينطوي على كثير من المغالطات التي يمكن حصرها فيما يلي:

المغالطة الأولى: عجز العلم

إن العلم لا زال حتى الآن عاجزاً عن تفسير أبسط الظواهر، ونحن لا ننكر أنه قد قطع شوطاً أو أشواطاً ومراحل ضخمة، واخترق الفضاء حتى هبط على الكواكب، لكنه لا زال إلى الآن يعجز عن وضع التفسير الحقيقي العلمي للظواهر التي تعترض الإنسان أو التي تعايش الإنسان حتى البسيط منها، كالزلازل والبراكين، وما إلى ذلك. بل ومن ذلك الظواهر التي تعيش أو التي تكون عند الإنسان نفسه.

المغالطة الثانية: قصور مجال العلم

إننا نعلم علماً يقينياً أن العلم إنما يكون فارس ميدان المختبر، وليس ما وراءه من عوالم فهو يملك زمام الأُمور حينما تكون هذه الأُمور خاضعة للتجربة أو للاختبار والمشاهدة داخل المختبرات العلميّة، فكل ما يدخل في حيز المختبر

يمكن للعلم أن يبحث فيه أو أن يعرفه. ومن هنا فإننا نقرّ مثلاً بأن العلم مثلاً يستطيع أن يحلل الماء كهربائياً ويرجعه إلى عناصره الكيميائية الأساسية. لكن الظواهر النفسية لا تزال إلى الآن غامضة ويشوبها التلغيز إزاء محاولات الإنسان لفهمها وكشف أسرارها.

فالانفعالات النفسية وما يجري عند الإنسان من أمور تتعلق بنفسيته تشكل منظومة من الظواهر الغامضة، والألغاز التي استعصى حلّها على الإنسان والعلم حتى الآن. ومظاهر النفس الغريبة كثيرة؛ منها الأحلام، ومنها التردّد الذي يطرأ على الإنسان في حياته فيخرج لشيء ثم يغير مقصده أكثر من مرّة، في كل مرة منها يتجه إلى شيء دون أن يستطيع أن يوجد لهذا تفسيراً معيّناً. وكذلك سلوكيات الإنسان وجميع تصرفاته التي تنبع أو تنبعث عن النفس، كلّها غامضة لم يتمكن العلم حتى الآن من أن يحلّ أسرارها.

ولعل من الظواهر التي يقف الإنسان عاجزاً أمامها ظاهرة أن يرى أحدنا شخصاً لم يكن قد رآه من قبل، فينجذب إليه مع أنه لا يعرفه، أو أن يكرهه ولا يطيق رؤيته مع أنه لا يعرفه ولم يكن قد رآه من قبل [1]. فهذه ظواهر نفسية يقف العلم حائراً عاجزاً صاغراً أمام فهمها، وتعليلها وتحليلها.

المغالطة الثالثة: شمولية نظرة الدين

إن الدين يختلف عن العلم في كونه لا يقتصر على تفسير الأمور الدنيوية بل إنه

---

(١) الذين يؤمنون بوجود عالم الذرّ (وهو عالم المثل عند أفلاطون) يفسّرون هذه الظواهر في هذا العالم على أساس ديني يستند إلى حديث «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»، وهو حديث مروي عن نبيّنا الأكرم ﷺ. الأمالي (الصدوق): ٢٠٩ / ٢٣٢، صحيح البخاري ٤: ١٠٤.

يعمد إلى تفسير الظواهر الخارجة عن نطاق الدنيا، فالعلم ـ كما ذكرنا ـ محدود ولا يستطيع أن يعرف ما الذي ينتظر الإنسان غداً بعد موته؛ هل إنه يذهب هباء ويعود تراباً دون أن يبعث، أم إنه سوف يبعث ويحاسب ويعاقب؟ فالإنسان حينما يودع في قبره هل يترك على حاله، أم إنه سوف ترجع إليه روحه، وسوف يُتعامل معه على ضوء أعماله التي قدّمها في حياته الدنيا؛ فإن كانت خيراً فخير، وإن كانت شرّاً فشر؟

فالعلم يقف حائراً أمام هذه الظاهرة ولا يستطيع أن يوجد لها أدنى تفسير، أما الدين فهو المخول الوحيد؛ لأنه رسالة السماء، ورسالة الخالق، ورسالة المطلع على حقائق الأُمور فهو الوحيد الذي يملك الإجابة عن مثل هذه الأمور، فيقرر فيما إذا كان هناك حساب أو لا، وما إذا كان هناك عقاب أم لا، وما إذا كان هناك حياة أُخرى أم لا.

وعليه فإن من يقل: إن العلم يستطيع أن يحلّ مشاكل الناس دون الرجوع إلى فكرة الإله لهو بالواقع مخادع يريد أن يخدع الناس عن أنفسهم وعن وجودهم وعن دينهم، ويريد أن يمرّر إليهم أفكاره المريضة التي يريد عبرها إبعادهم عن فكرة الإيمان بوجود إله. فالعلم عاجز عن أن يحل حتى بعض المسائل والمشاكل التي تكون ضمن نطاق المختبر، أما ما كان خارج نطاق المختبر فلا سلطان له عليه، ولا يمكنه أن يحلّه، بل إنه يتعثّر خطوة، وهو يتّجه نحوه، فلا يوجد له حلّاً ولا تفسيراً، ولا أي كشف عن لغز من ألغازه.

رجع

وبعد هذه التقدمة نعود إلى صلب الموضوع، فنقول: إن الآية الكريمة إذ تقرر شيئاً في قولها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾ لهي تقرر أن

الإنسان حينما يولد تولد معه في قرارة نفسه مجموعة من الأسئلة، وهذه الأسئلة تجعل من البعض يتصور أن اتّخاذه شجرة مثلاً يعبدها ممكن أن يحلّ له مشاكله، أو تلك الألغاز التي تعترضه، أو أن يوجد أجوبة عن أسئلته التي تعتري ذهنه كل حين. خرج المسلمون مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين، حتّىٰ مرّ بشجرة للمشركين يقال لها «ذات أنواط»؛ لأنهم كانوا يعلّقون عليها أسلحتهم ونذوراتهم، ويعبدونها، فقالوا له: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما للمشركين ذات أنواط فقال النبي ﷺ: **«سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[1]. والذي نفسي بيده، لتركبن سنّة من كان قبلكم»**[2].

فهؤلاء إنما يقولون لرسول الله ﷺ ذلك لأنهم يريدون أن يعبدوا إلهاً، لكنهم لا يستطيعون أن يتصوّروا إلهاً مجرداً ليس بجسم وليس بمحدود؛ فهذا خارج عن نطاق تصوراتهم. إنهم يريدون إلهاً مجسّماً؛ لكي يكون قريباً من أذهانهم وأفكارهم ومن معارفهم البسيطة[3].

وهذه الحالة لا زالت تعيش إلى الآن، فالإنسان عندما لا تكون عنده خلفية علمية لا يستطيع أن يصل إلى درجة التجريد، بأن يتصور إلهاً مجرداً عن كل مكان وعن كلّ حيثية، وأنه لا يخلو منه مكان، بل إنه يريد أن يعبد إلهاً مجسّداً؛ ليرضي هذه النزعة التي تعيش في داخله والتي تتوغل في ذهنه وتفكيره وهي نزعة العبادة. وعلى العموم فالدين في واقع الأمر يعيش في أعماق الإنسان

---

(١) الأعراف: ١٣٨.

(٢) التبيان ١: ٤٠٢، مجمع البيان ١: ٣٤٥، مسند أحمد ٥: ٢١٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٢١ـ ٣٢٢ / ٢٢١٧.

(٣) فهم لا يعلمون أن الله تعالى أقرب إليهم من حبل الوريد كما نصّ عليه القرآن الكريم.

وسيبقى، فالدين هو الفطرة [١].

إن بعض الناس ربما يتشاءم ويقول: إن الدنيا تتلاشى وترتفع منها الأديان بتقادم الزمن وتطوّر العالم وما وصل وسيصل إليه من معارف وتكنولوجيا.

ولكن الحال أنه على العكس من هذا تماماً؛ فقد يستغرب البعض أن يجد أن بعض البلدان التي اجتاحها الإلحاد بدأت الآن ترجع وتبحث عن الدين. ولو درسنا الظواهر التي تعيش في بولندا هذه الأيام لوجدنا أن ظاهرة الرجوع إلى الكنيسة هي الطافية على السطح، وهي الغالبة مع أن مظاهر الكنيسة لا تثبت أمام العقل كما نجده في الدين الإسلامي.

فالمسلم في إطار الدين الإسلامي لا يجد في طريقه رجال أكليروس ولا مؤسسات كنسية تبيعه الجنة أو تحرمه منها وتفرض عليه النار، أبداً بل إنه يتّصل

---

(١) أمّا ما نراه اليوم أو رأيناه سابقاً من كفر الكافرين وإلحاد الملحدين وفسق الفاسقين فلا يتنافى مع هذه الفطرة؛ لأن هذه الفطرة وإن كانت موجودة عند كل إنسان لكن الإنسان يستطيع أن يغيبها بشهواته ورغباته وأفكاره وما إلى ذلك مما يقوم به و يعتقده، لكنها (الفطرة) يمكن أن تثب إلى السطح، وأن تطفو في أعلى حياة الإنسان حينما يتعرض لبعض المواقف التي تهزّه من أعماقه. وهذا دليل على أن الدين هو الفطرة وأن الفطرة موجودة عند كل إنسان وإن غيّبتها بعض الذنوب أو الرغبات أو المعاصي التي يقترفها الإنسان. قال الرازي: يروى أن بعض الزنادقة أنكر الصانع عند جعفر الصادقعليه السلام، فقال له أبو عبد اللهعليه السلام: «هل ركبت البحر؟». قال:نعم. قال: «هل رأيت أهواله؟». قال: بلى، هاجت يوماً رياح هائلة، فكسرت السفن وأغرقت الملّاحين، فتعلقت أنا ببعض ألواحها، ثم ذهب عني ذلك اللوح، فإذا أنا مدفوع في تلاطم الأمواج حتى دُفعت إلى الساحل. فقال له أبو عبد اللهعليه السلام: «قد كان اعتمادك من قبل على السفينة والملّاح، ثم على اللوح حتى تنجيك، فلمّا ذهبت هذه الأشياء عنك، هل أسلمت نفسك للهلاك، أم كنت ترجو السلامة بعدُ؟». قال: بل رجوت السلامة. قال: «ممّن كنت ترجوها؟». فسكت الرجل، فقال لهعليه السلام: «إن الصانع هو الذي كنت ترجوه في ذلك الوقت، وهو الذي أنجاك من الغرق». فأسلم الرجل على يده. التفسير الكبير ٢: ٩٨ ـ ٩٩، وانظر كذلك تفسير الآلوسي ١٥: ١١٥.

اتصالاً مباشراً بربّه دون الحاجة إلى هذه السلسلة من الوظائف الدينية التي فرضها نظام الكنيسة. فالمسلم يعبد الله مباشرة في بيته أو في الصحراء أو في أي مكان في بقاع الدنيا دون أن يحتاج إلى واسطة أكليروسية، أو إلى سلسلة من المراتب الكنسية. إن الأعرابي الذي يعيش في الصحراء حينما يحين وقت الصلاة نجده يفترش عباءته في تلك الصحراء ويتّجه إلى الله عز وجل ويخاطبه بذلك الخطاب البسيط، بل إن بعض الأعراب حينما يقع في مشكلة ـ كأن ينقطع الغيث عنه ـ نجده يتوجه إلى الله جلّ وعلا ويخاطبه خطاباً ساذجاً فيقول له:

رَبَّ العباد ما لَنَا ما لَكَا   قد كُنْتَ تَسْقِينا فما بَدَا لَكَا

أنزِلْ عَلَينا الغَيثَ لا أبَا لَكا[1]

وهذا وإن كان خطاباً ساذجاً وصادراً من جاهل ولا يليق بربّ العباد إلّا إنه مع ذلك عند الله شيء آخر؛ لأن الله جل وعلا يقابل هذه العاطفة الصادقة بمثلها؛ فهذا الإنسان بريء وليس عنده عُقَد إطلاقاً، ولذا فإنه يواجه الباري مباشرة دون أية وسائط بينه وبين الله عزّ وجلّ. وعليه فإننا في واقع الأمر يجب ألّا يقع في خلدنا أن الدين سوف يتلاشى في يوم من الأيام ثم ينتهي، بل إنه يولد يوماً بعد يوم. يقول أحد القساوسة الروس فى إجابة على مراسل رصد ظاهرة ظهور التدين فى روسيا بعد انهيار الاتّحاد السوفياتي، وكيف ظلّ على هذا حاله بعد سبعين عاماً من سيطرة شبه كاملة للحزب وتوجّهاته الإلحاديّة وتوجيهاته الصارمة بشأن ذلك فأطلّ على الكون بصورته عينها، فقال: إن الدين مثل المسمار يزداد رسوخاً وعمقاً كلّما ازددنا ضرباً عليه.

---

(١) الشفا ٢: ٢٤٦، مجمع الأمثال ١: ١٣٣، خزانة الأدب ٤: ٩٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٣، ٦: ١٣٤، النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ١٩ ـ أبا.

فالدين كلما زاد القرع عليه كلما ثبت أكثر في قلوب أتباعه، وهذا يرجع إلى أسباب بديهية؛ فكل موجود في الكون هو أثر، والأثر يحتاج إلى مؤثّر وهو الله جل وعلا.

وبناءً على هذا فكل الفروض تتلاشى وترجع إلى فرض واحد هو فرض الله جل وعلا.

وبما أن الدين فطرة فالمفروض أنه يجمع كلمة الناس لا أن يفرقها، لكننا نجد أن الآية الكريمة تنصّ أن هؤلاء قد فرقوا دينهم؛ ولذا فإن أصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن المقصود بهؤلاء هم الوثنيون الذين لا يعبدون إلهاً واحداً، بل إن بعضهم يعبد شجرة والآخر يعبد صخرة وثالثاً يعبد خشبة وآخر يعبد إلهاً من التمر أو من العجين حتى إذا جاع أكله؛ فهؤلاء هم الذين فرقوا دينهم شيعاً، بل إن هناك من يعبد مظهراً من مظاهر الطبيعة كالنجوم والبرق وما إلى ذلك فهؤلاء مزقتهم عقائدهم بدلاً من أن تجمعهم.

إشكال على هذا الرأي

وإذا كان المقصود بقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾** المشركين، فما معنى قوله تعالى بعد: **﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾**؟ وهل إن الرسول ﷺ منهم حتى ينفي الله جل وعلا هذه النسبة عنه؟ يقول المفسرون: إن الله جل وعلا أمر النبي ﷺ بأن يترك هؤلاء على عقائدهم في بادئ الأمر ثم بعد ذلك نسخت هذه الآية بآية السيف، وهي قوله تعالى: **﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[1].

---

(١) التوبة: ٥.

الرأي الثاني: أنهم أهل الكتاب

فأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن المقصود بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً**﴾ هم أهل الكتاب، أي اليهود والنصارى الذين ينتقد بعضهم بعضاً، ويعيب بعضهم بعضاً.

إشكال على هذا الرأي

وهنا ربما يستغرب البعض فيقول: إن هؤلاء ذوو خلفية حضارية، بمعنى أنهم أهل حضارة وعندهم رقيّ علمي وفكري، وتقدم وتطور ملحوظان قياساً إلى أبناء الجزيرة العربية في ذلك الوقت، وعليه فإن من المستبعد أن يكونوا هم المقصودين.

الإجابة عن هذا الإشكال

لكن يقال في المقام: بأن هؤلاء ليس بعيداً عليهم أن يكون هذا التفسير وارداً بحقّهم؛ ذلك أننا نجد الآن وفي عصر التطوّر والتكنولوجيا والعلوم الحديثة أن كنيسة كاثولوكية تعادي كنيسة بروتستانتية، أو أن إحدى هاتين الكنيستين تعادي كنيسة أورثوذكسية التي يتّصف أصحابها بأن لهم موقفاً من الكاثوليك. وهكذا نجد أن العديد من الفئات التي تكون داخل إطار الدين الواحد ترفع شعار العداء بعضها للبعض، فتشتم هذه الفئة تلك الفئة وتسبّها وتكفّرها وتعاديها.

إن بعض الطوائف والفئات عندهم متشدّدون جدّاً، وهم أشبه ما يكونون بالسلفية عندنا، كما أن عندهم أُناساً متحرّرين يعيشون في دنيا الواقع، أي أنهم يتزوجون ويطلقون، ويتزوجون أكثر من واحدة، مع أن بعض الكنائس تجد أن باب الطلاق لايزال مغلقاً، وأنه لا يحقّ لأحد أن يتزوّج من امرأة أُخرى. ولذا فإننا

نجد أن هذه الطائفة تخالف هذه الطائفة بهذا الأمر، فتهرّج عليها وتنتقدها وتذمّها، وكذلك تفعل الأُخرى معها. فهم بين متّهم بالتحريف، وما بين متّهم بالإفراط أو التفريط؛ ولهذا فإن قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾ يعني أن هؤلاء قد تمزّقوا بفعل هذه الخلافات.

ونحن هنا إنما نتكلّم عن العقيدة وعلى مستوى الإيمان بالله جل وعلا، ولسنا نتكلّم عن الذين يحملون هدفاً اقتصادياً؛ ذلك أن الاستعمار والظلم في بعض الحالات يوحدان الأهداف عند من تعارضت بهم تلك الأهداف، أو تفرّقت بهم السبل. أما بالنسبة للعقيدة فهناك تفاوت كبير بين التوراة والإنجيل، وهذا التفاوت سببه وجود تلاعب وتحريف وتزوير فيهما.

وهذان الرأيان لا يعنياني في شيء، بل إن الذي يهمني هو الرأي الثالث، وهو الآتي.

الرأي الثالث: أنهم أهل الأهواء والبدع من المسلمين

وهذا الرأي مروي عن عائشة، ويراد بهم أهل البدع والضلالات من المسلمين الذين فرقوا دينهم شيعاً اتّباعاً لأهوائهم. فهؤلاء في حقيقة الأمر يأخذون الكلمة ويتمسّكون بظاهرها مع عدم قدرتهم أو عدم امتلاكهم القدرة على التحليل. ومن هذا ما حدث في واقعة صفّين؛ فقد حدّثنا التاريخ أن معاوية لما رأى أن النصر قد لاح لأمير المؤمنين عليه السلام حاول الفرار وتهيّأ له، فجاء إليه من أمسك ركابه قائلاً: إلى أين، وقد قتل عشرات الآلاف من أجلك؟ يقول معاوية: فتذكّرت عند ذاك أبيات ابن الإطنابة:

أبت لي عفّتي وأبى بلائي	وأخذي الحمدَ بالثمن الربيحِ
وإقدامي على المكروه نفسي	وضربي هامةَ البطل المشيحِ

وقولي كلّما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

ثم التفت معاوية لعمرو بن العاص وقال له: ما في مخبأتك؟ قال: مُرُهم، فليرفعوا المصاحف. فلمّا رفعوها تغيّر الأمر [١].

وفعلاً فإنه بمجرد أن رفعت المصاحف، حصل التمزّق في جيش الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي نبّههم إلى أن هذه الحركة حركة مشبوهة، لا يهدف منها إلى إصلاح، وإنما هي خديعة وتصرّف سطحي وساذج الهدف منه السيطرة على عقول المقاتلين ومشاعرهم. ثم بيّن لهم أن كتاب الله جلّ وعلا يحكم بينهم منذ البداية، وهنا صرخ أحدهم قائلاً: الحكم لله لا لك يا علي. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«كلمة حق أُريد بها باطل»** [٢].

فصحيح أن الحكم لله، لكن هل إن الله جلّ وعلا جسم حتى يمكن أن ينزل ليحكم بين الناس بنفسه؟ إنه تعالى إنما يبعث الأنبياء ويجعل لهم الأوصياء لهذا الغرض، وإنما ينزل الأحكام والمبادئ ليمشي على ضوئها النبي ووصيه؛ لأنه تعالى لا يمكن أن يتحوّل إلى سلطة تنفيذية، فالله جلّ وعلا يبعث أنبياءه ورسله ويجعل لهم من بعدهم أوصياء ينفذون رسالاتهم، ويأمرهم بأن يكوّنوا جيوشاً ليقاتلوا بها أو ليحافظوا وليدافعوا بها عن وجودهم ووجود هذا الدين؛ لأن الدولة تحتاج إلى جيش يحميها ويحفظ البلد، وإلى اقتصاديين يحفظون اقتصاد ذلك

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣، ٨: ٥٩، ١٨: ٢٠٣، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٣٥٩، تفسير الثعلبي ٤: ٥٢.

(٢) قال السرخسي في (المبسوط): (إنهم كانوا يقصدون بذلك ـ قولهم: الحكم لله لا لك يا علي ـ نسبته إلى الكفر؛ لرضاه بالحكمين: وتفويضه الحكم إلى أبي موسى؛ ولهذا قال علي رضي الله عنه: «كلمة حق أُريد بها باطل»، يعني أن ظاهر قول المرء الحكم لله حق، ولكنهم يقصدون به الباطل، وهو نسبته رضي الله عنه إلى الكفر). المبسوط ١٠: ١٢٥ ـ ١٢٦.

البلد، وإلى جملة من أهل الاختصاص كلّاً يعمل باختصاصه.

وعليه فإن مقولة (الحكم لله) أمر لا خلاف عند أحد فيه، لكن هذا لا يعني أن الله جل وعلا ينزل إلى الأرض فيحكم فيها، أو يخالط الناس الموجودين فيها؛ ليحكم بينهم بنفسه. إن هذا يعني أن الله جل وعلا ينزل قانوناً نظرياً، وعلى العباد أن يطبّقوه.

وحينما اضطر عليه السلام للنزول على رأيهم وأراد التحكيم قالوا له: أتريد أن تحكّم الرجال بكتاب الله؟ فأجابهم عليه السلام مبيناً أنّ الله جلّ وعلا قد أمر بأنه إذا حصل خلاف بين الزوج وزوجته فإنه يلزم أو يجب عليهما أن يحضر كل واحد منهما حكماً من أهله كي يحكما بينهما، وإذا كانت هناك قضية بسيطة بين متخاصمين فإن عليهما اللجوء إلى القضاء ليحكم بينهما، فلابدّ من أن يتمّ الأمر هنا على هذه الشاكلة.

ومن المعلوم أن مثل هذه المسألة لابدّ فيها من التحكيم، لكنهم مع ذلك رفضوا هذا الأمر، وعندها أرسل إليهم عبد الله بن عباس رضي الله عنه الذي حاورهم محاورة طويلة لكنهم تمسّكوا بهذه الكلمة الظاهرية، وراحوا يهرّجون بها لأنهم أناس بسطاء. وليعلم بأن الأناس البسطاء أمانة في أعناق أصحاب العلم والمعرفة، وأصحاب العلم والمعرفة لابدّ من أن يبذلوا الكثير من الجهد حتى يتمكّنوا من تثقيف هؤلاء وتفهيمهم، وعدم جعلهم عرضة لكل طامع؛ لأن هؤلاء السذّج عادةً ما يكونون مرتعاً ومباءة صالحة للدجّالين والكذّابين والظلمة.

وقد ذكرت أكثر من مرة حادثة أبي الشمقمق، ذلك أنه رآه أحد الأشخاص يوماً وهو جالس على الجسر ويأكل، فسأله مؤنّباً: لم تأكل في الطرقات؟ إن الأكل في الطرقات يُذهب المروءات، أما تستحي من هؤلاء الناس؟ فقال له:

وهل هؤلاء ناس؟ قال: فماذا إذن؟ قال: انظر ماذا أفعل.

ثم صعد علىٰ عمود من أعمدة الجسر، فلما رآه الناس يوشك أن يسقط تجمعوا. فلما كثر عددهم صاح: أيها الناس، حدثني فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: من أخرج لسانه فوصل أرنبة أنفه دخل الجنة. فراح الناس الواقفون يخرجون ألسنتهم ويجربون ذلك، فقال أبو الشمقمق للرجل: هل ترىٰ أن هؤلاء أُناس؟

وقد رأيت بعيني أُناساً في أوروبّا يقصدون فوّالاً أو منجّماً ليجلسوا بين يديه ويستمعوا إليه ويأخذوا منه.

وفعلاً حدثت ثورة على الإمام وانتهى الأمر بأن أصبحوا في غاية الصلابة، ونتيجة لتعنّتهم وصلابتهم هذه قد أُريقت الكثير من الدماء، وذهبت الكثير من الأموال، وأخذتهم الحروب في كلّ جهة. وقد استمرّوا في حرب الدولة الإسلامية والحكام المسلمين لفترات طويلة، مما أدّى إلى تفرق المسلمين وتمزّقهم بسبب سوء فهم لكلمة أُطلقت في تلك المعركة. فلهذا السبب انشقّوا وأصبح لهم رأيهم، وتبرعمت فرقتهم إلى فرق أخرى صغيرة.

فرق الخوارج

إذن فالخوارج قد انقسموا إلى فرق كثيرة، لكن الفرق الرئيسة لهم كانت ثلاثاً:

الأولى: فرقة تقول: إن الدين أمران: معرفة الله، ومعرفة رسوله[1] وما عدا ذلك فإذا ارتكب الإنسان شيئاً بمهل فليس عليه جناح حتى لو تزوّج من أُمه.

الثانية: فرقة تقول: إن من الممكن أن يكون الخليفة من سائر المسلمين، وليس

---

(١) الأنساب ٢: ٢٩٣.

بالضرورة أن يكون قرشياً.

الثالثة: فرقة تتمسك بحديث النبي ﷺ: **«الخلافة في قريش»**[(١)]، وتلتزم بكون الخليفة قرشياً.

على أيّة حال فهؤلاء قد تمزّقوا إلى فرق عديدة، لكن الذي لا يمكن إنكاره أنهم كانوا يمتازون بصلابة على مواقفهم عجيبة. ومن هذا ما يروى عن غزالة امرأة شبيب الذي أسماه الخوارج أمير المؤمنين، وكان قد خرج على عبد الملك بن مروان، وجيّش الجيوش ضدّ عامله على الكوفة الحجاج. وكانت غزالة قد نذرت نذراً فدخلت مكة لتفي نذرها ثم خرجت يوم دير الجماجم فلحقت الحجاج وجيشه حتى هزمته وسلم منها بأعجوبة. وهذه الحادثة هي التي يعيره بها الشاعر حيث يقول:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ... فدخاء تفزع من صغير الصافرِ

هلّا برزت إلىٰ غزالةَ بالوغىٰ ... بل كان قلبك في جناحي طائرِ[(٢)]

لقد كانت هذه المرأة بمنتهى الصلابة، وكان شبيب زوجها أشدّ صلابة منها. وهذا الأمر من محاسنهم التي يذكرها التاريخ لهم.

وقد قيمهم الإمام علي عليه السلام تقييماً علمياً دلَّ على أنه ذو نفس كبيرة لا تهبط إلى مستوى النفوس الصغيرة التي لم يكن لأصحابها من همٍّ سوى الحقد على الآخرين. لقد قال عليه السلام واصفاً إياهم وموصياً بهم: **«لا تقتلوا الخوارج بعدي؛ فليس**

---

(١) الحديث في بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٧، مسند أحمد ٤: ١٨٥، الآحاد والمثاني ٣: ٣٧٧ـ ٣٧٨ / ١٧٨٥.

(٢) المعارف: ٤١١، بلاغات النساء: ١٢٩، كتاب المتوارين: ٧٣، وفيات الأعيان ٢: ٤٥٥، تاريخ الإسلام ٥: ٤١٧، الوافي بالوفيات ١٦: ٦٠، البداية والنهاية ٩: ٢٦.

من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه» [١].

إن هذا القول ينمُّ عن أن علي بن أبي طالب كان فلتة غريبة في دنيا الإنسانية التي لم تستقبل هذا العملاق حق استقباله، ولم تقدّره حقّ قدره، ولم تكرمه بما يستحقّ من تكريم. وبهذا تكون قد أضاعته وخسرت تلك الروح الكبيرة وتلك العقلية التي سبقت زمنها بقرون عديدة، فعاشت في أيامه وكأنها لم تعش لأنها لم تمتح منه ولم تستفد؛ إذ لم تُقبل عليه ولم تستقبله، بل إنهم استقبلوا الدجالين والمخربين وأصحاب الأهواء؛ مما أدّى إلى ضياع هذا العبقري بينهم.

ولكل هذا فإننا نجد أن أمير المؤمنين كان كثيراً ما يتألم من هذا الوضع الذي وصل إليه هؤلاء؛ ولذا فإنه كان كثيراً ما يقول: **«ما ينتظر أشقاها أن يخضّب هذه من هذه؛ شوقاً إلى ربّي عزّ وجلّ وتصديقاً؟ إني إلى لقاء ربّي لمشتاق، ولحسن ثوابه لمنتظر راجٍ، وإني لعلى الصراط المستقيم في يقين من أمري وبيّنة من ربّي»** [٢].

رجع: فرق المرجئة

فهؤلاء في الواقع كانت تفرقهم الكلمة؛ لأنهم سذّج لا يكادون يفقهون ما وراءها، ومن هؤلاء أيضاً المرجئة الذين انقسموا إلى عدّة فرق، منها:

الأولى: فرقة قالت: إن صاحب الكبيرة فاسق [٣].

الثانية: قالت: إن صاحب الكبيرة مؤمن كمن يأكل مال اليتيم أو الفرار من

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٦١.

(٢) المسترشد في الإمامة: ٣٦٦ ـ ٣٦٧، مقاتل الطالبيّين: ١٨، الآحاد والمثاني (الضحّاك) ١: ١٤٨ / ١٧٦، المعجم الكبير ١: ١٠٥، تاريخ الإسلام ٣: ٦٤٧، شرح نهج البلاغة ٦: ١١٤، كنز العمّال ١٣: ١٨٧ / ٣٦٥٥٧. (٣) التفسير الكبير ٣١: ٦٥.

الزحف أو عقوق الوالدين[١].

الثالثة: قالت بأن صاحب الكبيرة كافر.

وفي مقابلهم، وكردّ فعل على تكفيرهم صاحب الكبيرة، ظهرت فرقة المرجئة التي قالت: إنه مؤمن، ونحن نرجئ أمره إلى الله جل وعلا، ولا نحكم عليه بشيء.

وهنا نجد أن الأصابع قد تدخلت في الموضوع، ففرّقت هؤلاء إلى فرق متعدّدة جعلتهم يضرب بعضهم البعض، وبالتالي أصبحوا شيعاً تحكمهم الأهواء والبدع الغريبة.

وكذلك الحال مع المعتزلة، فإننا نجد أنهم بعد أن كانوا فرقة واحدة قد أصبحوا عدة فرق. وكذلك الأمر مع جماعات أخرى كلها تبرعمت إلى فرق عدّة بسبب كلمة أو بسبب عدم فهمهم لموقفٍ معيّن.

وحينما نرجع إلى التاريخ نجد أن هناك عشرات من الفرق كل فرقة تناوئ الفرقة الأُخرى وتكفرها، وتعتدي عليها وتسبها؛ وبهذا فقد نشأ بينهم صراع وصل في بعض الحالات إلى أن يصبح صراعاً دامياً. وكل هذا بدوافع دينية وإن كانت بعض هذه الصراعات لا تخلو من دوافع عرقية.

السبب في نشأة بعض الحركات الدينية

والصراعات العرقية نشأت من أن بعض أصحاب الشأن كان يقول بأن الموالي عبيد، وبما أن الإسلام أقر العبيد فهذا يعني أنهم أقل مرتبة من الأحرار؛ وبالتالي فإنهم يجب أن يعاملوا معاملة أدنى من المعاملة التي يعامل بها الأحرار.

ولهذا فإننا نجد أن الحجاج قد أسقط أسماءهم من ديوان العطاء، ولم يعطهم

---

(١) التفسير الكبير ٩: ١٤٢، تفسير الآلوسي ٤: ١٦٣.

أموالاً من الخراج كباقي المسلمين، مع أنه كان يجنّدهم ويخرجهم للقتال، وكان يضعهم أمام الجيش؛ لأنه كان يعتقد بأنهم سوف يفرون من المعركة. أي أنه كان يقدمهم أمام الجيش ليقع القتل فيهم.

مفارقات ومؤاخذات في تصرّفات الحجّاج

ولسنا ندري ما هي المفارقة في هذا، فهو في حين يحرمهم من العطاء ويمنعهم حقّهم من الخراج نجده يقدّمهم فريسة للحرب. وأكثر من هذا فإن الحجاج كان يسِمَهم حتى يعرف منهم من يريد أن ينتقل من القرية إلى المدينة، فكانوا يضعون الحديد في النار ثم يكوون به ظهره؛ ولهذا فإنهم كانوا إذا وجدوا أحد هؤلاء في المدينة إذ يكشفون عن ظهره أرجعوه إلى القرية؛ لأنه ليس من حقه أن يذهب إلى المدينة.

وفي هذا الأمر مؤاخذات عدة منها:

الأولى: أن هذا اعتداء جسدي على الآخرين والإسلام لا يسوّغ هذا النمط من الاعتداء عليهم، بل ولا غيره من أنماط الاعتداء.

الثانية: أن فيه تعدياً على الدين من جهة مخالفة أوامره بعدم التفريق بين بني البشر إلّا فيما سوّغ هو التفريق به؛ لأن الدين يحمل شعار: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[1]، فليس هناك دم يربو على دم، أو فرق بين دم ودم، فالناس جميعاً سواسية، والدماء الإنسانية واحدة.

الثالثة: أن فيه اعتداءً على الدين كذلك؛ من جهة أن هذا الدين إنما جاء ليعالج مشكلة العبيد؛ لأنه لم يخلقها وإنما جاء وكانت موجودة، غير أنه في

---

(١) الحجرات: ١٣.

محاولته علاج هذه لم يعمد إلى العلاج على شكل دفعة واحدة وإنما عالج هـذه المسألة بشكل تدريجي؛ لأنه إذا عالجها دفعة واحدة، فإن من المحتمل أن يؤدّي ذلك إلى شلّ الحياة، وتوقّفها. ومن هذا نعرف أن الإسلام ما جاء ليضع فوارق بين إنسان وإنسان حرّين كانا أو عبدين.

لكننا ببالغ الأسف حينما نقرأ التاريخ نجد أشياء من هذا النوع عند أصـحاب المذاهب، وهي أشياء غريبة، ومن ذلك ما يروى من أن الشافعي حضر مـجلس مالك بن أنس، وكان يسمع منه الحديث، فجاءه رجل فوقف عليه ثم قال له: إني رجل أبيع القماري ـ جمع قمري، وهو طائر مغرّد يشبه البلبل ـ فبعت قمرياً على هذا، فردّه إليّ فقال: ما له صوت. فحلفت بالطلاق أنه لا يسكت. فقال له مالك: أوَسكت؟ قال: نعم. قال: أنت حانث، وزوجتك طالق.

فتبعه الشافعي وقال له: يا رجل كيف حلفت؟ قال: حلفت بما سمعت. فقال له: صياحه أكثر أم سكوته؟ فقال: صياحه. فقال: إن امرأتك لك حلال. قال: فماذا أصنع، وقد أفتاني مالك بما أفتى. فقال: عُد إليه فقل له: إن في مجلسك من أفتاني بأن امرأتي هي لي حلال، وأومئ إليّ، ودعني وإياه.

فرجعا، وجلس الشافعي فيما بين الناس، فقال الرجل لمالك: إنـي رأيت أن تنظر في يميني. قال: أليس قد أفتيناك بأنك حانث، وأن زوجتك طالق؟ قال: لكن في مجلسك من أفتاني بأن امرأتي هي لي حلال. قال: أفي مجلسي؟ قال: نعم. قال: ومن هو؟ فأومأ إلى الشافعي، فقال له مالك: أنت أفتيته بذلك؟ قال: نـعم. قال: ولماذا أفتيته بذلك؟ قال: سمعتك تروي عن نافع عن ابن عـمر أن رسـول الله ﷺ قال لفاطمة بنت قيس: «**إذا حللت فآذنيني**». فلمّا حلّت، قالت له: قد خطبني معاوية وأبو جهم. فقال ﷺ: «**أمّا معاوية فصعلوك لا مال له، وأمـا أبـو**

جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه».

وعلم رسول الله ﷺ أن أبا جهم يضع عصاه عن عاتقه، ويتصرّف في أُموره، وإنما نُسب إلى ضرب النساء، فذكر أنه لا يضع عصاه عن عاتقه، وحمله على الأغلب من أمره، وإني سألته وقلت: سكوته أكثر أم صياحه؟ فقال: صياحه. فأفتيته بذلك.

فتبسم مالك وقال له: القول قولك. ثم ناظره عبد الملك، فضرب بيده بين منكبيه وقال: افتِ؛ فقد آن لك أن تفتي [1].

مناظرة بين المذهبين الحنفي والشافعي

وهنا فإننا حينما نقرأ هذه الرواية نلمس فيها روح المنافسة، وهذه الرواية يرويها عن الشافعي الدميري في (حياة الحيوان)، وهو إنما يرويها لأنه يريد أن يقدم الشافعي على الإمام مالك.

وهذه الرواية ربما كانت رواية هادئة وتصطبغ بصبغة الرفق أو اللين، لكن هناك رواية عن محمود بن سبكتكين ـ وهو من السلاطين، وكان حنفي المذهب ـ ترويها عنه كتب التاريخ، هي أشدّ من تلك وأعنف؛ ذلك أنه كان مولعاً بعلم الحديث، يسمع من الشيوخ ويستفسر عن الأحاديث، فوجد أكثرها موافقاً للمذهب الشافعي، فوقع في نفسه، فجمع الفقهاء في مرو، وطلب منهم الكلام في ترجيح أحد المذهبين. فوقع الاتّفاق على أن يصلّوا بين يديه على مذهبي الإمامين ليختار هو.

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٢٢٢ ـ ٢٢٣، تاريخ مدينة دمشق ٥١: ٣٠٤ ـ ٣٠٥، الوافي بالوفيات ٢: ١٢٢ / ٣.

صلاة الشافعي

فصلى أبو بكر القفّال ركعتين على مذهب الشافعي بطهارة مسبغة، وشرائط معتبرة من السترة والقبلة، والإتيان بالأركان والفرائض، صلاةً لا يجوّز للشافعي دونها.

صلاة أبي حنيفة

فلمّا فرغ من صلاته هذه صلّى صلاة ثانية على ما يجوّز أبو حنيفة، فلبس بدلة من جلد كلب مدبوغ قد لطّخ ربعه بالنجاسة، وتوضّأ بنبيذ التمر، وكان في الحر، فوقع عليه البعوض والذباب، وتوضّأ منكّساً، ثم أحرم وكبر باللغة الفارسية، وقرأ بعد سورة الحمد: «دو برگ سبز» ـ أي ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾[١] ـ ثم نقر نقرتين كنقرات الديك؛ من غير فصل، ولا ركوع ولا تشهّد؛ ثم أتى بما ينافي الصلاة في آخرها قبل الفراغ منها، من غير حتى نيّة السلام، ثم قال له: هذه صلاة أبي حنيفة.

فقال السلطان: إن لم تكن هذه الصلاة صلاة أبي حنيفة لأقتلنّك. وأنكرت الحنفية أن تكون هذه صلاة أبي حنيفة، فأمر القفال بإحضار كتب أبي حنيفة، وأمر السلطان كاتباً نصرانيّاً أن يقرأ المذهبين جميعاً، فوجدت كذلك، فأعرض عن مذهب أبي حنيفة وتمسّك بمذهب الشافعي[٢].

نظرة على هذه القصص

وهذه الروايات مع أنها مرويّة في كتب الجماعة أنفسهم، لكننا لنا مؤاخذة على هذه الرواية الأخيرة، ذلك أن أبا حنيفة لم يكن عنده كتاب مدوّن ـ أي أنه لم

---

(١) الرحمن: ٦٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٩: ٧٢ – ٧٣، وفيات الأعيان ٥: ١٨٠ – ١٨١.

يكتب كتاباً بيده ـ بل إن كل ما أُثر عنه هو من تقريرات تلامذته الذين كتبوا عنه. وعليه فإن هذا الكلام هو لون يجب أن ينحصر بين العلماء ليبحثوا في أدلته، كما أنه يجب ألّا ينزل إلى مستوى العوام ليتناقشوا فيه أو يتباحثوا فيه أو يتداولوه. ثم إن كلّاً من الشافعي والحنفي المفروض أنهما يتجهان إلى رب واحد وإلى قبلة واحدة، وينظران في كتاب واحد، وإذا كان عند أحدهم خطأ في التطبيق فهذا لا يعني أن لغيرهما الحق بتجريحهما وبالتهريج عليهما.

ومع كل هذا فإننا حينما نتناول كتب المذاهب الأخرى فإننا نجدها ملأى بالتهريج بعضها على البعض، وهذا هو الذي سبّب تأخر المسلمين ردحاً طويلاً من الزمن عن غيرهم، وجعل من المستشرقين ـ حينما يمرون بتاريخ المسلمين ـ أداة لنهش أعراضهم، ويعبّرون عنهم بتعبيرات غريبة، مستغلّين هذه الخلافات التي حدثت بين هذه المذاهب، فيعمدون إلى إبرازها وإلى إظهار ما فيها من جوانب سلبيّة، ومن عبارات في منتهى الانحطاط والقذارة.

على أية حال فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾ يعني أن هؤلاء قد تفرّقوا وإن كانوا مسلمين بدافع العنصريّة، أو بدوافع عقيديّة، أو بدوافع فقهيّة، أو بسوء فهم لكمة أو تصرف أو ما شاكل. فهؤلاء يتخذون من الدين وسيلة للتفرقة، والحال أن الله جل وعلا قد جعله وسيلة للوحدة والتوحّد والتآزر، لا التفرّق[1].

---

(١) ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثل المؤمنين فيما بينهم كمثل البنيان يمسك بعضه بعضاً ويشدّ بعضه بعضاً». عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٧، وكذلك قوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». مسند أحمد ٤: ٢٧٠.

ولذا فإن القرآن الكريم يخاطب رسوله الكريمﷺ بقوله: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، أي أن هؤلاء ليسوا قريبين من الإسلام ولا يمكن أحداً أن يحسبهم منه ولا من الرسولﷺ مع أن المفروض بالأديان أو المذاهب أن تقرّب الناس لا أن تمزقهم، وأن توحّدهم لا أن تفرّقهم؛ لأن الله واحد، والدين واحد، والرسولﷺ واحد، والكتاب واحد. ولهذا فحينما جاء الدين جاء ليجعل المجتمع مجتمعاً واحداً.

إذن فهؤلاء بعيدون كل البعد عن الرسولﷺ.

المبحث الثاني: أخلاق الرسل

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ﴾، فالله جل وعلا هو الذي يتولّى أمر هؤلاء المتفرّقين لأنه عز وجل يعرف ما الذي يرمي إليه أحدهم وهو يفتي الآخرين بفتوى أو يتفوّه بكلمة، ويعرف لماذا فعل ذلك، والرسولﷺ لا يعرف ذلك إلّا إذا علمه الله جل وعلا شيئاً منه.

إذن فهؤلاء يجب أن يعاملوا بالظاهر، أما معرفة الحقيقة، ومعرفة دخائلهم وبواطنهم، فهي من اختصاص الله جل وعلا. ولهذا فإن النبيﷺ كان يعامل الناس بالظاهر [1]؛ فقد كان يدخل عليه جماعة من الناس وهوﷺ على يقين

---

(١) ومن ذلك ما يروى في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التوبة: ٦١، من أن رجلاً من المنافقين يقال له عبد الله بن نفيل كان ينقل كلام رسول الله ﷺ إلى أصحابه المنافقين بعد أن يجلس عنده ثم يرجع إليهم، فنزل جبرئيل عليه السلام على رسولنا الأكرمﷺ وأخبره عن شأن هذا الرجل، وقال له: «إن رجلاً من المنافقين ينمّ عليك وينقل كلامك إلى المنافقين». فسأله ﷺ عنه؟ فقال: «الرجل الأسود، ذو الشعر الكثير، الأحمر العينين كأنهما قدران من صفر، كبده كبد حمار، وينطق بلسان شيطان».

بأنهم من المنافقين، لكنهم يقولون أمامه: أشهد ألّا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فيحقنون بذلك منه دمهم. ولذا فإنه ﷺ لم يكن ليفعل لهم شيئاً غير أن يتركهم ويعاملهم معاملة المسلم.

أخلاق النبي ﷺ وتعامل المسلمين

ولو أردنا أن نتعامل الآن مع هذه الأخلاق، وأن نستكنه حقيقتها فهل نجد لها أثراً في التعامل بين المسلمين اليوم؟ طبعاً لا؛ لأننا نرى أن كثيراً من أبناء المذاهب الإسلامية يسمع من يقول: «**أشهد ألّا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله**»، ومع ذلك يسِمُه بأنه كافر أو مشرك.

وفي واقع الحال أن تعامل المسلمين في هذه الأيام قائم على أساس بعيد عن روح التعامل الذي كان يتعامل به النبي ﷺ مع المنافقين، مع علمه ﷺ يقيناً بأنهم منافقون، ومع ذلك فإنه لا يكفّرهم ولا يتعامل معهم على أنهم كفّار؛ فلا يأخذ منهم جزية، ولا يطالبهم بما يطالب به أهل الكتاب من الذمّيين، ولكنه يتعامل معهم على أنهم مسلمون مع علمه عين اليقين بأنهم منافقون. وهؤلاء الذين نتعامل معهم اليوم ليس لديهم من دليل على كفر الآخرين، ومع ذلك فإنهم يكفّرونهم لأتفه الأسباب، وكأن التكفير أصبح علامة الزمن.

☚ فأرسل نبيّنا الأكرم ﷺ خلفه، فلما حضر عنده سأله عن أمره ذلك، ولامه على ما هو عليه من فعل، فحلف أنه لم يفعل شيئاً من ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «قد قبلت منك، فلا تقعد».

فمضى إلى أصحابه، وقال: إن محمداً أذن؛ أخبره ربّه أني أنمّ عليه وأنقل أخباره إلى الآخرين فصدقه، وأخبرته أني لم أفعل شيئاً من ذلك فصدّقني. تفسير القمّي ١: ٣٠٠، الميزان ٩: ٣٢٢، إمتاع الأسماع ٢: ٧٨.

فالنبي ﷺ تركه لأنه أقسم بالله، مع علمه ﷺ أنه ليس كذلك؛ بإخبار السماء له ﷺ.

ومن هذا فإننا عندما نقف لنكرّم أحد الأئمة، أو نضع أيدينا على شباك لأضرحتهم المشرّفة فإنهم يصفوننا بالشرك، ويسِمُوننا بالكفر؛ مدّعين بأننا نتوسّل إلى إله غير الله، وأننا نتّخذ منهم آلهة نعبدهم ونتقرب إليهم. وبهذا فإنهم يقرّرون أنّنا سوف ينزل علينا العذاب، وأننا من أهل النار.

وهذه المشكلة كانت ولا زالت وستبقى قائمة مدى الدهر، مادامت هناك عقول جامدة لا تريد أن تفهم الواقع، ولا أن تنظر إلى الحقائق بعين منصفة علمية ناقدة فاحصة؛ لترى الحقيقة كما هي، بل إنها تريد أن تنظر إلى الحقائق من وراء غربال [1]، أو من وراء غشاء. فالإنسان إذا لم يخلص في دينه، أو إذا شاب دينه طمع تحول من دين إلى مصيدة، في حين أن الدين إذا ترك على سجيته فإنه يأخذ بعداً حقيقياً يرى من أساسيات وظائفه أن يرعى الإنسان به وجه الله جل وعلا، لا أن يُغضبه تعالى بأن يكفّر طائفة من المسلمين [2].

أنموذجان من الفقهاء

وهنا سوف أضرب مثلين من الفقهاء ممّن سخّر الدين لخدمة مصالحه، وممّن سخّر نفسه لخدمة الدين:

الأول: أبو يوسف القاضي

فقد أرسلت إليه زبيدة كتاباً جاء فيه: إني مرسلة لك بجماعة من لناس،

---

(١) قال أمين الدولة ابن التلميذ:

مثل النهار يزيد أبصار الورى   نوراً ويعمي أعين الخفّاشِ

عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء: ٣٦٠، أضواء البيان ١: ١٦، ٥٤٢.

(٢) قال ابن النجار البغدادي: (من كفّر مسلماً فهو كافر). الرد على أبي بكر الخطيب البغدادي: ٩٢، ومثله في الفتوحات المكيّة ٤: ٤٨٣.

وعندهم مسألة، وأُحب أن تقضي بينهم بهذه الصورة. وحينما جاء الأمر إليه حكم به كما كانت تريد، وأفتاهم بما تحبّ. فأرسلت إليه بهدية [1].

فهذا أُنموذج من الفقهاء ومن العلماء، وهو صاحب أخطر وثيقة بتاريخ العقاب الجنائي؛ إذ إنه قد كتب وثيقة رائعة تبيّن كيف يجب أن تتم معاملة السجناء. مع أننا الآن حينما نقرأ نظام السجون المفتوحة المعمول به في أمريكا وفي أوروپّا، فإننا نجد بعضها موجوداً في هذه الوثيقة. وهي وثيقة ـ كما قلنا ـ رائعة راقية لكنه مع ذلك يتنازل فيفتي هذه المرأة بما ترغب.

الثاني: المنصور وأحد العبّاد

حجّ المنصور في سنة (١٤٤) هـ، فنزل بدار الندوة، وكان يطوف ليلاً ولا يشعر به أحد، فبينما هو ذات ليلة يطوف إذ سمع قائلاً يقول: اللهم إنا نشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحقّ وأهله من الظلم.

فملأ مسامع المنصور، فاستدعاه وقال له: ما الذي سمعته منك؟ قال: إن أمّنتني على نفسي نبأتك. قال: أنت آمن على نفسك. قال: أنت الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحقّ، وحصول ما في الأرض من البغي والفساد، فإن الله سبحانه وتعالى استرعاك أُمور المسلمين فأغفلتها، وجعلت بينك وبينهم حجّاباً، وحصوناً من الجصّ والآجرّ، وأبواباً من الحديد، وحجبة معهم السلاح، واتّخذت وزراء ظلمة، وأعواناً فجرة؛ إن أحسنت لا يعينوك، وإن أسأت لا يردّوك، وقوّمتهم على ظلم الناس، ولم تأمرهم بإعانة المظلوم والجائع والعاري؛ فصاروا شركاءك في سلطانك، وصانَعَتْهم العمّال بالهدايا خوفاً منهم.

---

(١) البداية والنهاية ١٠: ١٩٥، ولم يذكر أمر زبيدة.

ثم قالوا: هذا قد خان الله تعالى، فما لنا لا نخونه؟ فاختزنوا الأموال، وحالوا دون المتظلّم ودونك؛ فامتلأت بلاد الله فساداً وبغياً وظلماً. فما بقاء الإسلام وأهله على هذا؟

وقد كنت أُسافر إلى بلاد الصين وبها ملك قد ذهب سمعه، فجعل يبكي، فقال له وزراؤه بالإيماء: ما يبكيك؟ قال: لست أبكي على ما نزل من ذهاب سمعي، ولكن خوفاً من أن يصرخ المظلوم بالباب ولا أسمع نداءه. ثم قال: ولكن إن كان سمعي قد ذهب، فبصري باقٍ.

ثم أمر مناديَه فنادى في الناس: لا يلبس ثوباً أحمر إلّا مظلوم. فكان يركب الفيل في كل طرف نهار ليرى هل من مظلوم فيحلّ له مشكلته ويردّ إليه ظلامته، فلا يجد.

هذا وهو مشرك بالله غير مؤمن به، وقد غلبت رأفته بالمشركين على شحّ نفسه، وأنت مؤمن بالله، ولا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شحّ نفسك، بل تسلّط السياط على من يحاول أن يرفع صوته بظلامته، فلا تدع المظلوم يصل إليك لما أحطت به نفسك من جلاوزة يوسعون من أراد الوصول إليك ضرباً، ويوجعونه حتى لا يقترب منك.

يا هذا، هل تعاقب من عصاك إلّا بالقتل؟ فكيف تصنع بالله الذي لا يعاقب إلّا بأليم العذاب، وهو يعلم منك ما أضمر قلبك، وعقدت عليه جوارحك؟ وماذا تقول إذا كنت بين يديه للحساب عرياناً؟ هل يغني عنك ما كنت فيه شيئاً؟

فبكى المنصور بكاء شديداً وقال: يا ليتني لم أخلق ولم أكُ شيئاً. ثم قال: ما الحيلة فيما حوّلت؟ قال: عليك بأعلام العلماء الراشدين. قال: فرّوا مني ولم يبقَ عندي إلّا من غلبته نفسه وأحبّ الدنيا. قال: فرّوا منك مخافة أن

تحملهم على ظهر من طريقتك، ولكن افتح الباب، وسهّل الحجاب، وخذ الشيء ممّا حلّ وطاب، وانتصف للمظلوم، وأنا ضامن عمّن هرب منك أن يعود إليك، فيعاونك على أمرك. فقال المنصور: اللهم وفّقني لأن أعمل بما قال هذا الرجل [(١)].

وكان جواب المنصور لهذا العابد إذ قال له: (فرّوا مني) ينطوي على مغالطة؛ ذلك أن هؤلاء الذين حوله، والذين عبر عنهم بأنهم غير نظيفين وأنهم ليسوا مستقيمين في حقيقة الأمر هو الذي جاء بهم وهو الذي ارتضاهم، وما دام يعلم بأنهم كذلك فلماذا يبقي عليهم؟ يروى أن أبا جعفر المنصور نفسه كتب للإمام الصادقﷺ يسأله: لمَ لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟ فأجابهﷺ: **«ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنّئك، ولا تراها نقمة فنعزّيك بها، فما نصنع عندك؟»**.

فكتب إليه: تصحبنا لتنصحنا. فأجابهﷺ: **«من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك»**.

أي أنه لا يسمع من ينصحه، فلماذا إذن يريد من ينصحه، مع أن ذلك يكلّف ناصحه؟ وهنا قال المنصور: والله لقد ميّز عندي منازل الناس، من يريد الدنيا

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٣٥١: ٣٥٢ / ٦٠. وفيه أنه من ضمن ما وعظه به: فإنك لا تجمع المال إلّا لواحدة من ثلاث:
إن قلت: إنك تجمع لولدك، فقد أراك الله تعالى الطفل الصغير يخرج من بطن أُمه لا مال له، فيعطيه؛ فلست بالذي تعطيه بل الله سبحانه هو الذي يعطي.
وإن قلت: أجمعها لتشييد سلطاني، فقد أراك الله القدير عبراً في الذين تقدّموا، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الأموال، ولا ما أعدّوا من السلاح.
وإن قلت: أجمعها لغاية هي أحسن، فما الغاية التي أنا فيها؟ فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة إلّا العمل الصالح.

ممّن يريد الآخرة، وإنه ممّن يريد الآخرة لا الدنيا [١].

وعلى أية حال فهذا المقطع من الآية الشريفة يخاطب الرسول الأكرم ﷺ ويبيّن له أنّ هؤلاء ليسوا من الرسول في شيء، وأن الله هو الذي يتولّى أمرهم؛ لأنه هو الذي برأهم وخلقهم، وهو أعلم بنواياهم وبخفايا صدورهم إذا عُرضت الظلامات غداً بين يديه يوم القيامة. فهو تعالى الذي يفصل بينها في يوم الفصل الذي عبرت عنه الآية الكريمة بقولها: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً﴾ [٢]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ [٣].

وهكذا هي أهوال يوم القيامة التي تبلغ حدّاً تكون معه المرأة في أشدّ حالات الخوف والهلع، بحيث إنها تنسى تلك العاطفة الكبيرة التي تكنّها لرضيعها والتي تفتديه بها في الدنيا، فتنساه في ذلك اليوم حتى يسقط عن صدرها ولا تحسّ به مع تلك العلاقة القوية التي تربط بين المرأة والرضيع.

ونحن جميعاً نعلم أنه ليس هناك من شيء أحب إلى المرأة من رضيعها فهي تحيطه بحنانها، وبشعورها وبمشاعرها، وبإحساساتها، وتفتديه بنفسها وبروحها؛ ولذا فإننا نرى الرباب حينما فقدت رضيعها كان موقفها ليلة الحادي عشر أصعب من موقف أية هاشمية أو أنصارية، أقبلت الحوراء زينب تبحث عنها فلم تجدها في المخيم، فراحت تجول حول الخيمة، وإذا بفارس يدور حولها، فقالت: من أنت؟ قال: سيدتي، أنا من معسكر عمر بن سعد، وقد أمرني أن أحرسكم هذه الليلة. فاختنقت بعبرتها، وقالت: أبعد عين أبي الفضل أنت الذي تتولى حراستنا؟

---

(١) كشف الغمّة ٢: ٤٢٧، بحار الأنوار ٤٧: ١٨٤ ـ ١٨٥ / ٢٩.

(٢) النبأ: ١٧.

(٣) الحج: ٢.

أبعد عيون الأبطال من آل محمد ﷺ أنت الذي تتولّى حراستنا؟

إلي مــــناشده ويّـــاك وعـــتاب يـــمنوّخ الهــودج عــلى البــاب

وســبعطعش يـبرونِ اله حســاب أشــوف الرجــا وذاك الأمـل خـاب

ثم سألته: يا هذا هل رأيت امرأة؟ قال: لا، ولكن حينما مررت بأرض المعركة سمعت أنيناً لفت انتباهي، فربما كانت هي.

فأقبلت الحوراء عليها السلام تنادي: رباب أين أنت؟ واستمرّت تنادي إلى أن اقتربت من أرض المعركة، فأجابتها الرباب، فقالت لها زينب عليها السلام: ما أخرجك في جوف الليل؟ قالت: سيدتي صدري، فأقبلت إلى ولدي عبد اللّه لعلّ فيه رمقاً من الحياة ليرتضع.

ثم تناولته ورجعت به إلى الخيمة، ووضعته عندها، وأخذت تجول حول مصرعه:

ادورن عــلى ايـميني وشـمالي اهـــز بـــالمهد والمــهد خــالي

يـــــلچنت بـــالظلمة تـــلالي عگـــبك بگت وحشــــة اللــيالي

* * *

فــلا بــلغ الفــطام لكــم رضــيع وطــفل الســبط يُــفطم بـالسهام

فهرس العناوين الرئيسة

المحتويات